



أحمد مراد

١٩١٩



دار الشروق



في الحادي عشر من يولية من عام ١٨٨٢م قصف الأسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية تحت مزايعم سحق تمرّد الجيش المصري بقيادة ناظر الجهادية «أحمد عرابي»، بسبب سوء الحال الذي وصل إليه الجيش من ضعف وقلة^(١) واضطهاد للمصريين وتأخر ترفياتهم عمداً مقارنة بالضباط الشراكسة والأتراك المتوغلين في المناصب الأكثر تأثيراً، وبسبب تهاون الخديوي «توفيق» في التدخل الأجنبي السافر بشئون البلاد من قبل إنجلترا وفرنسا.

صمدت المقاومة المصرية شهراً في وجه الاحتلال قبل أن تسقط القاهرة في منتصف سبتمبر، اجتاح جيش الإنجليز البلاد تثبيتاً لكرسي الخديوي «المستغيث» وتأميناً لرعاياها المعرضين للخطر «على حدّ زعمهم»، وحماية للشريان المحوري (قناة السويس)، ذلك المشروع (المصري الفرنسي المشترك) الذي اشترت إنجلترا جزءاً كبيراً من أسهمه فبات لها «حق الانتفاع» فيه حتى عام ١٩٥٨

(١) كان من مطالب ثورة عرابي زيادة عدد أفراد الجيش المصري من اثني عشر ألفاً إلى ثمانية عشر ألفاً حتى يستطيع تأمين البلاد.

كان الخديوي الأسبق «إسماعيل» - الذي اكتمل حفر القناة في عهده - قد اضطر إلى طرح أسهمها للبيع بعد الأزمة المالية التي تعرضت لها البلاد نتيجة للديون الهائلة التي استدانها لبناء المشاريع الكبيرة - دفعة واحدة - مواكبة لأسلوب المعيشة الأوربي.. أنشأ بالقروض قصوراً فخمة وداراً للأوبرا، أدخل التلغراف وطور الشكك الحديدية وأضاء الشوارع بالغاز ومد أنابيب المياه، مشروع عصري طموح سيطر عليه البذخ والتهاون في تقدير عواقبه، وإغراءات المُرابين الأجانب بضخ الأموال «السهلة» ليتحول الحلم بالريادة إلى مسمار أخير في نعيش ميزانية الدولة واستقلاليتها.. تدخلت إنجلترا كمشتري للأسهم بحجة تأمين مواصلات إمبراطوريتها مُترامية الأطراف ولضمان تواصلها مع بقية مُستعمراتها في آسيا وأستراليا، ولتخفيف ديون مصر التي فرغت خزينتها سداً للفوائد المُجحفة فقط، قبل أن يضطر الإنجليز والفرنسيون إلى فرض مُشر في خزينة لمراقبة المالية المصرية وتحصيل مواردها أولاً بأول والسيطرة على مُقدّراتها.

حاول إسماعيل - متأخراً - التصدي لنفوذ الأجانب فأجبروه على التخلي عن منصبه ليُرتّه أكبر أبنائه «توفيق» شابٌ علاقته سيئة بأبيه وأضعف خبرة منه، مُحاط بزمرة من الأصدقاء الذي حرص أن يستبدل بهم رجال أبيه المُخضرمين، خصص «توفيق» نصف إيرادات مصر لسداد الدّين العام فتمكن الأجانب من السيطرة على المالية والتحكم فيها، مما عَجَّل بتدمير الجيش وقيام ثورة عرابي التي أسماها البعض «هوجة» لسرعة قيامها وضعف تنظيمها.

بعد هزيمة الجيش المصري نُفي أحمد عرابي ورفاقه إلى جزيرة «سيلان»، أُعيد بعض الضباط ككيش فداء حتى ترتدع النفوس، وتم

فَمَجَّ الجيش المصري في جيش المُحتل! استقر العرش بالخديوي «توفيق» وسيطر الاحتلال على مناحي الحياة الاجتماعية في البلاد فهل أن تملو الأصوات الجريئة تدريجياً مطالبة بخروج الإنجليز كما فُعلوا، وهو ما واجهته الإمبراطورية العُظمى بالمراوغة وإرجاء البت في المسألة، مُقدِّمة الأسباب والحجج الواهية التي تفيد بأنها باقية من أجل مصلحة مصر وأمنها، دافعة بسياسة الأمر الواقع لاثنتين وثلاثين هامًا مات خلالها الخديوي «توفيق» وتولى من بعده الخديوي «عباس الثاني» والذي عزلته بريطانيا حين اشتعلت الحرب العُظمى سنة ١٩١٤ بسبب عدم تعاونه معها ومشاكستها ليتولى من بعده السلطان «حسين كامل» ثم أخوه السلطان «فؤاد» من بعد وفاته.. وإذا بمصر تجد نفسها في وضع لا تُحسد عليه؛ سلطانها يفرض اسمه ملك الإنجليز، مُحْتلة بملايين الجنود، ومُطالبة بمُساعدة المُحتل في حربه!!

استنزفت البلاد لأربع سنوات بُدِعَ فيها من الأمور العَجَب المُجَاب، اُشتركت الدبابات في القتال في سابقة هي الأولى من نوعها، وحملت الطائرات القذائف بعدما كانت تُستخدم للاستطلاع فقط، رَوَّعت الناس وأشعلت الحرائق قبل أن يَقفز طياروها إذا أُصيب طائرتهم بمظلات عَجبية توصلهم سالميّن إلى الأرض، أطلقت الجيوش على بعضها الغازات السامة، ولعبت الغواصات دورًا محوريًا بطوربيدات مُدهِشة أغرقت مئات القِطْع البحرية.

بين الغبار والبارود عاشت مصر تائهة، مجرورة مثل الجاموسة العُشر خلف إمبراطوريات مُتغطِرة سَعرتها الانتقامات والمَطامع، وَصَّعت المسكينة كل مواردها تحت إمرة الإنجليز عسى أن يُقدِّروا مُساعدتها

وَيَرَحِلُوا عَنْهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ فَنَاءَتِ بِالْأَعْيَاءِ وَطَفَحَ بِهَا الْكَيْلُ،
خَاصَّةً مَعَ إِعْلَانِ الْحِمَايَةِ عَلَيْهَا تَضْيِيقًا وَإِحْكَامًا مِنْذُ بَدَأَتْ الْحَرْبُ،
فَرَضَ الْإِحْتِلَالُ أَحْكَامَهُ الْعُرْفِيَّةَ وَبَاتَتِ الرُّقَابَةُ قَائِسِيَّةً عَلَى الْحَرِّيَّاتِ،
صَدَرَتْ الصُّحُفُ مَلِيئَةً بِمَسَاحَاتٍ فَارِغَةٍ كَانَتْ أَخْبَارًا عَنِ الْحَرْبِ قَبْلَ
أَنْ يَسْطِيبَهَا رَقِيبُ الْمَطْبُوعَاتِ الْإِنْجِلِيزِي، التَّجْمَعُ فِي الشُّوَارِعِ صَارَ
أَقْصَى مَدَاهِ خَمْسَةِ أَفْرَادٍ، وَالسَّهْرُ فِي الْمَقَاهِي يَنْتَهِي فِي الثَّامِنَةِ مَسَاءً،
الْاِقْتِصَادُ يَسِيطِرُ عَلَيْهِ الْإِنْجِلِيزُ وَيَتَوَلَّى الْمَصْرِيُّونَ الْوُظَافِيفَ وَالْأَعْمَالُ
الرَّوْنِيَّةُ الشَّاقَّةُ، عِلَاوَةً عَلَى التَّنْكِيلِ بِكُلِّ مَنْ تَسَوَّلَ لَهُ نَفْسُهُ إِبْدَاءَ تَذْمُرٍ
أَوْ مُلَاحَظَةٍ.

كُلُّ تِلْكَ الْقَبُودِ لَمْ تَكُنْ مُرْتَبِطَةً بِظُرُوفِ الْحَرْبِ قَدَرِ مَا كَانَتْ مُرْتَبِطَةً
بِلَمْعَةٍ شَاهَدَهَا الْإِنْجِلِيزُ فِي أَعْيُنِ الْمَصْرِيِّينَ مِنْذُ شُيِّدَتْ جَامِعَتُهُمُ
الْأُولَى وَتَكَاثَفَ إِرسَالُ بَعَثَاتِهَا إِلَى أَوْرَبَا، نَهْضَةٌ عِلْمِيَّةٌ وَوَعْيٌ سِيَاسِيٌّ
تَكَلَّلَ بِنِيبَاءِ بَرْلَمَانٍ وَزِيَادَةٍ فِي الْأَصْوَاتِ الْمَطَالِبَةِ بِرَحِيلِ الْمُحْتَلِّ.

كَانَ ذَلِكَ فِي الْقَاهِرَةِ، أَمَّا الْأَقَالِيمُ - الْأَقْلُ حِطًّا - فَكَانَ التَّضْيِيقُ
عَلَيْهَا أَعْنَفَ وَأَشَدَّ وَطَاقَةً، نَهَشَ الثُّرَايُونَ الْأَجَانِبَ أَصْحَابَ الْأَرْضِ مِنْ
الْفَلَاحِينَ وَاسْتَوَلُوا بِالْفَوَائِدِ الْمُجْحِفَةِ عَلَى مَمْتَلِكَاتِهِمْ، ثُمَّ سَبَقَ الشَّبَابُ
الْفَتَيُّ مِنْهُمْ قَسْرًا إِلَى أَعْمَالِ الشُّحْرَةِ بِخِدْمَةِ لَجُنُودِ الْمُحْتَلِّ وَتَنْفِيذًا
لِلْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ الْمُزْهِقَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ بِأَمْسًا وَقُوَّةً جَسَدِيَّةً، صُودِرَتْ
الْبَهَائِمُ لِمَصَالِحِ الْمَجْهُودِ الْحَرْبِيِّ، وَقِيَّدَتْ الزَّرَاعَاتُ بِمَا يَنْتَفِقُ مَعَ حَاجَةِ
الْجَيْشِ وَمُنِعَ تَصْدِيرُهَا، حَتَّى وَصَلَ الْأَمْرُ لِإِعْدَامِ مَنْ يُصَدِّرُ غُلَّتَهُ خَارِجَ
الْقُطْرِ دُونَ إِذْنٍ، فِي بِلَادٍ زَرَاعِيٍّ لَمْ تَعْرِفْ غَيْرَ تَصْدِيرِ مَحَاصِيلِهَا،
أَمَّا الْقُطْنُ، السِّلْعَةُ الرَّئِيسِيَّةُ فِي مِصْرٍ فَقَدْ احْتَكَرَ الْمُحْتَلِّ شِرَاءَهُ وَبَخَسَ

بلمنه الأرض ليبيعه في بورصة لندن بأضعاف ثمنه! تشرّد العمال
فسادت البطالة وتفشّت الأمراض والأوبئة، انتشر أغنياء الحرب من
أهل البلد والأجانب، يضلّون الناس ألوان الغلاء والاستغلال، وجُنود
الإمبراطورية، إنجليزًا وهنودًا وأستراليين ونيوزيلنديين، يسيحون في
الشوارع والأزقة يبطون جائعة وشهوات لا تمتلئ، يستنزفون الناس
خيراتهم بعشر أثمانها إذا دفعوا، ويتحرّشون بالشعب نساءً ورجالًا،
يسكرون ويبصقون ويضحكون ويركلون ثم يخطفون ما امتدّت إليه
أيديهم، بلا زادع يردعهم أو كبير يشكّم غرورهم، فالقانون المصري
لا يخضعهم، ومحاكم القنصليات لا تُدينهم، والبوليس ملجم عاجز
أمام عيثهم ومن ورائه سلطان يكنّ الولاء للتاج البريطاني الذي أجلسه
على عرشه.. وثبته.



فبراير ١٩١٩

نرب طياب.. الأزيكية

بَدَتِ اللَّيْلَةُ قِيَامَةً حَقِيقِيَّةً، بِلا مَلَاتِكَة وَلَا حِسَابٍ وَلَا مِيزَانٍ مُقَامٍ،
فَقَطَّ الْعَذَابُ حَاضِرَ تَنْصِبِ عَاصِفَتِهِ عَلَى نَافِذَةِ الشَّقَّةِ الْمُتَهَالِكَةِ،
وَتَتَخَلَّلُ أَمْطَارُهُ أَخْشَابَ السَّطْحِ الْمُتَدَاعِيَةِ فَتَسْرَبُ الْقَطَرَاتُ بِالْحَاحِ
إِلَى طَبَقٍ عَلَى أَرْضِ غُرْفَةِ أَضَاءِهَا قِنْدِيلٌ يَأْنِسُ.

رَغِمَ صَخْبُ الرِّيحِ كَانَ الشَّهيقَ مَسْمُوعًا، حَادًّا مُحْشَرَجًا كَصَفَارَةِ
نَحْرِهَا الصَّدَا، شَهيقٌ يَأْتِي مِنْ فَوْقِ سَرِيرِ حَدِيدِي تَصْطَلِكُ مَفَصَّلَاتِهِ
كَلَّمَا سَعَلَتْ «سِيرَان»؛ امْرَأَةٌ فِي الْعَقْدِ الرَّابِعِ سُجِيتْ فَوْقَ مَرْتَبَةِ نَحِيلَةٍ
كَالْخِرْقَةِ الْمُهْتَرَّةِ، تُغَطِّيْهَا بَطَانِيَّةٌ مِنَ الصُّوفِ تَشْبَعُتُ عَرْقًا وَفَيْثًا دَمَوِيًّا
وَرُطُوبِيَّةً لَزْجَةً، سِنَّةٌ أَيَّامٍ خَلَّتْ عَلَى الْوَهْنِ الَّذِي دَبَّ فِي الْأَوْصَالِ مُرْخِيًّا
حَبَائِلَهُ عَلَى جَسَدٍ كَانَ يَمُوجُ فِتْنَةً وَحَيَاةً، الدَّاءُ أَغْرَقَ الرُّثَّةَ بِالدَّمِ فَكَسَّتْ
الشَّفَاهُ مَسْحَةً زُرْقَاءَ مِنْ جُوعِ الْأَكْسَجِينِ، الْجِلْدُ الذَّهَبِيُّ يَبْسُ وَامْتَقِعُ،
الشَّعْرُ الْكَسْتَنَائِيُّ تَلْبَدُ فِي يَأْسٍ، الْأَصَابِعُ الْمَرْسُومَةُ ارْتَخَتْ عَلَى بَعْضِهَا
وَالْأَوْرِدَةُ الزُّرْقَاءُ بَرَزَتْ عَلَى الدَّرَاعَيْنِ تَشْكُو بُخْلَ دَفَقَاتِ الْقَلْبِ.

سِيرَانُ! اسْمُكَ كَانَ يَوْمًا يَعْنِي «الْحُلُوةَ»، جَاءَتْ عَلَى مَتْنِ سَفِينَةٍ مِنْ
مِينَاء «صَيْدَا» مَعَ نَهَايَةِ سَنَةِ ١٩١٥ فَرَاؤَا مِنْ مَذَابِجِ الْأَتْرَاكِ لِعَشِيرَتِهَا مِنْ

الأرمن السوريين^(١)، لتستقر في القاهرة مع زوجها «سركيس» وابنتها «فارتوهي» ذات الأربعة عشر عامًا، أجبر الأب دُكَّانًا بِسَاع فيه الزيتون والأجبان والنبيد، واستقر حاله وأسرته الصغيرة في شقّة متواضعة ببنية لا تعلق على شيء، أسرة باهتة مطموسة وسط آلاف الأسر التي نزحت إلى مصر في سبيل لا ينقطع هربًا من نيران الحرب.

برغم مرارة الهجرة وظلمة الحياة ووحشتها، ورغم العزلة التي فرضها «سركيس» على أسرته الصغيرة خوفًا من عودة الأتراك لمصر، لم يمنع ذلك «فارتوهي» من أن تصبح قبلة أعين الحي الفقير، نجمة لامعة وسط ليل لا قمر فيه، ناداهاب «ورد»، ترجمة لاسمها الأرمني، لتقديم في المجتمع الجديد وتنصهر فكبرت وفارت مملكة جمال الأرمنيات وفتنة الشّاميات، تنهّدي بشعر كمستائي مُذهب وعينين لهر وزيّتين قُرب دُكَّان أبيها فتستعر النفوس وتُحلّق من حولها القلوب بهديهة السّحر على المسحورين، ورد عرفت ذلك منذ تفجّرت الأنوثة فيها، وبالمهارة الفطرية التي مكّنتها من استشعار الأعين التي تمشي على جلدها كانت تسطر الأقدار في رأسها وترسمها، فمستقبل الإنسان ليس إلا سقف أحلامه، هكذا قال والدها، ستكمل تعليمها، وسترتبط بموظف طموح وربما ضابط وسيم، أو أحد نجوم المسارح الذين يُغازلونها حين تمر بمقاهي عماد الدّين، ستبتعد عن الحيّ

(١) قام الأتراك بإبادة مئات القرى الأرمنية في محاولة لتغيير ديموغرافية تلك المناطق، تحت مُسعى تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة مُحتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا، وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي الذي قتل عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرض المرحّلون لعمليات تعذيب وقتل فيما عُرف تاريخيًا بمذابح الأرمن.

الفقير وستُطاردُها الأضواء أينما حلَّت، سيَصير لاسمها وزن وبصمة تُرى بالعين المُجرّدة، رُبّما تُصبح مُمثلة أو مُطربة شهيرة، أو راقصة في حُجْم «بديعة مصابني» ملكة الملاهي الليلية وسيدة الاستعراض، ستُسافر لأوروبا سنويًا، وستعيش في بيت كبير بجاردن سيتي يتسع لأسرة سعيدة، وستنجب أبناء تسميهم على اسمي والديها وستموت في فراشها بعد عمر مديد بابتسامة راضية بين شفقتها، كابتسامة العذراء في الكنيسة وهي تحبل رضيعها.

لكن القدر كان له رأي آخر

مَا كَادَتِ الْحَرْبُ تَنْتَهِي حَتَّى جَاءَتْ بِمِصْرَ سَفِينَةٌ تَحْمِلُ عَلَى مَتْنِهَا سَيِّدَةً غَامِضَةً، «سَيِّدَةً إِسبَانِيَّةً»^(١) وَبِأَنَّهَا أَنْفَلُونِزَا أُسْمِيَ بِذَلِكَ الْإِسْمَ لِأَنَّ صُحُفَ إِسبَانِيَا كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ عَنْهُ، مَاتَ حَصْدُ الْأَرْوَاحِ بِمَنْجَلٍ فَأَقِ حَذَّةَ مَنْجَلِ الطَّاعُونَ، قَتَلَ ضِعْفِي ضَعَايَا الْحَرْبِ، قَاصِدًا الشَّبَابَ دُونَ غَيْرِهِمْ، تَارِكًا الْعَجَائِزَ مُحْمِيَيْنَ بِهَالَاتِ كَهَالَاتِ الْقَدِيسِينَ لَا يَكَادُ يَفْرِبُهُمْ^(٢) الْأُسْبُوعَ الْمَاضِي أَتَتْ عَلَى «سَرَكِيس» وَالِدَ وَرْدٍ، اعْتَصَرَتْ جَسَدَهُ النَّحْبِلَ وَأَفْرَغَتْ رُوحَهُ فَحَضَرَ رِجَالُ الْحَجَرِ الصُّخْرِي بِمِشَاعِرَ بَارِدَةٍ وَكِمَامَاتٍ وَشُتْرَاتٍ بِيضَاءَ، كَفَنُوهُ فِي سُرْعَةٍ كَفَسِيخَةٍ مَسْمُومَةٍ بَعْدَ أَنْ انْتَزَعُوا «سِيرَان» مِنْ حُضْنِهِ وَرَشُّوا جَسَدَهُ وَالْغُرْفَةَ بِمُطَهَّرٍ نَفَازٍ وَأَحْرَقُوا مَلَابِسَهُ وَمَرْتَبَتَهُ وَكُلَّ مَا لَمَسَتْهُ يَدَاهُ يَوْمًا، ثُمَّ حَمَلُوهُ فِي صُنْدُوقٍ مُغْلَقٍ بِالْمَسَامِيرِ لِمَقَابِرِ الصَّدَقَةِ لَعَدَمَ وَجُودِ مَقَابِرِ لَأَسْرَتِهِ.

(١) تقول النظريات إن سبب مناعة كبار السن ضد إنفلونزا السيدة الإسبانية يعود لتعرضهم للإنفلونزا الروسية عام ١٨٨٩، مما أكسبهم مناعة جزئية ضد الفيروس الذي قتل بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ ما يقرب من ٥٠ مليون إنسان.

لم تَبْكْ ورد أباهَا، ظَلَّتْ وَاجِمَةً مَتَمَكَّنًا الْخَرَسَ مِنْهَا، تَرْمُقُ أَهْلَ
الْمَحْيِ بَعِينِينَ خَالِيَتِينَ، فَرَّغَمَ مَا رَأَتْهُ مِنْ مَذَابِيحَ عَلَى يَدِ الْأَتْرَاكِ فِي سُورِيَا،
لِحَظْفَةِ الْمَوْتِ كَانَتْ أَشَدَّ وَطْأَةً وَأَعَمَّقَ تَأْثِيرًا.. كَانِ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَفِتَ
«السَّيِّدَةُ الْإِسْبَانِيَّةُ» لَوَالِدَتِهَا، سَكَنَتْ جَسَدَهَا بَعْدَ وَفَاةِ الْأَبِ فَبَصَقَتْ
الْوَسْكَينَةَ نَضَارَتِهَا وَفَقَدَتْ شَحْمَهَا، وَهَنَتْ عِظَامُهَا وَكَبُرَتْ مَائَةُ عَامٍ
فِي بَضْعَةِ أَيَّامٍ، حَتَّى صَلَبِيهَا الْخَشْبِي الصَّغِيرَ الْمُعَلَّقَ فِي صَدْرِهَا بَدَأَ
لِقَبْلِهَا يَكَادُ يَمْنَعُهَا مِنَ التَّنَفُّسِ! بِشِفَاهِ مُتَشَقِّقَةٍ تَتَمَتَّعُ بِاسْمِ الْمَسِيحِ الْفَادِي
وَاجِمَةٍ رَحْمَتِهِ وَعَيْنَاهَا لَا تَفَارِقَانِ «وَرَد» الْقَابِعَةِ بِجَانِبِهَا مُلْتَمَّةٌ بِقِمَاشٍ
مُشْبِعٍ بِاللَّيْمُونِ، تُتَابِعُ أَنَّهَا بَعِينِينَ مُحْتَفِفَتَيْنِ فَرَّغَ مِنْهُمَا الدَّمْعُ، تَبْلُلُ
الْكُمَادَاتِ فِي الطَّبَقِ الَّذِي مَلَأَهُ الْمَطَرُ وَتَكْبِسُهَا عَلَى الْوَجْنَةِ الشَّاحِبَةِ
لِخَفِيفٍ، تَتَرَقَّبُ تَنْفُسَهَا الْمُتَقَطِّعَ وَصَفِيرَهُ الْيَائِسَ وَالنَّبْضَ الْبَاطِلَ يَثْنُ
فِي سُورِيَانِ رَقَبَةٍ، تَقْرَأُ الْمَصِيرَ الْحَتْمِيَّ وَلَا تَمْلِكُ تَغْيِيرَهُ، هِيَ فَقَطْ تَتَرَقَّبُهُ
كَصَفْعَةٍ مُؤْجَلَةٍ مِنْ كَفِّ عِمْلَاقِ سَتَهْوِي عَلَى رُوحِهَا.. أَجَلًا أَوْ عَاجِلًا.

سَاعَاتٌ ثَقِيلَةٌ مَرَّتْ قَبْلَ أَنْ تَخْفُتَ الْعَاصِفَةُ، وَتَخْفُتَ مَعَهَا الْجَلْبَةُ
بِصَدْرِ عَرَقٍ فِي سَوَائِلِهِ بَعْدَ حَشْرَجَةٍ جَافَةٍ وَسُعَالٍ خَرَجَتْ مَعَهُ نَثَرَاتِ
دَمٍ ذَاكِنٍ، تَأَمَّلَتْ وَرَدَ أُمُّهَا بِرَبِيَّةٍ، تَنْفُسُهَا لَمْ يَعُدْ مَحْسُوسًا، صَدْرُهَا يَنْسُ
وَاعْتَزَلَتْ شَفَتَيْهَا التَّمَتُّعَ.. أُمِّي! بِأَنَا مِلْ مُرْتَعِشَةً التَّقَطُّطِ كَوْبِ مَاءٍ
وَاقْرَبْتِهِ مِنَ الْفَمِ الْمُتَشَقِّقِ، صَبَّتِ الْقَطْرَاتِ فَاَنْسَابَتْ مِنْ طَرَفِهِ الْمُتَفَرِّجِ
بِلَا مُقَاوِمَةٍ لِتَشْرِبَهَا الْوَسَادَةَ، هَزَّتِ الْكَيْفَ النَحِيلَةَ بِرَفَقٍ فَلَمْ تَسْتَجِبْ..
أُمِّي! وَضَعْتَ أَدْنَا عَلَى صَدْرِهَا فَالتَّقَطُّطِ الْعَدَمَ وَبُرُودَةَ تَتَشِيرُ، بِرُغْبٍ
جَذَبَتْ كَسْرَةَ مِرْآةٍ وَوَضَعْتُهَا تَحْتَ الْأَنْفِ فَلَمْ تَلْمَحْ لِلْبُخَارِ أَثَرًا، التَفَتَتْ
حَوْلَهَا مُسْتَنْفِيَةً بِالْخَوَاءِ: أُمِّي! أَجْهَشْتُ بِالْبَكَاءِ لِحَظَّةٍ ثُمَّ رَكَضْتُ إِلَى

الدُّور الأول بِسَاقِينِ تَتَخَبَّطَانِ وَعَقْلٌ شُلٌّ تَفَكِّيرُهُ، أَمَامَ شَقَّةٍ كُتِبَ عَلَى
يَافِطَةٍ خَشِيَّةٍ بِجَانِبِهَا «بَنَسِيون» وَقَفْتُ مُتَرَدِّدَةً قَبْلَ أَنْ تُدْفَعَ الْبَابُ
الْمُوَارِبُ، «بِنْتِ» الْعَايِقَةِ^(١) كَانَتْ تَدَخِّنُ سِيَجَارَةً فَوْقَ كُرْسِيِّ لَمْ تَظْهَرِ
أَطْرَافُهُ تَحْتَ مُؤَخَّرَتِهَا السَّمِينَةِ، تَرْتَدِي ثَوْبًا أَسْوَدَ مِنَ الشَّيْفُونِ كَشَفَ
تَدْيِينَ تَرَهَّلًا حَتَّى الْخَصِرِ وَكَيْلَوْتًا أَحْمَرَ مُزْرَكَشًا خَاصِرَ كِرْشَا عَظِيمَةٍ،
مَا إِنْ رَأَتْ مَلَامِيحَ وَرَدَ حَتَّى خَبِطَتْ صَدْرَهَا فَتَرَجَّرَجَ كَقَرْبَةٍ مَمْلُوءَةٍ:

- مَالِكُ يَا حَبِيبَتِي كَفَى اللَّهُ الشَّرَّ!

- أُمِّي! أُمِّي مَا بَتَجَاوِبُنِي.

- يُوهُ!! فَوْتِي قَدَّامِي.

أَطْفَأَتِ الْمَرْأَةُ سِيَجَارَتَهَا فِي كُوبِ الشَّايِ وَالتَّقَطْتَ شَبِيبًا تَرَجَّرَجَتْ
فَوْقَهُ خَلْفَ وَرَدَ عَلَى السَّلْمِ الْمُتَأَكِّلِ بَعْدَ أَنْ مَسَحَبَتْ مِندِيلًا رَشَّتْ فِيهِ
الْكُولُونِيَا، اقْتَرَبَتْ مِنَ الْجَسَدِ الْهَزِيلِ بِخَذَرٍ تَسْتَشْعِرُ عِلَامَاتِ الْحَيَاةِ فِيهِ
قَبْلَ أَنْ تَلْمَحَ الْبَوْلَ وَقَدْ انْفَلَكُ أَسْرُهُ أَسْفَلَ السَّرِيرِ، اقْشَعَرَّتْ مَلَامِحُهَا
وَتَرَا جَمْعَ نَافِظَةٍ لَوْرَدٍ مُحَاوِلَةِ السَّيْطَرَةِ عَلَى انْفِعَالَاتِهَا:

- يَا لَهْوِي.. بِقَالِهَا عَ الْحَالِ دَه قَدْ إِيهِ؟

- لَسَّةٌ مِنْ شَوِيَّة.

- دِي سَابَتِ خَالِصِ يَا حَبَّةَ عَيْنِي!! يَا حَوْلَ اللَّهِ يَا رَبِّ.

قَالَتِهَا بِنْتٌ ثُمَّ هَرَوَلَتْ لِلْسَّلْمِ وَانْكَبَّتْ عَلَى الدَّرَابِزِينَ مُنَادِيَةً:

- سَلَامَةٌ.. يَا سَلَامَةٌ.

(١) الْعَايِقَةُ أَوْ «الْبَدْرُونَةُ» لَفْظٌ يُطْلَقُ عَلَى الْقَوَادِمِ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي تَحْطَلُ سَنَ الْخَمْسِينَ
وَنَدِيرٌ يَبْقَى لِلدَّعَاةِ.

ألاها صَوْت من شَقَّتْها: فيه إيه؟

- اجري عَ الامبتالية القبطي هَات حَكِيم أوام.. شَهْل.

ثم عَادَت للمُغْرِقة المَوْبوءة وقد وَضَعَت المِندِيل عَلَى قَمَها.

- ليكي حَدَّ نَبَعْت له يا ورد؟

- مالي حد.

- يا حَبَّة عيني.. البركة فيكي.

جزعت ورد من وقع الكلمة فانكفأت على يد أمها ترجوها إبداء
السلامة حياة، اكتفت بنبة بالصمت عَجْزًا وفَتَحَت النوافذ تهوية، أتى
الطبيب وأكد الوفاة في كلمة خافتة لبنبة قرأتها ورد فمادت الأرض من
نحولها، تَكان المَوْت لم يَكُن وَارِداً، كان الرب لم يكن ليأخذ أمًا من بعد
أب، تَكان الشَقَّة البائسة لم تكن لتخلو عليها وَحدها في تلك السَّن!

أبلغت بنبة ثُمن^(١) الأزبكية فأتى رجال الحجر الصُّحِّي كالثَّمَل
الأبيض ليرفعوا السيِّدة سيران، أو ما تبقي منها، أخرجوا ملبسها
ومتعلقاتها، وقلب وَرد حتَّى لا يلتقط العَدوى، قبل أن يقرّر الطبيب
أن بقاء روح في تلك الشَقَّة الموبوءة ليس بالأمر الصُّحِّي، تَرَكْتَ وَرد
الشَقَّة ونامت ليلتها في دُكَّان أبيها رَغم إلحاح بنبة باستضافتها.

في الأيام التالية تحرَّش بِها الليل بنُجومه ومخلوقاته قبل أن تُصَفِّي
بقايا بضاعة أبيها سَدادًا للديون، استقرت وَحيدة في شَقَّتْها المَنكوبة،

(١) الثُمن: مُصطلح كان يُطلق على أقسام اليوليس في القاهرة المفتحة إلى ثمانية أقسام..
ثُمن الأزبكية.. ثُمن الجمالية... وهكذا.

مَقْطُوعَةُ الدَّمْعِ تَعْمِيهَا الصَّدْمَةُ ذَابِلَةٌ شَارِدَةٌ تَنْظُرُ لِلسَّمَاءِ الْخَالِيَةِ فِي
انتظار إجابة، في انتظار مُعْجِزَةٍ.

كان ذلك حين قَرَعَ الْبَابَ وَجَهَ كَسْتَهُ الْأَصْبَاغَ وَأَظَاغِرَ طَوِيلَةَ قَانِيَةٍ،
بِنْتِ رَاحَةِ فِي رُسْفِيهَا أَسَاوِرَ ذَهَبِيَةٍ تَنْوَرُ الْأَذْرَعَ السَّمِينَةَ بِحَمَلِهَا،
وَحُلُخَالَيْنَ لَنْ يَنْجَحَا فِي إِقْنَاعِ مَتَأَمِّلٍ بِحُسْنِ سَاقِيهَا الْبَائِدِ.

لَمْ تَكُنْ بِنْتُ مَسْوَى قَوَادَةِ عَتِيقَةٍ، وَلِدَتْ قَبْلَ بَدءِ الرِّذِيلَةِ بِعَامَيْنِ،
عَاشَتْ عَاهِرَةً مَقْبُولَةً لَهَا اسْمٌ يُطْلَبُ وَجَسَدٌ يُرْتَجَى، قَبْلَ أَنْ يَفْرَمَهَا
الزَّمَنُ وَتَشِيعَ زِبَائِثُهَا وَيَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهَا تَعَفُّفًا، أَخْرَجَتْ مَا كُنَتْ مِنْ
عَرَقٍ وَرَكِبَهَا لِسَنَوَاتٍ مَضَّتْ وَافْتَتَحَتْ شَقَّةً لِلْفَوَاحِشِ مُرَحَّصَةً مِنْ قَبْلِ
الْحُكُومَةِ، وَكَمَا قَالَ الْمَثَلُ: «إِنْ تَابَتِ الْقَحْبَةُ عَرَّصَتْ»، يُعْمَرُ مَشْرُوعُهَا
الرُّوَادُ مِنْ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ وَالْإِنْجِلِيزِ رَاغِبُو تَذَوُّقِ الصُّنُوفِ الْمِصْرِيَّةِ، قَبْلَ أَنْ
تَتَوَسَّعَ بِفَضْلِ تَنْوِيعِ بَضَاعَتِهَا «الَّتِي تَصْطَفِيهَا بِعُنَايَةٍ» لِنَشْرِيطِ الْبَيْتِ كُلِّهِ،
تُوجَرُ لِلشُّكَّانِ شُقُوقِ الدَّوَرَيْنِ الثَّانِي والثَّالِثِ وَتَحْتَفِظُ لِنَفْسِهَا بِالْدَّوَرِ
الْأَوَّلِ، تُشْرِفُ فِيهِ عَلَى سِتِّ عُرُوفَاتٍ تَبْتَثُ أَنْاتِ الشَّبَقِ طَوَالَ الْيَوْمِ،
مَشْرُوعَ قَانُونِي يُدِيرُهُ مَعَهَا «سَلَامَةُ» الشَّهِيرِ بـ «النَّجَسِ»، زَوْجُ شَدِيدِ
الْبَاسِ مُتَمَرِّسٍ أَثْقَلَتْهُ الْحَيَاةُ وَشَحَذَتْهُ كَسْبُ يَشَقُّ فَيَقْتُلُ، مُحْتَرَفٌ فِي
بَثِّ الرَّعْبِ فِي نَفُوسِ مُسِيئِي النَّصْرَفِ مِنَ الزَّبَائِنِ الَّذِينَ يَسْتَقْطِبُهُمْ مِنْ
نَاصِيَةِ الشَّارِعِ بِصُورٍ عَارِيَةٍ لِمُومَسَاتِهِ يَحْمِلُهَا فِي مُحَفَظَتِهِ، يَعْرِضُهَا
مُبْتَسِمًا بِأَسْنَانِ ذَهَبِيَّةٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهَا الْكَلَامُ الْمَعْسُولُ ثُمَّ يَحْكِي عَنْ
مُعْجَزَاتِ بَنَاتِهِ فِي الْفَرَّاشِ وَأَعَاجِيِبِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يَصْحَبَهُمُ لِلْبَيْتِ مُؤَفَّرًا
الْجِمَامِيَّةِ وَالرَّاحَةِ حَتَّى يُفْرَغُوا شَهْوَاتِهِمْ فِي سَلَامٍ، وَسُرْعَةٍ، لِيُحْصَلَ
الْقُرُوشُ وَالرِّبَالَاتُ فَيُدْفَعُ لَزَوْجَتِهِ نَصِيبُهَا، وَلِلْعَاهِرَاتِ فُتَاتًا يُبْقِيَهُنَّ

لهنرات، وأحياء، يأتي لهنَّ بالطَّعام والملبس وأدوات التَّجميل،
ويُصحبهن في الزيارة الأسبوعية لـ «المستألفة» الحوض المرصود» لتوقيع
الكشف الطَّبي عليهن ضَمَانًا لسريان رخص العمل، ويُؤدَّب منهن مَنْ
لأبي بفعل مُنافٍ للأداب أو أخلاق المهنة!

ذلك كان سَلامة النُّجس، وتلك كانت بنية التي جلست ترشَّف
الشَّاي وتنهش بعَيْنها جسد ورد:

- إزيك يا ورد؟

- مرحبًا يا خالة.

- بقي يحقُّ لك ولا تزوريني مرَّة من ساعة المرحومة أمك؟

- والله يا خالة الدُّكَّان كان أخذ كل الوقت لغاية ما صَفَّيت الديون..
بضاعة كثير ما عَادَت تنفع بالمرَّة.

- معلوم.. الجِسن بالذات روحها خفيفة.. يا حول الله يا رب..
وناوية على إيه يا حَبَّة عيني؟

- راح أحاول أدبَّر بضاعة وارجع أقف بالمحل.

- تقفي! ده كلام.. الشُّغلة دي عاوزه راجل.. وبعدين البضاعة
هاتيجي منين من غير نقدية؟ مَفِيش حد من قرابيك بيبجي مصر؟
خال؟ عم؟

- ما في!

- ولسة أجرة الدُّكَّان إحنا أول الشَّهر.. وأجرة الشُّقة وال...

قاطعتها ورد: الله يخليكي طولِي بالك عليًا شويَّة بالإيجار لأنك
لمايفة الظروف.

- يش القصد يا بيت .. أنا بترمها معاكي بصوت عالي .

ارتشفت بنية رشفة شاي تركت أحمر شفيتها على الكوب وقامت
تدق بكعبيها الأرض الخشبية مقتربة، تخللت شعر ورد بأصابعها تفك
ضفائره وتمشطه.

- كام سنة عندك يا ورد؟

- سبعناش.

- وردة بتفتح.

قالتها ولا مسّت صدر ورد متظاهرة بتفريق نهايات خصلاتها،
تسمّرت الأخيرة بعينين فقدتا طرف الرمش، ابتلعت ريقها بصعوبة
حين أكملت بنية:

- بالك يا بيت .. حودك العرسي ده يتأفل ذهب بس لو تفتحي
مُخك .. ده شغلي اسأليني أنا .. ما بفهمش غير في النسوان من يوم
ما وعيت ع الدنيا .. الجمال ده ما يحق له غير الكتاين والحلقان
الذهب .. حرام يستنى الوبا لما يطولوه.

- أنا مو فاهمة يا خالة !!

- الدنيا غدارة .. وإحنا يا ولداه تحت رحمة الوعد والمكتوب ..
النهاردة هابعدي .. طّب وبُكرة؟؟ ولو الحرب اتنيلت رجعت ..
ولّا البُعاد الأتراك غلبوا الإنجليز يا اختيبي ع اللي هابعملوه.

- راح أمر بُكرة ع البطرخانة واحكي مع أبونا يمكن يلقى لي مكان
في الكنيسة أو...

نُها بِنبة: تترَهَّبِي! يا لَهوي.. هو حد في البلد لاقِي ياكل عَشان
اللي في الكنيسة دول ياكلوا.. هاتشحتي وتقددي زِي العيش
... بطانية ورغيفين وتموتي كُهنة ما تشوقيش ريحة راجل
.. الله!

مُت ورد شمرها وصدرها من بين أصابع بِنبة وألقت بنفسها بعيدًا
لَمَنع يديها من الارتجاف.
بِذِّك إيه مَني يا خالة؟

• هاوِزة مصلحتك يا بَت.. دي أمك كانت حبيبتي الله يرحمها.
• أمي ما بعمرها نزلت لَيندك.. وما باذكر إني شوفتك طالعة لَيندها.
• إخصر عليكِي! ده الحُب في القلب يا بَت.. هيِّ لَمَّا وقعت مِنك
لاقبِتي خَد تَنديه غيري! وأبوكي الله يرحمه.. بِقاله البيت كلها
كانت من عنده.. حتَّى النبيت المَضروب كُنَّا بنشتره.. أفهَمي...
ورد مُقاطمة: يا خاله أنا ما بقدر أشتغل مَعكي.

- تشتغلي إيه؟ ده هيقى بيتك ومَطرحك! وبعدين هو أنا بيت سر؟
ده أنا معايا رُخصة والحُكومة مسامحة.. أنت مش مسامحة؟!
وبعدين هو الباشا اللي عمل الأنون ده كافر؟ ده موخَّد بالله وفاهم
النفوس الضعيفة، بِدل ما الناس تتواعِد في السَّر أهو بنعملها
تحت عَينين الحكومة، ثم أنا غير، زبايني يُوزباشي وانتي طالعة،
والأفرنجي أدخله بمزاجي، وادِنيصيف ابن ناس ماشي، أستراني
ولأَهندي ما يعتبش البيت، كلهم قمل، أنا باستنصف أسالي عليًا
أم حمدي اللي قُصادنا ولأَعلوية اللي في عَمارة الفرن.

- يا خالة أنا...

بنبة مقاطعة: وما تشيليش هم، هاعملك الرخصة وأرشيكي ع اللي
ما تفهموش النسوان المتجوزة، أجيب لك هدمة وأصيفك، يكسبي
لك قرش حلو وتنامي نومة السلطانة، بالك، البيت سنية السوداء اللي
شغالة معايا، والنبي كانت عبدة من السودان وتذكرة العنق عندي
شايلها، كعبها كان مشقق يخش فيه فار وشعرها مكتكت زي الليفة،
ومن أول نظرة وحياتك قلت البيت دي فرسة ولو تتليف وتتغندر تدوخ
أجدعها ذكر، تعالي شو في دلوقت، بتعمل لها خمس ست شلنات في
اليوم، شو في أنت بياضك القشطة ورطانك الشامي هاتعملي إيه ١١ سنة
ستين وأجوزك وأزفك بالشمعدان.. هاندعي لي.

- أنا ما بدّي يا خالة.. كتر خيرك.

قالتها وفتحت باب الشقة في إشارة لبنبة أن ترحل من حيث أنت..
نعنجلت الأخيرة حتى الباب وهمت أن تخرج قبل أن تستدرك:

- على كيفك يا ورد.. دورني محك يا حبييتي ومش هتلاقي
أعقل م اللي قلته.. فوئك بعافية.

رحلت بنبة فسقطت ورد على كرسيها، ساعات لم تدر كيف مرّت،
ساردة في صليب خشبي معلق على الحائط، بلا مسيح، لعمرها لم
تكن تحسب أن في أسبوعين فقط ستداعى الأحلام والأمانى وتعدم
الرؤى شبرا للأمام في ضباب القدر «مافا سأفعل في مصر؟ بلا مال
ولا سند والناس من حولي يأكل بعضهم بعضا جوعا وجرمنا! الأسافر؟ إلى
أين والبلاد من بعد الحرب لم تتألف بعد ولم تُرخ السلاح بجانب أن بلدني

قد مساواها الأثر الك بالارض زيادة ومحول لن أحترق في الزيت المغلي مثل
المسيحيين الأوائل ولن أدخل عرين الأسود لأصبح قديسة.. أترهب؟ لكن
هزلات الحرب أنهكت كنيسةنا، وعشيرتي يتلقون الإعانات منها فنأنا لا يسد
جوفا كما أنني لم أصبر يوماً على الخروج للشارع فكيف لي أن أعيش وردة
مُجففة في قلاية^(١)؟ عليّ أن أسير في الشوارع بحثاً عن فرصة، ماذا عن العمل
في صالة أو تياترو؟ ماذا عن التقدم لبديعة مصابني لتختبر قدراتي؟ أجيد
الرقص وصوتي أحسبه جلياً صادقاً، وماذا لو رُفضت؟ سيخطفني الجند
للعمة سائفة إن لم يُعثر عليّ مئة من الجوع في عطفة مظلمة، أو يهضم عليّ
الوفاة كما قضى عليّ أبوي من قبلي^١.

ورغم أن المسيح نفسه قد هجر صليبه على الحائط ورحل... بدت
الكنيسة أرفق الحلول!

بالطبع من بعد زيارة سريعة لشارع عماد الدين ومحاولة مُستميئة
للوصول إلى بديعة مصابني!

قامت ورد فجأة كأن الكهرباء مسّتها، فتحت حقيبة سفر جاءت معها
مُنذ سنوات إلى مصر، لملمت ملابسها وأوراق هويتها وصورة لها بين
أبيها وأُمها على متن الباخرة التي ألقت بهم على شاطئ الإسكندرية،
انتعلت صندلاً وضفرت شعرًا مفكوكًا ونظرت للشقة المنكوبة نظرة
أخيرة قبل أن تفتح الباب لتجد سلامة النجس قابلاً في انتظارها.



(١) قلاية كلمة تعني حجرة أو حجرة في دير، لذا سمي الرهبان مكان القلاية.

الْقَتْلُ الْكَبِيرُ.. الإِسْمَاعِيلِيَّة

تَرَجَرَجَتِ السَّيَّارَةُ الْكَرُوشْلِي نِصْفَ النَّقْلِ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُغْبِرَةِ
الْمَفْرُوشَةِ بِالْحِجَارَةِ الصَّغِيرَةِ، عَجَلَاتُهَا الرَّفِيعَةُ تَحْفَرُ وَرَاءَهَا خَطَّيْنِ
مُنْعَرَجَيْنِ بِسُرْعَةِ ٥٠ كيلومترًا/ سَاعَةٍ، مُحَرِّكُهَا يُزْمِجِرُ مِنْ وَطْأَةِ
الْحُمُولَةِ الْمُغَطَّاءَةِ بِالضَّمُورِ فَوْقَ ظَهْرِهَا، وَمَاسُورَةٌ عَادِمُهَا تُطْلُقُ دُخَانًا
أَسْوَدَ كَثِيفًا وَفَرَقَعَاتِ كَطَلَقَاتِ الرِّصَاصِ كُلِّ بِضْعِ ثَوَانٍ.. وَرَاءَ عَجَلَةِ
الْقِيَادَةِ جَلَسَ عَبْدُ الْقَادِرِ «الْحِجْنُ»؛ شَابٌ فِي الْعَقْدِ الرَّابِعِ وَرَثَ لَقَبِهِ
وَجَسَدُهُ الْخَمْرِيُّ الْمَفْتُولُ مِنَ الْوَلَدَةِ شِخَاتَةِ الْمُتَلَقَّبِ بِ«الْحِجْنِ»، فَتَوَّةٌ
حَيٌّ «السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ» لِخَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا خَلَّتْ.. وَلَا يَزَالُ.

حِينَ اقْتَرَبَتِ السَّيَّارَةُ مِنْ مُعَسْكَرِ الْإِنْجِلِيزِ أَطْلَقَ عَبْدُ الْقَادِرِ نَفِيرَهُ
مُنْبَهًا، رَمَقَتْهُ قُوَّةُ التَّأَمِينِ مِنْ فَوْقِ الْمُدْرَعَةِ الرَّابِضَةِ أَمَامَ الْبَابِ الْحَدِيدِيِّ
الْكَبِيرِ، بِحَرَكَةِ رَوْتِينِيَّةٍ وَجَّهُوا نَاحِيَتَهُ فَوْهَةً رَشَاشٍ «فِيكَرَزْ» وَبَرَزَ مِنْ
كُشْكِ الْحِرَاسَةِ رَقِيبٌ أَحْمَرُ الشَّعْرِ مُلْتَمِّمٌ بِكِمَامَةٍ قُمَاشِيَّةٍ غَطَّتْ نِصْفَ
وَجْهِهِ، تَوَقَّفَ عَبْدُ الْقَادِرِ قُرْبَهُ بِقَرْمَلَةٍ عَنِيفَةٍ أَثَارَتِ الْأَثَرِيَّةَ وَزَحْنَتْ
السَّيَّارَةَ عَلَى الْحَصَى مَسَافَةً كَادَتْ تَرْتطمُهَا بِالْمُدْرَعَةِ، نَزَعَ شَالَهُ مِنْ أَمَامِ
فَمِّهِ الْعَرِيضِ وَأَنْفَهُ الْحَادَّ قَبْلَ أَنْ يُحَيِّيَ الرَّقِيبَ بِابْتِسَامَةٍ عَرِيضَةٍ وَيُنَاوِلَهُ
نَصْرِيحًا كَانَ فِي جَيْبِهِ.

- جُودُ مَوْرِنِينْج.. التَّمْوِينُ وَصَلْ.

نظرو الإنجليزي في التصريح ثم أردف:

هيه مُصْرَحٌ بالدخول اليوم.

قرأ عبد القادر الرُتب فوق كَتفيه تقييماً لحجمه قبل أن يُجيبه.

- ليه يا چوني^(١)؟

- الإنفلونزا.

- إنفلونزا إيه يا عمنا أنا زى القُل !! عبد القادر إز كلين.. أنا كنت هنا
من ويك أجوو.. افتح يا جدع.

- لا دخول اليوم.

- يا عم بقول لك نضيف.. كلين.. أنت باينك عاوز تتكدر النهاردة..
وير إز كولونيل تريفور؟ كلمه عَ التحويلة هو فاهم.

- في عطلته الشهرية.

- إجازة! دي داهية إيه دي؟! مُحسوبيك الجِن.. عبد القادر الجِن..
بتاع الكانتين.. إيه ما سمعتش عني؟ تبقّى جديد! الكانتين..
سيجارتس آند ألكوهول.. أنت عاوز الطَّبَّاط بتوعك تقعد من
غير سجاير أسبوع؟

أرخی الرقيب بندقيته إلى جنبه.

- هل لديك سجاير؟

هز عبد القادر رأسه بابتسامة عريضة وهمس: أبو أمك.

(١) اسمه اجوني، كان نداء يُطلق على كُل إنجليزي غير معروف اسمه.

ثم فَتَحَ صُنْدُوقَ «الإِكْرَامِيَّاتِ الإِجْبَارِيَّةِ» الْقَائِعِ فِي أَرْضِيَّةِ الْمُقْعَدِ
الْمَجَاوِرِ، كَانَ مُتَخَمِّمًا بِكُلِّ أَنْوَاعِ السَّجَائِرِ الْمُحَلِّيَّةِ وَالْمُسْتَوْرَدَةِ.

- أَهْهْ دَه الْكَلَامُ.. بِلَا إِنْفَلُونَزَا بِلَا دِيَاوَلُو.. عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِنِّ يَعْنِي
كُلَّ حَاجَةٍ تَتَوَجَّدُ.. كَامِيلٌ وَبَابَا تِيُولُوجُو سَمْسُونٌ وَإِكْسْتِرَا وَمَعْدَنٌ
وَمُلُوكِي.. كِيرِيَا زِي وَدِيلَا يَتْسُ وَچِنَا كَلِيْسُ وَصُوصَةُ.. كُلُّ اللَّيْلِ
عَلَى كَيْفِكَ.. أَجِيبْ لَكَ إِيَّاهُ؟

بَنَّهُمْ وَرَيْقٌ يَسِيلُ أَشَارَ الرَّقِيبِ إِلَى عُلْبَةِ دِيلَا يَتْسُ، التَّقَطُّهَا عَبْدُ الْقَادِرِ
وَسَحَبَ زُجَاجَةً تَبِيدَ مَتَوَسِّطَةُ الْجُرْدَةِ مِنْ تَحْتِ الْمُقْعَدِ وَنَاوَلَهُ:

- الإِزَازَةُ دِي جَدْعَنَةٍ مِنْ عِنْدِي.. عَشَّانَ «تَفْتَكِرْنِي» أَمَّا أَجِي الْمَرَّةَ
الْجَايَةِ.. اسْتَبِينَا يَا ابْنَ الْخَاطِيَّةِ؟

سَحَبَ الرَّقِيبُ غَنِيمَتَهُ دُونَ أَنْ يَحَاوِلَ تَفْسِيرَ غَمْغَمَةِ عَبْدِ الْقَادِرِ..
هَزَّ رَأْسَهُ ثُمَّ أَشَارَ لِحُمُولَةِ الصُّنْدُوقِ الْخَلْفِيِّ فَتَنَزَلَ عَبْدُ الْقَادِرِ وَفَكَ
الْحَبْلَ الْغَلِيظَ مُرْخِيًا الْقُمَاشَ عَنْ حُمُولَتِهِ مِنْ صَنَادِيقِ السَّجَائِرِ وَالنَّبِيدِ
الْيُونَانِيِّ، تَفَحَّصَهَا الرَّقِيبُ بِإِهْمَالٍ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ ذِرَاعَهُ لِرَجَالِ الْبَوَابَةِ
مُعْطَمِنًا ثُمَّ يَخْبِطُ عَلَى السَّيَّارَةِ بِكَفِّهِ.

رَكَّبَ عَبْدُ الْقَادِرِ سَيَّارَتَهُ وَتَخَطَّطَى الْبَوَابَةُ الْحَدِيدِيَّةُ مُتَأَمِّلًا الْجُنْدَ
الَّذِينَ حَرَّصُوا عَلَى كِمَامَاتِهِمُ الْقِمَاشِيَّةِ وَقَايَةَ مِنَ الْوَبَاءِ.

الْمُعَسَّكِرُ مِنَ الدَّخْلِ يَحْوِي عُنَابِرَ مَسْكَنِ الْجُنُودِ، مَكَاتِبَ إِدَارِيَّةَ
وَمَخَازِنَ أَسْلِحَةٍ، هُنَا جِرَّ لِلصِّيَانَةِ وَسَاحَاتٌ لِلتَّدْرِيبِ وَعِيَادَةٌ، اخْتَرَقَتْ
الْكُرُوسُلِيُّ سَوَارِعَهُ الْمُتَعَبَّدَةَ وَاسْتَقَرَّتْ فِي ظِلِّ خَزَّانِ مِيَاهٍ كَبِيرٍ، رَفَعَ

القادر الغطاء الخلفي وأستد به قصا ثم وضع لافتة مكتوباً فيها
نئين» بالإنجليزية، الشف الجنود حوله كالنمل حول صرصار
نه، ابتاعوا سجنائه، نبيذه، خلاوته ومخللاته، وما عجز عنه مؤردو
مسكر السابقون، مسحوق الكوكابين، يبيعه بالجرام في لغافات
له صغيرة لحاملي كلمة السر من أصدقائه الثقات، ينادونه بالجن،
له التي تناسب قدراته في الجلب والتحضير، يحمي لقمة عيشه
كاه فطري خلف ابتسامة سايخرة وخفة ظيل ومجاملات للرتب
بغيرة قبل الكبيرة، يحمل هداياهم حتى مكاتبهم، يقص نكاته
شسية التي يحبوها بإنجليزية رديئة مُحافظاً على الود والتواصل،
لدا نعمة استثنائهم له بتوريدات المُعسكر، شاكرًا لله عمله الذي
ل منه بين شباب الحي «برنس» يشار له بالبنان.. ثم يُنهي عبد القادر
به الأسبوعية بعد أن يجمع رغبات الجنود والقادة في ورقة ليأتيهم
في الزيارة التالية، لينتهب الأرض بعدها نهياً.. إلى القاهرة.

لطمع عبد القادر المتسافة في ثلاث ساعات ونصف قبل أن يصل إلى
السيدة زينب، غسل سيارته بالماء والصابون في حلقس عقائدي
لر من أجله بتظنونه وكُمّيه، لم يتركها حتى عكس جسمها الشارع
حولها والمارة، قبل أن يُغطّيها بعيداً عن مرمى مجلس أبيه في ميدان
لحاح بالناصرية، دخل بعد ذلك ميقضة المسجد، أنزل ثراب السفر
مع جذاءه وذهن شعره بالبرلتين ثم دلف الحي يختال في بذلة من
سوف الإنجليزي مندبلها حرير، وعشرة جُنْيهات في جيبه هي إيراد
واحد، يمشي مُباعداً ذراعيه عن جانبيه من أثر عضلاته المنتفخة،
ها جبينه في جدية سياسي مهموم، ويلف سلسلة الساعة على سبّابه

بحركة مُستمرة مُسترقاً النظرات من تحت طربوشه المائل لشبابيك
الحَيِّ ومُشربياته راصداً أعين الحريم المُتَلَصِّصة المُتَابِعة، فَمِنْ أَجْلِهِنَّ
تَجَرَّعَ اللَّبَنَ بِالْبَيْضِ كُلِّ صَبَاحٍ، رَفَعَ كَوْرِي الْأَسْمَنَتِ الْمُثْبِتِينَ بَعْضًا
خَشْبِيَّةَ أَمَامِ الْمِرَاةِ، وَذَاعَبَ أَطْفَالَ الْحَيِّ وَهُمْ يَلْعَبُونَ الْكُرَةَ اسْتِعْرَاضًا،
لِيَتَلَقَّفَ نَظْرَةَ إِعْجَابٍ تُسْكِرُهُ أَوْ بَسْمَةً وَعَدَ تُلْهَبُ خَيَالُهُ.. وَرَغْمَ ذَلِكَ
تَكَاثَرَتِ عَلَامَاتُ الْاسْتِفْهَامِ حَوْلَ يَسْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ الَّتِي تَخَعَّلَتْ الْحَدَّ
وَلَمْ يَتَزَوَّجْ!

وقليلون من يعرفون الحقيقة!

فَعَلَّاقَاتُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْمُتَعَدِّدَةُ جَعَلَتْ إِرْضَاءَهُ ضَرْبًا مِنَ
الْمُسْتَحْيَلَاتِ، فَمُنْذُ بَلَغَ الْحُلُمَ أَغْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ رَحِيقِ عَذَارَى
الْحَيِّ، لَمْ يَتْرِكْ نَهْذًا إِلَّا وَتَرَكَ عَلَيْهِ بِصَمَاتِهِ، أَمَا تَضَارِيسُهُنَّ وَالْمُنْحَنِياتُ
فَمَرَّ عَلَيْهَا بِسَيَارَتِهِ وَلَمْ يَرْحَمْ، حَنُونًا مَعَ الْمُطْلَقَاتِ عَطُوفًا عَلَى
الْأَرَامِلِ، يَسْمَعُ هَرَاءَ حِكَايَاتِهِنَّ بِاهْتِمَامٍ، يَتَعَاطَفُ وَيَتَوَخَّدُ وَيَتَنَهَّدُ، ثُمَّ
يَقْرَمُهُنَّ فَرَمًا قَبْلَ أَنْ يَمْلُكُهُنَّ سَرِيعًا فَيَهْرَعُ لَفْتِيَّاتِ «الْوَسْعَةِ» بِالْأَرْبُكِيَّةِ^(١)
لِيُغَيِّرَ طَعْمَ فَمِهِ، لِحْمًا طَرِيًّا لَا يُكَلِّفُهُ سَوَى تَحِيَّةِ مَسَاءٍ وَبَعْضِ الْقُرُوشِ،
هَذَا بِخِلَافِ السَّيَارَةِ الْكُرُوشْلِيِّ الَّتِي كَانَتْ خَصِيلَةُ اقْتِنَائِهَا عِلَاقَةً مَعَ
ثَلَاثٍ مِنَ زَوَاجَاتِ أَصْدِقَائِهِ وَعَدَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ مِمَّنْ تَرُغِبُ فِي الْمُغَامَرَةِ،
لِذَا كَانَ عَلَيْهِ إِذَا أَرَادَ الزَّوْاجَ أَنْ يَجِدَ مَنْ لَمْ تُولَدْ بَعْدَهُ، عَذْرَاءٌ لَمْ تَقْعَ
عَلَيْهَا عَيْنُ بَشَرٍ، حُورِيَّةٌ هَارِبَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، هَكَذَا يَصِفُهَا حِينَ تَسْأَلُهُ أُمُّهُ

(١) ملحقة الوسعة بالأربكية: منطقة الدعارة الأكثر شهرة في القاهرة، بجانب مناطق باب
الشمرية وباب اللوق.

ن مواصفات العروس المثالية لتجلبها له، أمه التي جتدت الخاطبات
أثمه بأخبار بنات الحي اللاتي يرغبن في نسب ابن الفتوة وعزته،
كلهن في عينه كن ذوات عيوب، قصيرة، طويلة، سمينة، رقيقة،
بيضة، داغرة، قفل صدئ، قدماها كبيرتان، مقوستان كلاعي الكرة،
لست ناس، بنت كلب، غبية، ثقيلة الدم، بلهاء!

لا أحد يعرف ماذا يريد عبد القادر الجي

انتابت أمه الحسرة، ورماه أبوه بالنجاسة قبل أن يزداد الطين بلة
هين أتاه خبر تردد عبد القادر على معسكر الإنجليز للعمل غضب
أبوه يومها كما لم يغضب من قبل، خاصة حين ذكره عبد القادر في
رلة لسان بتاريخ تعاونه مع الإنجليز فكسر الرجل زجاجة قازوزة على
رأسه وطرده من البيت أسبوعاً.

رغم أن سخانة الجي كان ليتعاون مع الشيطان نفسه يوماً
لتحقيق سطوته!

فنظام الفتوة في الأصل نشأ في فترات ضعف الدولة حين اشتدت
بطاعة العماليك وتوخشوا، فتصدّر شجعان الأحياء للدّود من الأهالي
ليجسد بطشهم نظير هبة مالية أو عينية يدفعها الناس لهم اختيارياً، ثم
أصبحت مع الوقت إتاة إجبارية نظير تصديهم لعسف جند الاحتلال
وعارات اللصوص، ولحل النزاعات فيما بينهم والاحتكام إليهم، قبل
أن يحتضن الإنجليز بعضهم حين أدركوا أنهم مفاتيح الأحياء وغيونها،
فبانت الصداقة بينهم مشروعة ومصلحة متبادلة، وأحياناً بماهية شهرية
نظير الولاء للاحتلال.

هكذا كان أبوه شحاتة الجن حين حمل من القوة يوماً ما مياهاً ليوقف
 أمام الفتوة الأسبق «خليل بطيخة»، انتزع اللقب منه في معركة ضارية
 صرعه فيها بضربة يسكين نفذت بين ضلعيه لتصفّي كبده على الأرض،
 ومن يومها أطلق عليه لقب «الجن» تويجاً وترويحاً وما لبث أن صنع
 مجده دبابيس مغروسة في نبوته بعدد المعارك التي خاضها وانتصر فيها
 على أنداده من فتوات الأحياء المجاورة، دشّن سمعته جروح وعاهات
 وقبور قبل أن تستقر به أرجل عرش الفتوة وينال الرضا سُكوتاً عنه
 وتغاضياً من بعد زيارة للضابط «آرثر» وكيل حكمدار الداخلية، زيارة
 نال فيها البركة ووعد بالتعاون فاستتبّت الدنيا له واستقرت.. يجلس
 يوماً في بقعة شمس قرب مدخل مسجد الرّماح متابعاً بنظره فرشة
 عُقّار ضخمة يديرها عنه أحد صبيانهِ، لم يفكر يوماً في اعتزالها رغم
 سعة دخله، مستقبلاً عندها من له مطلب، زاجراً كل من تعدّى أو غفل،
 يفضّ النزاعات ويتقدّم مواكب الأفراح والجنّازات، ويتلقّى إتاوته
 المفروضة على الناس فرض الدّين على الرّقبات.. بلا تهاون.

مع تقدّم السن وتوالي الخواثر الجسام تسلّلت إلى روح «شحاتة
 الجن» حكمة عجيبة، مثل الوباء، بلا رائحة ولا لون، عنوة، جلوسه من
 الفجر حتّى غروب الشّمس صامتاً على أريكته يتأمل السّماء وأحوال
 العباد وقدّ الأحبة جعل منه شخصاً آخر، حَجَراً جَلاه فيض ماء فصار
 سطحه أملس مصقولاً، رجلاً أقلّ ميلاً للبَطش، للجرح، وأكثر تأثيراً
 بحضوره في مُريدِهِ، فالنّظرة باتت تعفيه الكلمات، وإشارة من يده
 تفضّ أعتى التّزاعّات، صار يتلقّى الإتاوات من أغنياء المحي فقط،

رهبانهم، لا يبيع خضر او اوانه بالفرض، لا يقيم زوجة بالفرض، يسمع
كثير مما يتكلم، يهز رأسه ويشرد لدقائق كأنه مسحور يستشير أسباده،
سم يفتق فيلقي قراراً هو الصواب بعينه.. وقتها قال الملا إن الفتوة
رقعى، وإن الرحمة استولت عليه واللين، علامات كبر السن وزوال
ملك، رحمة أغرت فتى مفتولاً متممراً من فتیان الحی أن یختبرها
مرة فوقعه شحانة الجن عانة مستديمة على مرأى من العامة قبل أن
يرجع إلى كنبته بهدوء، ساكناً كجبل عمره الدهر، لم يعد يهيج صدره
سوى أبناء البشارة الحمراء وتابعيهم، نيوزيلانديين وأستراليين وهنود،
سم يعد يتحمل رؤيتهم، أدرك ذلك متأخراً جداً، بعد أن ضيقوا عليه
على أهل حبه منافذ الحياة من بعد فرض الجماية، لم يعودوا قادر
رب وقدره كما كان يقول، باتوا يبطشون بأهل المنطقة التي يحميها،
سرض حكومتهم الضرائب الباهظة فوق الرؤوس، ويتسكع جندهم
بل نهار لينهبوا ما بقي من أقوات الناس، الناس الذين ينظرون للجن
مستغاثين ولا يملك لهم نفعاً، مكتوف اليدين يتلقى الطعون في رجولته
بجز أسنانه في غضب مكتوم ويشعر بالعجز التحول الجن تدريجياً
ن الجرح على استقرار سلطوته الشخصية في كنف الإنجليز، إلى
نصب ناحيتهم لم يشعر بنصفه يوم احتلوا البلاد، وكأنه للمرة الأولى
ستوعب معنى كلمة «احتلال»؛ أن تكون مربوطاً من رقبتك في ساقية
مضروب العينين ويلقى إليك الفتات، أن تُجلد لتدور في دائرة مفرغة
سقي أرضاً لم تعد تملكها، تنبت زرعاً لن تأكله.

مع الوقت تكونت لدى الجن رغبة معنوية في مشاكستهم، بات
سهر خصيصاً ليتحرش بهم مضيقاً الحناق عليهم منفرأ ومخوفاً، بخدر

لا يَضَعُه تَحْتَ طَائِلَةٍ وَكِيلِ حَكْمَدَارِ الدَّاخِلِيَّةِ «آرثر» الَّذِي امْتَنَعَ عَنْ زيارته والتواصل معه، شَارِدًا يَتَأَمَّلُ عُمُرَهُ الْمُتَقْصِي فِي خِدْمَتِهِمْ فَيَضِيقُ صَدْرُهُ وَلَا يَنْطِقُ لِسَانُهُ قَبْلَ أَنْ يُدَاعِبَهُ جِلْمُ تَوْرِيثِ اسْمِهِ لِلذَّكْرِ يُكْمِلُ مَسِيرَةَ طَرْدِ الْغُرَبَاءِ مِنَ الْحَيِّ، وَقَتَهَا كَانَ عَبْدُ الْقَادِرِ قَدْ شَبَّ وَخَطَّ شَارِبَهُ وَأَرَادَ لَهُ وَالِدُهُ أَنْ يَرِثَ سَيَادَةَ الْمَنْطَقَةِ وَمِنْ عَلَيْهَا، فَهُوَ الْعَصَبُ بَعْدَ أَخٍ مَاتَ بِالْكَوْلِيرِ وَثَلَاثَ بَنَاتٍ سَيَطْمَسُهُنَّ النَّسِيَانُ حَتَّى مِثْلُ كُلِّ أَنْثَى، لَمْ يَحْرَمَ عَبْدُ الْقَادِرِ مِنَ التَّعْلِيمِ، حَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ، حَفِظَ نِصْفَ الْقُرْآنِ، وَخَضَرَ صَوَلَاتِ أَبِيهِ وَجَوَلَاتِهِ مَحْمُولًا فَرَقَ عَرَبَاتِ الْكَارُوفِ فِي غَارَاتِ بَسْطِ النُّفُوذِ عَلَى الْأَحْيَاءِ الْمَجَاوِرَةِ.

افْتَشَنَ عَبْدُ الْقَادِرِ بِسُطُورَةِ أَبِيهِ لِسَنَوَاتٍ، يَخْتَالُ بِهَا بَيْنَ أَقْرَانِهِ وَيَفْخَرُ: «أَنَا ابْنُ الْفِتْوَةِ يَا وَلَادَ الْكَلْبِ!! ابْنُ الْجِنِّ الْعَفْرِتِ».. عُوْمِلَ مُعَامَلَةً خَاصَّةً مِنْ أَهْلِ الْحَيِّ وَأَقْرَانِهِ، حَتَّى فِي اللَّعِبِ كَانَ لَهُ الْحِظُّ وَالْأُولُوِيَّةُ قَبْلَ أَنْ تَمُرَّ الْأَيَّامُ وَتَقْتَرِحَ حِمَاسَتُهُ نَاحِيَةَ إِرْثِ أَبِيهِ، لَمْ تَعُدْ الْفِتْوَةُ تُغْزِيهِ كَمَا كَانَتْ، لَمْ تَعُدْ السُّلْطَةُ الَّتِي يَتَّبِعُهَا مَالٌ، بَانَتْ مَعَ حِكْمَةِ أَبِيهِ «الْمُسْتَحْدَثَةُ» سُلْطَةُ مَعَ ضَيْقِ حَالٍ، فَرَهْدَةُ لَا تُوْنِي الثَّمَارَ، أَقْرَبَ لَزْهَدِ الرُّهْبَانِ فِي صَوَائِعِهِمْ، عِيبٌ ثَقِيلٌ وَمَسْئُولِيَّةٌ تَبْرَأُ مِنْهَا تَدْرِيجِيًّا وَانْسَحَبَ، مُؤَثِّرًا التَّعَامُلَ مَعَ وُجُودِ الْإِنْجِلِيزِ وَمُجَارَاتِهِمْ: «وَمَا لَهُمُ الْإِنْجِلِيزُ؟ أَقْوَى جَيْشٌ فِي الْأَرْضِ، خَبِيرَةٌ، وَنِظَامٌ، وَإِحْنَا شَعْبٌ مَا يَمُشُّ نَاشَ غَيْرِ الْكِرْبَاجِ!»، تَعَلَّمَ عَبْدُ الْقَادِرِ لُغَتَهُمْ هَرَبًا مِنْ عِبَادَةِ الْحَارَةِ الضَّبِيقَةِ إِلَى رَحْبِ الْبَدَلَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ الْمُثْلِمَةِ! فَأَبُوهُ لَمْ يَخْرُجَ مِنْ حَارَتِهِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، مَعْدُورًا بِضَيْقِ أَفْقِهِ مَعْزُولًا كَسَمَكَةٍ عَمِيَاءَ فِي حَوْضِ صَغِيرٍ، مُسْكِنِينَ لَنْ

الزمن قد تغيّر، لن يدرك أن الإنجليز باتوا مُتصري الحرب
 ، «لن يرحلوا عن مصر» باتت مقولته الشهيرة، و«كيف لنا
 لبلد إذا رحلوا؟» باتت ثاني مقولاته الشهيرة، سامر جندهم
 ب ضبّاطهم في بارات الأزيكية ومسارحها، يُداعبهم كأقران
 هم، حتى فاحت رائحته وطالت أنف أبيه فانقبض، قبل أن
 بما عرف فيرتبك، اتهمه بالزّعونة فاضطرب، صرخ فيه ومانج
 ر، قبل أن يوقف عمل أذنه بصفعة ويجرح أعلى وجته بفص
 فانقطعت الأسباب بينهما، لم يملك عبد القادر سوى الصمت،
 تحوّل لعناد متّقد، يُريد أن يُرى ساحته، وأن يرى الشمس من
 قال، فوق بيوت الحارات الضيقة المكتومة، وأن يثبت لأب جبار
 . يخطئ... فلست إلها نُعبدا ولا «جنا» حقيقيا تملك الخفاء، بل
 بة التي تحياها في حيّك الضيق سيّدا بلا مال...

بنت في الأصل حياة

. ابتسم الحظ يوما لعبد القادر، كان ذلك حين صجبه صديق
 ليزي إلى كامب التل الكبير وعرفه على الكولونيل تريפור، ليصبح
 أشهر معدودات أحد مورّدي الكامب المعدودين، استعر سخط
 ، عليه حين عليم، هو الخائن الخارج عن الطوع، هو الابن العاق،
 هو العار نفسه يكاد يخفيه، تتقابل أعينهما فيتساءل عبد القادر:
 ، سر الأموال التي جرت بين يدي؟ البذلة الإسمو كنج التي طالما حلّمت
 الساعة الأوميجا ذات الكاتينة والأوتومبيل المرموق الذي يصرع النساء
 ت هجلاته؟

ألم يكن ذلك هدفك منذ أصبحت فتوة العمي يا أبي؟ ١٢.

فبرد الأب بسبب غضب من عينيه وصمت مريب.

حين اقترب عبد القادر من باب مسجد الرماح لمح أباه مُتَكَثِّراً على كُنته، كان يُشبهه كثيراً لولا شارب أشيب تخللته صُفرة المعسل وبدانة تزداد مع السن، رافعاً ساقه ذات الكالو الدائم على حَجَرٍ ومُرْخِيّاً لِي الشَّيْثَةِ التي لا تفارقه على صدره، أسرع عبد القادر بخطاه بعيداً اتقاءً للمواجهة لكن الأعين التقت، نظرة لوم وهيبة باقية اضطرت أن يثبت مكانه، ثم بخطوات ثقيلة أن يقترب، لثم اليد وجلس، انقضت ذقائق ثقيلة قبل أن يُخرج أبوه من جيب جلبابه علبة تُشوق، شد لفتحتي أنفه المسحوق المنعش ثم دسّها في جيبه ورجع لسكون التأمل، شارداً في مدخل الميدان كمن ينتظر شيئاً، لحظات لم يدر عبد القادر فيها ما يفعله فأخرج ساعته من جيبه، ألقى عليها نظرة ثم قام يحك مؤخرة رأسه ضابطاً طربوشه ذافعاً للوقت أن ينقضي:

- طب بالإذن يابا عشان ورايا مصلحة.

لم يلق عبد القادر إجابة فكاد أن ينسحب حين تكلم أبوه دون أن يلتفت.

- مبروك الساعة.. حاجة أوروبا خالص.

أخرجها عبد القادر من جيبه ومد يده بها.

- والله ما هي راجعة يابا.. النبي قبل الهدية.

شد شحانة بلغمًا من صدره ويصقه على الأرض فأرجع عبد القادر ساعته إلي جيبه مستوعباً الرسالة حين أردف أبوه:

- رايح فين؟

- رايح أزور واحد صاحبي عيَّان وعندي كام مشوار ناحية...

قاطعه: ابقى عدِّي على نظلة مِرات عمَّك توفيق اللي في الثالث
شُفها عشان بتخلَّص خلاص ومالهش حد.

- يا حول الله.

- أنت توعى على عمَّك توفيق؟

- كُت صغير أمَّا مات.. بس عارف إنه كان زي أخوك.

- جَيت له طَلقة في عينه وهو واقف في الشباك.. طلقة من بندها
«لي إنفيلد».. إنجليزي.. عسكري كان بينصف الماسورة بعد
البيت! طلعت الطلقة.. تفكير...؟

هَرَب عبد القادر بعينه إلى الحي جازًا أسنانه: الله يرحمه.

- لو كُت شُفت الواد اللي نُسّه كُت هاتعمل فيه إيه؟

كُنت فرمته.

- ولو كان صاحبك؟!؟

باغته أبوه ولم يتنظر الإجابة، لاذ عبد القادر بالصمت وإن حدل
عينَي أبيه تحدّيًا حتى استفزه.

- خسارة فيك الواحد وعشرين أهيف بدلية^(١) اللي دفعنها
ما تخشش الجهادية.. كان زمانك طلعت راجل.

(١) البدلية: نظام تم العمل به في بدايات انفرد العشوين كسباسة إحصاء من لاه
البحس انمصري عن طريق قبول رسوم محدّدة للإعفاء من الخدمة العسكرية

ساد الصمت ثواني قبل أن يقوم عبد القادر:

- بالإذن يا بابا.

ابتعد بضع خطوات قبل أن يصيح أبوه:

- جرام البلاء الأبيض اللي بتبيعه وصل كام يا عبد القادر أخندي؟

كَبَس عبد القادر طربوشه على رأسه ومَد خُطواته كأن لم يسمعه
متمنًا في سِرِّه:

- ديك أمك يا بابا.



الساعة ١٢:٣٠ صباحًا

بار «كافيه إچيبسيان».. شارع وش البركة^(١).. الأزيكئة

لم يَكُن «كافيه إچيبسيان» بَارًا عَادِيًّا، حَتَّى «دير اكاتوس» مُنَافِسَه العَتِيد لم يَلِغ مَكَانَتَه يَوْمًا، كَانَ دَائِمًا الْأَفْخَمُ وَالْأَعَجَبُ وَالْأَرْقَى فِي مُسْتَوَى مُرِيدِهِ، فَقَدْ شَهِدَ جُلُوسَاتِ الْأَمِيرِ فُؤَادِ أَيَّامِ بَطَالَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَعتَلِي الْعَرْشَ وَيُصْبِحَ السُّلْطَانُ فُؤَادَ، وَشَهِدَ أَيْضًا عَرِيدَةَ سَلِيمِ السُّلْحَدَارِ الْأَرْمَنِي الْمَعْرُوفِ الَّذِي دَخَلَ الْبَارَ يَوْمًا بِحَصَانِهِ مُحَاطًا بِحَاشِيَةِ مِنَ السُّودِ وَالْمَغَارِبَةِ وَالطُّلُبَانِ يَجْرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَلْبُ الْمَوَائِدِ وَبَعَثُ الْجُمُوعِ قَبْلَ أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَ مَا أَفْسَدَهُ عَنْ طِيبِ خَاطِرِهِ! كَمَا اشتهر البار بأنه ملتقى رجال الجيش ومستشاري المحاكم وكيار الأجانب، وحتى المخدبوي المَعزُول «عَبَّاسُ جِلْمِي» كَانَ يَأْتِي عَلَى حَاشِيَتِهِ السُّهَرِ فِي الْبَارَاتِ عَامَةً.. إِلَّا بَار «كافيه إچيبسيان».. كَانَ دَائِمًا الْإِسْتِثْنَاءَ.

يَتَخَفَّلَى الْقَادِمُ لِلْبَارِ عَرَبَاتِ الدُوكَارِ^(٢) الْفَاحِشَةِ الَّتِي تَرَكَّهَا رُؤَادُ الْمَكَانِ قُرْبَ رَصِيفِ الْمَدْخَلِ لِيَسْتَقْبِلَهُ حَارِسُ الْمَكَانِ بِصَنْدَرِ عَرِيضٍ وَشَارِبِ مُنْتَصِبٍ، يَتَقَدَّمُهُ بِخَفَافَةٍ حَتَّى يَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ الْكَبِيرَ لِيَتَلَقَّى بِقَشِيَشِهِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَهُ إِلَى حَسَنَاءِ يُونَانِيَّةٍ أَوْ إِيطَالِيَّةٍ تَرْتَدِي بِلُوزَةٍ

(١) شارع «وش البركة» هو شارع نجيب الريحاني حاليًا.

(٢) الدوكار: عربة مجرورة بحصان واحد يركبها أولاد الدوات.

«ديكولتيه» ساتانية وشراب شيبك يُشعل مَاقِها فوق كَعبين لهما طَقَطَقَات تُدغِدغ الأعصاب، تتمايل أمامه بفتح في طَرَقَة طَويلة تُضيئها قَنَادِيل على شَكل أَذْرُع نَحَاسِيَّة خَارجَة من الجُدران المَرسوم عليها نَسْرَة فَاتَنَات يَرَقصن رَقصَة «الكَان كَان»، ثم تنزل به دَرَكًا من بَضْع دَرَجَات يُوصله لِلصَّالَة الرَّئِيسِيَّة، تُسلِّمه لَزْمِيلَة لَا تَقِل عنها فِتْنَة لِتَأْخُذ عنه مِعطَفه وتَسَلِّمه ثَالِثَة لِتَجِدَ لَهُ مَكَانًا شَاغِرًا وَسط رَحَام المُريدِين.

الصَّالَة كَانَت وَاسِعَة، على هَيْئَة نِصْف دَائِرَة، فِي المُنْتَصَف مَسْرَح اصْطَفَّت عَلَى أطْرَافه مِصَابِيح مَسْنُودَة على مِرَاة مُقَعَّرَة تَعَكِس نُورَهَا على فِرْقَة من خَمْسَة أَفْرَاد تَعزِف مَقْطُوعَة لَشُوبَان، المَوَائِد رُصَّت بِجَانِب الجُدران وَبِاتْسَاع الصَّالَة حَتَّى وَصَلَ أَقْرَبُهَا وَأَعْلَاهَا سِعْرًا لِبَدَايَة المَسْرَح، عَلَيْهَا مَقَارِش مُزَخْرَفَة من الدَانْتِيل فَوْقَهَا شُمُوع فِي آتِيَة مُسْتَدِيرَة وَنِسَاء تَشِع من نَحُورهن أَنوار الحُلِيِّ البَرَاقَة وَالمَاسَات بِجَانِب رِجَال أَزْدَانَت أَصَابِعُهُن بِالخَوَاتِم وَالسِّيَجَار الفَاخِر، أَمَّا الطَّرَقَات الخَالِيَة بَيْن المَوَائِد فتملؤها فِتْيَات فَاتَنَات من كُلِّ الجَنَسِيَّات كَالنَّحْلَات الشَّغَالَات، يَبْعَن سَجَانِر وَوَلَاعَات وَخَلُوى فُوق عُلْبَة خَشَبِيَّة مُعَلَّقَة بِجِزَام إِلَى أَكْتَافِهِنَّ النَّاعِمَة، هَذَا بِخِلَاف فِتْيَات «الْفَتْح» اللَّاتِي يُوَفِّرُن الصُّحْبَة الغَضَّة وَالْأَنَس. يَتَفَرَّقْنَ عَلَى المَوَائِد لِجِثْثِ الرُّوَاد عَلَى فَتْح المَزِيد من رُجَاجَات الخَمَر عَلَى شَرَف الجُلُوس مَعَهُن، وَكُلَّمَا فَتَحَت الفِتَاة عَدَدًا أَكْبَر من الرُجَاجَات كَثُرَتْ جِصَّتُهَا مِنَ النُّقُود، أَمَّا الْهَار فَكَانَ فِي أَقْصَى الْيَسَار، عَامَرًا بِمُخْتَلَف أَنْوَاع الخَمَر، تَحْفَهُ كِرَاسِي عَالِيَة مِنَ الْأَبْنُوس كُسِيت بِالْقَطِيفَة الْأَرْجَوَانِيَّة، جَلَسَ فُوق إِحْدَاهَا شَاب فِي مُنْتَصَف الثَّلَاثِيَّات يَحْسِبُه الْمُحِيطُونَ مِنَ الْوَسَامَة أَمِيرًا

من أسرة مملكة، فاتح البشارة أميل إلى النخافة، خصلاته طويلة مَهْدَبَةٌ
تَصِلُ جبهته بمؤخرة رأسه، عَيْنَاهُ جادتَانِ وأنفه دقيق وشفتاه مُكْتَزَتَانِ
لا يُعَكِّرُ صَفْوُهُمَا سِوَى جرح قديم على بُعد ستيمترات في طرف
الصدغ، يَرْتَدِي بِدَلَّةِ سَمُوكَنْجٍ سَوْدَاءِ خُلِقَتْ لِأَجَلِهِ وَبَابِيُونًا مُنْمَقًا فَوْقَ
قَمِيصٍ مُنْتَشِي بِبَاقَةِ مُسْتَدِيرَةٍ وَأَكْمَامٍ تَضُمُهُمَا أَزْرَارُ بَرَّاقَةٍ، يَرشِفُ كَأَسِ
نَبِيذٍ مُدَاعَبًا أَطْرَافَ شَارِبِهِ الطُمُوحَةِ، بِابْتِسَامَةٍ صَفْرَاءٍ يَصُدُّ الْغَنِيَّاتِ
اللانِي بِحُصْنٍ حَوْلِهِ يَغِينُ صَبْدًا وَعَيْنَاهُ لَا تَفَارِقَانِ الْوَارِدِينَ مِنَ الْبَابِ
يَفْرِزُهُمْ فِرْزًا، لِحَظَاتٍ وَفُتَحَ السُّتَارُ لِيُخْرِجَ إِلَى بَقْعَةِ النُّورِ رَجُلَ أُنِيقٍ
بِمِعْطَفٍ طَوِيلٍ وَشَعْرٍ مَوْجَتِهِ الزُّيُوتُ، صَفَّقَ مَرَّتَيْنِ مِنْبَهًا لَيْسُودَ الْهَدُوءِ
قَبْلَ أَنْ يَضَعَ أَمَامَ فَمِهِ مَخْرُوطًا مَعْدِنِيًّا لِيَعْلُو صَوْتُهُ ثُمَّ تَكَلَّمَ:

- أَيُّهَا الْجُمْهُورُ الْكَرِيمُ، أَسْعِدَ اللَّهُ مَسَاءَكُمْ، «كَافِيهِ إِيْجِيْسِيَان»
يُرْحَبُ بِكُمْ وَيَتَمَنَّى لَكُمْ سَهْرَةً سَعِيدَةً مَعَ فَقَرَاتِنَا الْخَافِلَةِ
بِالْمَفَاجَأَتِ الْمُبْتَكِرَةِ، مَسَلْتَنِي بَعْدَ قَلِيلٍ بِالرَّقْصِ الشَّرْقِيِّ الْبَدِيعِ
مَعَ فَاتِنَةِ الشَّامِ مَلِكَةِ الرِّشَاقَةِ «بَدِيعَةُ مَصَابِنِي» بِصُحْبَةِ فِرْقَةِ
الشَّمْعَدَانَاتِ فِي ثَلَاثَةِ مَنَاطِرٍ مُبْهَرَةٍ، أَمَّا الْآنَ فَمَوْعِدُنَا مَعَ الْبَهْجَةِ
وَالسُّرُورِ وَالْمُونُولُوجِسْتِ خَفِيفِ الظِّلِّ الَّذِي أَمْتَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ فِي
رَوَايَةِ كَشَكْشٍ بِهِ.. حَسَنٌ فَالْآنَ ائْتِقِ.

صَفَّقَ الْحَاضِرُونَ فَانْسَحَبَ مُقَدِّمُ الْبِرْنَامِجِ لِيَدْخُلَ شَابٌ طَوِيلُ
الْقَامَةِ أَصْلَحَ الرَّأْسِ يَرْتَدِي بِدَلَّةِ زَيْنٍ بِنَظْلُونِهَا شَرِيْطٌ لَامِعٌ وَرَابِطَةٌ عُنُقُ
مُضْجِكَةٍ بِالْكَادِ تَخْطُطُ صَدْرَهُ، تَوْسُطُ الْمَسْرُوحِ بِعَيْنَيْنِ مَنْدَهْشَتَيْنِ ثُمَّ
أَحَدٌ يُشِيرُ لِمَنْ فِي الْقَاعَةِ وَاحِدًا وَاحِدًا بِسَبَابَتِهِ كَأَنَّهُ يَعْرِفُهُمْ قَبْلَ أَنْ
يُصْلِقَ ضَحْكَةً طَوِيلَةً عَجِيبَةً أَضْحَكَتِ الْجُمْهُورَ بِلَا مَجْهُودٍ يُذَكِّرُ، انْتَظِرْ
الْقَاعَةُ أَنْ تَهْدَأَ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ بِأَوَّلِي نِكَاحِهِ:

- في مرة سألوا شتّام عن سبب تسمية فتاة الشويس بالاسم ده فقال: لأن الشفن بتعدي بسويس بسويس.

ضجّت الصّالة بالضّحك في الملحظة التي نزل فيها الدّرك ضابط إنجليزي ببدلة عسكّرية كّاكي وربطة عُتق زيتية وكاب مُختال، انتبه إليه الجالس على البار وقيّمه قبل أن يَرُصّده بطرف عينه.. أردف المونولوجست:

- شتّام نزل من الحنطور فلقى الدنيا بتمطر قام لف ونزل من الناحية الثانية.

ضجّت الصّالة بالضّحك ثانية حين تَخَلَّل الضابط الموائد مُقترّبًا من الكرّاسي الوحيدة الشاغرة في الصّالة.. كرّاسي البار.

- شتّام ضيّع أمه في الشّوق راح للشاويش قاله: ماشفتش واحدة ماشية وأنا مش معاها.

ألهمي الشاب بكأسه في لامبالاة مُصطنعة، يُراقب الإنجليزي في امرأة البار المُواجهة، جلس الأخير على بُعد كُرسيين بعد أن خلع الكّاب ووضعه على سطح البار فلتمت خصلات ذهبية وعينان زرقاوان، طلب كأمّا ثم التفت للصّالة مُتأملًا الرّواد باحثًا عن صحبة تُرافقه، فالمزاج المُتغافل من بعد الحرب حرر الدم المحبوس كمدًا في الصدور لينصب في نصف الجسم السفلي.

لَحَظَات واقتربت فتاة من فتيات الفتح، يونانية، الـH عندها خاء، ترندي لُستان سهرة أسود كُشف عن ئديين أنوفين وعجيزة مغرورة، بالبروتوكول المَعهود أسندت ظهرها للبار ورفعت جانب شعرها

لتكشف عن نحر براق قبل أن تسد له الغنج بين عينيه وتدعوه أن يشعل
سيجارة دشتها بين شفتيها، رماها الإنجليزي بنظرة ملل ثم أعرض عنها
في تكبر فاعتدل ميلها وانسحبت من أمامه ثبرطم بالإغريقية! دقيقة
واقتربت شقراء رائعة بسيجارة غير مُشتعلة، حامت حوله فأشار بأصابعه
أن ابتعدي وداعب الساقى: «هل هناك أزمة كبريت في مصر تلك الأيام؟»،
انسحبت قبل أن تشاغل عينيه منضدة عليها أنثى خمرية فاحمة الشعر
قوامها مدملج بجانب رجل تُري الهيئة، لم يرفع عينيه عنها منذ عثر
عليها، مسح ثناياها بشبق طاع شرب من أجله كأسين إضافيين وخملق
كما الطفل يُربل من أجل لعبة يرغبها، فالإنجليز لا يأبهون لأشياء إناث
بلادهم، يعبدون خلاخيل الخمريات ذوات الملاءات اللف، وكان
ذلك ما يعرفه الشاب المراقب، دس يده في جيب مُترته بهدوء وأخرج
صُوراً في حُجم وعدد أوراق الكوتشينة، صُوراً لفتيات عاريات من كُل
الأجناس؛ أورييات، شركسيات، مصريات، قوقازيات وسودانيات،
فرّها سريعاً تحت سطح البار قبل أن يعزل ثلاث صُور لفتيات تُشبهن
في الجسم المدملجة التي أعجبته، مؤخرات عظيمة وأنداء ترتع وبشرة
صلتها الشمس، وضع الصُور الثلاث في المُقدّمة ثم دس المجموعة
في جيبه حين صاح المونولوجست:

- سُفتم! كل النكت النهاردة كانت عن السُمّامين اللي بقم في
كُل مكان، مِنغصين علينا عيشتنا ومبغزين فلوسهم هنا وهناك،
عشان كده أنا باهديهم الأغنية دي وعاوزكم تغنوا معايا!
شم الكوكاييين.. خلاني مسكيين.. مناخيرى بتون وقلبي
حزييين.. وعينيا في راسي رايحين جاييين.

تناغم الحاضرون مع المونولوج حين مسح الشاب كأسه واقترب من الإنجليزي الهائم في ملكوت اللحم الخمري، جلس على الكرسي المجاور له قبل أن يهمس بإنجليزية لا بأس بها:

- يبدو أنها المرة الأولى لك هنا!

بفتور هز الضابط رأسه أن «نعم» قبل أن يشيح بوجهه قاطعاً الحديث فاستدركه الشاب:

- أعتقد أنك قد أتيت للمكان الخاطئ يا صديقي!

التفت الإنجليزي بفضول: ماذا تقصد؟

- هنا لا يقدمون الحب الذي يروقك.

نظر إليه الضابط باستغراب فابتسم الشاب ثم أشار برأسه للفتاة السمينية: الحب الحقيقي.

قالها وأخرج من جيبه الصورة، وضعها بجانب كأس الإنجليزي الذي نظر إليها ببرود وبدون أن يلمسهم سأل:

- ما هذا؟

- صنف قد يغير فكرتك عن المرأة.

لمعت عينا الإنجليزي وإن حافظ على لأمبالاته المصطنعة وهو يقلب الصور بطرف سبابته ترفعاً:

- هل هن في البار معنا؟

- المرأة الشرقية لا يفوح أريجها إلا في الظل.

سَكَتَ الْإِنْجِلِيزِي يَزِنُ الْعَرَضَ الْمُغْرِي قَبْلَ أَنْ يَهْمَسَ:

- أَيْنَ؟

- شَارِعَ قَرِيبٍ.. مَكَانَ هَادِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْخُذَ فِيهِ رَاحَتَكَ وَتَشْرَبَ
مَشْرُوبًا يَرُوقُكَ.

- أَهْوَ مَكَانَ مُرْخُصٍّ؟

- أَوْرَاقَ الْكَشْفِ الصَّحْفِي حَاضِرَةٌ وَلَا أُنْتَقِي إِلَّا أَرْقَى الزَّبَائِنِ..
لَا مِصْرِيَّيْنَ وَلَا هِنُودَ.

- وَكَمْ قَدْ تُكَلِّفُنِي تِلْكَ الزِّيَارَةَ؟

- يَكْفِينِي أَنْ تُصْبِحَ زَيْوَنًا دَائِمًا لَشَقَّتِنَا الْمَتَوَاضِعَةِ.. لَكِنْ لَوْ الْحَمَتِ
لَقُلْتُ إِنْ جُنَيْهَا سَيَكُونُ كَافِيًا لِإِكْرَامِ لَيْلَتِكَ.

- جُنَيْهَ! مَبْلَغُ ضَخْمٍ مِنْ أَجْلِ صُحْبَةٍ!

- لَسَ نَخْتَلِفُ.. وَصَدَّقْنِي سَتَجِدُ أَنَّ فِتْيَاتِي يَسْتَحَقُّنَ.. وَالدَّعِ
سَيَكُونُ بَعْدَ تَقْدِيمِ الْخِدْمَةِ.

- هَيْتُكَ لَا تُوْحِي بِمَا تَقْدِمُهُ يَا...

- اِسْمِي كَتَكُوتُ.. وَإِصْبَالُ الْمُتَعَةِ لِمُسْتَحْفِيهَا تَوْهِيَةٌ تَسْبِقُ سِيرَتِي..
سَتُدْهَشُكَ قُدْرَاتِي.. اِسْأَلْ عَنِّي مُرِيدِي الْأَرْبَكِيَّةِ.

رَفَعَ الْإِنْجِلِيزِي كَأْسَهُ عَلَى فَمِهِ، تَجَرَّعَهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ ابْتَسَمَ:

- حَسَنًا يَا كَتَكُوتُ.. كَيْفَ سَنَفْعَلُهَا؟

- اِنْهَيِ جَلِيسَتَكَ وَقَابِلْنِي خَارِجَ الْبَارِ.

قالها كتكوت ثم قام من مكانه فأمسك الضابط رُسمه وهَمَس:

- لكنني أريد تلك الفتاة بعينها.. لن أدفع إلا لها.

وأشار بتحدُّ طفولي للمدملجة المصرية التي خلبت لُبّه.

- آه.. أنت تتحدث عن هذه الفتاة؟! لكنها الآن مع صديق آخر!

علاوة على أنها ليست أفضل الفتيات، هناك من هي أكثر خبرة..

ولا اعتقد أن من المناسب سحبها من بين يدي رفيقها الآن..

لم لا...

قاطعه: إما هي أو لا اتفاق.. لقد وعدتني أن قدراتك ستدهشي!

تأمل كتكوت الفتاة السمينة والجالس برفقتها قبل أن يتفتت

للضابط بابتسامة:

- لم أعرف اسمك؟

- ميجور أليكس.

- ميجور أليكس.. لن أخيب رجاءك.

قالها وغمزه بعينه ثم ذهب مُتأنياً تجاه مائدة الفتاة السمينة، قبل أن

يُصل إليها أشار لبائعة سَجاجير، اقتربت بابتسامة تُعرض منابت صدرها

وبضاعة فوق الصُّندوق المُعلَّق في رقبته، التقط علبة سَجاجير وناولها

عشرة صَاغ وحين هَمَّت برد الباقي استبقاه بين أصابعها ومال عليها:

- خلّي الباقي علشانك.

- افخاريستو.

- جريجية! أجدع ناس.. ليا عندك خدمة.. فيه بنت جميلة قاعدة في الترابيزة اللي وراكي.

همّت بالالتفات فاستوقفها بإبتسامة.

- من غير ما تأخذ بالها.. دي بتفتح في البار ولّا من برّه؟

كانت مُعتادة بطبيعة عملها على التوصيل الجيد للحرارة، ابتسمت ثم التفتت بخفة لتلقي نظرة قبل أن تُجيبه.

- شوشو.. هي تشتغل مآنا هنا في البار.

- لطيف جدًا.

قالها وأخرج من جيبه قلماً وورقة، خَطَّ فيها عبارة مقتضبة.. «ثمانين قرش.. عند البار؟» ثم طَبَّقها جيّداً ودَسَّها في كَفِّها.

- مُمكن تديها الورقة دي؟ بينك وبينها.

- نيه نيه.. فيسيكا.

- شكراً يا جميلة.

ذهبت فتاة السّجائر تجاه السّمينّة قرّج كتكوت إلى البار بجانب الإنجليزي المُترقّب، جَلَس بجانبه دون أن يتكلّم مُراقباً السّمينّة التي تناولت الورقة بحِرْفَة وفَضَّتْها تَحْتَ المائدة، قرأت فَمَحَواها ثم طَبَّقَتْها ومَسَحَتْ البار بعينها حتّى التقت بصاحب العَرَض السّخّي، ابتسم ورفع رأسه مُتَمِّماً عَلَى صففته فغمزت بعينها وَعَدَا حين التفت لكتكوت.

- يبدو أن حَدِيثك عن نفسك لم يَكُن مُبالِغاً فيه يا كتكوت.. هههه..

ألا تعني كتكوت فرحاً صغيراً؟

- صغير.. لكنتي جبار.

ضحك الإنجليزي: أستاذتي صديقتك الآن؟

- من الأفضل أن نَسْبِقها حتى تُنهي جلستها.. قَرَفِيقها البَدين لن يسمعه رؤيتها بِصُحبة من هو أكثر وسامة.

دَفِع الإنجليزي ثمن شرابهما والتَمَلَّق الفاضح ثم خرجا من البار متَّخِذين طَريقَهما إلى بيت المُتعة، ثَرَّرَ كَتَكُوت في الطريق بِقِصص مُبالغ فيها عن أصدقاء من مُمَثلي المَسارح ومُطربات شَهيرات وراقصات يَدُبْنَ فيه عِشْقًا حتى قاطَعَ الإنجليزي استعراضه:

- ألا تَجِدُ غُضاضَةً في التَعامُل مع إنجليزي؟

- لم تقول ذلك يا صديقي!

- لست أنا الذي أقول.. إنما هو ذلك الرجل.. سَعِد...

- آه أنت تتحدث عن سَعِد زَغلول.. يا له من مُخَوِّف نَسي نَفسه.. كان نَاطِرًا في الوِزارَة ثم ابتعد عن الأضواء حين قامت الحرب العَظمى فأراد أن يَعود إليها وَلَم يَجِد غير المُطالبة بالاسْتقلال حُجَّة! الاستقلال! يا للعجب!! الإنسان قد يَفعل أي شيء لَيَطفو على السُّطح ثَانِيًا!

- لَكِن دَعِواهُ تَجِد صَدَى عِنْد الناس.

- أي ناس يا صديقي!! المَجنون يُريد مُقابَلة الملك إدوارد لَيَعرِض عليه أن يتركوا مِصر!! وفي بِلاده!! يا لها من بِجاجة.

- الملك إدوارد مات منذ سَنين.. نَحْن الآن في عَهْدَةِ الملك جُورج الخَامس.

- فليرحمه الله ويُحسن إليه.. أبعد عشرة ثمانين أو تسعين عامًا
وأنتم ضيوفنا بعلو الحياة ومُرّها.. نشرب من نيل واحد.. يأتي
ليطلب الرحيل هكذا! أي جنون هذا؟! مثل هؤلاء لا يعيشون
على الأرض يا صديقي.. خالمون.. فقط هم يخترعون الكلمات
الرائنة ونحن الشعب ندفع الثمن.. قد جُنَّ أحمد عرابي من قبله
وتخطى أسباده فتلقَى جزاءه.. وأين قضى بقية عمره؟ في جزيرة
الماوما مع الهنود الحمر.

- جزيرة سيلان.. المفارقة أن تمرد عرابي كان السبب في
قدومنا لمصر.

- تلك كانت حسنته الوحيدة إذن.. ليست كل الأمم بقادرة على
رعاية مصالحها.. نحن شعب همجي.. وغير ناضج.. طفل إذا
أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم أنخم.. اسألني أنا!

كنا قد اقتربا من ناصية زقاق ضيق، توقّف كنتكوت وأشار إلى بيت
صغير في نهايته.

- تفضّل من هنا.. النافذة ذات الستائر الخضراء.. أتحب مع النيل
بعض الجبنة القديمة أو الترمس؟

- لقد شربت الليلة بما فيه الكفاية.

تقدّم الضابط كنتكوت وهو يتّم على المُسدّس في جنبه، مرّا ببائع
خضراوات عجوز افترش ناصية الزقاق، تخطّاه الضابط قبل أن يميل
عليه كنتكوت مَاحِبًا من تحت خيش قفّته مُسدّس «وييلي» مَاسورته
ملفوفة يدويًا بالمطاط، دَسّها في سترته حين طلّ العجوز على الشارع
الصّاخب وأشار بيده اليابسة إلى عرجي رابض على الرّصيف المُقابل،

قفز من فوق حنطوره قَبِلَ أن يَنْغِزَ مُؤَخَّرَ فَرَسِهِ بِسُوكَةِ نَفْصَتِهِ وَاقْفَا
عَلَى قَدَمَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ صَاهِلًا بِالْمِ، مُثِيرًا بَيْنَ الْمَارَةِ مَوْجَةً مِنَ الرُّعْبِ
أَوْقَفَتِ السَّيَّارَاتِ وَعَرَبَاتِ السَّوَارِسِ^(١) وَقَطَعَتِ الطَّرِيقَ فَرَفَعَ صَاحِبُهُ
سَوْطًا غَلِيظًا أَنْهَالَ بِهِ رَقَمًا عَلَى بِلَاطِ الْأَرْضِ الْمُحْدَبِ وَهُوَ مُسْتَمْسِكٌ
بِاللُّجَامِ، فِي مُتَصَفِّ الرُّفَاقِ سَمِعَ الضَّابِطُ الضَّجَّةَ فَانْتَفَتَ لِيَجِدَ فَوْهَةً
مُسَدَّسَ مَوْجِهَةً إِلَيْهِ.

- ماذا تفعل يا كتكوت؟!

- اسمي ليس كتكوت.

وَدَوَتْ طَلْقَةُ تَاهَ صَوْتَهَا بَيْنَ رَقَعِ الْكُرْبَاجِ وَصُخْبِ الشَّارِعِ، اسْتَقَرَّتْ
فِي صَدْرِ الْإِنْجِلِيزِيِّ الَّذِي ارْتَدَتْ ثُمَّ سَقَطَتْ عَلَى ظَهْرِهِ، اقْتَرَبَ كَتَكُوتُ
مِنْهُ وَاسْتَخْلَصَ الْمُسَدَّسَ مِنْ يَدِهِ، تَأَمَّلَ الدَّمَاءَ وَهِيَ تَفُورُ مِنَ الْفَمِ عَلَى
صَدْرِ الْبَدَلَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، رَجَفَتْ خُرُوجُ الرُّوحِ وَعَيْنَيْنِ تَخْبِرَانِ ثُمَّ تَنْطَفِئَانِ،
انْحَنَى مَنْ كَانَ مُنْذُ دَقَاقِقٍ بَائِعَ مُتَعَةٍ وَانْتَزَعَ مِنْ سُتْرَةِ الْإِنْجِلِيزِيِّ زُرًّا عَلَيْهِ
خَفَرُ بَارِزٍ لِبِنْدَقِيَّتَيْنِ مُتَقَاطِعَتَيْنِ فَوْقَهُمَا تَاجٌ مَلَكِي بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ جَفْنَيْهِ
بِأَصَابِعِهِ، دَسَّهَ فِي جَيْبِهِ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَجْهَ غَرِيمِهِ، كَانَ يَؤْمِنُ أَنَّهُ عِنْدَمَا
يَقْتُلُ ضَحِيَّةً يَنْتَقِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ لَا يُدْرِكُهُ، شَيْءٌ يَتَوَخَّلُ فِي قَلْبِهِ كَالْحَبْرِ
فِي كُوبِ مَاءٍ، يُسَيِّطِرُ عَلَيْهِ، يَصْبِغُهُ، قِبَاطِلُ الْأَزْنَكِ الْمَكْسِيكِ كَانَتْ
تَأْكُلُ قُلُوبَ أَعْدَائِهَا لِنَكْتَسِبَ قُوَّتَهُمْ، أَمَّا هُوَ فَيَأْكُلُ أَرْوَاحَهُمْ، ثُمَّ يَشْعُرُ
بِهِمْ يَمْشُونَ مَعَهُ، يَنَامُونَ بِجَانِبِهِ، يَتَجَوَّلُونَ فِي سَقْفِ غُرْفَتِهِ وَيَكْلُمُونَهُ

(١) عربة مظللة من الخشب تجرها الخيول أو البغال تستعمل لنقل الأفراد... أول من
طرحها في الأسواق كان الخواجة روفائيل سوارس.

بأعينهم، وأحيانًا يصرخون، ليس لنا دخل بقضيتك، أو ببلدك الملعون،
نحن جُند مأمورون.

أفاق من غفوته بعد لحظات فتفرض وجهه طردًا للأصوات
وانسحب مُسرعًا إلى الشارع الصَّاحِب بعد أن ألقى بالمُسَدَّسين في
قَفَّة العجوز الذي لملم فرشته وخرج وراءه بلا كلمة، كُل إلى اتجاه،
أحكم الطربوش فوق رأسه ثم مدَّ خطواته مُبتعدًا.



البنية كانت تطل على سوق باب اللوق، عمارة ضخمة مُزينة بقبة
ونقوش بدبعة وتماثيل، ارتقى السلالم قفزًا للدور الرابع قبل أن يَدس
مفتاحه في الباب، يحذر نزع جذاءه بعد أن كتم وسوسة المفاتيح في
قُبضته، تسلل إلى عُرفته ومُترع في خلع ملابسه حين سَمع النداء.

- أنت جيت يا أحمد؟

زُفَر ضيقًا: أيوة يا أمي.

تحرك ظل المصباح على البلاط تحت السيِّدة التي تَحمله، النَّار
أضاءت أطراف شِعْرها الأبيض المُتناثر فَبَدَّت شمسًا تسير ليلاً، دَلَفَتْ
من الباب بوجه يُعاني سَكَرات النَّوم:

- يَمَني من صَباحية ربنا كده ولا جس ولا خبَر!!

- مَعَلش.. النهاردة كان فيه تفتيش عَ المَعامل.

- تفتيش لُنْص الليل يا أحمد؟ وبيلة سموكين!!

خَلَعَ قميصه بعدما أخفى صور الفتيات العارية تحت السُّترة.

- تفتيش م القصر.. الأمير إبراهيم حلمي زارنا النهاردة.. عاوزاني ألبس إيه؟ وبعدين قابلت صحابي.

- في الأزيكية طبعاً، مع المشخصاتية والصيئة والعوالم، وأنا قاعدة هنا أضرب أحماس في أسداس.

- أنا ما روحتش الأزيكية يا أمي.. كُنَّا قاعدين على القهوة بنلعب طاولة.

- متاتيا تاني يا أحمد!! القهوة اللي ضيعت أبوك!

- يا أمي والقهوة مالها بس؟!

- هو برضه كان يقول لي كده.. والقهوة مالها يا سعدية؟! لغاية ما الصُّحبة الشُّوم اتلَمَّت عليه.. كلهم ربنا كرمهم وعليت مراكبهم وهو راح.. وأنت عاوز تحصِّله عشان تحرق قلبي.

- يا أمي...

قاطعته: محمد عبده وعبد الله النديم وسعد زغلول، حد فيهم افتكر أبوك بعد ما مات؟ حد فيهم قال لي أنت منين يا كلبة ولا سأل عليك حتى؟

- يا أمي!! النديم اتنفى ومات في بلاد بره.. ومحمد عبده نفوه بيروت.. وسعد زغلول...

بعصبيَّة قاطعته: هايودِّي نفسه في ستين دَامية إن شاء الله.

- وما ييقعدش على قهوة متاتيا يا أمي... ما ييقعدش ع القهوة.

قالها واقترب منها مُتأملًا عَيْنين لاثنتين غزتهما الدموع قبل أن يُحيط رأسها بكفَّيه تهدئة ويكلم مفرق شعرها.

- أنا كويّس يا أمي ما تخافيش.. الشقاوة خلصت.. م البيت للمعمل
وم المعمل للبيت.. صدقيني.

- والله ما هاستحمل أشوفك ثاني في السجن يا أحمد.

ثم ابتعدت فجأة حين لاحظت نشرات دماء على قميصه
فعاجلها مُداعبًا:

- مَا تخافيش.. دَه دم.

- دم!!

- أنا شغال في معمل مدرسة الطب يا أمي.. عاوزاني أتعاص إيه..
يعرف قسوس؟

ضحكت وهي تواري دموعها قبل أن تستطرد:

- نفسي أفرح بيلك.. أشوف لك عيل قبل ما...

- ربنا يدبكي الصبحة يا أمي.

- اتعشيت؟

- اتعشيت.. خُشِّي نامي بقّة.

خرجت تاركة المصباح منيرًا له، زَفَر ارتياحًا ثم التقط من مكتبته
المُزدحمة علبة من الصّباح اندسّت بين الكتب، عالج قفلها الصّغير
ففتحها ثم وضع يده في جيبه ليُخرج زُرًا، زُرًا عليه حَفَر بارز لبندقيتين
مُقاطعتين فوقهما تاج ملكي خُصّيته دماء جافّة، نأمله قبل أن يضمّه
إلى سبعة عشر زُرًا أخرى جَمَعَهَا على مَرَمَين ثم أشعل سيجارة
وجلس على طَرَف فراشه يتعمّن في الصّورة العتيقة المُثبتة في باطن

العلبة، صورة لرجل في لون بشرته وقسماته، يجلس مُبتسماً واثقاً في بدلة مُهندمة وبجانبه صديق على منضدة في قهوة اسمها نُقش على باب زجاجي خلفهما «متاتيا»، وتحت الصورة كُتب بخط مائل جميل:

«عبد الحي كبيرة وسعد زغلول.. يناير ١٨٨١».

وكانت لتلك الصورة قصة.

عبد الحي كبيرة، أب لم يُقابله أحمد، عاش طفولته يستجدي المعلومات عنه ولم يتعدَّ ما جُمع القصصات، جَمَعها ونقحها فصنعت صورة شبح، شبح كان يعمل ضابطاً بالمدفعية حين ألقي القبض عليه وخوكم ليُعدم ضمن عدد محدود جداً من العسكريين الذين شاركوا عرابي في الثورة ضد الخديوي قبل سبع وثلاثين سنة.. ترك الأب وراءه صورة باهتة بزي عسكري على جدار، وزوجة اشتعل رأسها شيباً لحظة أُعِدِم رمياً بالرصاص، وطفلاً، نشأ في فقر فرضته ضربات القدر، حياة مظلومة التفاصيل في بيت لا تُذكر فيه سيرة الأب المُتمرد أو الإنجليز حتى لا يتخذهم الابن عدواً وتستعير فيه رغبة الانتقام فيسير على درب أبيه..

انكفاً أحمد منذ وعى على الدراسة، وفي وقت فراغه لم يترك محلاً في الحي إلا وعَمِل فيه، مُساعد ترزي، صبي بقال، صبي عجلاطي، صبي صنائع طرايش وحتى مساعداً لساجر فرنسي في سيرك عاكف، أتقن على يديه الفرنسية وبعض ألعاب السحر والتنكر، ثم التحق بمدرسة الطب، أنهى دراسته فيها فعُيِّن بمُعامل الكيمياء بمرتَّب بالكاد يكفيه سُظف الحياة، مُوظَّف شاب ليس له شأن بالسياسة، يَنكَبُ يومياً على فوارير عمله حتى لو خَرَجَت المظاهرات لتُنَادِي بسقوط

السُّلطان الذي قبل العرش في ظِل الاحتلال، بل ويملك صدَاقَة مع
أساتذة ومديري مدرسة الطب من الإنجليز، فهو ناعم القول مُتقن
للغتهم مَرَح ومثقف، ويظنونه متفهمًا للفروق الجينية التي تُؤكِّد تفوقهم
على أبناء جنسه.

والأهم... يُجيد إخفاء ماضيه بإبتسامة لبقة.

تلك كانت الشخصية الظاهرة، أما في الباطن فكانت جذوة الحريق
مُستعلة بين الضلوع، حريقًا يشم أحمد دُخانَه ولا يرى له لهبًا، صورة
الأب في صالة البيت لم تكن الصورة الباهتة المائلة المُنهري خبطها،
كانت ملونة متينة تتكلم معه ليلاً! تُناديه وتُناجيه بنظرات عين لم تُمت،
تبث رسالة يجاهد في فك شفرتها، رسالة استغاثة! وحين يسأل أمه عما
حدث ثُمطر سعد زغلول ورفاقه بأقذع الشنائم وأشد اللعنات، قبل أن
تصمت كبحر نُضِبت.

ظل أحمد يبحث عن الإجابة سنوات حتى جاءه الرسول في
المعمل يومًا، رَجُل ريفي اللكنة يرتدي بدلة مُهندمة وقفازًا، بكلمات
مُقْتَضِبة أخبره برغبة سعد باشا في مُقابلته، سعد باشا زغلول! أذهله
الطلب وإن كتبه عن أمه لحساسيتها تجاه كل من أحاطوا أباه يومًا ولم
يموتوا معه، فهم الخونة ولا جدال، هم من باعوا القضية وصافحوا
الإنجليز وعاشوا بفضل تضحية زوجها، وتضحياتها، وبالذات سعد
زغلول الذي صاهر السُلطة وترقى في المناصب وكان يشغل وقت
أرسل في طلب أحمد منصب ناظر الحَقَّانية.

ذَهَب أحمد إليه بعد تردد، مُحمِّلًا بفضول يقتله وزكائب تخوين
وعلامات استفهام لا يعرف كيف يطرَحها، قابله في بيته الكبير بمنطقة

الإنشاء بالسيدة زينب، يعيون مُفتحة وشارب منقوش، الثراء كان بادياً على هيئته رغم تواضع نفسه وخشونة ملامحه الريفية، صافح أحمد بحفاوة ثم مسح من يده إلى عُرقه الطَّعام، أجلسه على المائدة بجانبه ثم صرَّف الخَدم وأبقى زوجته صَفِيَّة هانم، سيِّدة رزينة مُمتلئة القوام مُستديرة الوجه أنفها طويل خاد وفي شعرها خصلة بيضاء وهبتها وقار أمومة حُرمت منها، ابتسمت نحيباً له قبل أن يستفسر سعد عن دراسته وعمله وحال أمه الذي أجاب عنه أحمد باقتضاب ثم سأل:

- مُمكن سعادتك تحكي لي عن أبوي؟

نظر له سعد ثواني ثم تكلم: والدتك أكيد حكّت لك.

- أمي ما بتكلمش عن الماضي.. نهائي.

وَرَن سعد الرد قبل أن يسحب نفساً ويقص عليه قصة.

قصة الأب الذي لا يعرفه!

- والدك كان أجرأنا الله يرحمه، كان يهاجم الخديوي بصوت عالي في قهوة متأتيا، يزَعق ويشتم ولا يهمه، كان أجرأنا رغم أنه بكباشي في الجيش وحيون الخديوي في كل مطرح! وقتها كانت كُل حاجة ماشية تمام، الخديوي وافق على مطالب عُرابي^(١) لما وقف ضده في القصر، كان أول خديوي يخاف من المصريين! عُرابي صيته بقي في السماء وكلنا واقفين حواليه، وفي يوم، حصلت حادثة مكاري^(٢) مألطة اللي اتخاقت مع مصري وقتله في

(١) مطالب الجيش: إسقاط الوزارة المستقبة، تشكيل مجلس نواب، زيادة عدد الجيش المصري.

(٢) المكاري: مرافق لعماد النخل.

إسكندرية، قامت هُوجة راح فيها خمسين أقرنجي على مصري،
يُومها أوربا روجت إن رعَاياها في خطر، بعدها استغل الإنجليز
ترميم حصون إسكندرية وتحججوا بأن ده تهديد لآسطولهم
ووجهوا إنذار.. خبرتنا كانت قليلة في القذارة السياسية!!

قال الجملة الأخيرة بمرارة قبل أن يُردف:

- بعد أربع وعشرين ساعة الأسطول ضرب، دكُوا إسكندرية،
الكلام ده كان يوم ١١ يولية ١٨٨٢، تاريخ ما يتنيسش.. وقعنا في
الفخ والفرق كان كبير، الإنجليز أقوى جيش في العالم، ومع ذلك
استحملنا، شهر، لكن الخيانات اشتغلت، من الخديوي ومن
جوة الجيش، ومن «دي ليمس»^(١) الفرنسي اللي أقنع عُرابي
إن جيش الإنجليز مُستحيل يدخل من قناة السويس، ودخل
الجيش! كنا متخيلين الفرنسيين ممكن يفضلونا عن الإنجليز!
ميش بقول لك خبرتنا كانت قليلة! بعدها السلطان العثماني طلع
بيّان بعصيان عُرابي واللي معاه في وسط مُقاومتهم للإنجليز!
رَجالة كثير انسحبوا، ما عدا أبوك وشوية زُملا فضلوا معاه، في
معركة التل الكبير اتقبض عليهم، ولقونا كلنا بعدها، إحنا طلعتنا
بأحكام سجن لأننا مدنيين، وعُرابي بعد ما اتحكم عليه بالإعدام
خففوا ونفوه، قرار سياسي عشان يهدوا الجماهير.

- وابويا؟

- أبوك كان خالم يا أحمد.. والخالم ما يفهمش يعني إيه خيانة..
أعدموه.. كان لازم يكون فيه كبش فدا.. عشان الثورة دي
ما تتكررش ثاني.

(١) فرديناند دي ليمس: دبلوماسي فرنسي وصاحب مشروع حفرة قناة السويس.

قالها وسَكَتَ، هَرَبَ إلى النافذة بعينيهِ مُدركًا أَنه للشر انتهى من
خطاب سياسي طويل علَّ الجمهور يَأْسُ أو ينام، لكن عيني أحمد لم
ترمشا لحظة.

- ويوم ما مات؟

ابتلع سَعْد ريقه ومَسَحَ فمه بيمينه المائِدة قبل أن يرجع لظهور
الكُرسي مُبادِلًا النظرات مع زوجته التي أغمضت عينيها في ألم.

- يوم التنفيذ وقف وسط زمايله رَاجِل، رَفَضَ القماشة السوداء على
عينيهِ، ولما عمروا البنادق فَضَّلَ بِشْتَمَ فيهم لآخر نفس: خونة..
خونة.. لغاية ما... السر الإلهي طلع.

سَادَ الصَّمْتُ إلا من صوت جَزَاتِ أسنان أحمد.. اختلجت عيناه
وإن لم تخوناه فاستجمع نفسه.

- ومَعَالِيكَ بعد كِده توافق تبقى وزير في حكومة إنجليزي!! نسيت
نضالك والناس اللي ماتت؟ نسيت إن الإنجليزي أعداء؟

تبادل سَعْد زغلول النظرات مع زوجته فقامت مستأذنة قبل
أن يستطرد:

- في الوزارة أنا قادر على النفع أكثر من خارجها، أحسن ما نسيب
مناصبنا للناس أضعف، أو إنجليزي يحطوننا تحت رجليهم يا ابني..
هو ده الفرق ما بيني وبين أبوك.. أنا مش حالِم.

سَادَ الصَّمْتُ لحظات مَسَحَ فيها سَعْد فمه وأطراف شاربه بالمنشفة
ثم أَرْدَف:

- عشان تفهم تصرف حد «البس جزمته» زي ما بيقول الإنجليز، إحنا كنا متوكلين على فرنسا تقف جنبنا في مفاوضاتنا لخروج الإنجليز من البلد، لكن سنة ١٩٠٤ حصل بينها وبين إنجلترا الاتفاق الودي، بموجبه فرنسا سككت عن احتلال إنجلترا لينا، وإنجلترا سككت عن احتلال فرنسا للمغرب والجزائر، في اليوم ده مصر انقسمت لمعسكرين، معسكر صمم على عدم التعامل مع الإنجليز نهائياً، ومعسكر قرر يدخل جواهرهم، يكون مؤثر عشان يوفر فرصة أحسن للتفاوض ولخدمة أهل البلد، فترة كمون، لغاية ما نقوى، وده كان اختياري، ما دامت فرص الحرب معدومة.

- ومعاليك ما افتكرتش نسأل عن أسرة كبيرة؟!

- يا ابني.. أنا قصّرت في حقك وحق والدتك.

نطقها سعد بندم فدرس أحمد وجهه في الطبق محاولاً استيعاب النور الذي أضاء ماضي أبيه من بعد عتمة، أكملأ طعّامهما بشروء قبل أن يقوم سعد إلى مكتبته ويخرج منها كراساً مسطوراً بأبيات شعر في حُب الوطن.

- أبوك كان ييحب الشعر.. كان متأثر بالبارودي^(١)

ثم أخرج صورة محشورة بين الصفحات لهما معاً في قهوة متاتيا، الصورة الملصوقة حالياً في علبة الأزرار.

- أنا ما عنديش لأبوي غير صورة واحدة على الحيطه!

(١) النواء محمود سامي البارودي: شاعر مصري ووالد مدرسة الإحياء والبعث في الشعر العربي الحديث.

- أسف يا ابني إني تأخرت في طلبك.. لو احتجت أي حاجة أنا
بيتي مفتوح.

انتهت المقابلة، صاحبه سعد حتى الباب وتسلمه خادماً ليرافقه عبر
الحديقة إلى باب الخروج، تمشى واجماً قابضاً على كرّاس أشعار أبيه
والصورة، مشى بضع خطوات قبل أن يجذب عينيه طيف في الحديقة،
اختلس نظرة فرأى شفاقة رقيقة ترتدي فستاناً أبيض، تقف في أدب أمام
صفية هانم زوجة سعد باشا، رشيقة القد وجهها مشرب بخمرة، شعرها
أسود متمرج يصل إلى منتصف ظهرها، وشفتاها صغيرتان مضمومتان
تحت عينين واسعتين التفت به للحظة كانت كافية لحفر بئر عميقة في
صدره قبل أن تختليج عيناها فتلقيا بعيداً عنه.

- دي بنت سعد باشا؟

سأل الخادم فحدّجه بضيق: سعد باشا ما عندوش ولادا

رحل أحمد، لم يرها من بعد ذلك اليوم، استقرت في نفسه طيفاً
بارداً كريماً عكّره الدخان المتصاعد من صدره، رائحة شواء وطن،
بركان متحفز أشعله مشهد موت أبيه، وكلمات سعد، لم يدر بنفسه
إلا وهو يصنع قنبلة بدائية بمعمل مدرسة الطب استقى وصفتها من
كتب الكيمياء وجربها مع صديق متحمس في أرض مهجورة فانفجرت
بالخطأ لتصيبه بشظية في صدغه وتمزق إبهام صديقه، ازداد إصراره
فصنع واحدة أخرى، ونوى أن تكون من نصيب السلطان، ألقاها صديقه
مبتور الإبهام، تحت عجلات العرب السُلطانية لكنها لم تنفجر، سيق
الصديق للسجن بعدما رآه أحد الشهود وتم القبض على أحمد كيرة

ضِمن المُشْتَبِه فيهم قبل أن يخرج لَعْدَم كِفَايَةِ الأدْلَةِ، ولَعْدَم اعتراف
صَدِيقِهِ المُخْلِصِ الَّذِي حُكِمَ عَلَيْهِ بِالأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ المَوْبِدَةِ.

وَلَوْ سَاطِعَةُ خَفِيَّةٍ مِنْ سَعْدٍ زَغْلُولٍ.

حين خرج أحمد من التحقيقات أقسم على القرآن أمام أمه التي
ازدادت شيباً على شيب أن لا يرتكب العمل الوطني ثانية فكفأها واحد
من آل كبيرة يُعَدَمُ.. لكن الحنث خُلِقَ لِيُفْعَلَ!

ما هي إلا سنوات وعاد الحريق ليستعر في صدر أحمد، لكنه اكتفى
تلك المرة بشراء الأسلحة من مُرتزقة الحرب أو سرقنها لتنفيذ عمليات
قتل فردي محدودة مترك أثراً مُرعباً على قوات الاحتلال، بمُساعدة من
بعض الزملاء الموثوق فيهم من متاتيا.. دوماً متاتيا! كانت يوماً مُحِطَّةً
أبيه.. وباتت بالنسبة لأحمد...

الْمُنْطَلَقُ.



السبت ٨ مارس ١٩١٩.. حي الإنشاء.. المفيرة

لم يكن سعد مؤمناً بماكينة الحلاقة الجديدة ذات الشفرة الصغيرة، يُطلق عليها «ماكينة الأطفال»، كان يحترم الشفرة التقليدية التي تجلخ بالاحتكاك على القايش الجلدي قبل أن يمررها على ذقنه، ذقنه الذي لم يطله يوماً، كانت تعطيه دائماً مظهر المَهْموم وتُضيف إليه من العمر سنين فوق السنين التي تخطت اليوم ستيناً، صَوّت حَشّ الشعيرات كان يبعث راحة غريبة في نفسه، ينظر لنفسه في المرأة فيشعر أنه رَجَعَ شاباً في العشرينيات، يتذكّر وقتها الهاجس الغريب الذي كان يُراوده بشأن اسمه، سعد زغلول، سعد زغلول! يتردد في رأسه همساً فتحاصره فكرة مُلحّة، إن الأسماء بعضها خُلِق ليُطمَس ويغيب في طي النسيان، وبعضها خُلِق ليُخلد ويذكر، وأخرى خُلِق ليلحقها العار! وَقَعَ اسمه وسيرته يقولان إنه لن يخرج عن النوعين الأخيرين! فمُنذ فشلت حركة عُرابي والهاجس تكوي صدره، لا شيء أسوأ من ثورة مَبْتورة، ثور لم تُحسّن ذبحته وسيطيع بكل من أمامه، لا شيء أسوأ من انتفاضة حرّية تُصبح بداية عبودية لا تنتهي، يوماً تُهاجمه التساؤلات: «ماذا لو لم نثر وراء عُرابي؟ ماذا لو سكنتنا مؤقتاً على التدخل الإنجليزي في البلاد وفساد الخديوي؟ أما كان أفضل لنا أن يحكمنا رجل رغو فاسد من أن نصبح مُحْتَلين من بلد آخر؟ كنت أظنني يوماً أعرف الإجابة الصحيحة.. لكنني لم أعد مُنْكَذِّراً».

مرّت الأيام تدفين في طريقها الذكرى الأليمة، ماحية أسماء رجال
ودماء خلفوها على الأرض وراءهم، تاركة عار الهزيمة والاحتلال
يسيران بين الناس في الشوارع، هَجَرَ سَعْد قهوة متايا الشائرة وانغمس
في دراسة القانون، ثم عمل مُحامياً قَبْل أن يتقلَّب في الأوساط العليا
لينعزف بصَفِيَّة ابنة رئيس الوزارة الأكثر شهرة في عهد الاحتلال؛
مُصطفى باشا فهمي! تزوّجا، وظنَّ يومها أن حياة جديدة تنتظره، وأن
النسيان قد غلَّفه وأخمدته، تولَّى بعد ذلك وزارة المعارف ثم الحقانية
وانخرط في السياسة، وراج وقتها أن ذلك بفضل نفوذ حميه رئيس
الوزراء، ولم يكن ذلك بعيداً عن الحقيقة بكثير رغم أن سَعْدًا دبلوماً سي
مُحنَّك وسياسي بالفطرة! حتَّى أنه فوجئ بنفسه يوماً صديقاً للمندوب
السامي البريطاني!

مرّت السنوات على سعد في إيقاع تقليدي حتَّى لاحت بوادر الثورة
بداخله ثانياً، طنين خافت لم يُعَد يتوقف، بقايا كرامة تتنفس، تشقَّت
العلاقة بينه وبين الخديوي لأنه لم يرَضْ بالنفوذ الأجنبي في الوزارة
ليخرُج من منصبه مدحوراً بعد أن كان يستحق رئاسة الوزراء بحكم
أقدميته، وما لبث الخديوي أن نَحاه عن الحياة العامة وضمَّن عليه
سُبل الحياة.

انزوى سعد في بيته مُكتئباً يتعاشى جَاهِداً الانغراس في رمال اليأس
المُتراكِمة، حتَّى سَحَبته رجلاه تدريجياً إلى «كلوب محمد علي»؛ نادٍ
اجتماعي لا يرتاده إلا الأمراء وأصحاب المقام الرفيع، لعب القمار
قتلاً للوقت فغرق فيه، أدمنه، يسهر حتَّى مُتتصف الليل مع البرنس فؤاد
وبعض الباشوات، يَكسب جِئناً، وأحياناً تتعدَّى خسارته مائة وعشرين

جنيها في الليلة الواحدة! ظل على ذلك الحال حتى بدأت انتخابات الجمعية التشريعية، البديل «الركيك» لمجلس الشورى المؤجلة إقامته بأمر الاحتلال، ونجح سعد نجاحا ساحقا لمواقفه الحاسمة وسُمعته النظيفة، ليتولى منصب وكيل الجمعية سنة ١٩١٣.. هجر الحزن والياس ومنضدة القمار، سعيذا بالعودة للحياة مُتحمسا لإحياء قضية الاستقلال.

لكن سُعلة الحرب العظمى ما لبثت أن اضطرت بعد شهور قليلة! توقفت البلاد عن التنفس وعطل الإنجليز عمل الجمعية التشريعية وأعلنوا الحماية على مصر والأحكام العرفية!

رَجع سعد إلى بيته مغموما، يقضي وقته نهارا في مُطالعة الجرائد مَبثورة الأخبار، وفي ليله يَنجذب كالمسحور عائدا لمائدة القمار، حتى كانت ليلة خيسر فيها ثلاثمائة جُنيه فقام مُغاضبا نفسه خائفا على حاله، تَمْشَى حَتَّى يَبْتَه يَضرب بِعَصَاهُ الأرض، تراوده فكرة الهجرة مِن مصر، ليجِد زوجته صَفِيَّة مُستيقظة في انتظاره، رَدَّت سَلامه ببرود لم يَعْهده ثم سَأَلته: «أي طريق تسوق نفسك؟ لقد نفذ صبري وتراكت علي الآلام. كفى أنني وحيدة بلا ولد، بلا سَنَد، وأين أُمّت؟ تَضِج مني في سبيل عادة نَهمة ذميمة! لقد كُنْتُ مُؤمنة بِكَ يَوْمًا، لِن أَنَحْمِلُ أَنْ أَرَاكَ حَقِيرًا في نظري».

وامتثل سعد لرجاء زوجته بعد أن بات ليلته ينظر لصورته في مرآة الغرفة مُحاولا مَنع نَفْسِه مِنَ الانتحار.

بَعْدَ أيام قليلة لاحت بَوادر انتهاء الحرب، انتعش أمل الاستقلال في نفس سعد ثانية، وبِمَا أَنه كان وكيل الجمعية التشريعية فقد بدأ في

مُخاطبة الجَناب البريطاني، طلب حُضور مؤتمر صلح ما بعد الحرب في باريس، مؤتمر «فوساي» لتقسيم التركات الاستعمارية بين الدول الكبرى، ذهب سَعد بصحبة رفيقه «علي شعراوي» و«عبد العزيز فهمي» في وفد لمُلاقة المندوب السامي البريطاني، يومها كادت صَفِيَّة تموت قلقًا، فالاعتقال عند الإنجليز روتين يومي، ظَلَّت في الحُديقة قلقة تنتظره حتَّى عاد فحكى.

قابلهم الإنجليز بيروء ثم صرَّح لَهم أن مصر لا تستطيع أن تسير وحدها بدون راع صالح يقودها ويحميها! فرد سعد: «وماذا ينقذنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المُستقلة؟ فأجابه الرجل بأن «المصريون ليس لهم رأي صام بعيد النظر، وغير مؤهلين لحكم أنفسهم، ثم إنكم كنتم عبيدًا للأتراك! أفنكونون أحمق لو أصبحتم عبيدًا للإنجليز؟!»، فرد علي شعراوي: «إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر، لا المَبد للحر».. وكان رد الإنجليز: «ومن أنتم لتتحدثوا باسم الأمة؟». وانتهت المقابلة!

في اليوم التالي قرر «الوفد» جمع التوكيلات من الشَّعب لتُصبح لَهم الشرعية «رسميًا» في مُخاطبة الإنجليز في شأن الاستقلال...

هنا جَرَح سَعد ذقنه، شَقَّت الشفرة جلده فسالت نُقطة دَم على رقبته قبل أن تنزلق إلى جدار الحوض، وَضَع قُطنة مغمورة بالكحول على الجرح ثم هذب أطراف شَاربِه الأبيض بمقص صغير قبل أن يُرطَّب وجهه بالكولونيا ويُسرَّح شَعره، خَرَج بعدها إلى غرفته والتفط من الدولاب بدلة داكنة، ارتداها فوق قميص أبيض وصديري ثم نفَض

طَرَبُوشه القَانِي من غبار بَسِيط عَلِق به ووَضَعه على رَأْسه مَانِلًا إِلَى
الوراء قَلِيلًا كَمَا تَمِيلُ اللَّبْدَةُ الْفَلَّاحِي ثُمَّ جَلَسَ عَلَى الْمَكْتَبِ الْعَرِضِ
الْمُوَاجِه لِلشَّبَّاكِ، يَتَابِعُ عَقْرَبَ مَآعَتِهِ وَيَسْمَعُ صَوْتَ نَكْتِكَاتِهِ تَتَضَخَّمُ
حَتَّى بَاتَتْ كَدَقَّاتِ طَبُولِ الْحَرْبِ، دَقَّاتٌ غَطَّتْ عَلَى صَوْتِ الضَّجَّةِ
فِي الْخَارِجِ فَالْيَوْمَ كَانَ يَوْمُ التَّنْظِيفِ، الْخَدَمُ يَشْمُرُونَ مَوَاعِدَهُمْ قَالِيَيْنِ
أَثَاثَ الْبَيْتِ رَأْسًا عَلَى عَقَبِ، يُلَوِّحُونَ بِالْمَكَانِسِ فِي الْأَسْقُفِ مُزِيلِينَ
خَيْوُطَ الْعَنْكَبُوتِ مِنَ الْأَرْكَانِ، يَرِيقُونَ الْمَاءَ وَالصَّابُونَ عَلَى السَّلَالِمِ
الرُّخَامِيَةِ بِسَخَاءٍ، وَيَنْمَعُونَ أَخْشَابَ الْبَارِكِيهِ، أَمَّا السَّجَّادُ فَتَمَّ تَنْفِيزُهُ
قُرْبَ الْإِسْطَبْلِ، بَعِيدًا عَنِ الْحَدِيقَةِ الْوَارِفَةِ الَّتِي جَلَسَتْ فِيهَا سَيِّدَةُ
الدَّارِ عَلَى مِئْضِدَةٍ صَغِيرَةٍ وَفِي يَدَيْهَا كُوبٌ شَآيٍ بَارِدٌ نَسِيَتْ أَنْ تُشْرِبَهُ،
مَهْمُومَةٌ مَقْبُوضَةٌ النَّفْسَ شَارِدَةٌ فِي حَرَكَةِ الْخَدَمِ الرَّتِيْبَةِ تَتَأَمَّلُهُمْ بِعَيْنَيْنِ
امْتِلَانًا قَلْقًا، أَطْلَقَتْ زَفْرَةً حَارَةً لَمَّا تَطَلَّعَتْ لَجَنَابَاتِ بَيْتِهَا الْكَبِيرِ، مَلَأَتْ
عَيْنَيْهَا مِنْ أَرْكَانِهِ كَأَنَّهَا تَرَاهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تَتَذَكَّرُ يَوْمَ انْتِقَالِهَا إِلَيْهِ حِينَ انْتَهَى
سَعْدٌ مِنْ بَنَائِهِ وَتَزَوَّجَتْهُ بِالْأَثَاثِ مِنْ فَرَنْسَا وَفِينَا وَالْمَانِيَا، بَيْتٌ يَلِيْقُ بِابْنَةِ
بَاشَا وَرئيسِ الْوُزَرَاءِ، كَانَتْ تُشْعُرُ بِالْبَهْجَةِ لَا بِالتَّشَاوُمِ الَّتِي تُحْسِنُ الْآنَ
«لَنْ أَحْبِشَ لِلْأَيْدِ ابْنَةَ الْبَاشَا وَزَوْجَةَ الْوَزِيرِ الْعَرْمُوقِ، لَنْ أَظِلَّ سَيِّدَةَ الْمُجْتَمَعِ
وَالْحَفَلَاتِ الْمَحْبُوبَةِ وَصَاحِبَةَ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ، سَيَحْدُثُ شَيْءٌ مُثِيرٌ، مُزَلْزَلٌ،
بِسَبَبِ نَشَاطِ سَعْدِ الَّذِي بَاتَ حَدِيثُ الْبِلَادِ، سَيَصْبِحُ مَحْبُوبًا يَصِلُ لِمَرْتَبَةِ
الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ أَخْرَقَ مَجْذُوبًا لَنْ يَأْتِيَ لِلْبِلَادِ وَلِبَيْتِهِ إِلَّا بِالْإِدْمَارِ، كَمَا فَعَلَ عُرَابِي
مِنْ قَبْلِهِ إِذْ وَاجَهَ جَيْشَ إِنْجِلِيزِ مُتَتَمِرًا، الرِّصَاصَةُ فِيهِ.. لَا تُحْنِ لَهَا».

أَفَاقَتْ صَفِيَّةً مِنْ خَوَاطِرِهَا حِينَ انْتَقَطَتْ أَذْنَاهَا جَلْبِيَّةُ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ
مَدْخَلِ الْبَيْتِ، لَمَحَظَاتٌ وَلاَحَتْ نَازِلِي فِي فُسْتَانٍ يَتَهَادَى تَحْتَ رُكْبَتَيْهَا

لها خفة، رشيقة كغزال، عَفَصَتْ شَعْرَهَا صَفِيرَةً سَمِيكَةً تَدُلُّ عَلَى
كُنْهٍ قُرْبٍ وَجْهَ تَلَوُّحٍ فِيهِ الرُّوَادُ الْقَرْنِسِيَّةُ مِنْ أُمِّهَا؛ صَدِيقَةُ صَفِيَّةَ
الْعَزِيزَةِ الَّتِي مَاتَتْ مُنْذُ سَنَوَاتٍ يَمْرُضُ عَضَالُ بَعْدَ أَنْ أَوْصَتْ إِلَيْهَا
بِرَهَابَةِ صَغِيرَتِهَا.

اعْتَنَتْ صَفِيَّةُ بِنَاذِلِي، جِرْمَانُهَا مِنَ الْإِنْجَابِ جَعَلَ مِنْهَا ابْنَةً حَقِيقَةً لَهَا
وَلِزَوْجِهَا سَعْدٍ، تُنَادِيهِمْ بِأَبِي وَأُمِّي، وَلَا يَكَادُ يَمُرُّ يَوْمٌ إِلَّا وَثَانِي لَزِيَارَةِ
بَيْتِهِمَا، تَقْطُرُ مَعَهُمَا أَوْ تَلْحَقُ بِهِمَا وَقْتُ شَأْيِ الْعَصْرِ قَبْلَ أَنْ تُجَالِسَ
صَفِيَّةَ فِي الْحَدِيقَةِ لِلْعِبْ كَوْتِ شَيْئَةٍ، لِعِبْتِهِمَا الْمَفْضَلَةَ، تَحْكِي أَسْرَارَهَا
وَأَحْلَامَهَا وَتَأْخُذُ بِرَأْيِهَا فِي شَأْنِ الْخَاطِبِينَ، طَالِبِي الْوَدِّ وَالْوَصَالِ الَّتِي
تُنْذِرُهُمْ لَعْدَمِ تَوَافُقِهِمْ مَعَ مِزَاجِهَا الْخَاصِّ، فِيهِ فَنَاءٌ جَمِيلَةٌ مَرْغُوبَةٌ،
سَلِيلَةٌ عَائِلَةٌ قَوِيَّةٌ خَلِيطٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَالْمَصْرِيِّينَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ، مُدْرِبَةٌ
عَلَى الْإِنِّيْكِيَّةِ وَلَا يَأْتِيهَا رَاغِبٌ إِلَّا مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَرَاءِ وَالْبَاشَوَاتِ،
طَالِبِي الرَّاحَةِ بِلَا نَعَبٍ مُبَرَّرٍ، أَمَّا هِيَ فَجُورَانِيَّةٌ مُتَقَلِّبَةٌ الْمِزَاجِ تَعَشِّقُ
كَسْرَ الْفَوَاعِدِ كَالْبَحْرِ الْهَائِجِ، تُزَعِّجُهَا التَّقَالِيدُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْمُتَكَلِّفَةُ
وَالْحَفَلَاتُ الصَّاخِبَةُ الَّتِي تَحْضُرُهَا عَلَى مَقْصَرٍ مَعَ الدُّهَى مُحَافِظُ
الْقَاهِرَةِ، تُشْتَكِي دَوْمًا مِنْ وَضْعِ الْإِنْجَلِيزِ فِي السِّلَادِ، وَأَذْنَاهَا لَا تَتَزَيَّنَانِ
إِلَّا بِأَرَاءِ أَبِيهَا سَعْدٍ فِي السِّيَاسَةِ.

أَقْبَلَتْ نَاذِلِي وَابْتِسَامَةٌ مُشْرِقَةٌ تَعْتَلِي وَجْهَهَا:

- بُونَسَوَارِ مَآمًا.

- بُونَسَوَارِ يَا حَبِيبَتِي، تَعَالِي فِي الْفَيْلِ.

جَلَسَتْ نَاذِلِي فَأَشَارَتْ صَفِيَّةَ لَخَادِمٍ اقْتَرَبَ:

- حَضَرَ الغدا ونَبَّهَ الباشا.

هَزَّ الخادم رأسه وابتعد حين لَمَحَتْ نازلي الشُّرود في مَلامِح صَفِيَّة:

- مَالِك يا ماما؟

تظاهرت صَفِيَّة بابتسامة: سَلامتك يا حَبِيبتي.. مالِيش.

- فيه حاجة؟ بابا بخير؟

أطَرقت برأسها إلى السماء قبل أن تزفر: بخير.. كل يَوْم يبعثوا اللي
يحذر واللي يتوعَّد.. حَتَّى أَقرب الناس يَعدوا.

- جِبانات.

- معذورين.. اللي شافوه مش قليل.. ومين يقف قَدَام
سلطان وإنجليز؟

- أنا خايفة على بابا سعد.

- هيه.. تَعَالِي نَتَكَلَّم في حاجة تانية.. احكي لي.. عملتني إيه
مع العريس؟

- لَر كُنْتُ موجودة ما كنتيش هاتصدَّقني، اسمه شوكت، ابن
عبد الحليم باشا زُهدي بتاع الغريبة، بيشتغل مِعماري.

- تمام.

- وطوله قد كِدّه...

وأشارت بيدها لارتفاع مِتر ونصف فوق الأرض قبل أن تُردف:
مِش مُشكِلة، أبطل ألبس كعب، تخين، مِش مشكِلة، يخس، لكن

تخيّلني يطلب إيه؟ عاوزني أعيش معاه في الهند!! باباه بيفتح له شركة هناك.. معتوه!!

لم تكذ صَفِيّة بتسّم مِن سُخرية نازلي اللاذعة حين مَرَق من باب الحديقة صبي بدين، رَكَض بِسُرعة حتى المِنَصْدَة التي تجلسان عليها قبل أن يَقفَ لاهثًا مُحاولًا التقاط أنفاسه ليتكلم:

- فيه إيه يا حسن؟ سألته صَفِيّة بتوتر.

- الإنجليز قبضوا على محمّد باشا محمود.. وعربياتهم جاية على هنا.

- سعد!

قامت منتفضة حين التقطت أذناها صَوْت سَيارات الجيب، هَرعت مَادَّةُ خُطواتها لَمَدخل السّلامِلك حين اخترقت أوّل سيارة باب المنزل، فرملت فائزات الأتربة ونزل منها الجنود في سُرعة شاهرين بنادقهم في وَجِه البواب والجَنائِي اللّذين رَفعا ذراعيهما هُلَعًا، التفتت صَفِيّة خلفها فتبيست رُعبًا، لَحظّات وظَهَرت سَيارتان إصافيّتان، واحدة منهما كانت تَقيل محمّد محمود باشا، زميل سَعد ورفيقه في حَركة الوفد، تلاقت عيناها عبر زجاج السيارة فهز الرجل رأسه مؤكدًا لها صدمتها «نعم يا عزيزتي، سيعتقلون زوجك!».

هرعت إلى الباب فأوقفها صَاغ إنجليزي:

- سيدتي.. لا داعي للجلبة.. أين سعد باشا؟

- ماذا تريدون منه؟

قبل أن يُجيبها تسلسل الصبي من باب السلامك وقفز الدرج المفضي إلى عُرفة المكتب حيث يجلس سعد، بدون أن يَطرق الباب فتحه وكان ذلك أمرًا جَلَلًا، سعد كان لا يزال جالسًا على مكتبه، التفت للفتى الذي قاوم انفعاله ولهاته ليتحدث:

- الإنجليز هنا.. جاين يقبضوا على معاليك.

أجابه سعد بهدوء: طيب يا حسن.. رُوح أنت إلعب.

لم يكذب يُكمل جُمْلته حين ظهر الصَّاع الإنجليزي من خلف الصبي، أمسك رأسه الصغير وأزاحه برفق قبل أن يتقدم وهو يتفقد الغرفة بعينه، لم يَقُم سعد من مكانه، تأمل الصَّاع الذي وقف أمام المكتب وأدى التحية العسكرية بكسل ثم تكلم:

- لديَّ أمر من القائد العام بالقبض عليك وتفثيش منزلك.

أجابه سعد بإنجليزية سليمة: لقد جئت متأخرًا.. لقد انتظرتك منذ وقت طويل.

بدا على الصَّاع عدم الفهم.

- لكن الأوامر التي عندي أن أقبض على معاليك الآن.. في الخامسة مساءً.. والآن هي الخامسة!!

وقف سعد ووزن طربوشه: إذن هيّا بنا.

خرج من الباب هادئًا، بل وبدًا راضيًا في أعين مُعاونيه المُشاركين في حملة الاستقلال والخدم الذين تأملوا سيدهم بجزع وهو ينزل

درجات السلم متوَكِّأً على عَصَاهُ، ناظراً في أعينهم بيت الثقة فيهم
ويَنطق بكلمة واحدة كلما مر بأحدهم: تشجعوا.

في البهو كانت صَفِيَّةٌ واقفة تجز أسنانها قلقاً، تتأمل الحنود الذين
يفتشون البيت بحثاً عن كل ورقة أو كتاب يُصادرونه، تُحُثُّ خَادِماً على
الإسراع في غَلْقِ حَقِيبة متوسطة فيها ملابس وأدوات مَعِيشة تكفي
زوجها أياماً، اقترب منها سعد ونَظَرَ في عينيها اللتين لمعتا بالدمع قبل
أن يَضْطَظَّ على أصابعها في كَفِّهِ مَثْبِتاً فؤادها: «مَا تَخَافِشِ...» ثم التفت
إلى نازلي التي أعمنها المَفْاجَأَةُ وابتسم في حنان ملطفاً ورَبَّتْ على
ذقنها، ثم هَمَسَ في أذن يسكر تيره الخاص عبد الرحمن فهَمِيَ بكلمات
مُقْتَضِبة قبل أن يخرج إلى السيَّارة التي ابتعدت به مُبْعَثرة الانقباض
في النفوس، تابعه أهل البيت حتَّى اختفى، ظَلَّتْ صَفِيَّةٌ واقفة تنظر في
الفراغ حتَّى خانتها قدماها فانهارت على مدخل السلامك بجانب
نازلي التي احتوتها في حُضْنِهَا.



دَخَلَ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَعَلَا مَكِيدًا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ، طَرَحَ
هَارُونَ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عِيِيدِهِ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا، قَدَعَا فِرْعَوْنُ
أَيْضًا الْحُكَمَاءَ وَالسَّحَرَةَ، فَفَعَلَ عَرَّافُو بَصْرَ أَيْضًا بِسِحْرِهِمْ كَذَلِكَ،
طَرَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَصَارَتْ الْبُوصِي ثُعَابِينَ، وَلَكِنْ عَصَا
هَارُونَ ابْتَلَعَتْ بَصِيْرَهُمْ، فَاسْتَدَّ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا...

اعتادت يومياً أن تُردد تلك الآية من سفر «الخروج» حين يبدأ سقف
الغرفة في الحركة، يشخص بصرها فتتحرك شفتيها همساً وهي تُراقب
الشعبان الأسود الكبير يتلوى مُتمرّغاً في بحر من الحيات الصغيرة،
فارجأ فمّاً عملاقاً يخرج منه لسان مشقوق يلتقم به ما طال منها، ثم
يهرس جسده اللزج اللامع ما لم يطله!

الوزن كان فوق الاحتمال تلك الليلة، بضوئية وبين لحظات الصعود
والهبوط فوقها كانت تسحب لوتيتها نفساً يُبقِيها في منطقة الرعي، يخور
في وجهها كالشور نافثاً بخاراً عطناً اختلط فيه الأفيون بالكحول مع
عَبَق طبقات جير في أسنان لم تُعرف العجلى، يلحق رقبتها ويُخصِص
أذنيها ويبرز عرقاً سائحاً يجري على جِلدها سيلاً يحرق في طريقه كل
ما يُقابله، قبل أن يحكّها بصوف صدره المُتشابك فيترك خريشة حمراء
وعلامات! بذرة الأفيون التي دفنها تحت لسانه وسقاها بالشاي كان

لها مفعول السحر في تأخير ذروته وتمديد عذابها تحته، ثلث ساعة من البعثرة والعصر والتنقيب، دُمِّر خلالها الحرث والنسل قبل أن يفيض نهره وتخور أعصابه، ارتمى عليها كالقتيل فانغرز الصليب الخشبي في منابت صدرها بالم، ثم سُخِرَا غَطُّ فوق الثدي النأيد ولم تملك إلا أن تُغمض عينيها وتنتظر، دقيقتان بدتا عامين كاذَ قلبها فيهما أن يتوقَّف قبل أن يقوم من فوقها، شهقت جوعًا للهواء فتظر إليها كأنه يراها لأول مرة، تدارك نفسه فَمَسَحَ خطيئته في الملاء ثم دَسَّ قميصه في البنطلون وتمم على المحفظة في جيبه ثم التفت إليها:

— عَسَل.

نظرت إليه ولم تُعَقِّب، صَمَّتْ رُكْبَتَيْهَا إلى صدرها ثم استلقت كالجنين فانسحب من الغرفة، أغمَضَتْ عَيْنَيْهَا مُقَاوِمَةَ التقيؤ من بقايا رائحته فيها وداهمت أعراض الانسحاب، بُرودة تنتشر ونبضات قلب عَنيفة مُتْبَاعِدَةٌ تهز جَسَدَهَا، مَرَّتْ دقائق قبل أن يَفْتَحَ الباب عن سلامة النجس، يَرْتَدِي مُسْتَرَةً بنية فوق جلباب سَمَنِي وبُلْغَةٌ في قدميه، فَتَحَ الشباك تَغْيِيرًا للهواء وهو يردد أغنية خافتة، ثُمَّ أَخْرَجَ علبة ثقاب من جيب السيالة وأشعل فتيلة القنديل المُنطفئ واقترَب من السرير، تَمَشَّى بِعَيْنَيْهِ على الجسد البض المسجى بِضَعْفٍ فَجَرَى رِيقُهُ، انْقَضَتْ لَحَظَاتٌ قَبْلَ أَنْ يَزْدَرِدَ لُعَابُهُ وَيَتَمَالِكَ نَفْسَهُ وَيُنَادِيهَا:

— ورد.. ورد.. قومي يا بت.

تمت بكلمات لا معنى لها فألقى نظرة على الباب مُطمئنًا لَئِذَا جُودَ أَحَدٌ قَبْلَ أَنْ يَمْدَ يَدَهُ وَيَلَامِسَ صَدْرًا عَاجِيًا مُتَوَرِّدًا نَائِمًا فوق

أخيه، لم يند عنها ما يُشير أنها شعرت بلمساته، كانت غائبة فتَمَادَى
بشبق حتّى ارتعش، لم تكن مرّته الأولى في تحصيل ضرائبه الخاصة
من عاهراته، تشعربه وَرد أحياناً ولا تجسر على الشكوى، وأحياناً
لا تُدرك إلا أثره المُتبقّي.

التقطت أذنا سلامة وقع قَبْقَاب خشبي فنَقَضَ يده عن اللَّحْم الطَّرِي
وسوَّى جلبابه حين لَاحَ ظِل عَظِيم عند البَاب تبعته بَنِيَّة، بَدَتْ للتو
مُسْتَيْقِظَةٌ تَجُرُّ شَحْمَهَا في ثَوْبٍ انْحَسَرَ عن فخذين من الضَّان، رَمَقَتْ
سلامة بريئة فتوقفت:

- بتعمل إيه عندك؟

- هاكون بعمل إيه يعني! بننصف الأوضة.. البيت نايمة ومش
عاوزة تقوم.

اقتربت بنية من السرير وألقت نظرة على جَسَد ورد والعلامات
الْحَمراء على جلدها.

- البيت دي مين اللي كان معاها؟

أجابها بتردد: سعيد بتاع كُوبانية الميَّة.

- يا ابن الفارحة!! أنا مش قُلْتُ مَيِّت مرّة الشَّحَط ده ما يخشش
عندي غير على بهيَّة القمر.. ده بيبليع ودي طرية ما تستحملوش.

مش عاوز هو بهيَّة القمر.. زهق.. أعمل إيه؟ شافها شَيْط.. ودَفَع..
لا لافي الأيام المأندلة اللي إحنا فيها دي؟ أنتِ مش شايفة

جَزَّتْ عَلَى أَسْنَانِهَا وَرَمَقَتْه بِأَشْمُتَاز: دَفَعَ كَام؟

- رِيَالَيْنِ... وَطَفَحَ بِيْرَةٌ بِثَلَاثَيْنِ قَفْصَةً.

- مَاشِي.

قَالَتْهَا ثُمَّ وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى جَبْهَةِ وَرْدِ الْبَارِدَةِ:

- الْبَتِ دِي بَلِيعْتَ آخِرَ مَرَّةٍ إِمْتِي؟

- إِمْبَارَحِ.. مَخْسُوكَةٌ.. هَاتَمَوْتُ.

- مَا نَفَوَّلْشَ إِلَهِي تَسْخِطُ.. أَظْلَبْتُهَا بَعْدَ مَا أَحْمِيهَا عَشَانَ تَفُوقِ..

لَسَهُ اللَّيْلُ طَوِيلٌ وَعِنْدِي اثْنَيْنِ عَطْلَانَيْنِ.

دَسَ سَلَامَةً ذِرَاعَهُ خَلْفَ ظَهْرِ وَرْدٍ وَأَجْلَسَهَا مُتَرْتِّحَةً قَبْلَ أَنْ يَنْحَنِي وَيَحْمِلَهَا، خَرَجَ بِهَا إِلَى الطَّرْقَةِ تَتْبَعُهُمَا بِنْتُهُ حَتَّى دَخَلُوا الْحَمَّامَ، أَجْلَسَا وَرْدَ فَوْقَ كُرْسِيٍّ خَشَبِيٍّ صَغِيرٍ وَأَسْنَدَا رَأْسَهَا عَلَى الْحَائِطِ فَحَدِّجَتْهُ بَوَهْنٍ بَيْنَ غَيْبَتِهَا وَيَقْظَتِهَا.. تَمَتَّتْ: وَيَا يَقْشُكْ.

ابْتَسَمَ لَهَا بِأَسْنَانِهِ الذَّهَبِيَّةِ ثُمَّ قَالَ لِبِنْتِهِ:

- هَاجِبِ لَهَا حَاجَةَ حَادِقَةِ عَشَانَ تَفُوقِ.

تَرَكَهُمَا سَلَامَةً فَالْتَقَطَتْ بِنْتُهُ كَوْزًا مَلَأْتَهُ مِنْ بَسْتَلَّةٍ فَوْقَ بَابُورٍ جَازٍ مُشْتَعِلٍ ثُمَّ صَبَّتْ عَلَى رَأْسِ وَرْدِ الْمَاءِ الدَّفَافِيَّ فَشَهَقَتْ.

- اسْمُ اللَّهِ.. اسْمُ اللَّهِ.. فَوْقِي يَا وَرْدُ؟

- بَدِّي أَرْوَحُ...

بِالْكَادِ خَرَجَتْ الْحُرُوفُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهَا فَعَاجَلَتْهَا بِنْتُهُ:

- فَرَزِيرَةَ سَلَامَةٍ هَا يَعْشِيكِ وَيَنْعَمُشْكِ.. إْحْنَا عِنْدَنَا كَامٍ وَرْدِ.

التقطت أذنًا اسم سلامة فاقشعر جلدها، قاومت زيف عينها بصعوبة فأكملت بنية غسلها وإزالة ما علق بها من الشور الهائج الذي هتك وجري، انتهت فألبستها قميصًا من الساتان فتحة صدره لم تخف ثديها، خضبت الشفتين ثم مشطت شعرها بعناية وعطرتها قبل أن تسندها إلى غرفة المعيشة.

كنبتان إسطنبوليتان رقدت عليهما عاهرتان مُحترفتان أنخمت وجهيهما الأصابع، وفي المنتصف منضدة عليها زجاجات تبيذ وبيرة وكونياك بجانب طبق يرمس وجبة قديمة وثلاث شيشات محشوة بالمعسل.. قرب الباب المفتوح ارتمت بنية على كرسيها الأثير، فارجة ساقيها كبوابتين عظيمتين لمدينة بائدة، وفوق رأسها يافطة صغيرة كتبت فيها بخط ديواني «تنازلت عن كبريائي إرضاء للطلبة».. على الكنبه رقدت ورد في إعياء، اقترب منها سلامة وبسط يده بقطعة أفيون صغيرة، بلا مقاومة التقطتها ورد ووضعتها تحت لسانها، رمقتها صاحبها بحقد حتى ألقت برأسها إلى الوراء تنتظر المفعول أن يسري في عروقها، فأطرقت بعينيها إلى السقف في استرخاء، دس سلامة في يدها نصف رغيف فيه جبن ومخلل ثم نزل إلى الشارع يرمي شباكه على المارة يتنقي رزقًا.. قُضمت ورد قفصة جاهدت لتبتلعها حين تنهدت سنية؛ سمراء واسعة العينين عظيمة العجيزة، مسحت بشرة ورد العاجية: - هو كده ياختي.. أوله دلغ وآخره وجع.

ألقت كلمتها كحجر ي الرّد وانتظرت الرّد فالتفت إليها بنية: اتلّمي يا سنية.

- يوه يا أبله! وأنا قلت حاجة؟ البت صعبانة عليا.. ما تستحملش العجين اللي بنعجنه ده.

- ما كنتي زيتها يا روح أمك يوم ما جيتي .. وكنتي بتأوئي لي كل يوم .. إيه؟ غيرانة؟

- أغير من إيه إن شاء الله؟! رُفعي رُفع البوصة ولا بيضة زي اللفت اللي يشوفها يقول قِرفت؟!

ثم خبطت بكفها مؤخرتها الهائلة فصنعت مَوجة .. أردفت: الأبريق المليون ما يقفلش يا أبله.

حدجتها بنبة بحددة قبل أن تشحد لسانها:

- قال بعد سنة وبيت أشهر جت المعدة تشخر .. أنت نسييت نفسك يا بيت؟ أنت لولا الظروف كان زمانك عبدة عندها.

أخبرستها بسيرة العبودية فرمت شفيتها وبرطمت بالسباب همسا وهي تمير غيظا، لم تكن تجرؤ على خوض معركة مع بنبة وديونها ثقيلة لا يكاد دخلها الشهري يكفي سدادها، علاوة على أنها سلمت شهادة العتق لبنبة يوم عملت عندها، ضمانة لسداد حق الملابس والذهب ومصاريف رُخصة ممارسة العمل، بدون تلك الورقة ستعود كما جاءت .. مملوكة لا يسع لها.

سكنت سنينة فعقبت بهية القمر؛ سماها زبائنها بذلك الاسم لشهرة نصفها السفلي الذي يشبه ثمرة كمثرى متطرقة الأبعاد:

- الرجال زي الجزارين يا أبله، ما يحبوش إلا السمينه، ودي هفتانة هاتسورق وهتجيب لنا نصيبه هنا، والصراحة من ساعة ما عتبت السنيورة الأفيون والزباين اتقسموا علينا، خدت نصيبنا.

- اللي مش عاجبها تسدّد اللي عليها وتشترى بفلوسها من
الأجرخانة" يا إمّا تتكل، الباب يقوّت ميت جمل.

عم السكوت بعدما نزلت كلمات العدل، كل واحدةٍ منهم غابت
في ملكوتها قبل أن يترأى لسمع بنبة وقع أقدام وصوت سلامة يرحّب
بزبون، عدّلت من جلستها وحدجت الفتيات بغضب فاضطجعن
بمبوعة كشفت عن بضاعتهم، عدا ورد، لم تنزل رأسها من السماء،
لحظات ودخل سلامة ومن ورائه شابّ حمري قويّ البنية:

- اتفضّل يا عبد القادر أفندي.. البيت نور.

قامت بنبة حين رآته واقتربت بغنج أثار في نفسه الاشتزاز لكنّه
ابتسم، ينظر إليها ولا يكاد يصدّق أنّه وطأ هذا الجسد يومًا قبل أن تعتزل.

- قال بعد نومك مع الجديان بقى لك مظلّ ع الجيران! فينك يا سي
عبد القادر؟ شهر لا جس ولا خبر!!

- مشاغل يا بنبة.. مشاغل.

قالها ودار بعينيه في الجالسات، غمز بعينه بهيئةً وحيًا سنيةً بابتسامة
قبل أن تمرّ عيناه بورد التي نظرت له نظرة خالية من المعاني.

- مال سوقك شاحج النهاردة؟! سأل بنبة.

- عندي اتنين عليهم الحرمانية.. بييرة؟

- لا.. هاتي لي إزازة كونيالك وكوباية نصيفة.

(١) كان الأفيون يباع في الصيدليات حتى سنة ١٩٢٢.

في الغُرفة الرطبة التي يُفضِّلها استرخى عبد القادر على السَّرير بعدما خَلَعَ قَمِيصه والجِذاء، لم يكن ذلك المكان بيت فاحشة بالنسبة له، كان بيته الثاني، فبنية تولَّته مُنذ كان طالبًا في المدرسة، تَعلم على يَديها وفخذيها مَسالك التعامل مع جَسَد الأُنثى، وفقد في نفس الوقت احترامه، وها هي الآن تنظر إليه كَمُعَلِّمة فَخورة بطالِب رُبَّتَه حتى صار له شأن، صَبَّت كأسه وتأمّلت وجهه التهموم.

- مَالِك مَرَحِي كِدَه؟

- مَالِيش.. قَرَفَان.

- أَبُوك؟

زفر بضيق: افتكري حاجة عِدلة!!

- إيه اللي حصل له الراجل! دَه كَانَ صَاحِب مَزَاج ونسوان الأُزْبُكِيَّة يشهدوا.. اتطس باين له عين وَلَا اتسحر له عمل.

- اتطس بقه مَاطُسْش!! هُو خُر.. أَنَا هَايِتْ عِنْدِكَ النَهَارْدَة.

- يَا خَرَّاشِي.. بَيْتِكَ وَمَطَرَحِكَ يَا عَبْد الْقَادِر.. أَجِيب لَكَ مِين؟
- بَهِيَّة.

ثم استدركها قبل أن تُصِل الباب.

- وَلَا أَقُولُكَ.. هَاتِي لِي الْبَت الْجَدِيدَة.. السَّفِيْفَة الشَّقْرَادِي.

- مِش عَوَايِدُكَ الرَفْتَعِين!

- تَغْيِير.

اختفت بنية فأخرج عبد القادر من جيبه قنينة في حَجَم إِيهام، مَكْتُوبًا
عليها كلمة «نفروطن» المدهش، فَتَحَهَا وَتَجَرَّعَ مِنْهَا جَرْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ
يُعِيدَهَا لَجَبِيهِ حِينَ دَخَلَتْ بَنِيَّةٌ وَمَعَهَا وَرْدٌ تَسِيرِيْنَ يَدِيْهَا مَسْلُوبَةٌ الْإِرَادَةِ،
أَجْلَسَتْهَا عَلَى السَّرِيرِ وَابْتَسَمَتْ لِعَبْدِ الْقَادِرِ قَبْلَ أَنْ تُغْلِقَ عَلَيْهِمَا الْبَابَ،
اعْتَدَلَ عَبْدُ الْقَادِرِ فَتَأَمَّلَ جَسَدَهَا الشَّعْمِيَّ وَعَيْنَيْهَا الْذَاهِلَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ
يُلْحِظَ الصُّلَيْبَ الْخَشْبِيَّ الْمُتَدَلِّيَّ عَلَى صَدْرِهَا وَثَلَاثَ حَسَنَاتٍ اسْتَوَيْنَ
عَلَى خَطِّ وَاحِدٍ فِي رَقَبَتِهَا، مَدْرَاحَتَهُ وَلَا مَسْهَنَ.

- أَنْتِ لَوْ دَافَعَةَ فُلُوسٍ عَشْرَانٍ تَتَرَسَّمُ لَكَ الْحَسَنَاتُ بِالْمَنْظَرِ دَهْ؛
مَا كَانُوا شَهِائِقُوا كَدَهُ!!

قَارَمَتْ رَیْغَ عَيْنَيْهَا وَلَمْ تَعْقُبْ فَأَرَدَفَ: اسْمُكَ إِيَّهْ؟
أَجَابَتْهُ بُوْهَنْ: وَرَدَ.

- اسْمُ الصُّلَيْبِ حَارِسُ صَاحِبَتِهِ وَصَائِنُهَا.. أَقْلَعِي يَا وَرَدَ.



بَدَتْ مَنَاطِقَ الإنشاء خالية مهجورة، كأن لَمْ تُغْنِ بالأمس، أشجارها
 أشباح ومبانيها أطلال ويَلاط أرضها المُحْدَب كسَاء التُّدَى فَعَكَسَ
 مَا تَبَقَّى مِنْ مُشْعَلَاتِ غَازِ الاستصباح الواهنة فِي الأعملة.. بيت سعد
 زَغُولٌ لِلقَادِمِ مِنْ مِيدَانِ السَّيْدَةِ زَيْنَب كَانَ يَقَعُ عَلَى الْيَسَارِ، يُشَبِّهُ
 مَخْلُوقًا صَخْمًا شَاخَ فَجَاءَ فَمَاتَ مَكَانَهُ، أَظْلَمَ السَّلَامِيكَ وَخُلِفَتْ
 البوابات وَعَمَّ الشُّكُونُ الحَدِيقَةَ وَالْأَسْوَارَ، قَبِعَ الحُذُمُ فِي الطَّرَاقَاتِ
 وَالْمَطْبَخِ أَرْقِينَ عَلَى مُسْتَقْبَلِ سَيِّدِهِمْ، يَخْدُمُونَ زُرُوجَاتِ الْمُعْتَظِلِينَ
 وَالصَّدِيقَاتِ الْمُتَعَاظِلَاتِ اللَّائِي افْتَرَشْنَ العُرْفَاتِ مُتَشِجَاتٍ بِالسَّوَادِ
 فِي مَنَاطِمٍ بَدُونِ مَيِّتٍ، أَمَا بَقَايَا أَعْضَاءِ الْوَفْدِ فَنَامُوا فَرِيقَ كُنُتَاتِ الصَّالُونَ
 وَالْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ أَنَهَكْتُهُمْ مُنَاقَشَاتِ زُدُودِ الْأَفْعَالِ الْمُقْتَرَحَةِ وَصِيَاغَةِ
 خُطَابَاتِ الْإِسْتَهْجَانِ وَالشَّجَبِ خِصْدِ الْإِعْتِقَالِ، أَمَا صَفِيَّةٌ، فَجَلَسَتْ
 قُرْبَ نَافِذَةِ تَطَلُّ عَلَى آخِرِ مَوْضِعٍ شَوْهَدَ فِيهِ سَعْدٌ، كَانَ يَرْمُقُهَا مِنْ وَرَاءِ
 رُجَاجِ سَيَّارَةِ الْجَيْشِ وَعَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ غَرِيبَةٌ أَصَابَتْهَا بِالْحَيْرَةِ، لَمْ
 ابْتَسِمْ؟ سَأَلَتْ نَفْسُهَا: هَلْ فَقَدَ عَقْلَهُ؟ هَلْ سَارَاهُ ثَانِيَةً أَمْ أَنْ مُصِيرَ عُرَابِي
 يَنْتَظِرُهُ نَفِيًّا وَتَشْرِيدًا؟ تَعْرِفُ أَنْ الْجَرَائِدَ لَنْ تَتَنَاوَلَ خَبَرَ الْإِعْتِقَالِ، وَتَعْرِفُ

أنها إن استغاثت فلا مُجيب، فغضبة السلطان والإنجليز لا راد لها، مع كل ثانية يتحرك فيها بندول الساعة الكبيرة تتأكد صفة أن ما ظنته يوماً هو أجنس حول مصيرها.. صار واقعاً.

لم يقطع أفكارها سوى التوكر الذي توقف أمام الباب، نزل منه عبد الرحمن فهمي يسكر تير الوفد فقامت وتتمت بعجل على الحجاب ثم غطت نازلي النائمة على مقعد حين أتى خادماً وأخبرها برغبة الرجل في مقابلتها، لحظات والتقطت صوت خطواته على السلم وسعلة تنبيه مفتعلة قبل أن يدلف إلى الغرفة، كان ممتلي الوجه شركسي الملامح يعلو شفاهه شارب مهذب كبير، خلع طربوشه تحية للسيدة قبل أن يجلس.. من التوتر لم تسأله فعاجلها:

- سعد باشا والمُرافقين باتوا في ثكنات قصر النيل.. هايركبوا قاطر الساعة حداثر لبورسعيد.. فيه باخرة بتتخضر.. عندي معلومة إنها رايحة مالطا.

تملكها دوار فتهدج نفسها وزجعت بظهرها إلى الكرسي قبل أن تُردف:

- فيه أي تصريح من المندوب؟

- المندوب السامي كان عامل حفلة في قصر الدوبارة.. بيحتفل بالاعتقال!

- الكلاب!!! هايعملوا فيه زي ما عملوا مع عرابي.

- مش هايقدرُوا.. الناس مش هاتسكت.

قَالَهَا بِثِقَةٍ فَأَزَاحَتْ مَسَائِرَ النَّافِذَةِ وَأَشَارَتْ إِلَى الشَّارِعِ السَّاكِنِ الْمَبْتَلِ
بِلَهْدَى الصَّبَاحِ:

- الشَّارِعُ فَاضِي مِنْ إِمْبَارِحَ.. كَأَن مَا حَصَّلْشَ حَاجَةً.. وَالْجَرَايِدُ
مَشْ هَاتَكْتَبْ.. وَالسُّلْطَانُ رَاضِي.

- إْحْنَا عَامِلِينَ حَسَابِنَا لِكُلِّ دَهْ.. وَالنَّهَارُ دَهْ بِاللَّيْلِ هَانَعْمَلُ اجْتِمَاعُ
فِي بَيْتِ عَلِيٍّ بِأَشَا شَعْرَاوِي عَشَانُ نَسَقْ...

قَاطَعْتُهُ بِحَدَّةٍ: الْاجْتِمَاعُ يَتِمُّ هِنَا.. فِي بَيْتِ سَعْدٍ.. بَيْتِ الْأَقَّةِ.. سَعْدُ
مَا مَاتَشْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِيهْ.. بَلَّغْ الْوَفْدَ مِنْ فَضْلِكَ.

شَعِرْتُ أَنَّ نَبْرَتَهَا خَائِنَتَهَا وَعَلَتْ فَاسْتَدْرَكْتُ: سَعْدُ مَا كَانَشْ يَبْثُقُ فِي
حَدِّ قَدْكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بِيهْ.

- إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ الثَّقَةُ يَا هَانِمَ.

قَالَهَا وَهُوَ يَر_اقِبُ شَابًا عَلَى الرَّصِيفِ الْمُقَابِلِ لِلْبَيْتِ، يُدْخِنُ سِيْجَارَةً
وَيَرْمِقُ نَوَافِذَ الْبَيْتِ بِاسْتِطْلَاعٍ، تَابِعَهُ لِلْمَحْفَظَاتِ ثُمَّ قَامَ مُسْتَأْذِنًا:

- هَارِجُ لِحَضْرَتِكَ تَانِي.. بَعْدَ إِذْنِكَ.

هَزَّتْ رَأْسَهَا وَقَامَتْ احْتِرَامًا فَانْسَحَبَ الرَّجُلُ، خَرَجَ مِنَ الْبَهْوِ
إِلَى الْبَوَابَةِ وَوَقَفَ يَتَأَمَّلُ الشَّابَّ، التَقَتْ نَظْرَاتُهُمَا وَطَالَتْ حَتَّى تَأْكُدَ
عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ الزَّائِرَ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ شَيْئًا، هَزَّ رَأْسَهُ لِسَانِ الدُّوْكَارِ
الَّذِي يَنْتَظِرُهُ مُطْمَئِنًّا عَلَى يَقْظَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ يَدَهُ تَحِيَّةً لِلشَّابِّ الَّذِي
هَرَسَ سِيْجَارَتَهُ فِي الرَّصِيفِ احْتِرَامًا ثُمَّ عَبَّرَ إِلَيْهِ.

- صَبَاحَ الْخَيْرِ.. مِينِ الْأَفَنْدِي؟

- هو صحيح .. سعد باشا اعتقل ؟

- سألتك يا حضرة أنت مين ؟

- أصله كان صديق لوالدي الله يرحمه .

- برضه ما عرفتش أنت مين وإيه اللي موقفك هنا الساعة دي !!

قاطعه الشاب : أحمد عبد الحي كبيرة .

أخذ الاسم من الرجل لحظات ليستوعبه قبل أن ينجلي وجهه : أنت
ابن عبد الحي كبيرة ؟!

- أبوة .

- والدك كان صديقي الله يرحمه .

- الله يرحمه .. مش هأخذ من وقت حضرتك كتير .. أنا جاي
أعرض خدمة .

قالها أحمد وانتظر رد فعل الرجل الذي أشعل سيجارة ثم
أردف : خدمة ؟!

- الإنجليز لازم يعرفوا إن خطفهم لسعد باشا مش هابعدني
بالساهر .. لازم نرُد .. العين بالعين .. والدم بالدم .

- دم ؟ دم إيه ؟

- الدم اللي هأحصل ...

قاطعه عبد الرحمن : حيلك حيلك .. إيه اللي بتقوله ده ؟!

- الإنجليز مش بتبص لنا على إتنا بني آدمين زيهم.. إحنا شعب مالوش دية.. ها يضربوا.. ولازم يضرب فيهم.. ضرب يوجع.. أنا عندي الإمكانية.. ومعايا رجالة.

- يا ابني أي عنف دلوقت ها ينسب للوفد.. يضعف موقفنا ويهيج الإنجليز.. إحنا وفد ومعاها توكيلات من الناس.. مش بلطجية.. وبعدين مين قال لك إن الناس هاتسكت؟ الناس هاتتحرك ودول العالم كلها هاتعرف.. اتحرك معاها.. وسطهم.

- الناس هاتتحرك.. والإنجليز ها يصدروا البنادق.. الناس هاتصمد قد إيه؟ شهر؟ اتنين؟

- وإيه خطة معاليك؟

- أهداف تعمل لهم أزمة وتسمع في البلاد كلها.

- الكلام ده ما يلزمش الوفد في الوقت الحالي.

- سعد باشا في يوم من الأيام اعتقل بسبب انتمائه لجمعية «الانتقام» بعد فشل ثورة عرابي...

قاطعه عبد الرحمن: ومن ساعتها اتخلي عن الفكرة.. كان طيش شباب.. يا ابني الضغطع الإنجليز بحركة الشعب أقوى بكثير من عمليات فدائية.. ووضع سعد باشا لسنة ما اتحدّش.. أنا ها قدر إنك ما قلتليش حاجة النهاردة عشان خاطر الوالد الله يرحمه.

- الناس ما تقدروش تسبب لقمة عيشها فترة طويلة يا عبد الرحمن بيه.

- وجهة نظرك وصلت.. اتفضل بقية من غير مطرود.

همَّ الرجل أن ينسحب فأمسك أحمد بيده وهَمَس: أنا كنت من اللي
نَقَدُوا اغتيال السلطان حسين كامل.. وعندي استعداد...

- ولَمَّا أنتَ عندك استعداد جاي لي ليه؟

- عشان لازم نَسْقِ مع سعد باشا.. سعد باشا هو الأَمَّة دلوطني.

- يا ابني أرجوك سيبك من كلام الإنشاده.. اتفضَّل.

أخرج أحمد من جيبه قُصاصة ورَقية فيها عنوانه ودَسَّها في
كفِّ الرجل.

- عُمومًا ده عنواني.. لو غيَّرت رأيك.

هزَّ رأسه بابتسامة ورحل ففتح عبد الرحمن الورقة وقرأ العنوان..
قبل أن يُكَوِّرَها ويُلقيها.



بعد ثلاث ساعات

٩:١٥ صباحاً

قُوم يَا مَصرِي، مَضْرُوبًا بِتَنَادِيكَ.. إضراب طَلَبَةِ الْحُقُوق.. طَلَبَةِ
الطَّبِّ.. تَجْمَعَاتٌ فِي الطُّرُقِ وَالْمِيَادِينِ.. مَسِيرَاتٌ سَلْمِيَّةٌ.. هَتَافَاتٌ:
سَعْدٌ سَعْدٌ يَحْيَا سَعْدٌ.. تَسْقُطُ الْحِمَايَةُ.. يَسْقُطُ الْإِحْتِلَالُ.. خُذْ بِنَصرِي
نَصرِي دِينٌ وَاجِبٌ عَلَيْكَ.. كَمَائِنٌ.. صِدَامٌ.. عَظَبٌ.. الْإِسْتِقْلَالُ
الْتِمَامُ أَوْ الْمَوْتُ الزُّوَامُ.. إِغْلَاقُ الْمَحَلَّاتِ.. يَوْمٌ مَا سَعْدِي رَاحَ هَذَرٌ
قَدَامَ عَيْنِكَ.. إضراب طَلَبَةِ الْمَدَارِسِ.. طَوَارِي.. حِصَارٌ.. غُلْيَانٌ..
بِنَادِقٍ.. رِصَاصٍ.. أَوَّلُ شَهِيدٍ.. انفجارٌ.. مَظَاهِرَاتٌ غَيْرُ سَلْمِيَّةٍ..
قَتْلَى.. نِيرَانٌ.. عُدْلِي مَجْدِي اللَّيْ ضَبْعَتُهُ بِإَيْدِكَ.. اِعْتِقَالَاتٌ.. شَوْفٌ
جَدُودُكَ فِي قُبُورِهِمْ لَيْلُ نَهَارٍ.. قَلْبُ التَّرَامَاتِ.. إِلَهَ نَصرِي وَمُسْلِمِينَ
قَالَ إِلَهَ وَيَهُودٍ.. يَحْيَا الْهَيْلَالُ مَعَ الصَّلِيبِ.. بِلَادِي بِلَادِي.. لَكِي حُبِّي
وَفِرَادِي.. إضراب الأزْهَرِ.. مَصرُ جَنَّةٍ طَوَّلَ مَا فِيهَا أَنْتَ يَا نِيلُ..
عُمَرُ ابْنِكَ لَمْ يَعِيشْ أَبَدًا ذَلِيلٌ.. الْمَزِيدُ مِنَ الشُّهَدَاءِ.. تَحْطِيمُ مَحَالِ
الْأَجَانِبِ.. حَرَائِقُ.. خَظَرُ تَجُولُ.. إطفاء النُورِ.. شَلَلٌ تَامٌ...

يَقُولُونَ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ بَدَأَ فِي حَيِّ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ.

كَلِمَةٌ تَكُنْ حَرَكَةُ مَيْدَانِ الرَّمَّاحِ تُوحِي أَنَّ الْأَمْرَ جَلِيلٌ، النِّسْوَةُ فِي
مَلَأَتْهُنَّ السُّودَاءُ يَنْتَقِينَ الْخَضِرَاوَاتِ وَالْفَاكِهِةَ، الرُّجَالُ قَابِعُونَ فِي

مَحَلَاتِهِمْ وَأَمَامَ الْعَرَبَاتِ يَنْتَظِرُونَ رِزْقًا، وَالْأَطْفَالُ الصُّغَارُ يَلْهَوْنَ بِالْبَلْبِي
وَالنَّحْلَاتِ الْخَشْيَةِ بَعِيدًا عَنْ مَرْمَى عَيْنِ الْفِتْوَةِ الْجَائِمِ عَلَى كَنْبِهِ يَحْرِقُ
الْمَعْسَلُ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، شَارِدًا فِي جَسَدِ صِرْصَارٍ مَحْمُولٍ عَلَى أَعْنَاقِ
النَّمْلِ إِلَى قَرِيَّتِهِمْ، لِحَظَاتٍ وَالتَّقَطُّ أَذْنَاهُ جَلْبَةٍ قَادِمَةٍ مِنْ نَاحِيَةِ مِيدَانِ
السَّيْدَةِ ثُمَّ لَمَحَ بَعْضُ الشَّبَّانِ يَجْرُونَ إِلَى نَقْطَةٍ لَمْ يَتَيَّنْهَا فِقَامٌ سَاحِبًا
نُبُوتًا عَظِيمًا مِنْ تَحْتِ كَنْبِهِ لِيَفُضَّ خَنَاقَةٌ مُحْتَمَلَةٌ أَوْ شَجَارًا، مَسَى تَجَاهَ
الرَّحَامِ قَبْلَ أَنْ يُمَسِكَ بَعْضُهُمْ أَحَدَ الصَّبِيِّ مُسْتَوْقَفًا:

- فِيهِ إِلَيْهِ يَاضُ؟

- مَظَاهِرَاتٍ يَا مَعْلَمُ... تَلَامِذُهُ مَدَارِسُ «الْخَدْيُوبَةِ» وَ«الْخَدْيُوبِي»
إِسْمَاعِيلِينَ فِي الْمِيدَانِ... يَقُولُوا قَبَضُوا عَلَى سَعْدٍ بِأَشَا إِمْبَارَحِ.
قَالَهَا الصَّبِيُّ وَجَرَى فَانْدَفَعَ شِخَاتُهُ وَرَأَاهُ وَلَا حَقَّهُ الْإِتْبَاعُ ذُودًا
بِالْقَبْضَاتِ الْخَدِيدِيَّةِ وَرَقَبَاتِ الزَّجَاجَاتِ.

حِينَ وَصَلَ الْمِيدَانِ وَجَدَهُ يَعْجُجُ بِالطَّلِبَةِ، بِحَرِّ يَمُوجٍ بِالطَّرَابِيشِ
الْحُمْرَاءِ فَوْقَ وَجُوهِ نَضْرَةٍ عَارِقَةٍ بِمَرَقِ الْحِمَاسِ، يَرْفَعُونَ أَعْلَامًا حُمْرَاءَ
عَلَيْهَا هِلَالٌ يَحْتَضِنُ نَجْمَةً، وَلَاقِئَاتٍ بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ تُنَادِي
بُرُوحَ سَعْدٍ وَالْإِسْتِقْلَالَ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ شَابٌ اعْتَلَى كَتَفًا،
يُلْهِبُ الْحَشْدَ بِهَيْئَةٍ لَهُ وَقَعٌ يَمَزُقُ الْحَنَاجِرَ مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ يَتَأَجَّجُ حِينَ
يَقْتَرِبُ مِنْ سُورِ مَدْرَسَةِ «السَّنِيَّةِ» لِلْبَنَاتِ، عَاشَ سَعْدٌ، صَرَخَ بِهَا الشَّبَابُ
وَهُمْ يَخْتَلِسُونَ النِّظَرَاتِ لِلطَّالِبَاتِ الْمُتَشَحَّاتِ بِالْحِجَابِ فِي شُرَفَاتِ
الْفُصُولِ فَأَثَرْنَ بِأَعْلَامِهِنَّ تَحِيَّةً لِلْمَظَاهِرَةِ وَكَشَفَ بَعْضُهُنَّ الْوُجُوهُ
فَالْتَهَبَ الْحِمَاسُ.

توقف شحاتة الجين أمام المشهد المهيّب مدهوشاً مُتيسّساً، الهتاف
زلزل صدره فشدد قبضته غريزياً على النبوت وتلاحقت أنفاسه تحفزاً
وإن لم يجبرو لسانه على التردد أو عقله على الاستيعاب، يتأمل
الجموع برهبة لم تتبّه حين داهم فتوات أشداء في أعقار ديارهم، وجد
نفسه لا إرادياً ينجرّف إلى قلب العوجة الثائرة، تأثها لاهياً عن أتباعه
كغصن سقط في نهر هائج، سحبه بينهم من ميدان السيّدة إلى شارع
المبتديان فحي الإنشاء حيث لاح بيت «سعد» أمامهم، قبل أن يتوقف
الهتاف فجأة لما اندفع الجند الإنجليز من شارع جانبي إلى نهر الطريق
يقطعونه ومن ورائهم على حصان أسود الضابط «آرثر» وكيل حكمدار
القاهرة، وصديقه القديم! تراص الجنود بينهما في صفين مُحتمين
بالخوذات البيضاء شاهرين البنادق في وجه المتظاهرين يُنذرونهم سوء
الاقتراب، تقدّم الطلبة يصرخون في وجه العسكر: «وسّعوا الطريق»،
«المظاهرة سلمية!» فعمر الجند بنادقهم بأمر من الجنرال وصوبوا
الفوهات، مرّت لحظات من الترقّب قبل أن يتقدّم شاب جريء مُحاولاً
السير بين الإنجليز كاسراً الرهبة في قلب زملائه المتظاهرين فرّغ
جُندي كعب بندقيته وهشّم وجهه بضربة دفعت الجموع نحو الجند
مُستبكين، تلك كانت اللحظة التي رجع فيها شحاتة الجين من غيبته، لم
يذر بنفسه إلا وهو يزيع الطلبة من أمامه كعرائس القماش ويّرّن النبوت
في قبضته ويرفعه ليهوي به على رأس الجُندي، وقّع الارتطام بداً مُريعاً،
مُريحاً في أذنيه، مثل صوت بطيخة باردة تنهشهم، انبعجت الخوذة
وسقط الجندي أرضاً فرفعه الجين من ياقته وصاح: يستثنى فضة بالحم
انجليزي... ثم ألقاه بين قدميه وطوّح نبوته في رءوس وصدور ورقاب
قبل أن تلتقي عيناه بآرثر فوق حصانه، نظر إليه وهو لا يُصدّق ما يراه،

لم يكن ذلك هو «شبهاتا الجني» الذي ربّاه كلبًا مُطيعًا يلقي إليه بفئات الطعام فينبج تبجيلًا، كان قطارًا أخرج عن قُضبانه تمرّدًا وانطلق تجاهه، صرخ الجنرال في جُنده: «Fire»، أطلقوا النيران الحية، فتناثرت الدماء والأشلاء وتفرقت الجُموع، وسَط هَرَج الفرار ومُحاولات الاحتماء اندفع الجِنّ تجاه صديقه القديم، مُحاطًا بتابعين من أتباعه أفسحوا له الطريق بعدما مزقا وجوه جُنديين بأمواسهما في لحظة تعمير الذخيرة، مرّ الجِنّ من بينهم وبات على بُعد مترين من حصان آرثر حين تلاقت أعينهما، بلا تردد سدّد الجنرال مُسدّسه وأطلق، تلقى الجِنّ الرصاصة في ذراعه ولم يعبأ، طوّح نُبوته في رأس الحصان فاستقرت بين عينيّه، برك على قائمته الأماميتين فسقط الجنرال أرضًا، اقترب منه الجِنّ ورفع نُبوته عاليًا حين سدّد الإنجليزي وأطلق، تلك المرة «أصاب مقتل»، اخترقت الرصاصة صدر الفتوة فتوقف، رمشت عيناها وخففت الأصوات من حوله بغتة حين تلقى واحدة أخرى أركعته على رُكبتيه، ثم تلقى ضربة من كعب بُندقية فسجد على الأرض، قبل أن ينطرح على ظهره بعد ركلة في وجهه، تأمل السماء الصّافية من بين أغصان شجرة، قبل أن يميّز فُوّهة مُسدّس ومن خلفها وجه صديقه الإنجليزي.

نُحدي مَجدي اللّهي ضيعته بإيديك.

استنزف عبد القادر جهده مُحاولاً الاتزان فوق «بنبة»، مُقاوماً أرتال شحم مَرَكُومَة في عَجِيزَتِها وفُخْذَين فَقَدَتَا ليونتهما فتشعَّبتَ فيهما أوردة الدوالي الخُضراء، أَلَم المجهود يتخلَّل خُضْره وسَاقِيه وذراعيه الذي استند عليهما، يَسِيل عَرَقه فوقها ولَا تُبالي، تَعَض قُماش الملاءة مُصْطَنَعَة غَنَجًا بِشَعًا نادَتْ فيه اسمه بِضِع مرَّات مَسْبُوق بِـ «يا لَهوي عَلِيًّا».. عَلَى سَبِيل التمجيد، كان ذلك قبل أن يَتَبَّه عبد القادر لِسَلامَة، مَنى جَاءَ هَذَا المِخْزِر إلى السَّرِير ١٩ كَيْفَ جَرُّو ١١٩ كان مُصْطَجِعًا بِجَانِب «بنبة» عَلَى الوَسَادَة واضِعًا ذراعيه خَلْف رَاسه يَتَأَمَّلُهما مُبْتَسِمًا، اشْتَعل غَضَب عبد القادر فَصَاح:

- قوم يا ابن المَرَة.

فَصَرَخ سَلامَة في وَجْهه: «سَعْد سَعْد... يَحْيَا سَعْد».

استنزف عبد القادر جهده مُحاولاً فَتَح عَيْنِيه، اسْتَغْرَق لَحَظَات لِيُدرِكَ أَنه عَانِي كَأَيَّامٍ قَبْل أن يَسْتَعِيد بالله مِن هَيْئَة بَنبَة فِيه، صَوْت سَلامَة ما زال يَتَرَدَّد في أَذْنِيه: «سَعْد سَعْد... يَحْيَا سَعْد»!! بِصُعُوبَة تَبَيَّن وَرَد، كانت جَائِيَة تَحْتَهُ مُسْتَسْلِمَة وَخَصَلَات شَعْرَها فِي قَبْضَتِهِ يُمَسِّكُها كَلْجَام فَرَس، نَظَر شَمالَه فَلَمَح رُجَاجَة الكُونِيَاك الَّتِي تُغْدَت وَبِجَانِبِها

فَينسَ «النُفُوطون» فأدرك لِمَ لَا يَشْعُرُ بنصفه السُّفلي الذي تَخْدُرُ
وفقد الإحساس، استعاد ليلة انقضت فلم يَتَذَكَّرْ مَوِيَّ استسلام ورد
وصمتها، غلقها عَيْنِهَا وَتَرَكَه يَعْبَثُ بِمُحْتَوِيَاتِهَا! لَحْظَاتٍ وَانْسِلَخَ مِنْهَا،
تَرَكَهَا تَرْتَحِي بِجَانِبِهِ وَتَتَكَوَّمُ حِينَ عَلَا الهَتَافُ فِي أذْنِهِ: «سَعْدُ سَعْدُ...
يَحْيَا سَعْدُ»، سَبَّ الدِّينَ وَبَنِيَّ وَهُوَ يَرْجُحُ رَأْسَهُ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ هَتَافِ سَلَامَةِ
النَّجَسِ الَّذِي تَرُدُّ فِي أذْنِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ الصَّوْتَ آتٍ مِنَ النَّافِذَةِ، قَامَ
مُتَرَنِّحًا وَنَظَرَ مِنْ بَيْنِ خِصَاصِ الشَّيَاكِ فَرَأَى الْجُمُوعَ تَسِيرُ وَتَهْتِفُ «سَعْدُ
سَعْدُ... يَحْيَا سَعْدُ»، فَتَحَّ الشَّيْشُ بِهَلَعٍ وَخَدَّقَ غَيْرَ مُصَدِّقِ الْأَعْدَادِ قَبْلَ
أَنْ يَلْمَحَ صَدِيقًا لَهُ يَجْرِي مَسْعُورًا عَكْسَ اتِّجَاهِ النَّاسِ، مُزِيحًا الْأَكْتَافَ
بِيَدَيْهِ يَلُوحُ إِلَى عَبْدِ الْقَادِرِ ثُمَّ وَضَعَ كَفَّيْهِ حَوْلَ فَمِهِ وَصَاحَ بِكَلِمَاتٍ
تَاهَتْ فِي صَوْتِ الْهَتَافَاتِ فَتَدَاءَ عَبْدِ الْقَادِرِ:

- فِيهِ إِلَيَّ يَا ض.. مَشِ سَامِعَكَ؟

أشارَ لَهُ الصَّدِيقُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى عَجَلٍ، ارْتَدَّى عَبْدِ الْقَادِرِ بِنَظْلُونِهِ
وَسَحَبَ قَمِيصَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْفِزَ السَّلَاحِمَ وَثَبَا:

- إِلَيَّ الْيَ جَابِكَ هِنَا؟!

- عَمَّ الْجَنِّ.. انْضَرْبِ بِالنَّارِ.



فِي حَدِيقَةِ بَيْتِ سَعْدٍ تَمْتَدُّ شَحَابَةُ الْجَنِّ عَلَى النَّجِيلِ بِجَانِبِ شَابٍ
آخِرٍ هُمَا حَصِيلَةُ الْمُظَاهَرَةِ قَرِيبَ بَيْتِ سَعْدٍ، بِخُشُوعٍ سَتَرَهُمَا الْعُطْلَةُ
بِالْأَعْلَامِ الَّتِي رَفَعُوها مُنْذُ دَقَائِقٍ وَوَضَعُوا طَرَبُوشَيْهِمَا كَلًّا عَلَى صَدْرِهِ

وترك نبوت الجن بجانب ذراعاه، تكتلت الجموع حول البيت فانسحب الإنجليز ونزلت صفيّة هانم من شرفتها مُستندة على نازلي الشاحبة، حيثهم بالدفع مكلومة فطلب منها عبد الرحمن فهمي الرجوع إلى المنزل لخطورة الموقف، أبت وانكفات على جثمان الشاب الذي لم يتعد الخامسة عشرة، قبلت يده الباردة في ألم وانتحبت بحرقة، كان ذلك فوق احتمال نازلي، هوت أرضاً كورقة خريف، اندفع نحوها عبد الرحمن فهمي وأشار إلى شاب قريب منه ليسعه بمساعدة:

- شيل معايا.

قالها عبد الرحمن قبل أن يرمق وجه الشاب الذي طلب منه المساعدة فوجده أحمد عبد الحي، لم يملك ترف الجدل:

- دخلها معايا جوة.

حملها بين أيديهما وزكّضا بها إلى داخل المنزل، أمسجياها فوق كتبه قبل أن يأتي خادِم بقطن مُشبع بالكولونيا، وضعه عبد الرحمن تحت أنفها فأفاقت لترمقه والشاب الواقف بجانبه في تشتت.

- أنت كويسة يا بنتي؟ سألها عبد الرحمن.

- دا بيخة شوية.

لم نطل اللحظة كثيراً.. قطعها صياح آت من الحديقة فخرج أحمد مُسرِعاً ومن ورائه عبد الرحمن فهمي.. كمحاه يخترق بوابة البيت.. يطوح قبضته في رجال حاولوا منعه من الدخول فيسقطهم يميناً ويساراً كالزجاجات.. قبل أن يركض كالثور مُزيعاً الواقفين حتى اطلع على جثمان أبيه.. انكفاً على ركبتيه يتأمل ثقباً في صدر وآخر في جبهة ودماء

تجلّطت.. بصُعوبة لامس رأس أبيه.. أحاطها بكفّيه مُستشعرًا البرودة
وحواف الجرح.. ثم فتح فمه بصرخة مُدوية تأخّر صَوْتها من الألم..
اقترَب منه الجَمع يشنونه ويواسونه فنهرهم سبًّا وانكفأ على يد أبيه.. ثم
فجأة وقف ذاهلاً كطفل تائه.. ارتعشت أنامله وسالت رياله خيطاً على
صدره وزاغت عَيناه للحظات ثم انكفأ على أبيه محاولاً حمله.. اقترَب
الناس منه يصرفونه عمّا هو فاعل فضرب اثنين بقبضته ثم صرّخ في
الباقين ليتشتتوا قبل أن يدور بعَينه في الوجوه.. ميّز من أهل حارته
جيرأنا وتعرّف على صَبي من صبيان أبيه اندفع نحوه ولكمه
فأطاح به مُلقياً بأسباب قتله على رعونته وتهاونه.. تحفّز أحمد وهمّ
بمواجهته حين أوقفه عبد الرحمن فهمي بيديه:

- سيّبه.

ثم اقترَب من عبد القادر بثبات عجيب حتّى وَضَعَ يده على كتفه
بحزم فالتفت:

- يا ابني.. الولد ده مالنوش ذنب.. أبوك بطل.. ومات شهيد..
والشهيد لازم يتعمل لهُ جنازة يليق بيه.. هو هنا وسط ولاده.. كُل
دول ولاده.. ما تبهدلوش.

رَمَاه عبد القادر بنظرة غَضب قبل أن يصيح:

- رَاح بسبب سعد.

سَرَت الهمهمات الغاضبة بين الجمع فرد الرُّجل الصَّبيحة
بهدوء مسموع:

- راح عشان الإنجليز قتلوه.

اخترقت كلمة «الإنجليز» أذني عبد القادر فذهل بصره.. خفتت الأصوات وتوقفت تنفسه.. لم يعد يسمع سوى وقع ضربات قلب نهزه هزاً.. تخذرت ذراعه اليسرى وسرى فيها ألم ورعشة أخذت تشتد حتى انحسرت وسحب نبوت أبيه الملقى على الأرض.. تكالب عليه الناس محاولين تهدئته فلوح به في وجوههم: «اللي هايقرب هاموته».. فرّقهم وخرج مغاضباً نفسه فتبعه أحمد.. ناداه فلم يستجيب.. مد خطواته حتى صار بجانبه:

- اهدها عشان تعرف تاخذ حقلك.. الإنجليز ما ينفعش معاهم نبوت.. أنا أقدر أساعدك.. أجيب لك حقلك.. حول غضبك لـ...
لم يكمل أحمد جملته، التفت إليه عبد القادر وأمسك بتلابيبه قبل أن يضرب بظهره الحائط ويحبس عنقه بالنبوت:
- ما تخليّنيش الحبط خلقتك.. حل عن سمايا.

قالها ثم فك أسره وابتعد، التقط أحمد أنفاسه ولم يتبعه، راقبه يخطو نحو ختفه حتى تلاشى.

لما رجع أحمد إلى حديقة البيت المضطربة وجد نازلي وقد استعادت روحها، تقف قرب صفيّة وعبد الرحمن فهمي الذي أشار له أن يقترب وهمس:

- أنا مش قايل لك إبعد عن هنا؟!

- فكرت في كلامي؟

نظر عبد الرحمن فهمي لإصراره وضرب كفّاً بكف حين اقترب رَجُل وسأله:

- هَانِعِمِلْ إِيه فِي الْجُبْتُ؟

أجابه عبد الرحمن بعدما انتزع نفسه من وجه أحمد: يروحو بيت
أهاليهم دلوقت.. وجَنَازَتهم تطلع من هِنَا بُكرة.

هَزَّ الرجل رأسه وَرَحَلَ حين هَمَس أحمد في أذن عبد الرحمن:
- الإنجليز هايصعدوا أكثر.

- لو سمحت يا ابني سيبني أشوف سُغلي.. ممنونين لخدماتك.

قالها عبد الرحمن بحزم فرفع أحمد كَفَّيه استسلامًا حين لَثَمَتْ
نَازِلِي خَدَ صَفِيَّة واحتضنتها قبل أن تَنجِه إلى الدوكار الذي ينتظرها عند
البوابة، كَانَ عليها الرجُوع إلى بيت أبيها الذي صَال وَجَال خوفًا عليها
حين قامت الجموع، حَيَّت عَبْدَ الرَّحْمَنِ فهمي ثم التقت عيناها بأحمد
للحظات كانت كافية لهزّة رأس ممتنّة خجولة.



يُنْفَخُ النَّبُوتُ مِنْ خَشَبِ شَجَرِ الْيَمُونِ، ثُمَّ يُصْفَلُ بِالصَّنْفَرَةِ
قَبْلَ أَنْ يُوضَعَ فِي «زَيْتِ مَغْلِي» لِيَفْقِدَ رُطوبته وَيَشْتَدَّ قِوَامُهُ،
ثُمَّ يُخْطَبُ بِالْحِنَاءِ وَيُرْزَنُ بِالْجِلْدِ وَالذَّبَابِيْسِ الَّتِي تَرْمِزُ لِلْمَفَارِكِ،
أَوْ لَعَدَدِ الْقَتْلِ بِهِ.

ثُمَّ يُحْمَلُ بِنَبُوتٍ أَقْوَى مِنْهُ وَأَشَدَّ بِأَسَا.

تلك المرأة كانت الكروسلية بلا حُمولة، تكاد تطير فوق الطريق المفروشة بالحجارة، أمسك عبد القادر المقود بشماله، وقبض يمينه النبوت الموضوع على الكرسي الجانبي، يقاوم الشمس بجفون منطبقة وذمير خفرت وجنتيه ولم تجف، يداه ملطختان بدماء أبيه وعجلات سيارته ومقدمتها ملطخة بدماء إنجليزية لخمسة جنود هر سهم تحتها في طريقه للمعسكر.. عبد القادر كان يدرك أن أباه فتوة، والفتوة لا يهلكه إلا فتوة مثله من بعد الله، لم يتخيل أن أباه سيُردى برصاصة إنجليزية ككلب ضال لا يشعر له فكرة موته لم ترد مرة على باله، غريبة غريبة موت إله في ملكوته! فليس البشر كلهم فانيين! أي لعنة أصابني؟ ماذا فعلت؟ سأل نفسه، قبل أن يستعيد كلمات الرجل في بيت الأئمة: «راح حشان الإنجليز قتلوه».

زفر عبد القادر ثم ترك النبوت وأخرج من جيبه علبة خشبية صغيرة، ففضها وقربها لأنفه ليسحب منها دفعة كوكابين حين لاح المعسكر الإنجليزي في الأفق، ضغط دواسة الجاز ثم التقط من الكنبه الخلفية رشاش «ماديسن» ألمانيًا محشوًا، لم يفارقه يومًا منذ احترق توزيع الكوكابين، شد أجزاءه ووضعها على فخذه حين رصدت الحامية سيارته المنطلقة نحوهم بسرعة جنونية، كانت حالة الطوارئ قد

أعلنت منذ الصباح وضربت التعليمات بعدم التهاون، لَوْح ضابط الحامية يذراعيه في إشارة لعبد القادر أن يُعطى لكنه لم يستجب، ضَرَب طَلقة تحذير في الهواء فلم يتقهقر، حين باتت السيارة على بُعد مائة متر استعد عبد القادر لإخراج مدفعه من النافذة حين دَوَّت طَلقات المدفع «الفيرز»، اخترقت ثلاث طَلقات أسفل شبك الموتور فحَطَّمت أجزاءه قبل أن نخلّ بتوازن السيارة لتتقلب عدة مرات جَرافة الحصى والجِجَارة مسافة حتى توقفت.

بعد ساعة.. العيادة الصُّخية بالمعسكر

قطع كولونيل تريفور قائد المُعسكر الطويلة المؤدية إلى العيادة بخطوات صارمة وقمها متعلِّم، دَخَلَ العنبر ثم اقترب من عبد القادر المُسجَّى على السرير أمامه فأقْدَا الوحي مَكسُوا بالكدمات، رأسه ملفوف بِشاش تشبَّع دَمًا وفي ذراعه اليمنى جَبيرة وفي اليسرى خرطوم مغروس يفضِّخ المَحاليل، أما قدمه فغلَّت بالأصفاد إلى سُور السرير، نظر للطبيب الواقف بجانبه ثم سأل:

- كيف حاله؟

- ارتجاج في المخ وبعض الكدمات.. سيعيش.

- هل كان مخمورًا؟

- أنه وملابسه نحمل أثر الكوكايين... هل كان ينوي مُهاجمة المُعسكر؟

- وجدنا في سيارته «ماديسن» ألمانيًا محشورًا وجاهزًا للإطلاق.. لكنني لا أعتقد أن مثله قد يرتكب هذه الخِماقة!

- لعله أُصيب بِخُمى «سعد»؟

- لا أظن، فهذا الولد يتعامل مَعَنَا مُنذُ سَنَةٍ تَقْرِيْبًا، لَيْسَتْ لَهُ مَيُولُ سِيَاسِيَّةٌ، كَمَا أَنَّ قُوَّتَ يَوْمِهِ قَائِمٌ عَلَى خِدْمَةِ الْمُعَسْكَرِ.
- قَدْ يَكُونُ خَائِفًا مِنَ الاَضْطِرَابَاتِ فَجَاءَ إِلَيْنَا هَارِبًا؟
- مَنْ يَعْرِفُونَ تَعَاوَنَهُ مَعَ الْكَامِبِ بِالطَّبِيعِ يَكُنُّونَ لَهُ الْعَدَاءُ... مِثْلَهُ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ خَائِنٌ.
- وَبِالنِّسْبَةِ لَنَا؟
- أَسْمِيهِ شَخْصًا عَمَلِيًّا.. فَلَيْسَ لَأَمْثَالِهِ فِرَاصُ حَيَاةٍ فِي ظُرُوفِ هَذَا الْبَلَدِ؟ لَكِنْ دَعْنَا لَا تَتَعَجَّلُ الْأُمُورَ.. حَالَمَا يَفِيْقُ سَنَعْرِفُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ.

برقية نصره (١٢٤).. سزي للغاية

٩ مارس ١٩١٩.. الساعة: ١٠:٢٢ مساءً

من سير «ميلين شيهام» نائب المندوب السامي بالقاهرة
إلى لورد «كيرزون» وزير الخارجية - لندن.

«الحركة التي حدثت اليوم مُعَادِيَةٌ لِبْرِيطَانِيَا، وَمُعَادِيَةٌ لِلسُّلْطَانِ، وَمُعَادِيَةٌ لِلْأَجَانِبِ، وَهِيَ ذَاتُ مَيُولٍ «بَلْشِيَّةٍ» - شِيُوِيَّةٍ وَتَسْتَهْدِفُ تَدْمِيرَ الْمُمْتَلِكَاتِ وَالْمُوَاصِلَاتِ وَهِيَ مُنْظَمَةٌ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَنَّهُ يُتَّفَقُ عَلَيْهَا، وَهَنَّاكَ شَكُوكٌ قَوِيَّةٌ حَوْلَ نَفْوَذِ أَجْنِبِي فِيهَا، وَيَمِيلُ الْمَسْتُولُونَ الْبْرِيطَانِيُونَ إِلَى الظَّنِّ أَنَّهُ مَهْمَا كَانَ مِنْ تَحْرِيفِ وَطَنِي فِي الشُّهُورِ الْقَلِيلَةِ الْمَاضِيَةِ، فَإِنَّ الشُّهُورَ الَّذِي ظَهَرَ الْآنَ لَا بَدَّ أَنَّهُ كَانَ يَنْمُو خِلَالَ سَنَوَاتٍ هَدِيدَةٍ، وَأَنَّ وَقْعَ انْفِجَارٍ فِي وَقْتٍ مَا كَانَ أَمْرًا لَا مَنَاصَ مِنْهُ».

ميلين شيهام

نائب المندوب السامي بالقاهرة

الاثنين ١٠ مارس ١٩١٩

٨:١٥ صباحًا

أبشاق الغزال.. مركز بني هزار.. المنيا

تذبذبت القضبان الصّدئة تحت أقدام الناس فتنّبھوا وابتعدوا، من الأفق البعيد التقطوا هدير المُحرك قبل أن يلمحوا الدخان الأسود، دقيقتان ثم لاح الوحش القاتم، يسير وثيدًا بصرة حادة وضجيج كَه وَقع مُقبض، اقترب أهالي البلد من رصيف المَحطّة يتطلّعون إلى الجسد الحديدي العملاق الذي توقّف، ينهشونه بأعينهم نهشًا، لَحَطَات وَفُتَحَت الأبواب ثم بدأ الوافدون في النزول يباعًا، وجوه كالحة شاحبة وأجساد برزت عظامها وجفّت جلودها من حرق الشمس.

زاحمت السيّدة العجوز الجمُوع الغفيرة التي تكثّلت لتلقّي العائدين، تنتظر تلك اللحظة منذ ثلاث ساعات، وسنة قبلها منذ انتهت الحرب! ثأني إلى المَحطّة كُل سَبْت متكئة على عَصْد إحدى بناتها في ميعاد قُدوم القطار الأسبوعي، تتأمّل الوجوه الوافدة لتفرزها علّها تلمح «ياسين»، بكريها الذي سحبه يومًا من أرضه بحضور العمدة والخفّر ومن ورائهم رجال السُلطة للعَمَل بالشخرة، «محتاجين شوية عيال كده علشان الجسر اتقطعتم جهة «دير السنقورية» والبيوت غرجت، المأمور بعت إشارة بلم الناس وفرد على بلدنا تمتاشر عيل».

لَمْ يَمْلِكْ يَاسِينَ حَقَّ الرَّفْضُ، فَالْكَلِمَاتُ تَبِعَتْهَا لَسَعَاتُ خِرَزَانَاتِ
الْخَفَرِ وَضَرْبَاتُ كَرَابِجِهِمْ، امْتَلَأَ لَأْمُهُمْ فَرَبَطُوا يَمِينَهُ فِي حَبْلِ طَوِيلٍ
غَلِيطٍ مَعَ سَبْعَةِ عَشَرَ شَابًّا مِنْ أَهْلِ بَلَدَتِهِ وَأَرْكَبُوهُمْ قِطَارَ بَضَائِعٍ، وَلَمْ
يَرَهُ أَحَدٌ زَمَلَانَهُ مِنْ بَعْدِهَا، تَحَمَّلَتْ أُمُّهُ وَقَعَ الزَّمَنُ وَالْإِشَاعَاتُ الرَّائِجَةُ
حَوْلَ اخْتِفَائِهِ وَمَقْتَلِهِ حَتَّى تَمَنَّتْ يَوْمًا أَنْ يَأْتَوْهَا بِجُثَمَانِهِ، فَقَطَّ لِبْنَتُهُ
عَذَابَ فَقْدِهِ فِي صَدْرِهَا.

- ولدي... ياسين.

التَفَطَ صَوْتُهَا حِينَ بَرَزَ وَجْهَهُ مِنْ عَتَمَةِ الْقِطَارِ، فَقَدْ بَصَفَ وَزَنَهُ
فَانْتَبَتْ قَامَتُهُ الطَوِيلَةَ وَازْدَادَ سُمْرُهُ عَلَى سُمْرَةٍ، لَمْ تَمْلِكِ السَّيِّدَةُ نَفْسَهَا،
امْتَرَجَتْ فَرَحَتَهَا بِفَرَعِهَا مِنْ هَيْئَتِهِ الْمُفْجِعَةِ فَذَفَنْتْ رُوحَهَا فِي صَدْرِهِ
وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ فِي فَرَحٍ، احْتَوَاهَا بِصَمْتٍ وَلِثَمَ يَدَهَا ثُمَّ أَحَاطَ أَخْتَهُ
الصَّغِيرَةُ بِذِرَاعِهِ وَابْتَعَدُوا.

قَبْلَ الظُّهيرةِ كَانَ الْخَبَرُ قَدْ انْتَشَرَ رَغْمَ تَوَثُّرِ الْأَجْوَاءِ بِالْمُتَظَاهِرِينَ
حَامِلِي الْلافتَاتِ أَمَامَ نَقْطَةِ بُولِيسِ الْبَلَدِ وَأَعْدَادِ عَسْكَرِ الْإِنْجِلِيزِ
الْوَاغِدِينَ، عَمَّ الْفَرَحُ مَنْصَرَةً يَبْتَ «فَهْمِي» فَتَجَمَّعَ الْأَهْلُ وَالْجِيرَانُ
يُرْحَبُونَ بِالْعَائِدِ الَّذِي ظَنُّوهُ لَنْ يَعُودَ أَبَدًا، فَرَشُوا خَبْزَ «الْبَتَاو» تَحْتَ لَحْمٍ
جَذْبِي ذَبَحُوهُ وَصَبُّوا الشاي الدَّاكِنَ فِي الْأَكْوَابِ وَوَرَّعُوا أَقْمَاعَ السَّكَّرِ
عَلَى الْأَطْفَالِ وَالسَّجَائِرِ عَلَى آبَائِهِمْ، اسْتَحَمَ يَاسِينَ وَارْتَدَى جَلَابِيَّةَ
نَظَيفَةً قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى دُكَّةٍ حَوْلَ أَحْبَائِهِ مُسْتَمِعًا لآيَاتِ الْقُرْآنِ مِنْ
«فِيهِ» الْقَرْيَةِ وَمُسْتَقْبَلِ الزَّوَارِ، يَهْزُ رَأْسَهُ وَدَا وَيُوزِّعُ ابْنَسَامَاتِ شَارِدَةٍ لَمْ
تَنْجَحْ فِي إِقْنَاعِ الْمُحِيطِينَ أَنَّهُ هُوَ نَفْسُ الشَّخْصِ الَّذِي رَحَلَ عَنْهُمْ مُنْذُ
سِتِّينَ، بَدَأَ وَاجِمًا مُشْتًا يَحْوِلُ صَدْرُهُ قَلْبًا آخَرَ. قَلْبًا مَعْطُوبًا.

- احكي لنا يا ولد أختي.. وين كُنت؟ وكيف جِئْتَ السَّتين؟
سَكَّتَ الجَمْعُ، نساءً ورجالاً، وحَتَّى الأطفال، تعلَّقت أعينهم بشفتي
يَاسين المُتَشَقِّقَتين ينتظرون مِنْه مَلْحَمَة تاريخيَّة:

- بَعْدَ ما صَلَّحنا الجَسْر أَخدونا الإنجليز في جَطَر.. على الجَنطَرَة
شَرَق.. وَمِنَ الجَنطَرَة طَلَعنا عَلى رَفح.. نَزَلنا عِندَ عَرَبانِ أَكْرَمونا
وأَكَلونا وشَرَبونا.. وَكُلَّ يَوْمَ كاتِ شُغَلتنا نُحْضِرُ بَيرَ وَلاَ اتنين
لِلسُّلْطَة وَنُصَلِّحُ جُضْبانَ السَّكَّةِ الحَديد.

- بس إكده؟! طَبِّ والخَرْب؟

- ما جاتش نواحيننا.

- لَكِن أنت شَكَلَك نَعبان أوي يا واد عُمِّي! ما كَتَش بَتَأْكُل وَلاَ إِيه؟

- الأَكْل هُناك غَير عَندِينا.. والمِئَة غَير.. والشَقا يَأمَا.

- طَبِّ وَبَقِيتَ المِيعال الِلي كَانُوا مَعَكَ السَّبْعَناشِر؟ وَينهم؟

- أَصَلنا.. اتفَرَّجنا.. وَزَعونا.. كُلِّ واحد رَاح لِحِجَة.. ماتِجَابِلَتش
مَعاهُم مِن مَاعة ما رَكَبنا الجَطَر.

لَم تَأْتِ القِصَّةُ بِما اِشْتَهوا أَن يَسْمَعُوا، أَرادوا أَن يَخوضوا الأَحوال
فَتَجَمَّعَ أَعينُهُم عَجَبًا ثُمَّ يَطْمِئِنُّوا عَلى باقى شِبابِ البَلَد وَلَم يَفْعَلُوا،
فَضُوا وَفَتَهُم وَانصَرَفُوا مُبَكَّرًا بَعْدَ أَن تَرَكَوا الدَّارَ عَامةً بِالإِحْباطِ
وَبِلايِصِ المِشِّ وَلُحُومِ الطَّيْرِ هَداياً لِلعائِد.. ظَلَّ يَاسينُ شاردًا عَلى
دُكَّتِهِ حَتَّى لَمَلَمَتِ النُّسوةُ فَوَضَى الزِيارَةَ قَبْلَ أَن تَقْتَرِبَ أُمُّهُ، جَلَسَتْ

بجانبه تتأمل وجهه المتحجر قبل أن تضع يدها اليابسة على كتفه
وتتكلم بصوت خفيض:

- مالك يا ولدي؟

لم يُجبها ياسين، عيناه ذاهلتان في الشباك، شاردًا في غيظ برسيم
يتمايل مع الهواء.

- ياسين.. يا ياسين؟

أفاق من شروده: نعم يا أمه؟

- سألتك.. مالك يا ولدي؟

- تعبنا م السفر يا أمه.

تأملت وجهه دقيقة ثم أردفت:

- تعبك مش تعب سفر يا ولدي!

- آني ما عاينك بشي يا أمه.

- مش الجصد يا ولدي.. آني بس بدّي أفهم.. العيال اللي كت معاك

اتفرّجوا على فين؟ أهل البلد هايموتوا على ولادهم.. سبتنا شر

راجل راحوا... ولّا حاجة حُصلت وماتناش عاوز تجول؟

قاطعها: ما خابوش عنهم حاجة.

- طيب يا ولدي.. ربّنا يموّدهم بالسّلامة زي ما هوّذك.

أشعل سيجارة بيد مرتعشة، لاحظت نوتره فأرادت تغيير الموضوع

رأفة به:

- خابِر مين اللي ما اتجطعتش يوم في السؤال عنك؟ بهيئة بنت
أبو عامر.. بَيجت فلجة جَمَر.. بتيجي كل جمعة تتحدّث معاي
وتسأل عنك.. عايلة همك ومتكلّرة يا ولداه زي ما تكون
بنت عمّك.

بدون أن ينظر لها قاطعها: وينها دولت؟

- دُولت أختك صارت مُدرّسة في مصر.. اتعفرتت لّما عرفت إنك
رجعت.. أخوك شيع لها تلفراف إمبارح بس الشوارع حداها
مجلوبة.. خابفة تيجي.

- مجلوبة؟

- ع الإنجليز.. مُظاهرات عشان جبضوا على سعد باشا.

- مين سعد باشا ده؟

- باشا من باشوات مصر.. ده العاركة عليه واصله لهينه.. والإنجليز
مفرجين البلد.

لم يُبدِ اهتمامًا، شرد فصمت، تأملت وجهه الباهت وملايمه الناهية
فزفرت قلقًا واستغفرت في سرّها، إن كانت تُعرف شيئًا عن يكريلها التي
ربته يداها فهي تُعرف أنه للمرّة الأولى يُخفي عنها سرًّا

لَمْ يكد ياسين بنغمس في صمته حتّى تعالت الجليلة في الخارج،
صوت الرصاص ورقع الكرايبج اختلط بصريخ النساء والأطفال،
نادت الأم في شاب يجري أمام المنصورة مُستهمة فألقى عليها الخبر:

- الإنجليز طايحين ضُرب بالكرابيج في أهل البلد.. لا هامهم
كبير ولا صغير.. كُلّ اللي ينادي بالاستجلال يتلسوع ويسحلوه
ع المركز.. وأبو هَمَام انطخ عيار في دماغه شَجَّها زي البطيخة.

التفتت السيدة إلى بكريها الذي للتو عاد، ستحاول تهدئة ثورته
العارمة ومنعه من الخروج للذود عن أهل بلده، ستلتقط فرد الخرطوش
من يديه والسكين الذي سيستله ثم تستحلفه ألا يتدخل فهي لم تكد
لفرح بعودته.. لكنّها التفتت فوجدته كما تركته! سارداً في أفق الغيط
الأخضر كأن شيئاً لم يكن، صنماً ينس أن يُعبد، نظرت إليه مُحاوله
استيعاب الضيف الغريب الذي حلّ في بيتها، ضيف يُشبه ياسين كثيراً!
قبل أن تغلق خصاص الشباك عليهما وتجلس بجانبه مُنصتة لسنايك
الخيل تهرس الأهالي وضربخ تعالى حتى أصمّ الأذان.

اللاثنين ١٠ مارس

- بيانات استنكار وتراجع من بعض الجهات والمدارس لما حدث يوم ٩ مارس من حرق لمحال الأجانب وتصريحات تُطمئن الجاليات على أرواحهم.
- المظاهرات تجتاح المنيا والإنجليز ينهالون على الأهالي بالكرايح.

الثلاثاء ١١ مارس

- إضرابات مُستمرة في أكثر من مديرية وإنذار بريطاني شديد للهجرة طبع وخلق في الشوارع والميادين ونشر في الصحف «المتماونة»..
- صدام مع دوريات إنجليزية في القاهرة ووفاة ستة أشخاص بينهم بنيران البنادق.

الأربعاء ١٢ مارس

- سمحت السلطات الإنجليزية لبعض الصحف بنشر خبر اعتقال سعد ورفاقه لاستعادة ثقة الجماهير في الجرائد، ثم بث الرعب في قلوبهم بالتحذيرات المُتتابة بعد ذلك.
- تجدد إطلاق النار في أكثر من مكان وبدء المظاهرات في الإسكندرية وطنطا ولما اقتربت الجموع من محطة القطار أطلق الإنجليز النار ليقتلوا ستة عشر شخصا فقطع الأهالي خطوط السكك الحديدية في أكثر من موضع وأحرقوا المحطات.

الخميس ١٣ مارس

- مظاهرات في أحياء الجمية والفورية والظاهر والسيكة زينب وإنذار إنجليزي لموظفي الدولة باجتناب المظاهرات، كما أصدرت أمرا بالإعدام الفوري رميا بالرصاص لكل من يقطع خطوط السكك الحديدية أو الهاتف والتلغراف.

- إلقاء الحجارة على مراكز البوليس وتوقف عربات «الأمينوس»^(١) العامة
وازدیاد عربات الكارو في الشوارع.

الجمعة ١٤ مارس

- عند خروج المُصلين من مسجد «الحسين» بعد صلاة الجمعة حسبهم
السُّلطات الإنجليزية مُتظاهرين فأطلقت الرصاص عليهم فقتلت اثني
عشر وأصابت أربعة وعشرين، وعند مسجد السيدة زينب قُتل ثلاثة
عشر شخصًا وجرح سبعة وعشرين.. واستخدم الإنجليز الطائرات
لضرب المُتظاهرين في أكثر من قرية.

السبت ١٥ مارس

- إضراب عمال قنابر الشكك الحديدية عددهم أربعة آلاف.. قد مبر
أغلب خطوط الشكك الحديدية والمخَطَّات.. أصبح نهر النيل هو
وسيلة المواصلات الوحيدة بين القرى والمدن.
- إضراب المحامين الشرعيين ومُظاهرة عارمة في المتحلة.
- أطلق الإنجليز النار عشوائيًا على حُرَس في إمبابة قُتل ستة أشخاص.
- قُتل أحد كبار موظفي البريد الإنجليز بالقاهرة ومطاردة القاضي
الإنجليزي بيني سوف.

(١) عربات الأمينوس: عربات عامة تجرها البغال.

مدرسة الطب بقصر العيني... معمل الكيمياء

نصف ساعة قبل حظر التجول

لَمْ يَكُنْ ضَوْءُ الْقَنديل كافياً لتمييز أحمد الجالس في الركن القصي خلف منضدة، جرى العرق على رأسه ثم تخلل رموشه ولائس خدقيه فحرقهما، مسح عينيه بكم قميصه وهو يقاوم ضيق أنفاسه تحت كثافة تقيه الأدخنة المنبعثة من الغلاية، يداه حاولتا الثبات وهي تخط كبريتيك وكلورات البوتاسيوم ثم يضيف بجرص جمض البكريك شديد التفجير، قلب المحلول لدقائق ثم صبّه بتركيز في وعاء أسطواني من النيكل قبل أن يغلقه بإحكام ويودعه في «سبت» من الخوص، وضع فوقه مُسدساً محشواً بالطلقات ثم غطاه بقماش وأفرغ كيساً من الخضراوات فوقه تمويهاً، خلع بعد ذلك كمامته ليلتقط أنفاسه، غسل قواريره وأرجعها مكانها، ثم ارتدى فوق قميصه جلابة ذاكنة وليدة فوق رأسه وبلغه في قدميه قبل أن يطفىء النور ويخرج.

أخذ أحمد طريقه إلى باب اللوق، مخترقاً الخواري الضيقة محاولاً الابتعاد عن الطرق الرئيسية المحشودة بجند متحفزين ومتظاهرين لم يعترفوا بالحظر تحدياً وعناداً، مدَّ خطواته متصنّعاً البسطة قبل أن يقفز فوق عربة «كازو»، وصل قرب بنايته فنزل ودار حولها حتى تأكد أنه غير

مُراقِب ثم دَلَف مِنَ الْبَاب، المَدخل كَانَ مُظْلِمًا، مَشَى بِضِعْ خُطَوَات
تَجَاه المِصْعَد قَبْل أَنْ تَلْتَقِطَ أذْنَاه صَوْتَ الخَطَوَات، التفت متحفرًا
فَلَمَحَ وَهَجَ سِجَّارَةٌ تَحْتَ درَجَات السَّلَم:

- لَمَّا سَمِعْتَ عَنْ ضَرْبِ مُوظَّف المَبريدِ الإنجليزِي شَمِيتَ رِيحَتَكَ.

لَمْ يَحْتَجْ وَقْتًا لِيَسْتَوْعِبَ صَاحِبَ الصَّوْتِ.

- عَبْد الرَّحْمَنُ بِهِ!

اِقْتَرَبَ عَبْد الرَّحْمَنُ فَهَمِيَ يَتَأَمَّلُ تَنَكُّرَهُ:

- شُوفْ لَنَا مَكَانَ نَتَكَلَّمُ فِيهِ.

فِي السَّطْحِ كَانَ اللَّيْلُ قَدْ فَرَضَ سُكُونَهُ إِلَّا مِنْ بَقَايَا الانْفِلَاتِ الْأَمْنِي
المُسْتَمِرِّ، دَوِيَّ طَلَقَاتِ نَارٍ مُتَفَرِّقَةٍ تَأْتِي فَرَادَى مِنَ الاتِّجَاهَاتِ الْأَرْبَعَةِ
وَدُخَانِ أَسْوَدَ وَصَبِيحَاتِ فِرْعَةٍ مُضْطَرَبَةٍ تَتَعَالَى كُلُّ بَضْعٍ دَفَاقًا، أَخْفَى
أَحْمَدُ «سَبَّتَ» الْخَضِرَاوَاتِ تَحْتَ كَرَائِبِ مُهْمَلَةٍ ثُمَّ خَلَعَ جِلْبَابَهُ،
جَلَسَ الرَّجُلُ عَلَى كُرْسِي قَدِيمٍ قُرْبَ الشُّورِ يَتَأَمَّلُ أَحْمَدَ:
- قُنْبَلَةٌ؟

- الْإِنجِلِيزُ يِيضْرِبُوا بِالطَّيَّارَاتِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنُ بِهِ!

- مَشَى خَائِفٌ؟

- اللَّيْ يَقْدِرُ بِمَوْتِي النِّهَارَةَ هَايَمَوْتِي بُكْرَةً.

- أَحْمَدُ عَبْدَ الْحَيِّ كَبِيرَةً.. سَنَةَ ١٩١٥ فَلَسْتُ مِنْ حَكَمِ السُّجْنِ
وَزِمِيلَكَ أَخَذَ تَأْيِيدَهُ فِي مَحَاوَلَةِ اغْتِيَالِ السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ.. دَرَسْتُ

في مدرسة الطب وتخصصت في الكيمياء واتوظفت .. معروف
عنك في المدرسة إنك في حالك .. وفيه ناس يقولوا عليك خاين
ومصاحب الإنجليز .

- وأنا اللي كنت مستغرب إزاي الناس من أسوان لإسكندرية عرفت
إن سعد باشا اعتقل ثاني يوم!

- سعد باشا نفسه كان عارف إنه هاعتقل .. استنى اللحظة دي
من زمان .

- ...!!

- يا ابني أنا راجل جيش سابق .. واللي يعاشر الإنجليز يعرف إمتى
ينفذ صبرهم .. إحنا كنا محتاجين الاعتقال ده أكثر منهم .. عشان
القضية تكبر وتخرج بره الحدود .

- أنتم مين؟

- مجموعة متحمسة عرفت مصر بالاعتقال من غير جرايد .. بعثت
تلغرافات في كل مديرية .. وهي اللي بتطبع المنشورات وبتجيب
المعلومات عن الخونة اللي في الحكومة والبوليس .. قليلين لكن
عندنا اتصالات مؤثرة .

- أفهم من زيارة حضرتك إن فيه نية تمويل عمليات فدائية؟

انقضت لحظات من الصمت قبل أن يكمل الرجل ما بدأ: العُنف
لو ما حُجِّمَتوش ونظَّمته يصبح سلاح ضدك .. هاييجي وقته .. إحنا
مبدئيًا محتاجين مُساعدتك في موضوع ثاني .. أنت بتفهم في الكيمياء؟

- تخصصي.

- إحتار صدنا مكان سَكَن سعد باشا في مآلطة عن طريق أصدقاء
عائشين هناك وقد رنا نطمئن عليه وحققنا اتصال.. لكن لسة
محتاجين طريقة أمان نراسله بيها مِن غير ما حد يفهم.. عشان
كده جيت لك النهاردة!

شرد أحمد للحظات ثم أجابه: مَيَّة البَصَل.

- مَيَّة البَصَل؟

- مَيَّة البَصَل.



أزير الدُّبابة بدأ كَصُجَّيج مُوتور طائفة، حَامَت حَوْلَ رَأْسِهِ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَضْرِبَ أُذُنَهُ بِسَخَافَةٍ، نَدَّتْ عَنْهُ رَعَشَةٌ فِي جَفْنٍ صُبِغَ بِزُرْقَةِ الْوَرَمِ تَبَعْتَهَا وَاحِدَةٌ فِي أَنْامِلِهِ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ بِصُعُوبَةٍ، مَيَّزَ سَقْفًا عَالِيًا مِنْ الصُّاجِ الْمُضْلَعِ وَمَرُوحَةٍ تَتَدَلَّى مِنْهُ وَتَطِينُ بِأَعْتَةِ نَسَمَاتِ رَطْبَةٍ، نَظَرَ يَمِينَهُ فَشَاهَدَ ثَلَاثَةَ أَسْرَةٍ عَلَيْهَا جُنُودُ إِنْجِلِيزٍ مُصَاحِبُونَ بِجَانِبِهِمْ مُمرَضَتَانِ تَرْتَدِيَانِ الْكِمَامَاتِ، اسْتَعْرِقَ الْأَمْرَ مِنْهُ دَقَائِقٌ، حَاولَ اسْتِيعَابَ مَا أَتَى بِهِ إِلَى الْعَنْبَرِ قَبْلَ أَنْ يَتَرَاءَى لَهُ وَجْهَ أَبِيهِ، نَائِمًا عَلَى عُشْبِ الْحَدِيدَةِ مُغْمَضُ الْعَيْنَيْنِ وَمُفْرَجًا بِالدَّمَاءِ، «عَبْدُ الْقَادِرِ».. سَمِعَ صَوْتَ أَبِيهِ فَجَلَسَ بَغْتَةً عَلَى السَّرِيرِ ثُمَّ تَدَقَّقَتْ الْأَحْدَاثَ فِي رَأْسِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً، النُّبُوتُ فِي الْأُتُومِبِيلِ.. عِلْبَةُ الْكُوكَايِينِ.. الرَّشَاشُ عَلَى فَخْذِهِ.. دَوَاسَةُ الْجَازِ.. الْمُعْسَكِرُ عَلَى بُعْدٍ.. الْمَدْفَعُ يُصَوِّبُ نَحْوَهُ.. ثُمَّ لَا شَيْءَ!

تَحَامَلَ عَبْدُ الْقَادِرِ وَحَاولَ النُّزُولَ مِنَ السَّرِيرِ فَعَطَّلَتْهُ قَدَمٌ مَغْلُولَةٌ، انْتَبَهَتْ الْمُمرَضَتَانِ لِاسْتِفَاقَتِهِ فَاقْتَرَبَتَا، انْتَابَتْهُ الْعَصِيْبَةُ لَمَّا لَمَسَتْهُ إِحْدَاهُمَا مُحَاوَلَةً إِثْنَاءَهُ عَنِ النُّزُولِ فَلَدَفَهَا دَفْعَةً عَاقَتْتَ فِيهَا الْحَائِطَ وَأَغْرَقَهَا بِالسَّبَابِ، جَرَتْ الْأُخْرَى هَلِيعَةً إِلَى الْخَارِجِ تَسْتَدْعِي مُسَاعَدَةً،

لَحَظَاتٍ وَدَخَلَ طَبِيبٌ لَمْ يَجِرْهُ عَلَى الْاقْتِرَابِ مِنَ الشُّورِ الْهَائِجِ الَّذِي
حَاولَ خَلْعَ دَعَامَةِ السَّرِيرِ، ثَلَاثُونَ ثَانِيَةً وَدَخَلَ جُنْدِيَانِ بِسِلَاحِهِمَا،
قَاوِمَهُمَا بِفُصْرَاوَةِ أَطْحَاحٍ فِيهَا بِأَحَدِهِمَا قَبِيلَ أَنْ يَخْبِطَهُ الْآخَرُ بِدَبْشِكِ
الْبِنْدَقِيَّةِ فِي ذِرَاعِهِ الْمُصَابَةِ، صَرَخَ أَلَمًا فَرَكَعَ عَلَى السَّرِيرِ وَصَوَّيْتُ
الْفُوهَةَ إِلَى رَأْسِهِ، لَحَظَاتٍ وَأَقْبَلَ كُولُونِيلُ تَرِيْفُورْ، سَاكِنُ الْمَلَامِيحِ
فِي زِي عَسْكَرِيٍّ مَشْدُودٍ، يَهْدُوهُ فَتَحَ الْجِرَابِ وَحَرَّرَ مُسَدَّسًا لَهُ فُوهَةٌ
طَوِيلَةٌ، جَرَّ كُرْسِيًّا ثُمَّ جَلَسَ وَوَضَعَهُ عَلَى جِجَرِهِ.. هَزَّ رَأْسَهُ فِي أَسَى
ثُمَّ تَحَدَّثَ:

- مِنْذُ قَلِيلٍ مَاتَ «أَوْسْكَار».. كَلْبِي الْوَفِي.. سِلَالَةٌ نَقِيَّةٌ مِنَ الْإِنْجِلِيشِ
مَاسْتِيف.. الْيُوسْكِينِ رَأَيْتُهُ يَوْمًا وَرَاءَ يَوْمٍ يَشِيخُ وَيَمْرُضُ.. لَمْ
أَمْلِكْ مُسَاعَدَتَهُ.. وَمُؤْخَرًا انْفَجَرَتْ أَوْعِيَةٌ عَيْنِيهِ فَعَاشَ أَعْمَى آخِرَ
سَنَتَيْنِ فِي حَيَاتِهِ! طَوَالَ الرِّقَّتِ يَتَخَبَّطُ فِي أَثَاثِ الْبَيْتِ حَتَّى يَدْمَى
رَأْسُهُ وَقَدَمَاهُ.. ذَلِكَ كَانَ قَاسِيًا.. الْيَوْمَ اسْتَيْقَظْتُ مُبَكَّرًا وَسَمِعْتُ
أَخْبَارَ اضْطِرَابَاتِ الْمَتَطَرَفِينَ.. تَرَكْتُ الْمُعَسْكَرَ وَذَهَبْتُ لِلْبَيْتِ..
أَرْسَلْتُ زَوْجَتِي إِلَى صَدِيقَتِهَا.. أَخْرَجْتُ «أَوْسْكَار» إِلَى الْبَاهِجَةِ
الْخَلْفِيَّةِ.. سَحَبْتُ مُسَدَّسِي وَأَرَحْتَهُ.. أَتَقَنَّ أَنَّهُ مُقَدَّرٌ لِمَا فَعَلْتُهُ..
بَعْدَ يَوْمَيْنِ سَأَسْتَقْبِلُ «سْتَاْفُورْدْشَايِر» رَمَادِيًا.. هَجِينًا قَوِيًّا يَصْلُحُ
لِلصَّيْدِ وَالْعِرَاكِ.. سُرَّعَانِ مَا سَيُنْسِي زَوْجَتِي «أَوْسْكَار» الْعَزِيزَ.

صَمْتُ لِلْحَظَاتِ أَشْعَلَ فِيهَا غَلِيُونَهُ ثُمَّ أَرْدَفَ: هَيَا يَا عَبْدَ الْقَادِرِ.. عَلَيَّ
أَنْ أَهْبَ «أَوْسْكَار» جَنَازَةً تَلِيْقُ بِالْعِشْرَةِ الطَّيْبَةِ.. هَيَا.. أَعْطَنِي قِصَّةً..
وَاحْرِصْ أَنْ تَكُونَ مَتَمَايِكَةً وَمُسْلِيَّةً فِيمَا جِئْتُ بِالْفِعْلِ سَيِّئٍ لِلْغَايَةِ.
لَمْ يَهْدَأْ نَهِيْجَ عَبْدَ الْقَادِرِ وَإِنْ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَاَرْدَفَ الْكُولُونِيلُ:

- تدفعني إلى تصرف كن يرضيك يا عبد القادر.

- إذن.. صحح لي.. أنت لم تدعن لتعليمات الجراسة.. اقتحمت حدود المعسكر.. تحمل رشاشاً ألمانياً محشواً وفي أنفك كوكاين.. وللتوا اعتديت على ممرضة وقاومت الجنود! إما أن تشرح لي ماذا كنت تنوي في دقيقتين.. وإما أردبك برصاصة.

احتقت عينا عبد القادر وكاد يكسر ضروسه جزاً فسحب تريفور رصاصة من خزانة مسدسه إلى الماسورة بصوت رنان فابتعدت الممرضتان وتوتر الطبيب والمرضى.

- أعطني سبباً واحداً لإقناعي بعدم تفجير رأسك.

رائحتا الجبن والخزي غمرت أنفه.. ألقاها بالم: كنت.. أهرب!

- ممن؟

- أهل الحي الغاضبين.

- يعدونك خائناً؟ مم.. هل ترى نفسك كذلك؟

أخبره السؤال فقام كولونيل تريفور واقترب منه متفحصاً وجهه:

- هل.. ترى.. نفسك.. خائناً؟

لم يجزئ عبد القادر على تقديم إجابة، حتى لنفسه، فاستطرد الكولونيل:

- دعني أوضح لك أمراً تعلمته من الحياة.. بعض الناس يشبهون

الأسود.. وبعضهم يشبهون الكلاب.. وهناك الضباع.. فئة غريبة

ثُربها الأسود.. وتفزعها الكلاب.. فئة لا تكسب احترام أي
حيوان في الغابة.. كبيراً كان أو صغيراً.. هل فهمت شيئاً؟
- أنا مش جبان.

صاح الكولونيل في عبد القادر: تكلم بالإنجليزية.
لم ينطق عبد القادر.

- لا تريد أن تتكلم.. حسناً.

قالها وقام، صوّب ماسورة مسدّسه إلى رأس عبد القادر، لحظات،
ثم سحب المسدّس ونأمله قبل أن يودّعه جِراجه.. قال:

- رغم أنك لا تختلف عن الرعاع الذين لا يرضون بالحياة الكريمة
من أبناء جلدتك.. ورغم أن قتلك أسهل من إطفاء سيجارة لكني
سأكتفي بشركك ترحّل.. من أجل ذكرى «أوسكار».. من يقتل
كلّيين في يوم واحد؟ لا تدعني أرى وجهك ثانية.

قالها وصفق الباب وراءه، أغلقه على صدر عبد القادر.

بعد ساعة فُتحت كُوة في باب المُعسكر الحديدي، خرج منها
عبد القادر بصُحبة جنّدين مُسلّحين لفظاه على بُعد أمتار، قام ولم ينظر
وراءه، توكّأ على نفسه برأس مُرتج وعرجة مُؤلّمة حتّى مرّ بكتلة من
الحديد كانت يوماً سيارة كروسلي، اقترب منها مُنفخصاً ركامها بأسى
قبل أن يستخلص بصُحوبة نثوت أبيه من بين الحطام، جزء من الرأس
تهشّم وتخرّشت الساق، وضعه على الأرض وتعكّز عليه سيراً..
نحو العدم.



نفس اليوم.. منزل سعد زغلول

١٠١٥ صباحًا

توقفت عربة «الكوييل» قرب مدخل البيت، نزل السائس من فوق الحصان وهو يتأمل المظاهرة النسائية التي وقفت قرب المدخل، نساء وفتيات من جميع الأعمار ارتدين الحبرات السوداء فوقها براقيع بيضاء ورفعن لافتات الاستقلال والاستنكار والأعلام السوداء، سحب السائس درجات السلم الثلاث ثم فتح الباب وبسط يده.. اتفضلي يا هانم.. وضعت صفيّة زغلول قدمها على درجة السلم ثم انكأت على كفه حتى لامست الأرض، التفت الجموع إليها فتعالت الهتافات في أفواههن: سعد سعد يعيا سعد.

وقفت السيدة تحيي الجموع اللاتي رمقنها بشخف قبل أن تتجه إلى باب البيت، لما أصبحت بجوار البوابة طلّت من بين الصفوف أنثى حاصر الكحل عينيها الواسعتين فوق البرقع.. صفيّة هانم.. صفيّة هانم.. نادى فلقت النظر ثم مدت من وسط الزحام يدًا خمرية تحمل ورقة مطوية، التقطتها السيدة ثم دلفت من باب البيت قبل أن تفتحها وتقرأ:

«ابتك دولت فهمي مدرسة بمدرسة «الهِلال»، من طرف عزيزة هانم عهد البر.. المنيا».



قرأت صَفِيَّةُ الاسم فتوقفت قبل أن تُشير لخدامم أن يأتي بالآنسة صاحبة الرسالة، انتزعها من بين الصُّفوف فمدَّت الفتاة يدها بفرحة شديدة.

- مُشْكُورَةٌ يا صَفِيَّةُ هَانِم.

- أهلاً يا دولت.. عزيزة هَانِم كلمتني عنك من ثلاث أيام.. وبين من الدنيا؟

- من أبشاق الغزال مركز بني مزار.. من إيدك دي لإيدك دي.

- تعالي معايا.

تحركت دولت في أثر صَفِيَّة حَتَّى دَخَلْنَا الحَرَمَ ملك، صعدنا إلى الدور الأول المفضي إلى صالة واسعة اصطفت فيها كراسي الأيسون على شكل دائرة جلست فيها زوجات المنفيين وسيدات المُجتمع، استقرت دولت في نهاية القاعة تتأمل مَنْ كانت تسمع أخبارهن في الجرائد وتُرى صور مآذبهن وحفلاتهن قبل أن تتابع دورهن في طلب الاستقلال، لعبة السياسة القذرة التي طالما شغلت بالها، ها هي صَفِيَّة هَانِم زوجة الزعيم سعد زغلول! هُدى هَانِم شعراوي زوجة علي باشا شعراوي عين أعيان الدنيا وثالث ثلاثة في الوفد الذي ذَهَب للقاء المندوب السامي، زوجة مُحَمَّد باشا محمود عين أعيان أسبوط وأول من نوره عن فكرة تشكيل الوفد، وَغَيْرُهُن! كان ذلك كَثِيرًا على دولت، اجتاحتها الإشارة ففارت وجتها حرارة، أنزلت البرقع عند حدود ذقنها فَضَرَبَتْ نَسَمَاتِ الهَوَاءِ خصلة فاجمة فَرَّتْ مِنْ تَحْتِ الحِبرَةِ ولاحت قسَمَاتُهَا الخمرية المتناسفة؛ شفتان مكتنرتان داكنتان

فوقهما عينان واسعتان عسليتان، تحسبها أميرة فرعونية اكتسبت بعض الوزن، يا الله أرقرت بها في سيرها وهي تتابع الوجوه.. ياليت أهل بلدي يعلمون بما حدث لي في القاهرة، هل كان يتوقع أي منهم أن نصير واحدة من آل «فهيم» مدرسة في أم الدنيا مصر؟ هل كان يتوقع أي منهم أن تحضر فتاة بنسي مزار اجتماعا بذلك القدر من الأهمية؟ سأحكي لهم حين أعود وسيلتفون من حولي ليسمعوني مدهوشين، مستغربين أمي، وناسين أخي كثيرا، كم ألتفت! لولا الأحداث ما تأخرت عن لقياء لحظة، لكنها لحظة فارقة في التاريخ، سيمدوني.

أفانت «دولت» من شرودها لحظة بدأت صفية هايم في الكلام، كانت تجلس بجانب هدى شعراوي:

- أحب في الأول أعرف حضراتكم التطورات، البرقيات التي بعثناها باسم سيدات مصر لحرم المندوب البريطاني طبعا مفيش رد، كل اللي حصل إن أعضاء الوفد عجبتهم الصيغة وحفظوا منه نسخة في محضر جلسة أول إمبارح!

أردفت هدى شعراوي: الاحتجاجات والبرقيات ما عادت تنفع يا هوايم.. السئات لازم تشارك.. لازم ننزل الشارع. انطلقت همهمات مستنكرة من السيدات قبل أن تتكلم سيده لم تتعرف عليها دولت:

- يا صفية هايم أنت عاوزة السئات تنزل الشارع؟
صفية: ومالو لما ننزل الشارع؟

أردفت السيِّدة: أنا ما مشيتش في الشارع من ساعة ما كُنت عيلة صغيرة.. ده إحنا نتبهدل!

قالت صَفِيَّة: هو فيه بهدلة أكبر من اللي خصلت للبشوات يا صِدِّيقَة هَانِم؟

رَفَعَت زوجة مُحَمَّد باشا مَحْمُود صَوْتَهَا: إحنا في وضع استثنائي.. أنا مع نزول الشارع أكيد.

عَلَا صَوْت سَيِّدَة بَدِينَة على قَبَعَتِهَا ريشات طويلات: أنا شايقة نستنى لِمَا نشوف هايحصل إيه؟ دي خُطوة بِش هَبْنَة.. هايقولوا علينا إيه؟ ده غير البَصْبَصَة اللي هانشوفها من قُلالات الحَيَا والإنجليز.. الوغد مَا يتهَيَّأ لِبَش يوافق ع الكلام ده.. لو كَانَ سَعْد بَاشَا موجود ماكانش هايوافق الستات تنزل.

صَفِيَّة: سَعْد بَاشَا قال إن ثورة من غير ستات ما تقاش ثورة.

أردف صَوْت آخر: فيه ستات هاتطلق لو نزلوا.. ده خراب بيوت.

كَانَ ذَلِكَ فوق احتمال دولت، فلت زَمَام صبرها فقامت ورفعت صَوْتًا يَلْبِق بِأَقاصي الصَّعِيد: الراجِل اللي يطلِّق مراته عشان نزلت تتظاهر يبقى مش راجِل.. وما تصحَّش العيشة مَعَاه.. الستات في بلدنا خلَعُوا قضبان القطر مَعَ اجوزاتهم.. لازم ينزل.. إن شالله الإنجليز يضربونا بالنار.

صَمَتَ الجَمْع والتَفَّت الرؤوس إلى دولت التي اقشعر جلدُها كجلِد إوزة من الخجل فرمقت صَفِيَّة هَانِم في استغاثة فقامت من كرسيها محتثة: آه.. يضربونا بالنار.. ولو يَست واحدة خصلها حاجة البلد هاتولِّع.

قامت هُدى شَعراوي حَاسِمةَ الجَلِسة:

- أنا هانِزل الشارِع، دَه قرار اتَّفقت عليه مع صَفِيَّة هَانِم قبل ما نَقعد القعدة دية، هانتَجَمع دِلوقت في جَنينة جَارِدِن سِيَتِي ونتَحَرَّك من هَناكَ على القَتَصَلِيات، اللي عاوِزة تَتَفَضَّل تيجي أَهلاً بِيها، واللي مش عاوِزة خَلِيها في البيت تَسْتَيِّ الفَرَج.

انْفَضَّت الجَلِسة وتَفَرَّقت النِساء، القَلَّة الرافِضة رَكِبن عَرَباتِهِنَّ رَاحِلات، والبَقِيَّة المَوافِقَات نَزَلن مُلتَحِمات بِالْجُمُوع الواقِفة خَارج البَوَّابة، يَنْظُرْنَ لَصَفِيَّة زَغُول بانِبهار وَحين أَنزَلت الجِجَاب كاشِفة وَجْهها اشْتَعَلن حَماسَة، دُولت كَانَت وراءَها تَتابع المَشْهَد، مُنْتَشِية لَا تَصَدِّق عَيْنِها، كَشَفَت وَجْهها وَرَفَعَت عَلَمًا فاحتَضَنَتها صَفِيَّة هَامِسة في أَذُنِها:

- أَنت بِمِيت رَاحِل يا دُولت.

حُشِرَت الكَلِمات في فَم دُولت من الحَماس وَارتَعَشَت شَفَتاها بِاتِسامَة قَبْل أن تَرَفَع صَفِيَّة يَدَها بِالتَحِيَّة لِعَبْد الرَحْمَن فَهَمِي الَّذِي نَزَلَ لِلنِّسَاء من عَرَبَتِه وَاقْتَرَب، حَيَّا صَفِيَّة فَهَمَسَتْ في أَذُنِها: دُولت بِنْت مُتَمَيِّزة.. مَسْتَخْسرَاها في المَظَاهِرَات.. خَلِي بِالك مِنْها.

هَزَ الرَّجُل رَأْسَه في إِيْجاب وَابْتَسَم: بِتَسْتَفْلي إِيْه يا دُولت؟

- مَدْرَسَة إنْجِلِيزِي في مَدْرَسَة الْهَلال.

- حَاجَة لَطِيفَة خَالِص.. أَنَا عَارِف المَدْرَسَة.. هَاكُون عَلى اتِّصَال بِيَكِي.

ابتسمت دولت بفرحة حقيقية وشكرته قبل أن تودّع صَفِيَّة هانم لتلتجُم بالسيدات، يسرن في خُشوع مهيب، مَوَكِبَ علته الأعلام السوداء احتجاجاً على نفى سَعد والقتل المُستمر للمتظاهرين، ذُهِل أبناء البلد قبل أن يُذهل الجند الإنجليز وتُخْرِسَهُم المُفاجأة، السيدات والفتيات يسرن في مظاهرة! يهتفن بسُقوط الإنجليز بوجوه مكشوفة وأصوات عالية تحطَّت الحجاب!! التفَّ حَوْلَهُن الشَّباب والرجال يَحْمُونَهُن ويوفُرُن لَهُن سَلامة الطَّرِيق إلى القنصليات، تصدَّعت حنجرة دُولت من الصراخ: «عاش سَعد» يسقط الاحتلال، وبعد دقائق باتت المُظاهرة بالمشات بعدما نزلت رِيَّات البيوت مِن بروجهن وانضمت طالبات المدارس، كُلُّمَا وَصَلْنَ أَمَام قُنصليَّة هتفن وقَدَّمن ورفقات الاحتجاج واستنكار الاحتلال.. لَمَّا رَجَعْنَ إلى بيت سَعد زَغلول صَرَبَ الإنجليز يُطافاً حَوْلَهُن لإيقاف المَسيرة، سَدَّدُوا إِلَيْهِن البنادق وحَاصَرُوا الشَّباب الذين يَحْمُونَهُن، لثلاث سَاعَات كَامِلَة ظَلَّت المُظاهرة تضطرب تحت وَهَج الشمس، لم يتوقَّف الهتاف لَحْظَة حتى جاء الأمر فضيَّق الإنجليز الحِصار ودفعوهُن دَفْعاً بِجَرَاب الجنود ومن ورائهم الخيول حتى وهنت القوى وتفرَّقت الجموع بعد يوم لم يَكُن أَحَد ليتخيل أن يَأْتِي.

«سيدات مصر تتفضن ويخلعن البراقع ويسرن في مظاهرة رافعين أعلام الأُمَّة!».

ذلك اليوم رجعت «دولت» إلى شَقَّتِها المؤجِّرة، خلعت حبرتها وبرقعها وارتمت على السرير وقد نسيت قلبها وعقلها «عنة».. في بيت الأُمَّة.



وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّ	خَرَجَ الْغَوَالِي يَحْتَجِجْنَ
سُودَ الثِّيَابِ شَعَارَهُنَّ	فَإِذَا بِهِنَ تَخْذَنَ مِنْ
يَسْطَعْنَ فِي وَسْطِ الدُّجْنِ	فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَوَاكِبَ
وَدَارُ سَعْدٍ قَصْدَهُنَّ	وَأَخْذَنَ يَجْتَزْنَ الطَّرِيقَ
وَقَدْ أَبْنَى شَعْوَرَهُنَّ	يَمْشِينَ فِي كَنْفِ الْوَقَارِ
وَالْخَيْلُ مُطْلَقَةُ الْأَعْنَى	وَإِذَا بِهِيْشَ مَقْبَسِلَ
قَدْ صَوَّبَتْ لِنَحْوَرَهُنَّ	وَإِذَا الْجَنُودُ سَيُوفُهَا

حافظ إبراهيم

نفس اليوم

- مَاجِمِ الْمُتَظَاهِرُونَ الشُّجْنَ فِي مِيزَا الْقَمَحِ وَأَطْلَقُوا الْمَسَاجِينَ ثُمَّ هَاجَمُوا
السِّكِّكَ الْحَدِيدِيَّةَ فُقُتِلَ ثَلَاثُونَ شَخْصًا.
- أَضْرَبَ عُمَالُ إِنْزَارَةِ الشُّوَارِعِ بِقَازِ الْإِسْتِصْبَاحِ قَبَائِكَ الْقَاهِرَةَ فِي غَلَامِ دَامَسَ.

اليوم التالي

لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَنْ يَقَرَّعَ؛ فَبَابُ الْبَنَسِيُونَ مَا كَانَ لِيَنْغَلِقَ، رَأَتْهُ بَنِبَةُ يُقَاوِمُ
الشُّقُوطَ مُسْتَنْدًا عَلَى ثُبُوتِ أَبِيهِ فَهَرَعَتْ خَافِيَةً وَالتَّقَطْتَ ذِرَاعَهُ، ارْتَمَى
عَلَى الْكَنِيبَةِ صَامِتًا فَالْتَفَتَ حَوْلَهُ الْعَاهِرَاتُ يَخْبِطُنَ صُدُورَهُنَّ قَلَقًا،
أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ بَعَيْنَيْنِ تَحَجَّرَتَا وَشُحُوبَ كَشْحُوبِ الْمَوْتَى،
أَتَيْنَهُ بَمَاءٍ شَرِبَهُ ثُمَّ تَقَيَّأَ عَلَى صَدْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَلِدْنَ إِلَى الْحَمَّامِ، أَكْمَلَ
إِفْرَاغَ مَعِدَتِهِ ثُمَّ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيٍّ قَصِيرٍ وَتَوَلَّى بَنِبَةَ صَبَّ الْمَاءِ فَوْقَ
رَأْسِهِ، نَزَلَ مِنْهُ تُرَابٌ وَعَرَقٌ وَدِمَاءٌ قَبْلَ أَنْ تُلْبِسَهُ جَلَابِيَّةً وَتُسْجِيهِ عَلَى
سَرِيرٍ، أَمْسَكَتْ بَوْرُكِي فَرُخَةً فَشَخَّطَتْهُمَا ثُمَّ نَاولَتْهُ فَأَبْعَدَ يَدَهَا.

- يوه!! لَازِمٌ تَنَاقُوتَ يَا عَبْدَ الْقَادِرِ أَنْتَ مِتْصَابٌ.. وَخَدَّ اللَّهُ
فِي قَلْبِكَ.. هُوَ إِيَّاهُ الَّذِي حَصَلَ؟ سَلَامَةٌ يَقُولُ أَنَّكَ جَرَيْتَ بِالنَّبُوتِ
بَعْدَ مَا بَصَّيْتَ غَ الْمَرْحُومِ.. يَا حَوْلَ اللَّهِ يَا رَبِّ.. أَنَا قُلْتُ
الْإِنْجِيلِزَ نُشُوكَ وَلَا حِسُوكَ.

لم يفقه عبد القادر ما قالت، صورتها كان همهمات بلغة هندية، عقله لا يكف عن استدعاء صورة أبيه، ثداهمه باردة شاجية كأطرافه التي لامسها، لا يكاد يصدق أسطوره التي تقوّضت، ذُبياه التي تداعت، العالم الذي كان مُستقرّاً فتشَقَّق وانفلق، يُضنيه ويُصليه إلحاح عقله في اختلاق قصّة مُتماسكة تحفظ ما تبقى من ماء وجهه الذي انسكب تحت قدميه وتبخّر، قصّة يرويها لحظّة عودته للحَيّ مُستقبلاً التعازي في مقتل أبيه بيد الإنجليز! الإنجليز الذي كان يتباهى بصدافتهم وخدمة مُعسكرهم! اغمّض عينيه بألم مُحاولاً استيعاب مسرحيته الهزلية الرديئة التي لن ترقى لتعرض على مسارح شارع عماد الدين، وقرار عودته للحَيّ الذي أصبح ضرباً من الجنون.

انتشلته بنية من وحشة أفكاره:

- يا عبد القادر بزيادة قلقنتي! إيه اللي حصلك؟

أأخذ الأمر مِنْه لحظّات ليفتح قمه: أبويا مات.

استوقفت الكلمة «ورد» الهائمة في الطرقة، تسير مستندة بأناملها على الحائط الطويل محاولة الاتزان، رجعت، جلست القرفصاء بجانب الباب تسترق السمع حين أردفت بنية:

- منا عارفة إن أبوك مات الله يرحمه.. ويتعدين؟

ابتلع ريقه بصعوبة ثم تكلم بعينين زائفتين وابتسامة محمومة:

- سحّبت الثبوت وركّبت الأوتوميل.. عيّت الرشّاش وجريت غ المّعسكر.

- يا أهوي!! وبَعدين؟

- ضَربت كل اللي واقفين بالنار.. كلهم.. غريبتهم.. وكُسرت باب
المُعسكر ببوز الأوتومبيل.

رمقته «ورد» مِن طَرف الباب وهو يحكي.. عَيْنَاهُ الذاهلتان ويداه
المُرتعشتان أثارَت انتباهها.

- دَخَلت على بَرَاميل الجاز المَرصوصة.. بطلقة واحدة
ولعت الدنيا.. واللي يجري أنشئه.. أنشئه.. لغاية ما خلصت
عَ المُعسكر كُلّه.

انتهى عبد القادر ولم تُبدِ بِنَة اِرتياحًا لِمَا قال، رَمَقته بِابتسامة عَصِيبَة
قَبْل أن تجس جبهته فوجدتها دافئة، لوت شفتيها قَبْل أن تُغَطِّيَه.

- معلش.. طول عُمرك راجل يا عبد القادر.. نام لك سَاعَتَيْن كِدَه
عَشان تفوق.

أغمض عَيْنيه فخرجت، توارت ورد حتى مرَّت بِنَة قَبْل أن تتسلَّل
إلى الخُرفة، اقتربت من عبد القادر مجَاهِدة سَلاسِل ثَقِيلَة مُربوطة في
قَدَميها من أثر الأفيون في دِمَائِهَا، تَأَمَلت جُروحَه والنَّبُوت المَمَكُوسِ
بِجَانِبِهِ فمَدَّت أَصَابِعَهَا إِلَيْهِ فَضَوَّلَا حِينَ فَتَحَ عَيْنِيهِ بَغْتَةً وَقَبَضَ يَدَهَا
بِقُسْوَةٍ، تَلَاقت نَظَرَاتُهُمَا لِلحَفَظَات لَمْ تَرْمَشْ فِيهَا جُفُونُهُمَا قَبْل أن تترك
النِيرَت كَمَا كَانَ فَحَرَّرَ عبد القادر يَدَهَا فَانْسَحَبَت خَارِجَةً كورقة تترنح
في مهب الريح.



- مظاهرة كُبرى في القاهرة أبلغ مُنظّموها الحُكُمدارية بخط سيرها فوافق الحُكُمدار على التصريح لهم، مُشتت المُظاهرة وفيها كل طوائف الأمة من قُمّال ومُوظّفين وطلبة هاتفين بالحرية، استمرت المسيرة ثماني ساعات ثم حدث إطلاق نار تجاهها من نافذة رجل أرمني، صمد المتظاهرون بنائيه فقتلوه وأحرقوا بعض محال الأرمن والأجانب قبل أن يُسيطر منظمو المظاهرة على العنف ويوقفوا موجة الغضب... بصعوبة.

- القاهرة أصبحت معزولة تمامًا بعد قطع خطوط السكك الحديدية.

قلعة بولغاريسكا.. مآلها

القلعة العتيقة كانت على ربوة مرتفعة، حواشيها مكسوة بالحجر ومحاطة بسور عالٍ له باب حديدي يحرسه فريق من الضباط المآلطين ببنادق طويلة لها حراب مديبة، في الحديقة الوارفة جلس سعد زغلول على كرسي أمام منضدة فوقها قهوته، شاردًا يرمق رماد سيجارته تحت أصابعه يتراكم وتوشك النار المُقتربة أن تطول جلده.

منذ حضر إلى مالطابات الأيام كلها سواء، نهارها كليلها لا أحداث فيها إلا الوجبات بين رفاقه على مائدة الشيف الألماني الذي استأجروه

وأدوار الكوتشينة أو الشطرنج التي تتخللها تبادل الجرائد المهرية إليهم من مصر، يقرءون فيها تطور الأحداث ويطرحون مخاوفهم واقتراحاتهم المتباينة قبل أن تشتعل الكلمات في الهواء فوق رؤسهم، اختلافات فكرية لم يلحظها خلال زمالتهم في مصر، الاستئثار بالرأي، بالزعامة، العناد، التكتل، الاتهامات المتبادلة، والخصام في أحيان كثيرة! ساعات متوترة قابلها سعد بالصمت أحياناً وأحياناً بعصبية مريض سُكَّر، يترك المكان بعدها ويستأذن الحراسة فيرافقه فردان بأسلحتهما بعدما يمضي تعهداً بعدم الهروب، يتفصح في الجزيرة سيراً على الأقدام وهما من ورائه، يشتري بعض الأعشاب التي تخفض السكر في دمانه ويقابل عدداً من المالطيين والأجانب المتعاطفين مع القضية، يصافحونه في حفاوة وينثرون عليه دعواتهم، قبل أن يعود ليشرب قهوته ثم يجلس ليسطر بعض ما حدث في مذكرات تعود أن يكتبها منذ سنة ١٩٠٧، مذكرات استهلها بعبارة: «ويل لي من الذين يطالعون من بعدي هذه المذكرات».. أوراق صريحة تحمل بين طياتها مُحاولاته المُستميتة للتخلص من عادة القمار.. كواليس نزاعاته مع الإنجليز والخبديوي أثناء توليه الوزارة.. أخبار محصول القطن السنوي في أرضه ومصاريف بيته بالقرش وتقرير دوري عن حالته الصحية.. رأيه الصريح في المُقربين منه حتى وإن كان جارحاً ورغبته الحقيقية في زَكل مُؤخرة كل مُحتل يسير فوق أرض تلك البلد.

قَطَعَ شروده صَوْت آت من البوابة، دَب النشاط في غَيْبهِ فاطناً سيجارته وهو يتأمل الحارس المالطي يُدْخِل الضيف، شاباً وسيماً مُهنِداً، اقترَب حَامِلاً بين يديه كرتونة صَغِيرَة الحَجْم:

- صباح الخير يا سعد باشا.. مجلات وجرائد الأسبوع.

- أشكرك جزيلًا.

بفرنسية ضعيفة استأذن الحارس المالطي في تفتيش الكرتونة التي أتى بها الضيف فوافق سعد، غرلها ولم يجد فيها سوى الجرائد والمجلات فاستأذن الضيف من سعد ورخل، أخذ الأخير الكرتونة ودخل إلى البيت، أتجه إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب بالمفتاح، فقص الكرتونة وأزاح الجرائد قبل أن يلتقط مجلة اجتماعية، قلب الورقات حتى توقف عند الصفحة الثامنة عشرة، أشعل «ابور سبرتو» صغيرًا فوقه بمكواة حديدية، ما إن طالتها السخونة حتى كبسها على الورقة، ثواني واحمرَّت المسافات ما بين السطور، ثم أصبحت أقرب للبنى الغامق قبل أن تتضح الكلمات، كلمات عربية مكتوبة بخط يدوي رفيع.

سري.. رقم ٢

أطلب الإذن لتمويل عمليات محدودة ترك أثرًا في أصدقائنا
للدفع القضيّة.

هبد الرحمن فهمي

قرأ سعد الرسالة مرّات قبل أن يقطع الصفحة مع عدّة صفحات عشوائية من مجلات أخرى ويحرقها.. تابع اللهب الأزرق يتصاعد حتى خبا وباتت الورقات رمادًا جمّعه في قبضته وخرّج إلى الحديقة..

أطلقه في وجه الريح فابتلعتة ثم أشعل سيجارة وهو يسترجع سبعة وثلاثين عامًا مضت.. بقايا ثورة مَبْتورة بقيادة عُرابي.. استرجع أيام سجنه.. أيامًا آمن فيها أن العُنف هو الطريق الوحيد للتغيير حين تُسدُّ كل الطرق.. نرتكب أحيانًا أخطاء صغيرة لتفادى أخطاء أكبر.. القرار مصيري والتصعيد سلاح ذو حدين.

أحدهما بالفعل على بُعد ستيمترات من قلبه.

قبل أن تنتهي السيجارة دفنها ودخل المطبخ.. النقط قص ليمون.. بَصْلَة.. عَصَاة وزُجاجة خَل.. ثم دخل غرفته وأغلقها.. كما في تعليمات رسالة عبد الرحمن فهمي السابقة فَعَلَ.. عصر الليمونة وورقة البَصْل على بعض الخل وقلّبههم بيسن ريشة رفيع قبل أن يتقطعت كتابًا عتيقًا ويتقي صفحة بعينها ليكتب ما بين السطور ردًا.



حَضَرَ أَحْمَدُ فِي مَوْعِدِهِ تَمَامًا، سَأَلَ الْخَادِمَ الْمُتَوَثِّرَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
فَهَمِّي فَنَاولَهُ رِسَالَةَ اعْتذارٍ عَنِ التَّأخِيرِ وَرَجَاءَ الْإِنْتِظَارِ فِي الْحَدِيقَةِ حَتَّى
يَجِيءَ، وَقَفَ بِضِعْ دَقَاقٍ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَتَأَمَّلُ الْبَيْتَ الْكَبِيرَ ثُمَّ تَمَشَّى،
انْفَرَسَ حِذَاؤُهُ فِي عُشْبٍ لَمْ يُشْدَبْ مُنْذُ أَسَابِيعَ قَبْلَ أَنْ تَسَحِبَهُ عَيْنَاهُ
لِعَرَبَةِ سَعْدٍ بَاشَا الَّتِي تَقِفُ أَمَامَ الْإِسْطِطِلِ، بِلَا حِصَانٍ، اقْتَرَبَ بِتَأَمُّلِهَا
حِينَ التَّقَطُّتْ أَذْنَاهُ حَمَامَةً قَرَمَ، دَلَفَ مِنَ الْبَابِ الْمُفْرَجِ فَلَمَحَ ثَلَاثَةَ
أَحْصِيَةِ تَغْلٍ رءُوسَهَا مِنَ الْمَرَايِطِ وَيَدَا نَتْنَى تُدَاعِبُ جَبْهَةَ الْأَبْعَدِ، لَمْ
يُصَدِّقْ عَيْنِهِ حِينَ تَبَيَّنَ صَاحِبَتُهَا، تَسَمَّرَ مَكَانَهُ يُسَجِّلُ اللَّحْظَةَ، يَرْجُو
الثَّوَانِي أَلَّا تَعُرَّ أَوْ تَنْقُضِي، بِحَذَرٍ تَابِعَ عُودَهَا الْأَشْبَهَ بِقَارُورَةِ انْسِيَابِيَّةٍ،
حَذَاهَا الْعَالِي الَّذِي أَيْقُظُ مَنْحَنِيَّاتِهَا، وَأَصَابِعُهَا الَّتِي أَخْرَجَتْ قَالِبَ
السُّكَّرِ مِنْ كَيْسٍ صَغِيرٍ وَقَرَّبَتْهُ مِنَ الْقَمَى، لَحَسَهَا لِسَانٌ عَرِيضٌ فَضَحِكَتْ
بِسَرَّاءٍ وَرَبَّتْ عَلَى صَدْغِهَا الْهَائِلِ بِخَفَةٍ، ثَوَانٍ وَالتَّقَطُّ أَنْفُهُ رَائِحَةُ قَرْنَفَلٍ
مَمْزُوجٍ بِخَوْخٍ وَيَاسْمِينٍ.

- ده «ميتسوكو»؟

التفتت نازلي ناحيته بغتة، تأملت ثواني قبل أن تنفض يديها من بقايا
السُّكَّرِ.. بدون أن تنظر في عينيه سألت:

- يباع عطور؟

صَحَّحَ أَحْمَدُ فاقْتَرَبَ: لَا، كُنْتُ فِي شِيكُورِيل سَاعَةً مَا نَزَلُوا أَوَّلَ
إِنْتَاكِ مِنْهَا، عَجَبَنِي شَكْلُ الْإِزَازَةِ وَخِلْطَةُ الْقَرْنَفْلِ بِالْيَاسْمِينِ وَالْخَوْخِ
فَسَأَلْتُ عَنْ الْأَسْمِ، عَرَفْتُ إِنَّهُ اسْمُ بَطْلَةٍ يَابَانِيَّةٍ فِي رِوَايَةِ اسْمِهَا
«الْمَعْرُكَةُ»؛ زَوْجَةُ قَائِدِ حَرْبِي وَقَعْتُ فِي حُبِّ ظَاطِبِطٍ لِنَجْلِيزِي، وَدَارَتْ
مَعْرُكَةُ حَرْبِيَّةٍ بَيْنَهُمَا، طَوَّلَ الرِّوَايَةَ هِيَ فِي انْتِظَارِ مَيْسِنِ اللَّيْلِ هَايِرْجَعُ..
حَبِيبُهَا وَلَا الزَّوْجَ.

- وَطَبْعًا الْحَبِيبُ الْإِنْجِلِيزِي هُوَ اللَّيْلِ يِيرْجَعُ؟

- غَالِبًا.. أَنْتِ عَارِفَةٌ الْإِنْجِلِيزِي مَا يَحْبُوشُ بِخُسْرُوَا أَبَدًا.

- وَعَادَةً كُلِّ مَا يَعْجَبُكَ عِطْرُ بَتْسَالٍ عَنْ قِصَّتِهِ؟

- أَيْ شَيْءٍ يَنْجَحُ فِي شِدِّ انْتِبَاهِي مَا بِسَيُوشُ غَيْرَ لَمَّا أَعْرِفُ كُلَّ
حَاجَةٍ عَنْهُ.

أَرَبَكْتَهَا نَظْرَةً عَيْنِيهِ الثَّابِتَةَ فَأَرْدَفَتْ: قُرْصَةُ سَعِيدَةٍ.

قَالَتْهَا وَأَتَّجَهْتُ إِلَى بَابِ الْإِسْطِبْلِ خَارِجَةً.

- أَنْتِ عَارِفَةٌ إِنَّا اتَّقَابَلْنَا قَبْلَ كِدِهِ؟

أَبْطَأْتُ خُطُوتَهَا وَإِنْ لَمْ تَلْتَفِتْ فَأَرْدَفَ:

- سَنَةِ ١١.. شُفْتُكَ مَعَ صَفِيَّةٍ هَانِمٍ فِي الْحِجِينَةِ.

نَجَحَتْ الْكَلِمَاتُ فِي جَعْلِهَا تَلْتَفِتَ، أَعْطَتْ ظَهْرَهَا لِلشَّمْسِ فَصَبِغَ
شَعْرَهَا فِضَّةً وَتَخَلَّلَتْهُ الرِّيحُ فَتَمَوَّجَ مَتَنَاتِرًا عَلَى وَجْهِ تَشْرَبِ حُمْرَةٍ.

- وَأَنَا اللَّيْلِ شِلْتُكَ أَوَّلَ يَوْمِ الْمُظَاهَرَةِ.. يَوْمَ مَا أَعْمَ عَلَيْكَ لَمَّا...

- افنتكرتك.

قالتها وانحرفت إلى مربوط آخر ومدّت أصابعها لجبهة مُهرة
تُداعبها.. أردف:

- أحمد كبيرة.

- نازلي.

- عندك أخبار عن سعد باشا؟

مزّت رأسها نفيًا ثم استطردت: أنت بتعمل إيه هنا؟

- عندي معاد مع عبد الرحمن بيه فهمي.

- بتشتغل عنده؟

- لا.. أنا باشتغل في مدرسة الطب. لكن إحنا أصدقاء.

اقترب منها لمسافة لاحظ فيها ارتعاش أصابعها، جاهدت ل تمنع
نفسها من النظر في عيني، مدّ يده وذاعب عنق المُهرة فنفرت واضطربت
قبل أن تربت عليها نازلي مُهدّئة.

- مش متعوّدة على الأغراب.

- لما تعرفني هاتتعود.

ارتعشت أصابعها: وهي ليه تعرفك؟

- المُهرة تحب اللي يفهمها.. باقدر أحس بيهم.

- وأنت حسيت بإيه لما سُفتها؟

- المُهرة دي جريئة.. بس محبوسة.. نفسها تشوف الدنيا.

تهدجت أنفاس نازلي: هي بتفسح زي ما هي عاوزه.

- مع سايس؟

- ممم.. مع سايس طبعاً.

- جرّبت مرة تمشي لوحدها؟ تروح مسرح تتفرج على رواية مثلاً!

دارت ابتسامة بين شفّتيها: خيالك واسع!

- الخيل أصلاً بيتّه برية.. بيعشق الحُرّة.. والعيشة في روتين
إسطنبول ولو كان جنّة أكيد ملل.. المّهرة دي مستنية فرصة.

قالها أحمد ورفع مزلاج الباب الخشبي فابتعدت نازلي والمّهرة
خطوات إلى الوراء تحفّزاً:

- أنت كده بتخوّفها.

لم يجبها.. مدّ يده للمّهرة فاضطربت حرّكتها قبل أن يجلس على
ركبتيه بثّاً للطمأنينة.. لحظات من الترقّب قبل أن تأخذ المّهرة خطوة
نحوه.. فخطوة.. حتّى بات عنقها في مُتناول يده الممدّودة.. رَمَقته
ببؤبؤ وأبصر من بين خُصلات داكنة مُسدلة على وجهها ثم أحنّت رأسها
ودأبّت كفّه الممدّودة.. بُهت نازلي وأخفت الإعجاب في راحة
يدها.. قام أحمد ورّبت على عنق المّهرة فتمسّحت به قبل أن يلتفت
لنازلي التي لم تنزل عينيها عن عينيّه.. لحظات لم يعرفا كم طالّت قبل
أن يقطعها الخادوم حين دخل الإسطنبول.. حدّج نازلي باستغراب ثم رَمَى
أحمد الذي يقف في غير منطقته بنظرة ضيق!

- يا أفندي اتفضل في الجنيّة.. عبد الرحمن بيه وصّل.

خرج أحمد من المربط بعدما مسح على المِهرَة، ابتسم وهز رأسه تحيةً لنازلي حين عبّر بجانيها فبادلته ابتسامة مضطربة، عبد الرحمن فهمي كان واقفًا في انتظاره حاملاً في يده حقيبة جلدية، تمسحياً حتى السلامك ثم نزلًا بدروماً، عُرفه غسيل لكنها كافية لاحتواء ما سيقال، أغلق عبد الرحمن الباب ثم جلس وفتح حقيقته وأخرج منها كتاباً، توقف عند صفحة يعينها وناوله لأحمد، ما بين السطور قرأت تلك الكلمات:

رسالة ٤.. من مألطة

أخبر ما حصل من مظاهرات عقب قيامنا وبين أجل إبعادنا
ملأت قلوبنا شروراً وابتهاجاً، حتى كادت تعجب السجن إلينا،
وأفممتنا شكرًا لأننا وهأت قلبنا نفوسنا نفدي بها البلاد.. نعم،
سأرج هذا الشؤرور كثير من الأسف على النفوس التي أزهقت،
والمُؤن التي أحرقت، ولكن أي عبد قام بغير هذه التضحيات؟
راي أمة بلّغت منها، بغير أن يُخاطر أبنائها بأعز ما لديهم؟
لقد ساءنا أن نَدْخل بمقت الأسرار في الحركة ولر تكبوا جراً لم
لظيمة، ولكن متى حاجت الأمم فلا يعلم إلا الله بمقدار هيجانها!
ولكن المستول عن هذا الاختلال هم الذين أساءوا إليها من قبل؟

- أنا فهمت الجملة الأخيرة صح؟

هز عبد الرحمن فهمي رأسه موافقةً: نقدر نبدأ إمتي؟

- فوراً.

- هانحتاج عمليات فردية تأثيرها قوي.. تجبر الوفود على سماع

صوتنا في المؤتمر.. لازم يحسوا إن وضع الإنجليز في مصر غير

مريح.. والعالم يسمع أخبار كراهيتنا ليهم.

- فيه أسماء مطروحة؟

- أنا جهزت اسم نبدأ به.. هدف صعب لكن مؤثر وسمعته عالية من وقت الحرب.. واصله للملك نفسه في إنجلترا.. المشكلة الأساسية إن تنفيذ العملية هايكون مَحْصُور في يوم واحد بس في الشهر.. وبالتحديد خمس دقائق في اليوم ده.

- خمس دقائق؟!!

- شخصية قاسية جدًا على نفسها.. ما بياخدش إجازة غير يوم واحد بس.. ما عندناش غير دقائق محدودة ممكن نصطاده فيها.. لحظة خروجه من البيت.

قالها ثم أخرج ورقة صغيرة فيها اسم قرأه أحمد ثم نظر لعبد الرحمن فهمي.

- هي شخصية تستاهل رغم صعوبة التنفيذ.. هابدأ في دراسة المكان فورًا.

- الناس اللي معاك واثق فيهم؟

- جدًا.

- بالتوفيق يا أحمد.. البنت دولت اللي سلمتها لك.. أخبارها إيه؟

- شاطرة.. بتساعد حاليًا في طبع المنشورات وتوزيعها جوا أماكن الحريم وفي المدارس والمستشفيات.

- خلي بالك منها عشان دي من طرف صَفِيَّة هانم.. هاتحتاج نقدية قد إيه للفترة الجاية؟

- طينجتين.. حوالي خمسة جنيه.. وبحوالي اتنين جنيه رصاص
وكيماويات عشان العبوة الناسفة.. وجنيه كمان للورق والمطبعة
وشوية نثریات.

أخرج عبد الرحمن فهمي ثمانية جُنيهاً من ظرف في جيبه، ناولها
لأحمد ثم انتزع رسالة سعد من بين صفحات الكتاب وأشعل فيها النار
ثم وضعها في المنفضة.. أردف:

- أحمد.. فيه حاجة لازم نتكلم فيها.. في حالة لا قدر الله لو حد
فيكم اتمسك.. سعد باشا والوفد مالهمش أي علاقة بالموضوع.
دس أحمد الورقة التي تحمل اسم الهدف في المنفضة المُشتعلة
بجانب رسالة سعد حتى تفجَّمتا قَعًا.. أردف:

- مين سعد باشا ده أصلاً؟



تولّت النوبة الأمشيرية صبيح مدينة الإسماعيلية بالغبار.. رَكَعَت
الاشجار أمام الرّيح المُتربة وتُحَلت الشوارع مِنَ المّارة وتَعَفَّرت
الأسواق ومراكيب الصيّادين.. فِي الحي الإفرنجي وقفت السيّارة
الأوستن أمام مَدخل الفيلا.. بداخلها سائق يجلس خلف المقود
ويقف بجانبها حارس مُسلّح يَمَسَح الشارع بعَيْنين متوتّرتين وفوهة
مُتربّصة.. يترقّب خروج سيده.. لَحَظَات من السكون انقضت قبل أن
تُلوح عربة بطاطا تُظللّها سَحَابة دُخان رائحتها حريق.. تَمّم الحارس
على سلاحه وهو يُراقب القادم حتّى لاح عَجوز مِن وراء القربة..
دَقن أبيض وجسم نحيف في جلباب واسع.. استرخى الحارس لَمّا
قرأ الوَقن في ملامحه.. كان ذلك حين بَرَزَت عربة حنطور من الاتجاه
المُقابل.. يَفودها شاب تَلْفَح بِشال أخفى نصف وجهه ذَرَأً للآتربة..
قَابِضًا لِحَام فريسه مُخَفَفًا سُرْعته: مُعسلة أوي يا بطاطا.. صَاح بها بائع
البطاطا حين أصبح بجانب السيّارة الأوستن.. مَدَّ يده بداخل الموقد
المُشتعل فتوتّر الحارس: you امشي.. قالها بحلّة.. ارتسمت آيات
الجهل في وَجْه العَجوز فَرَفَع الحارس بندقيته ووجَّهها إليه مُتَوَعِّدًا
فأخرج بائع البطاطا يده بثمره ساخنة شَقَّها نصفين قبل أن يَضَعها فوق
ورقة صَفراء ويمدّها للحارس متمنّا: نَفَعنا يا خواجه.. كان ذلك حين

خرج كولونيل «تريفور» في زيه العسكري مُقترَبًا بِخُطوات واسعة من سيارته.. مُمِسِّكًا كلبه الستافوردشاير الرماذي الجامع بحزام غليظ.. لَمَحَ السائقُ فَنَبَّهَ الحارس الذي اقترب من البوابة لِيُؤْمِنَ خروج سيده وَيَحِيلَ عَه حقيقته.. مَا إِن وَطِئَتْ قَدَمَا «تريفور» بِبَلاط الشارع حتى دَسَّ البائع يَدَه في كومة البطاطا النيئة فَأَخْرَجَ عبوة ناسفة بِدَوِيَّة الصُّنْع.. فِي نفس اللحظة التي اسْتَلَّ فِيهَا عَرَبْجِي الحَنْطُور مُسَدِّسًا مُخْبَأً فِي ظَهْرِهِ وَقَامَ عَلَى عَرَبْتِهِ.. وَإِذَا بِمُلْتَمٍ يَخْرُجُ مِنَ الْعَدَمِ وَيَنْدْفِعُ فَجْأَةً تَجَاهَ الكولونيل! يَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ جَنُونِيَّةٍ شَاهِرًا سَيْفًا مُسْتَقِيمًا مُسَنَّ الحَوَافِ أَقْرَبَ لِإِنْشَارٍ مَرْبُوطٍ فِي رَاحَتِهِ.. وَفِي يَدِهِ الثَّانِيَةِ مُسَدَسٌ سَاقِيَةٌ.

ضَرَبَتْ الْمُفَاجَأَةُ الْجَمِيعَ! عَرَبْجِي الحَنْطُورُ وَبَائِعُ البَطَاطَا وَالحَارِسَيْنِ وَحَتَّى الكَلْبُ!!

ثُمَّ حَدَّثَ كُلُّ شَيْءٍ فِي عِشْرِينَ ثَانِيَةً.

الـ«ستافوردشاير» الرماذي كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَحَرَّكَ.. أَفْلَتَ مِنْ قَبْضَةِ سَيِّدِهِ وَانْطَلَقَ تَجَاهَ الْمُلْتَمِّ بِمُخَالَبِ تَخْرِيشِ الْأَرْضِ.. فَكَّ الْحَارِسُ الشَّخْصِيَّ لِلْكُولُونِيلِ أَسْرَ مُسَدَسِهِ وَصَوَّبَ.. قَفَزَ الْكَلْبُ تَجَاهَ الْمُلْتَمِّ فَشَقَّ سَيْفَ الْأَخِيرِ لَحْمَ رَأْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْطُرَ عَيْنَهُ الْيُسْرَى.. سَقَطَ الْكَلْبُ عَلَى الْأَرْضِ مَتَمَرِّغًا يَصْرُخُ فِي أَلَمٍ حِينَ ضَغَطَ الْحَارِسُ زَنَادَهُ فَانْطَلَقَتْ رَصَاصَةٌ أَخْطَأَتِ الْمُلْتَمَّ الَّذِي بَاغَتْ الْحَارِسَ بِطَلْقَةِ أَرْكَعَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّى رَصَاصَةً أُخْرَى مِنْ عَرَبْجِي الحَنْطُورِ الَّذِي تَدَارَكَ الْمَوْقِفَ.. بَائِعُ البَطَاطَا أَفْأَقَ مِنْ صَدْمَةِ ظَهْوَرِ الْمُلْتَمِّ الْمُبَاغِتِ فَارْتَمَى خَلْفَ عَرَبْتِهِ مُتَحَامِيًا بَعْدَ أَنْ أَلْقَى الْعَبْوَةَ النَّاسِفَةَ فِي حِجَرِ سَائِقِ السَّيَارَةِ الَّذِي رَفَعَ مَدْفَعًا رَشَاشًا فَوْقَ النَّافِذَةِ وَاسْتَعَدَّ أَنْ يُطْلِقَهُ تَجَاهَ الْمُلْتَمِّ.. الَّذِي أَصْبَحَ وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامِ الكُولُونِيلِ.. ثُمَّ دَوَّى الانفجارُ!

انفضت السيارة سبيرا فوق الأرض ثم سقطت.. تناثرت أشلاء
السائق والزجاج المصحط المصحط بالدماء وألقي بالكونونيل والملثم
أرضا قبل أن يقوم الأخير والنار المشتعلة في ذراعه وقد تكشف وجهه
بعدهما سقط لثامه.. نَظَر إليه الكولونيل في غضب ممزوج برعب..
عبد القادر!!! ثم هم بإخراج مُسدسه فتلقى من عبد القادر طلقة بترت
نصف راحته.. صرخ في هلع مصدوم قبل أن يخرسه نصل مشرشر هوى
على العنق فأحدث قطعاً أقع عبد القادر أن يلتفت للذراع المشتعلة..
أطفأها في التراب فسكن كل شيء بعدها دفعة واحدة.. تابع عيني
الكولونيل الجاحظتين ورقبته التي تعرت عروقه.. يدها المتشججتان
تحاولان وقف الدماء المنهمرة، وفحيح يائس يحاول استدراك حياة
تُراق.. لحظات قصيرة وهذات الرعدة.. خمد الإنجليزي.. كان ذلك
حين التقطت أذنا عبد القادر خربشات الكلب على الأرض تقترب..
التفت فرأى وجهاً مشطوراً يؤمجر ودماء مختلطة بلعاب يتناثر.. وثب
الكلب فدوت الطلقة من عربجي الحنطور.. اخترقت رأس الكلب
فجثم فوق صدر عبد القادر أرضاً.. نَظَر الأخير في ملايح الكلب
الصامتة ثم للعربجي فوق الحنطور الذي أشار إليه أن يصعد.. لم
يستجب حتى صرخ فيه: نُط يا غبي.. البوليس جاي.. قبل أن تدوي
صفارات الشرطة وتعالى.. تمالك عبد القادر نفسه فأزاح جثة الكلب
من فوقه.. ركض ناحية الحنطور المتحرك.. قفز إلى يد ساعده
على الركوب متفادياً رصاصات تنطلق نحوه فوسع يانع البطاطا ورك
الحصان بكرباجه ليضرب الأرض بسنابكه ويبتعد.



في مَرَكَب الصَّيْد جَلَسَ عبد القادر على الأرض الخَشِيَّة مُسْنَدًا
ظَهْرَهُ إِلَى جَانِبِ المَرَكَبِ، خَرَجَ بَائِعُ البَطَاطَا مِنْ كَابِيْنَةِ القِيَادَةِ وَفِي يَدِهِ
قِمَاشٌ وَرُجَاجَةٌ صَبِيغَةٌ يُودُ، جَلَسَ بِجَانِبِ عبد القادر يَدُهُنِ ذِرَاعُهُ الَّتِي
احْتَرَقَتْ مِنْ أَثَرِ القَنْبِلَةِ فِيمَا فَرَّغَ أَحْمَدُ مِنْ مُرَاقَبَةِ الشَّاطِئِ الَّذِي ابْتَعَدَ
حَتَّى اطمأن أن أَحَدًا لَمْ يَتَّبِعْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ لِعَبْدِ القَادِرِ.

- اسْمُكَ إِيَّاهُ؟

نَظَرَ لَهُ عبد القادر بِضِيقٍ قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى بَائِعِ بَطَاطَا.

- اسْمُ الكَرِيمِ؟

- عَمُّكَ إِسْحَاقُ.

- سَيِّجَارَةٌ يَا عَمَّ إِسْحَاقُ؟

نَاولَ عبد القادر كَبْرِيَّتًا وَسَيِّجَارَةً، أَشْعَلَهَا وَلَمْ يَلْتَفِتْ لِأَحْمَدِ الَّذِي
انْفَجَرَ غِيظًا:

- أَنْتَ ابْنُ الرَّاجِلِ الَّلِيِّ مَاتَ فِي أَوَّلِ مُظَاهَرَةٍ؟ الْفِتْوَةُ؟ إِيَّاهُ الَّلِيِّ
جَابَكَ الإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَتَبِعَ مِينُ؟ انْطَلِقِ.

الْتَفَتَ لَهُ عبد القادر بِهَدْوٍ: مِشْ تَبِعْ حَدَّ.

- مِشْ تَبِعْ حَدَّ! جَايَ تَخْلُصَ عَلَى رَئِيسِ مُعْسَكَرِ التَّلِ الكَبِيرِ وَمِشْ
تَبِعْ حَدَّ أَنْتَ مَا قَيْنَ يَالَهُ؟

رَمَقَهُ عبد القادر بِغَضَبٍ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مُتَحَفِّزًا فَتَدْخُلَ عَمَّ إِسْحَاقَ
وَأَضْعَا نَفْسَهُ بَيْنَهُمَا:

- أَقْعِدْ يَا ابْنِي عِشَانِ الْبَحْرِ يَسْتَحْوِلُنَا.. أَقْعِدْ.. مَا تَخْلِشُ الشَّيْطَانَ
يَرْكَبُ.. وَأَنْتَ يَا أَحْمَدُ نَعَالِي.. نَعَالِي.

سَحَبَ أحمد إلى الكابينة التي جلس فيها صيَّاد عتيق خلف عَجلة القيادة.. هَمَسَ في أذنه:

- باللطافة والمفهومية عشان ما نروحش بلاش إحنا على كَفِّ الرب.

- ده كان ها يضيِّعنا يا عَمِّ إسحاق.. ما شفتش عمل إيه؟ ده مجنون!
وإزاي عرف معاد خروجه؟

- بالهداوة.. الواد ده وراه قَصَّة ومصلحتنا نعرفها.. ده واد يفوت في الحديد ويمكن ينفعنا.

- إحنا ما عندناش نقص في الرِّجَالَة.

- قليل اللي بالجراءة دي.. ورجالتنا بينقصوا يوم عن يوم.

زفر أحمد نفسًا قبل أن يهزَّ رأسه مُوافقًا ويخرج إلى عبد القادر.. كان يلف ذراعه بغرقة.. ساد الصمت لحظات حتى انتهى ثم سأل أحمد:

- أبويا.. عملتوا معاه إيه؟

- كانت خارجة كبيرة.. مُظاهرة.. صَلينا عليه في السيدة زينب وعَدَّينا على بيت سعد باشا و...

قاطعه عبد القادر: آدي اللي خدناه من سعد.

جزَّ أحمد أسنانه كاتِمًا دِفَاعه: أنت تعرف كولونيل تريشور منين؟
- كُنت شَغَال معاه في الكامب.

ألقاها في هدوء فتبادل أحمد وإسحاق التمعُّب: شَغَال معاه؟!
- آه.. أنتو مين بقه؟

٧ إبريل ١٩١٩

- أمام الإضرابات العامة التي شلّت الحياة في البلاد اضطرت إنجلترا إلى عزل الحاكم البريطاني السير «وينجت» والإفراج عن سعد باشا زغلول ورفاقه.

- الإنجليز يستمعون لسعد باشا زغلول والوفد المرافق بالتوجّه إلى فرنسا للاشتراك في فعاليات مؤتمر الصلح الدولي المقام في فرساي..
مظاهرات السرور تهم البلاد من شرقها لغربها.

- الإنجليز يستمعون للمصريين بالسفر بين المديرات بعدما كان ممنوعاً إلا بتصريح.

٨ إبريل ١٩١٩

- مظاهرة عظيمة اشترك فيها كل أطراف الشعب رجال ونساء، أطباء ومحاسون وموظفون وطلبة البوليس والجيش، وحتى النزلاء الأجانب شاركوا المصريين فرحتهم، الكل يحمل صور سعد ونقش الهلال مع الصليب وتحت جملة «بعض الاتحاد المقدس».. أطلق جنود الإنجليز النار على المتظاهرين فأردوا أربعة منهم بينهم طفل صغير أجزى الدم الحار في حروق المتظاهرين وكادوا أن يرتكبوا ما لا تحمد عقباه لولا تدخل المُنظّمين.

٩ إبريل ١٩١٩

- جنازة مهيبة مُنظمة لقتلى مظاهرات ٨ إبريل، سارت في مُقدّمة التوكب فرقة موسيقية تصدح بنغمات الحزن تليها النُموش الأربعة يحملها الطلبة فوق الأعتاق، الشكون غيّم على المشهد ولم يرتفع إلا نداء كل يضع ثوابن يقول: «تحيا ضحايا الحرية» فيردد الجميع النداء في خشوع.

- الإنجليز يسمحون بفتح الملاهي الليلية والمسارح والمقاهي.

بعد أيام

فيلا عبد الرحيم باشا صبري.. الجيزة

السلم كان عاليًا، يُوازي حائط البهو الواسع المعلق عليه صور العائلة بملامحهم التي تحول الروافد الفرنسية، ينتهي السلم عند مدخل الضالة الكبيرة التي تخرج منها طُرفة تصل إلى جناح النوم.. قَطَعَت المُرَبَّة العَجوز المسافة مُحاولَة التقاط أنفاسها حتى وَصَلَت إلى عُرفة سيِّدتها الصَّغيرة فقرعت الباب.. ادخلي يا دادة.. نطقها نازلي بصوت عالٍ لِتُسمِع العَجوز، كانت على سَريرها جالسة في رداء أبيض تُطالع مجلة موضحة أوربية.

- جواب.

- من مين؟

قرأت الخادمة على الظرف: الأنسة نازلي.. مش مكتوب مين اللي باعت.

كان ذلك كفيلاً بجذب انتباه نازلي، حدث جديد يكسر جمود الأيام الرتيبة يعني الكثير، تركت المجلة والتقطت الجواب.

- أحضر عشا؟

- بابا ما اتكلمش؟

- التليفون ما ضربش من صباحية ريتنا.. أحضر العشا؟

بدأت نازلي تَقْضِ الرسالة فتمتعت الخادمة وهي تُغْلِقُ الباب وراءها: ها حَضَرَ العشا.

الظرف كان نظيفاً أبيض، لا أثر لاختتام بريد عليه ولا طابع، فقط اسمها مكتوب بخط مقروء، فَضَّته فَوَجَدَتْ فيه إعلاناً مطويّاً قرأته:

«يعلن مسرح الإيجسيانة عن عرض رواية «قولوا له» للاستاذ نجيب الريحاني وفرقة المكوّنة من مشاهير الفنانين، مُتَخَبِّاتٍ من أجمل وأحذب الأغاني من تأليف الأستاذ بدیع خيرى وألحان الشيخ سيد درويش.. اسكتشات تمثيلية مُبهجة واستعراضات مُدهشة كل ليلة.. الساعة الثامنة مساءً للعموم، يوم الأحد مائتية، الأربعاء للسيدات فقط.. احجزوا محلاتكم من الآن قبل نفادها».

انتهت نازلي من القراءة ولم تكدر تستوعب مغزى الرسالة حتى عثرت على صورة مقطوعة من مجلة لُمهرة بيضاء تجري في حقل وتذكره في قاع الظرف، تذكرة لحضور حفلة اليوم التالي، فجاء استوعبت الرسالة، جلّست على السرير وانتابها الاضطراب، سرّدت في صورة المُمهرة الراكضة ثم تمشت بأصابعها على اسمها المكتوب بخطه.. أحمد.. يا لجرأته! ووقاحته! لن تشفع له وسامته.. كيف نسئ له أن يدعوها إلى مسرح عماد الدين؟ هكذا بدون مُقدمات؟ أنا حتى لا أعرفه.. يظنني لقمة سائغة من بعد كلمتين في إسطنبول الخيل!! جبانة مثل المُمهرة؟ مَنْ يظن نفسه؟ لن أذهب.. لا.. سأذهب.. لأرى المفاجأة على وجهه حين يجدني أمامه لا أهابه.. مغرور!!



اليوم التالي.. مسرح الإيجيبيانة

الساعة ٧:٤٥م

فرغ رصيف المسرح من طابور حاجزي التذاكر الذي أرحمه فانصرف بأعة الفستق والترمس والقازوزة ورجع الشارع لصخبه المعتاد، بائع التذاكر كان يقف بجانب كشكه المُلصق عليه لافتات دعاية مسرحية «قولوا له»، يُدخن سيجارته بعد ساعات طويلة قضاها في تمزيق تذاكر الدخول وتسليم الحاضرين لزميل يوصلهم إلى مقاعدهم الخشبية في قاعة العرض.

بخبرة عمله كان يعرف تلك الأشكال جيدًا، من يقفون مُتأنقين في البدلات المكوّنة حاملين الورد والهدايا الملفوفة بالشرائط الحمراء، هؤلاء الرومانسيون الذين يدعون ولا تُستجاب دعواتهم، كم يحلو له العبث فيهم، العزف على أوتارهم المشدودة حتى تنشز أو تنقطع، اقترب ببطء من الواقف يُراقب الشارع في توتر، ينتظر دوكانًا تأخر أو ملاءة لف تلكات، ألمح تذكرة بين يديه يقبض عليها في عصبية فاقرب: - داخل العرض يا حضرة؟ أصل العرض هايتدي خلاص بعد عشر دقائق.

نظر إليه للحظة ثم أجابه: يستتي ناس.

- طلب ما تسبب لها التذكرة غ الباب وتدخل لا يفوتك
الإسكتش الأولاني.

رمقه بضيق: ممنون.. هاستنى هنا.

ذارى عامل التذاكر ابتسامته في دُخان السيجارة وقد استعد لخوض
المَرحلة الثانية في التسلية السادية والتي تبدأ بجملة: «الجنس اللطيف
دائمًا غدارين!».

كان ذلك حين تركه أحمد ومشى بخطوتين ناحية الدوكار الذي
حاذى الرصيف ثم توقّف، لَحَظَات ونَزَلت مِن السَلَم الصَّغِير فِي
فستان فستقي مطرّز ويدها مَروحة من نفس اللون، وقفت على بُعد
أمتار فأقرب:

- اتأخّرتي.

- أنا أصلاً ما كتش جاية.

- وجبني ليه؟

ارتبكت أنوثتها.. أجابته بعصبية: جيت عشان... أنا مش
مُهرة مَحْبوسة.

- جميل أوي فستانك.. الأخضر لا يبق مع لونك.. عشان عكس
الوردي اللي في خدك...

قاطمته: ما تغيّرش الموضوع من فضلك.. أنت إزاي بيعت لي
جواب على البيت؟! مش شايف إن دي جراءة زيادة عن اللزوم؟

- كنت متأكد إنك هاتفهمي الرسالة.

- طبعًا بافهم.. أنت فاكرنى إيه؟

- أنت أجمل بنت شفتها.

ألجمتها كلماته، كبرياء الأنوثة تشاجر بداخلها مع لذة المديح، عقل يُصارع قلبًا.. عيناه الواثقان تخترقان السور العالي الذي يُحيط اسم «نازلي» منذ قديم الأزل.. السور الذي صدَّ هجمات الصليبيين والمغول من أبناء الباشوات والأعيان.. ها هو يتداعى ولا تقدر على مقاومة لذة متابعتها ينهار.. ألم لا يخلو من متعة.. انتابها كل تلك الأحاسيس قبل أن يُياغتها بابتسامة ويلتقط يدها بلا استئذان:

- المسرحية هاتبدأ.

رمقته بغضب فمال برأسه:

- أوعذك نتخاقي بعد العرض.

زفرت في ضيق مُصطنع ثم سارت بجانبه قبل أن تسليت يدها من يده في حركة رفض استعراضية، مرأبائع التذاكر الذي قطع تذكرونيهما فغمز بعينه لأحمد وابتسم.. تخللا المقاعد حتى جلسا على كرسيين يبعدان أربعة صفوف عن خشبة المسرح، لم يكن العرض قد بدأ بعد، ضربت نازلي الهواء بمروحتها في حركة سريعة مُبددة الرطوبة وقلق ينتابها وإشارة، كانت المرأة الأولى لها في مسرح بعماد الدين، المرأة الأولى لها بين سهارى الليل، والمرأة الأولى التي تُواعد شابًا وتُقابله، تجنبت نظراته التي تزيدها اضطرابًا وعينية اللتين تحاصرانها.. حتى تكلم:

- أول مرة تشوفي الريحاني وفرقته؟

- سمعت عنه.

واهو اللي فيه القسمة طلقناه

واللي مافيهشي إن شالله ما جاءه

ما دام بتلقى عيش وغموس

يهمك إيه تفضل موحوس

ما تحط راسك بين الروس

لا تقول لي لا خيار ولا فاقوس

اندمجت نازلي، تأملها أحمد تمايل وتصفّق مع كلّ مقطع وتنظير
ضحكًا كطفل يرى الحياة لأوّل مرّة ثمّ لمس تأثيرها حين ظهر «الريحاني»
ودّكر أن ذلك العرض شاهده سعد باشا في نفس المسرح قبل أن يُنفى
إلى ماطلة.. انتهى الحفل بأغنية رائعة تُدعى «سالمة يا سلامة» قبل أن
يقوموا ليخرجوا بين الجموع.. تمسّياً على الرّصيف في صمت حتى بلغوا
رجلاً يحمل دلوًا:

- تشربي كازوزة؟

هزّت رأسها موافقة فاشترى زجاجتين ثم استأنفا المشي.

- عجبك المسرحية؟

- جدًّا.. ما كنتش أتخيل إن المسرح مُمكن يقدم البولوتيك
بالمظهر ده.

- المسرح حياة حقيقية.. وأغانيه شعارات المظاهرات.. ما أظنش
نزلتني مظاهرات؟

- صعب بابا يقتنع بالفكرة دي.

- مُهرة جَميلة.
- مش لازم أنزل المظاهرات عشان أكون قريبة من الناس..
أنا ما سبتش صفة هانم لحظة.
- بالراحة ده مش اتهام.. ده نوع من الغزل.
- احمررت وجتهاها: أنت عارف إن دي أول مرة فعلًا أسهر
فيها الموحدي؟
- أنت مش لوحذك.
- حاسة إني بعمل مُغامرة.
- خايفة؟
- لا.. ودي غريبة!!
- تحبّي تحضري عروض تانية؟
- دي دعوة تانية للخروج؟
- اعتقد.
- أفكر.
- ثم وقفت فجأة وسدّدت له نظرة برأس مائل: أنت مين؟
ابتسم قبل أن يجيبها: أحمد عبد...
- قاطعته: الحي كيرة.. وعاوز إيه يا أحمد أفندي؟
- من ساعة ما شفتك في بيت سعد باشا حسيت إننا مُمكن
نبقى... أصدقاء!
- مدّت خطراتها: مفيش حاجة اسمها أصدقاء بين الراجل والست.

- لاحقها: خبايب؟
- مش يمكن أكون مخطوبة؟
- ما كتش جيتي.
- أنت مغرور.. جدًا.
- وأنت جميلة.. جدًا.
- حاولت السيطرة على سُخونة أسعرت خديها: هو يعني إيه كبيرة؟
- الاسم جاي من الكبير.. يعني متفاخ الحداد اللي بيولع النار..
جدي كان حداد.
- حداد!! وأنت وارث إيه منه؟ تعرف تولع النار؟
- وما باصفيهاش.
- أنت سنك قد إيه؟
- أكبر منك بحوالي عشر سنين.
- متجوز؟
- رفع أصابعه الخالية: لا عندك عروسة؟
- مقولة مش لاقى حد يرضى بيك؟
- غريبة بالنسبة لأنني وسيم مش كله؟
- رمقته في دهشة لا تخلو من ابتسام: أنت مُستغز جدًا.
- عامة أنا هاعرفها إذا شفتها.
- إزاي؟
- بتبقى ماسكة وردة حمرا.

تسارعت أنفاسها فقاطعته: أنا أتأخرت أوي.

قالتها وأشارت لحنطور اقترب.. ساعدها أحمد على الصعود
ثم سألتها:

- هاشوك تاني؟

- يمكن.

- يبقى هاشوك تاني.

- مش بقول لك مغرورا

قالتها بابتسامة وتحرك الحنطور، ثم توقف بعد أمطار فمشی
أحمد تجاهه.

- ١٤٢ -

همست بها في أذنه.

- نعم!!

- دي نمرة التليفون.. على سترال البستان^(١).. اطلع يا أسطى.

ألقنها واللون الأحمر يغزو وجنتيها والشفاه، قبل أن تبتمد محتضنة
بين أصابعها تذكرة المسرحية.

ووردة حمراء اشتراها من أجلها.



(١) الاتصالات كانت تنم عن طريق سترالين فقط في القاهرة، سترال البستان
أو سترال المدينة.

أبشاق الغزال.. مركز بتي هزلر.. مديرية المنيا

عادت دولت إلى قريتها بعد قرار السماح بالسفر، تركت في القطار قبل أن تنزل لكتتها القاهرية وبذلت وشاحها الأزرق بآخر أسود، استأجرت حمارًا، عرفت من خلال حكى المكاري الذي يقوده ما حدث في بلدتها أثناء غيابها.

بدأ الأمر بمسيرات نحو مخفر البوليس تنادي بالاستقلال في اليوم التالي لنفي سعد ورفاقه، تلاها رد فعل عنيف من السلطة تمثل في مطاردات بالخيول وجلد بالكراييج لأهل البلد تطوّر إلى قتل وسرقة لدورهم واغتصاب للنساء والفتيات ممّا اضطر الأهالي للإغارة على مركز البوليس وإطلاق سراح المعتقلين فيه، قبل أن يقطعوا السكك الحديدية، فأتى الرد غارات بالطائرات على تجمعات عشوائية قُتل فيها عدد غفير من الناس قبل أن تستعيد القوات الإنجليزية السيطرة وتوقع عقابًا يتلخّص في أن تأخذ من كل قرية عددًا محددًا من الأنفار لجلدِهِم، دون تُهمة، إناوة للردع والتخويف وإلا يحدث اجتياح آخر وسلب واغتصاب، كما ألقت الطائرات منشورات تحذير نصها:

«كل حاوِث جديد من حاوِث تدمير مَحَطّات السكك الحديدية يُعاقب عليه بإحراق القرية التي هي أقرب من غيرها إلى مكان التدمير».

تأملت دولت حطام قريتها والناس السائرين في الأرض كمداً قبل
أن تصل إلى بيتها، غيط البرسيم كان محروقاً والبهايم اختفت، نامت
الساقية على جانبها فتشقق الأرض عطشاً، استقبلتها والدتها بوجه
ضارع ليبتسم قبل أن تسأل عن ياسين.

- ياسين!! ياسين ماجاش يا بنتي.. اللي بعثوه لنا واحد ثاني.

- يعني إيه يا أمه!! إيه الكلام ده!!

- والله ما خابرة يا بنتي.. ما بجاش ياسين اللي أعرفه.. ولدي
عَاد أخرس وأعمى.. أولت أولت عمول السلطة جلدوه على
ضهره يا حبة عيني.. خمسين جلدة.. مَا نَطْجَش بكلمة واحدة!
ولا صرَخ!! تَهْ مَاكِت لا بيتقوت ولا يبشرب ولا حتى بينعس.

- جلدوه الكفرة!

- رُوحِي له يا بنتي.. جَاعِد ناحية الترعة الجبلية.. يمكن يجدرِي
تحابليه يتكلم.

ارتدت دولت جلباباً صبغها بأحزان البلد قبل أن تعبّر القبط
المحروق وتقترب من الترعة، بطأت مشيتها لإرادياً حين وقع
بصرها على ياسين، أدهشتها عظامه البارزة ورقبته الهزيلة وسكونه
الأسهب بسكون المساخيط^(١) التي خافتها في الصغر، لم يبلغ يوماً تلك
النحافة والهزال! اقتربت حتى باتت على بُعد خطوة منه قبل أن تلاحظ
العلامات التي نشعت وماء في ظهر جلبابه، وضعت يدها على كتفه
فالتفت إليها وابتسم ثم قام واحتضنها بلا كلمة، حُضِن طويلاً اعتصرها

(١) المساخيط: اسم يُطلق على التماثيل الفرعونية.

فيه، نَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهِ فَأَدْرَكْتُ مَا رَأَيْتُهُ أَمَهَا، كَسْرَةً أَغْوَرُ مِنْ أَنْ تَفُكْ
طَلَّاسَمَهَا الْكَلِمَاتِ، جَلَسَا وَبَعْدَ سَكُونٍ تَكَلَّمْتُ:

- حَمْدُ اللَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا يَاسِينَ.. وَاحْشِنِي يَا خَوْي.

- صِرْتِي مَدْرُومَةٌ فِي مِصْرٍ؟

- فَضْلَةُ خَيْرِكَ وَدَعْوَاتِكَ.

انْسَابُ الصَّمْتِ بَيْنَهُمَا.. كَأَنَّ الْكَهْرِبَاءَ تَأْتِيهِ فَيَتَكَلَّمُ ثُمَّ تَنْقَطِعُ فَيُظْلَمُ
وَجْهَهُ وَتَتَحَجَّرُ عَيْنَاهُ.

أَمَلَتْهُ لِحَظَاتٍ قَبْلَ أَنْ تَتَكَلَّمَ: عَيْنُكَ شَائِلَةٌ هُمْ تَجِيلُ يَا خَوْي!!

- غَيْبَتِكَ السَّنِينَ اللَّيْلِي فَاتَتْ جَطَعَيْنَا.. احْكِي لِي.. طَمَنِي عَلَيْكَ
يَا خَوْي.

- أَنِّي.. تَعَبْتُ مِنَ الْحَكِي.

- أُمِّي بِتَجُولُ إِنَّكَ مَا رَايِدَ تَتَحَدَّثُ مَعَ حَدٍّ مِنْ سَاعَةِ رَجُوعِكَ.

غَابَ فِي صَمْتِهِ ثَانِيَةً فَاسْتَحَثَّهُ.. اعْتَصَرَتْ كَفَّهُ حِفْنَةً تَرَابٍ.. أَرْدَفَتْ:

- مَشَى رَايِدَ تَتَكَلَّمُ مَعَايَ!! أَنَا دَوْلَتُ يَا يَاسِينَ! سِرُّكَ مِنْ وَاحِنَا

صِغَارٍ.. احْكِي يَا خَوْي.. فَضْفُضْ.. خُفِّفْ عَلَى جَلْبِكَ.. سَمِعْتُ

إِنَّكَ كُنْتَ جَاعِدًا عِنْدَ الْعَرَبَانِ فِي رَفْعٍ!!

اسْتَقَرَّتْ عَيْنَاهُ فِي انْعِكَاسِ الشَّمْسِ عَلَى الْغِيَاءِ قَبْلَ أَنْ تَرْتَعَشَ شَفَتَاهُ

وَيَتَحَرَّرَ لِسَانُهُ:

- أَخَذُونَا فِي جَهْلٍ مِنَ الْجَنْظَرَةِ.. وَمِنْ الْجَنْظَرَةِ طَلَعْنَا السُّوَيْسَ..

كَاتِ شُغْلَتُنَا نُحْفَرُ بِيْرَ وَلَا اتَيْنِ لِلْسُلْطَةِ وَبَنِي سَوَاتِرِ وَدُثْشَمِ..

لغاية ما جِه يوم وجوات الأتراك جات من نواحي سينا تضرب
في الإنجليز.. جوّة الإنجليز كانت صغيرة.. ضعفت.. طلبوا
منّا أنا والعيال نَمِسِك سِلّاح.. اتجسمنا في الرأى.. شوية جالوا
ما نمسكس سِلّاح على مُسلم زَيْنّا.. وشوية جالوا نَمِسِك سِلّاح..
الأتراك احتلال والإنجليز احتلال وربنا يسلّط أبدان على أبدان..
وانحزت للرأى الأخراني.. أنا واتنين من العيال.
أغمض عَيْنيه وسَكَت فسألته: مش غَلَط يا ياسين.. أنت في حرب..
ورجبتك مع الإنجليز.. والأتراك أوسخ من...
قاطعها: أني ما ضريتش في الأتراك.

- أمال؟

- الإنجليز لَمَّا لجونا اتجسمنا في الرأى حبوا يعرفوا اللي موافج
م اللي مش موافج.. مين معاهم ومين مش معاهم.. شُصوصا
بعد ما الواد عطية ابن أبو وهذان اتخانج مع نفر منهم وضربه..
الإنجليز رَمَوْا العيال اللي رافضة صَف وخطوا البنادق في
رجايهم من ورا.. وأمروا الموافجين يضربوا.
نهَدَجْت أنفاسها وأرادت أن تسأله فالجمها الخوف..
لحظات وأكمل:

- العيلين اللي معاي ما ضربوش.. بكوا وزموا سِلّاحهم ع الأرض..
الإنجليز ضربوهم بالنار.

- وأنت يا ياسين؟!

...

نسج عقلها هواجسه حين طال الصمت:

- يا لهوي.. عيال البلد يا ياسين!!

- يا كنت هاضرب.. يا كنت اموت زي ما ماتوا.

- أني مش مصدّج وداني!!!

شردت عيناه في الأفق وتحجّرتا قبل أن يتكلّم بشكل آلي غير عابئ
بخطط الريالة الذي تدلى من فمه إلى صدره.

- أول واحد كان شعبان ابن معوّض البجّال.. ما كانش مصدّج..
ولا أنا كنت مصدّج أني بدوس الزناد.. ثاني واحد كان عطية ابن
أبو وهدان.. اصيرّ على روحه جبل ما الرصاصة تصيبه.. ثالث
واحد كان عريضة...

- بزيادة يا ياسين.. بزيادة.

تأمّلته بعينين امتلأتا رعباً قبل أن تقوم، ابتعدت وبعد بضيع خطوات
نظرت وراءها علّه يكون سراًباً، أخا لم يعد لقريته، أخا قتل أو مات قبل
أن يولد، لكنّه كان هناك، لا يتحرّك، رأسه نكس على صدره وقبضت
يده جفنة ثراب دسّها في فمه.

رجعت دولت إلى البيت فبدّلت ملبسها وحملت حقيقتها التي
جاءت بها، سألتها أمّها عن ياسين إن كان باح بما في صدره فأجابت
باقتضاب: يا أمّه الحرب صعبة.. سيبيه ياخذ وجته لحدّ ما يفوج.. أني
لازم من أرجع مصر

رَكبت جماراً ففطاراً فلدو كاراً أغمضت فيهم عينيها حبساً للدموع
حتّى رجعت إلى القاهرة.



مع الوقت

أصبح وجود عبد القادر بين عاهرات بنية أمراً عادياً، ضيقاً يأتي ليقضي ليلته في فراش يعفيه العودة إلى حية، الحية الذي ينتظره بزفة كزفة «مطاهر» مقطوع الغرلة بعدما قتل أصدقاؤه من الإنجليز أباه! فقط راسل أمه عن طريق صديق ليطمئنها أنه حي يرزق، وعرف من الأخبار أن «حنفي أبو قطر» أحد صبيان أبيه اعتلى كنية الفتونة ويعقد النية على التنكيل به ليقطع كل أمل باق في نفسه أن يرث منصب فتوة المنطقة ومن عليها، فهو العاق الخائن، الفاسد الذي خرج من ظهر العالم... من ظهر شحاتة الجحج بجلال قدره.

انزوى عبد القادر في بيت بنية يذراع مُحترقة وعقل مُضطرب، عازِفاً عن الطعام والكحول، وعن الفتيات رغم إدمانه «الغزوة» يومياً لسنين خلت.. لذكرى أيام رخائه تحملت بنية مضاريف معيشته بعد انقطاع رزقه، وتولّى سلامة النجس «على مضض» توريد أسطر كوكابين مغشوشة حتى يغور في داهية، ورغم أن نصف بهيمة القعر «التحتاني» كان له تأثير خاص على عبد القادر، إلا أنها حين خامت حوله عارضة خداماتها مجاناً لم تستطع نزعها من الكأبة التي ملأته أو دوامة الأفكار التي فرمت رأسه وطلّت من عينيه، صرفها بهدوء وكاد أن يغلّق الباب على مؤخرتها ثم سحب سطرًا من البودرة البيضاء إلى أنفه وجلس

يرمق ثبوت أبيه المكسور ويستعرض ما آلت إليه حياته.. نفذت الأموال ولا بد من معاودة العمل.. لكن أين ومع من وقد وصّمه الإنجليز برصمة عار لن تزول! كما أن تجارة الكوكابين تُعاني كسادًا بسبب سوء حال البلاد وهياج الروح الوطنية.. جرام البلا الأبيض اللي بتبيعه وصلّ كام يا عبد القادر أفندي؟ استعاد كلمات أبيه فنقض رأسه وقام من مكانه، فتح النافذة ونفت دُخان سيجارته في السماء.. مش هابيع كوكابين بابا.. قالها بصوت مسموع لسحابة عابرة تشبه وجه أبيه.. ثم استرجع عرض أحمد كيرة في الإسماعيلية بالانضمام إلى المنظمة السرية فنظر للسماء ثانية.. ومشى هاموت علسان مسعد بابا.. ظلّ يحدّق في النجوم قبل أن يلحظ نجمًا بعيدًا يتلألأ.. يتضخّم.. يقترب.. نزل الزوع في نفسه حين أصبح النجم في حُجم شمس باردة.. رَجَعَ بظهره هلعًا يستغفر الله بصوت مسموع حتّى تعثّر فوقع على ظهره قبل أن يقوم مُهرولًا إلى الطرقة.. تخبط بين عُرفات العاهرات وزبائن مترنحين ضحكوا من مظهره حتّى وصل الحمام.. أزاح من الحوض كيلوات مژر كشة وفوطًا متسخة ثم صبّ على رأسه كورًا من الماء ونفض رأسه.. نظر في المرأة المُعبرة إلى عينيّن من دم وجفون سالت على خديه.. صُفّع وجهه بالماء مرّات حين دفعت سنيّة الباب ودخلت.. أبوسيّة عارية تترنح.. يتطاير منها عبّق الكحول ورائحة الرجال.. لامست ذراعه في غنج فهز كتفيه صرّفاً كما يُصرّف الذباب.. مطّلت شفتيها ولمزته: «هاتو ضى يا سيدنا الشيخ؟».. قالتها وأراقت الماء على جسدها وهي تنثيد: «إوهى الكوكابين يلحس مُثُك.. إوهى سبق الخيل لا يبطسك».. نظر إليها عبد القادر بتجهّم ونفسه في المرأة قبل أن يتوضّأ بالفعل ثم يخرج.

سلامة النجس كان يودّع زبوناً نهل إحدى الفتيات.. سأله عبد القادر عن طريق القبلة فسكت الجمع ورمقوه بعجب ثم انفجروا ضاحكين قبل أن يُشير سلامة بيده تجاه باب الشقة المفتوح: اللي عاوز يصلي، يتجه كده يا شيخ عبد القادر.. هع هع مع.

فهم عبد القادر إشارته ولم يُعره اهتماماً، من ذا الذي يُجيب قوإذا ينضح بالدنس!! تتم بسبّه ثم دَخَلَ عُرفته فوجد ورد في انتظاره، واقفة قرب النافذة ضامّة ساعديها إلى صدرها، الضمادة حول الرسغ لا زالت مربوطة من أثر قطعها شرابينها منذ أيام بيمرد الأظافر، حول عينيها كدمة بنفسجية وفي شفيتها ورم، وبين أصابعها صورة تخفيها، تيس مكانه يتأملها تتماوج كبتارة تُحركها ربح، رغم اعتياده الكوكابين وخيالاته ومشاهد العاهرات المضروبّات من قواديهن، إلا أن نظرة ورد أربكته! خاصة حين أشارت يديها أن يُغلق الباب.

- أنت حاولتي تموتي روحك من كام يوم؟ أنت مخبولة ياب؟
إيه اللي شحور خلقتك كده؟

- أنا بدّي منك إشي.. قالتها همسا.

- اطلبي أي حاجة ما عدا الفلوس.

- ما بدّي مصاري.. بدّي أمشي من هون.

- يمشي! يمشي تروحي فين؟

- طلعتني أنت وأنا بامشي بحال سبيلي.

- ياب أنت أتجنّتي؟ فيه عايقة تانية كلمتك تشتغلي عندها؟

- لا .. ما في .. لك شفت حالي .. وش شايف شو صاير لي ؟

- أكيد عملتي حاجة .. سرقتي حاجة ؟

بحدّة مدّت يدها بالصورة التي بين أصابعها .. صورتها على الباخرة
بين أمها وأبيها .

- أنا مو اللي بتسرق .. أنا خُرة بنت خُر .. أرمينية من ماردین وده
ما كان حالي .

نامل عبد القادر الصورة .. أودف : ما أنا عارف .. مصر عاملة زي
ملجأ الأيتام .. فيها من كل صنف لون .

رمفته بعتاب فاستدرك : هي شغلانتكم ومسخة .. وماحدش فيها
بيمشي بمزاجه .. المسألة دي تكلفك كثير .

- شو بذك .. اللي بدك إياه رح تاخده بس طلعني من هون .

قالتها بفهر جزّت من أجله أسنانها ثم كشفت بيأس صدرها وكثفها .

- فهمتي غلط .. ذاري روحك .. اقعددي .. أنت إيه اللي جابك
هنا أصلاً ؟

فجأة غلا صوت سلامة ينادي اسمها فانقطعت أنفاسها قبل أن
يبتعد ، أردفت بصوت خفيض :

- كُنت ساكنة في الدور اللي فوق .. إثمّي وأبي ماتوا بالرئة .. سلامة

اتهجم عليا وضربني .. مسحني لهون جابني للأوضة وحبسني ..

أسبوع من غير أكل لحد ما كنت رَح أموت .. وبعدين خلاني أبلع
الأفيون .. صيرت مثل العجينة بإيده .. وينبة عملت لي رُخصة

بالغضب.. أيامي صارت سودة.. مسحوا بي الأرض وخلوني
مرمطة لأوسخ ناس.. حتى الموت رافض يضغني.. أنا خُرّة بنت
حُر.. بِدّي أسافر.. أرجع لـ..

بُترت الجملة فوق لِسَانها.. قبلدتها وَمَن عليها لم يعد لهم
وجود.. أَرَدَقْتُ:

- أنا مَا كَانَ بِدّي أعيش هيك.. أنا بنت ناس.. مِش هادي العيشة
اللي بتليق لي.

قاوم عبد القادر زيغ بَصَر رَعش صورة ورد في عينيه حين أَرَدَقْتُ:

- رَح تَسَاعِدني؟

- أَكَلِّم سَلَامَة خرة يَخْف إيدِه عليك شوية؟

- الكلام مَا عَدَا يَنْفَع.. هَادول ناس مَاتت من قلوبهن الرحمة.
رَح تَسَاعِدني؟

- أَسَاعِد نفسي الأول اا بُغِي...

قاطعته: كَثُر خَيْرُكَ.

قالتها واتجهت للباب فاستدركها: يا بت البلد والعة.. ولعلمك فيه
أَرَمَن ضَرَبُوا رُصَاص على مُظَاهرة من كام يوم والطلبة طلعوا حدفوهم
م الشبابيك.. هانتَقَطَّعي في الشوارع لو عرفوا مَلَّتْكَ.

شَرَدَت للحظات ابتلعت فيها الخوف قبل أن تِهَمَّ بالخروج.. أَمَسَكَ
رُسْفَهَا: مَا يِقَاش دَمَّكَ حَامِي أَمَال!

أفلتت يدها ونظرت في عَينيه: أنت ولَّعت كامب الإنجليز حَقِيقَة؟

نظر للثبوت يسأله ثم التفت إليها: وإيه دخل ده بالموضوع؟

- أنت ما ولّعت إشي، أنت كذاب.. تركت أبوك واتصاجبت على الإنجليز.. بيعت نفسك لهم.. مثل ما بدك إياي أبيع حالي لبيت الكلاب هادا.

انقضت لحظات من الصمت ارتعشت خلالها عيناه قبل أن يُدبر عنقها بصفعة! لم ترفع كفها لتحسّس النار التي اشتعلت في وجنتها أو تصرخ، فقط رمته بعينين ترققنا قبل أن يفتح الباب بغته، زمقها سلامة بغضب قبل أن يشير إليها:

- أنا مش باندده عليك يا بت!

انتشر الرعب في ملامحها وتلاحقت أنفاسها فرجعت خطوتين إلى الوراء قبل أن يصيح سلامة بصوت أعلى:

- مش سامعاني؟

تدخل عبد القادر ببواقي الكوكابين في عروقه:

- خلاص يا سلامة.. سيبها دلوقت.. هي هاتبقى تجي لك لما تصفى.

- ورحمة أبوك يا عبد قادر أفندي خليك على جنب.. البت دي أدي لها مدة بتتمرقع ومطيرة من عندي يبجي خمس زباين لحد دلوقت.

- القمى بعيونك.

الفتها ورد فاشتعل سلامة، خلع شيشه ورفّع طرف جلبابه محرّرا ساقيه فهربت خلف عبد القادر حين صرخ:

- يا بنت الكاااالب! بتدعي عليا؟ طُلب وديني لأنزلك علقه
تعرفك مقامك.

صرخت ورد فتلقف عبد القادر هُجومه مُقاوماً زيزان عَينيه.. حَـدِجَه
سلامة بغضب:

- إوعى إيدك دي أُمّال.. إيش أخششك أنت في اللي مالكش فيه؟
- ما تمدش إيدك عليها وأنا واقف يا سلامة.
- أنت عيشقت ولأيه؟ دي موسى يا أفندي! موسى..
وبتاعني.. ملكي.

قالها سلامة ثم دفع صدر عبد القادر بقبضته فتعثر في طرف السرير
قبل أن يفقد توازنه.. سقط في اللحظة التي هجم فيها سلامة على ورد..
صرّخت رعباً فالتقطت من فوق المنضدة مصباحاً مشتعلًا.. أمسكته
بيد توتعش ووجهته ناحيته فصاح:
- وشرف أُمّي لأسبّح بيه وشك.

كيف سأحكم لبؤاتي وأبنت فيهن مهابتي بعد يوم تذلّني فيه فتاة مثل ورد؟
قفز سلامة ناحيتها.. برّدة فعل لإرادية وبكل ما أوتيت من قوّة
طوّحت ورد المصباح المشتعل تجاهه في اللحظة التي قام فيها
عبد القادر مُحاولاً إدراكها.. انكسر المصباح في وجه سلامة قبل أن
ينسكب الكبروسين على ملابسه مشتعلًا.. أمسكت فيه النار فصرّخ
صرخة مدوية اقشعرّت لها عاهرات البيت وتعالّت أصواتهن.. سقط
سلامة على الأرض يتمرغ بهستيريا يمسح نازاً نشوي جلده وتتغلغل

في اللحم.. نظر إليها عبد القادر غير مُصدّق ما حدث قبل أن يلتقط
ملاء السرير ويلقيها على سلامة محاولاً إطفاء.. اقتربت ورد من
الباب في فزع وانسلت هاربة قبل أن تقترب أصوات العاهرات وفي
مقدمتهن بنبة يُعدّدن ويخلعن قباقيهن الخشبية ليمطرن ورد التي
انطلقت.. حطّمت ملاء لف سوداء وخرّجت هليعة فتبعها عبد القادر
بعد أن أخذ حريق سلامة بصعوبة لمحها تقفز السلم خافية.. وقفت
للحظة ونظرت لأعلى.. التقت عيناهما في صمت قبل أن يتزع من
جيبه ساعته الذهبية ذات السلسلة.. قذفها إليها وهز رأسه في إشارة
أن انجي بنفسك.. التفتنها ولم تعقب.. كان ذلك حين خرجت بنبة
تترجرج فأمسك عبد القادر برأسها المُكدّس مُعرفلاً:

- رابحة فين أنت؟ البت معها سكينه أنا شفتها.

- إوعي.. ورحمة أمي لموتها بنت ميتشين الكلب.

- اهدي يا بنبة.. خُشي شوفي سلامة وأنا هاجبيها لك من شعرها..
وابعتي أي بت تجيب حكيم.. يله.

قفز عبد القادر السلالم وخرج من البوابة فلمّح ورد تسير مُسرعةً
وقد لفت جسدّها بالملاء متخللة أهل الحي الذين هرعوا لصراخ بيت
العاهرات نجدة، تابعها بعينيه حتّى وصلت لنهاية الحارة، التفتت لفتة
أخيرة التقت خلالها أعينهما قبل أن تختفي وسط الزحام، لحظات
وخرج سلامة النجس يصرخ بنصب وعذاب، سلخ نصف وجهه برقبته
ونصف شعر رأسه، ساندته بنبة وأنفاز من الحي والعاهرات من ورائهم
يندبن ويترجرجن، تابع ذكور المارة أجسادهم وواسوهم بهياج

فتوارى عبد القادر في الزحام حتى مرّت الجنازة قبل أن يمشي وراء خطوات ورد متبّعاً، حين وَصَلَ لنهاية الحارة لم يجد لها أثراً.. اختفت كدُخان في عاصفة مُغبرة.



مدّت وَرَدَ خطواتها خافية حَاجِية وَجَهِها بِطَرفِ الملاءة مُتَحاشية أعين المارة المُتَحَصِّصَة مَالِكَة طَريقاً يَبعدها، لم تَنظُر وراءَها كَي لا يأتِيها العذاب كَامِراً لوطِ التي لم تُنصِت لَتَحذِيرِ زَوجِها، قبضت على السلسلة الذهبية التي أخذتها من عبد القادر بيد والصليب الخشبي في صَدرِها باليد الأخرى، تَعتصره استِدعاءً للأمان، تُتمِمُ بالصلوات مُقاومة ضيق نَفسٍ وَضَعفاً يَتسلَّلُ فيها وَرُجاءُ مُحطَماً على الأرض طَمَن قَدَمِها الخافيتين حين مرّت بِجَمعِ نَاسٍ يَكتُبون السباب واللعنات على مَحلِ مُجوهرات مُغلِق فوقه اسم أرمني بعد أن كسروا التَواجِهة، يَثون غَضَبهم بلا تَمييز، التفت أحدهم إليها مُسَدِّداً لَمَلامِها الأرمنية نظرة إعجاب مَمزوجة بِشك فأسرعت الحُطى مُبتعدة بهلع، جذبت خَيطَ السلسلة مِن رَقبتِها فانفلت الصليب وتحرّر، قبضت عليه حتى مرّت بِمَدخَلِ بيت، اعتذرت للمسيح همساً ثم عَلمَت الصليب في حديد البوابة قبل أن تُخفي سَاعة عبد القادر في صَدرِها.

الكنيسة لم تكن بَعيدة عن الأُزبَكية، بناء مَخروطي القباب بِتَوسط شارع عبّاس الأول، هَروِلت وَرَدَ في بَاحِثِ الطويلة قبل أن تَقِف أمام باب مُغلِق على غَير عادته، قَرَعَت وانتظرت، لَحَظَات طويلة مرّت

قبل أن تلتقط أذناها خفيف أقدام تقترب ثم كوة في الباب تفتح ووجه
قس مُربك:

- عاوزه إيه يا بنتي؟

- بدّي أصلي يا أبونا.

- الكنيسة مقفولة النهاردة يا بنتي.. أنت مش شايفة اللي بيحصل
في الشوارع؟

- أنا ما إلي حد.

لَمَحَ الْجَزَعُ فِي مَلَامِحِهَا فَنَظَرَ وَرَاءَهَا يَتَفَحَصُ الشَّارِعَ قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ
الْبَابَ عَلَى مَضَضٍ، تَسَلَّلَتْ كَقِطْعَةٍ تَغِيرُ مِنْ كَلْبٍ يُهَاجِمُهَا، لَمَحَ وَجْهَهَا
وَقَدَمَيْهَا الدَّامِيَتَيْنِ فَطَلَبَ مِنْهَا الْمَكُوثُ حَتَّى يَعُودَ، رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا لِتَتَأَمَّلَ
كَنِيسَةً لَمْ تَدْخُلْهَا مِنْ قَبْلُ، تَسْمُرُتُ أَمَامَ أَيْقُونَةِ الْمَسِيحِ، يَرْفَعُ كَفًّا
مُعْطَمًا لَا مَسَ فِيهِ بِنَصْرِهِ إِبْهَامَهُ، وَبِالْكَفِّ الْأُخْرَى يُمَسِّكُ كِتَابًا، وَعَلَى
صَدْرِهِ قَلْبٌ أَحْمَرٌ حَوْلَهُ إِكْلِيلٌ مِنَ الشُّوكِ وَفِيهِ سَيْفٌ مَغْرُورٌ، اقْتَرَبَتْ
وَرَدَ مِنَ الْإِطَارِ الْمُذْهَبِ وَالتَّقَطَّتْ شَمْعَةٌ، لَمْ تَجِدْ نَارًا لِتُشْعِلَهَا فَغَرَسَتْهَا
فِي الرِّمَالِ وَرَسَمَتْ صَلَيبًا بِأَعْصَابٍ مُرْتَعِشَةٍ بَيْنَ جَبْهَتِهَا وَصَدْرِهَا حِينَ
عَادَ الْقَسُ، أَجْلَسَهَا وَغَسَلَ قَدَمَيْهَا بِمَاءٍ ثُمَّ رَبَطَهُمَا بِشَاشٍ أَبْيَضٍ وَنَاولَهَا
رَغِيْفًا جَفَافًا وَطَبَّقًا فِيهِ زَيْتُ الزَّيْتُونِ، أَكَلَتْ فِي صَمْتٍ وَهِيَ تَتَأَمَّلُ عَيْنِي
الْمَسِيحِ فِي الْأَيْقُونَةِ، كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا، بَدُونِ أَنْ تَفْقِدَ الْإِتِّصَالَ بِهِ
سَأَلَتْ الْقَسَ:

- أبانا هو اللي بيكتب القدر في السما؟

- هو اللي بيكتب .. وإحنا اللي بنخطئ.
- هو بيحبنا؟ طب ليش راضي بعذابنا؟
- إن شتم وسمعتهم تأكلون خير الأرض .. وإن أيتهم وتمردتم
تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم .. إرادة الإنسان وما يحدث
في حياتنا هو نتيجة اختيارنا السيئة.
- أنا ما اخترت إشي في حياتي! الدنيا فرضت عليّ كل اختيار ..
وأنا حتى ما وافقت!
- الرب لا يجبر أحد .. ولا يحكم على أحد ظلم .. إنما هم الخطّائين
سبب المعاناة .. صلّي يا بنتي.
- ولو ما استجاب لصلاتي؟
- الرب يفعل أي شيء لأجل أحبائه، مهما صعبت أمور العيش،
هناك دوماً فسحة للرجاء.
- والخطّائين؟
- من صور النّعيم التي سيحفظي بها الأبرار في الجنة مرأى العذاب
الذي يتعذبه الخطاة في الجحيم.
- خُبِّل إليها للحظة أن المسيح قد ابتسم! أو أن عينيه
رَمَشَتْ! سألت:
- ممكن أشتغل هون؟ أسكن بيت الرب؟ مُمكن أسوي أي إشي؟
- ما يمكنش .. مفيش مكان للحريم هنا.

- الرب ما يحب البنت زي الولد؟

- الرب رب الولد والبنت.. لكن الكنيسة ليها قانون.

أخرجت ساعة عبد القادر من صدرها ووضعتها في كف القس
فأرجعها بين أصابعها:

- خليها معاكي تنفعك يا بنتي.

سكنت وشردت في صورة المسيح ثانية فأرذف متأثراً: الليلة تباتي
في أوضة الجنائني لأنه ماجاش.. بكرة يحلها سيدك.

أغلق عليها باب غرفة رطبة مليئة بأدوات الحديقة وأنية البذور،
افترشت كُرسياً مُبطّناً بالخيش بجانب حائط مُعلّق عليه صورة للعذراء
في ردائها الأزرق الرائق تحمّل صغیرها، مدّت يدها يبطّه ولا متست
أصابعها الرشيقّة الممدودة في سلام حتّى أحسّت بحرارتها قبل أن
تُغمض جفونها.



سينما متروبول.. القاهرة

القاعة كانت مكتظة، سَمِعْتُهَا سَبْعُونَ شَخْصًا وازدادت عشرة واقفين في الخلف، الكراسي خَشِيَّةٌ غير مُريحة، دُخان السِّجَّار سَحَابَةٌ تَمُوجُ قُرْبَ السَّقْفِ، والشاشة قُمَاشٌ أبيضُ بارتفاع الحائط يَتَلَقَّى الشُّعاعُ مِنْ مَآكِنَةٍ تُدار يدويًّا، نَكْتُمُ رَمَجَرَتِهَا مَقْطُوعَاتٌ مُتَوَاتِمَةٌ مَعَ الْأَحْدَاثِ يَعْزِفُهَا رَجُلٌ خَلْفَ بَيَانُو.. «حياة كلب» كان اسم الفيلم، تمثيل صَارُوخ الكوميديا الإنجليزي «شارلي شابلن»، يَكْفِي الجماهير الآن أَنْ يَرَوْا بَافِلَةً تَحْمِلُ صُورَتَهُ بَزِي الصُّعْلُوكِ وَكَلِمَةَ «شارلي شابلن هنا اليوم» لَتَتَكَلَّبَ عَلَى شَبَاكِ التِّذَاكِرِ.

كَانَ ذَلِكَ ثَالِثَ فِيلْمٍ يُشَاهِدَانَهُ مَعًا بَعْدَمَا لَمَسَ وَلَعَمَهَا بِالسِّنِمَا، تَقِفُ أَمَامَ الصُّورَةِ الْمُتَحَرِّكَةِ كَطِفْلٍ فِي مَنَاجِرِ خَلْوَى، عَيْنَاهَا تَتَّبَعَانِ وَفَمُهَا يَرَسِمُ ٥ صَغِيرَةً، وَلَا نَكْتُمُ عَنِ الضَّحْكِ خَاصَّةً فِي مَشَاهِدِ الْمَقَالِبِ الَّتِي يُوْدِيهَا الصُّعْلُوكُ بِرَاعَةٍ، يَعْشَقُ انْفِعَالَهَا الصَّانِعِبَ، دَهِيْبٌ كَعَبِهَا عَلَى الْأَرْضِ، شِدَّةُ يَدِهَا عَلَى يَدِهِ حِينَ يَتَعَرَّضُ الْبَطْلُ لِحَظَرٍ، وَبُكَاءُهَا الْمُؤَثِّرُ حِينَ تَتَوَخَّدُ مَعَ الْأَحْدَاثِ، بُكَاءٌ يَجْعَلُهَا فِي عَيْنِهِ أَجْمَلَ مِنْ «بُولَاتِ جُودَارْد» بِطَلَّةِ الْفِيلْمِ.

انتهى حفل الماتينية فتمشينا إلى شارع المغربي^(١) لِنَجْلِسَ فِي

^(١) شارع المغربي هو عدلي حاليًا.

«جروبي»، كافيهِ رَاقٍ تُعزف فيه مُوسيقى ناعِمة ويَصدح الهمس الخافِت بين صَليِل الشَّوْكَ والمَلاعِق، طَلَبْتُ «ميل فوي» مع الشَّاي وشرب هو قهوة فرنسية سادة، ثم تحدَّثنا بِكَلِمات توارى فيها الغزل خَلْف الحِكَايات قبل أن يَسقُطا عَمْدًا في صَمْت لذيذ، صَمْتُ أَحصى فيه رُموش عَينِها التي تحبس وِراءَها نَهْراً من الأَسئلة جعلته يبتسم من جانب فمه سُخرية، تلاحظه فتأكل المِيل فوي هَرَبًا منه، ثم تثرثر بِسيرة رَحلاتِها إلى بلاد أوربا وأمريكا، ذِكريات باهتة باقية في رأسها عن والدتها المتوفاة، قبل أن تتحدَّث عن والدِها محافظ القاهرة المَشغول دائِماً بِهَوم مُنصبه، ثم يَجرُفان لِلبلَد والوَضع العام فيه وَحال صَفِيَّة هَانِم والمُظَاهرات... يتركها تسترِيل وينصت في صَمْت، يتأمل شَفَطيها فرنسية اللُكنة حين تضمهما في «ميل فوي» أو تَقلب الرءاء غين في «انكروايابل»، يتابع حَرَكات أَصابعها الرقيقة في الهَواء، صَحكة عالية تَضَع من أَجلِها يَدَها على فمها، اهتزازات فرطين رقيقين متدليين من شحمتي أَذنيها، أمّا هي فتلمس شروده فيها فترتبك، تصمت، تبتسم ويتورَّد وَجْهها لَمّا تستوعب أَنه يتخلَّلها بعَينيه، يَجتاحُها، يَغمرها الخجل حين تشتمُّ العِشق، تتصارع الثقة والضعف بين حَاجِبيها وَجَبيِنِها، الرِّفض والرَّغبة، ثم تستسلم فتشتعل الوجتان، تتسارع النبضات وتكاد تبيح أَنها ولأوَّل مرَّة، تهيم عِشقًا، تذوب كقِطعة زبد فوق نار هادئة، حاولت في كل مرَّة يتقابلان كسر اقتضابه ولم تستطع، يجيِّبها بِكَلِمات قصيرة لا تغني من معرفة، كل ما أدركته أَنَّهُ طيب بِمدرسة الطب، أباه ضابط جيش متوفى، يُجيد الفرنسية والإنجليزية، لَبِيق، مثقف ومُهتم بالشَّأن السياسي، وفوق كل ذلك يهتم بها، كنوم وإذا أَفضى بِمَكنون صدره، ينطق بِما يدور في رأسها قبل أن يتحرك به

لسانها! تتعرّى مشاعرها فجأة في كلماته، كأنها أمام مرآة تقرأ تفاصيلها وتتنبأ بمستقبلها، يُخرج أسئلتها من تحت شعرها ويجيبها فتبرق عيناها كمن يُشاهد خاويًا مدهشًا أو قارئ فنجان! إحساس مريب، مُمتع، تلمس به نضجه وتجربته، ويث في سرايينها دغدغة تذكي فيها روح المغامرة معه، يُشعرها أنها ملكة مُتوجة في غابة طرزان، أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة، يسحبها خلفه في سوارع ما كانت لتمشي فيها يومًا، يُمطرها بسيل من المعلومات عن بلد تعيش فيه ولا تعرفه، ثم يتركها فريسة لأحلام يقظة مُجسمة لا يهزمها نوم، بطلها أحمد.

- ليه ما اتجوزتيش لغاية دلوقت؟

سألها بغتة ناظرًا في عينيها بثبات.. كانت قد اعتادت أسئلته المُباغثة.

- سؤال ما يتسألش.

أردف مُخففًا: أنت جميلة.. من عيلة.. ومش ناقصك غير...

قاطعته: حد يقنعني.

- ومين اللي مُمكن يقنع نازلي هانم؟

- مش مُهتمة بالألقاب.. المُهم يفهمني.

- معقولة في كل العائلات اللي حواليك مفيش حد فهمك؟

قاطعته: أولاد الذوات تربيتهم باهتة.. ناعمة إذا كنت تفهم قصدي.. أعراف ابن باشا بدون ذكر أسماء عنده أربعين سنة وعنده خدام بيَقُص له ضوافره لغاية دلوقتي.

- هايل! اطلب ولو فهمك.. بس لا بيه ولا باشا؟

- لو عجبنى ليه لآ؟ إن شالله أفندي.. ماما صَفِيَّة اتجوزت بابا سعد
وكانت بنت باشا وهو أفوكاتو.

- رأيك من دماغك؟

- بابي عقليته مختلفة وليه نظرة في اختيار العريس.. بس أنا ليا رأي.
- نازلي.

- نعم.

- تفتكري إحنا ممكن نتجوز؟

اجتاحتها سخونة أندت جبينها، نظرت حولها كَمَن تبحث عن
مَهْرَب، بصُعوبة سَدَّدت لَعِينِه نظرة:

- أنا تقريبًا مَا أعرفكش!

- إيه اللي ما تعرفيهوش؟

- حاسَّة إن وراك حاجة مش عاوز تقولها.

- حَيَاة سَرِّيَّة؟

- مَآمَا صَفِيَّة بتقول إن راجل من غير حَيَاة سَرِّيَّة يبقى مِش
راجل أصلًا.

- يبقى أكيد لازم تَفْضَل سَرِّيَّة.

ضحكت فأردفت: وبعدين أنت عارف كُل حاجة بسألها تقريبًا!
أو حتَّى ما بسألهاش! الموضوع ده غريب!!

- أنا اشتغلت فترة في حَيَاتِي سَاحِر.

- أنا مش بهزرا!

- والله ما بهزّر.. اشتغلت مُساعدَ سَاحِرِ شَهرين في سيرك
«عاكف».. كنت باخد تعريفة في اليوم.. كانت شغلتي أستخبّي
في علبة خمسين سنتي في خمسين وبعدين أنزل من باب يسحري
في الأرض.. أول ما يصقف أقوم طالع من وراء الستارة.

برقت عيناها بعجب: وش يقول لك ما أعرفكش.

- كل القصة إنني اتمررطت كثير لأنني اتربيت يتيم.. والعيشة في
باب اللوق جنب محطة قطر وسُرق بتكون خبرات.

ابتسمت: والخبرات في نفسية البنات؟

مد بثقة يده إلى بجانب أذنها اليمنى قبل أن يرجعها بسلسلة ملفوفة،
فك أسرها فظهر حرف «N» صغير من الفضة في نهايتها.

- اللي يفهم البنت يفهم الدنيا كلها.

وضمها في راحتها وأطبق عليها ثم لثم أطراف أصابعها..
انتابتها رعدة.

- ده أنت ساحر بجد! إسمعني أنا من دون البنات كلها؟

- عشان فيه ناس ما ينفعش تعدي في الحياة وتروح وتنسي.. ناس
لو عدت لازم تتكعبل.. وتقع على دماغها.. بس نلحقها..

اهتزت قدمها في نوثر فصبت لنفسها الماء بيد مُر تعشة وشردت
عيناها في الكأس. رغم تماشكها وشهرتها بين صديقاتها بالزهو والأنفة
ورفض الرجال يُربكها استسلامها أمامه، رُضوخها لكلماته، حتى فارق

السَّن بينهما تجده مثاليًا، يسعدها أن تعرَّ على من تمشي وراءه بدلًا من
ممارسة دور الذكر في أي حوار تبدو مع أبناء بشوات احترقوا النعومة،
يخافون من ثقتها فيكذبون بسذاجة ليفشلوا في الاختبار، دائمًا كانت
تبحث عمَّن يهرها، وها هو يظهر، بشكل غريب في وقت أغرب.

أفاقت من شرودها في كأس الماء: تعرف قصر البارون؟

- أعرفه طبعًا

- بكرة أنا معزومة على حفلة تنكرية كبيرة.. وبابا جاي.. عاوزه
أعرفك بيه.

- بابا! لكن أنا ما عنديش دعوة!

- سيب الموضوع ده عليا.



حين رحلت نازلي فكَّ أحمد أسر قدميه.. ساقته حتى كوبري قصر
النيل وتوقفت به.. اتكأ على السور الغليظ تحت النور الأزرق^(١) فالتقى
عينيه في المياه الجارية وسرد.. يُقاوم وجومًا ملأه وانسكب قطرات
على الأرض من نحته.. شعوره بالانجراف والاندفاع نحو نازلي
يُصيبه بدوار لا يعرف له سببًا.. ضيق يَجثم فوق صدره رغم النشوة
التي تجتاحه حين يراها.. نشوة تشبه زغرودة فرح وحيدة في سرادق
عزاء! فرحة تتناقض كلبية مع رياضة تسفك الدماء التي يُمارسها..

(١) مصابيح الكباري ونوافذ البيوت والمنشآت كانت تُطلى وقت الحرب باللون الأزرق
لإخفاء نورها عن طائرات العدو فلا تُصبح هدفًا.

خَلِيط غَرِيب يُشْبِهُ مَزَج كَبِيرَتِكَ الْبُوتَاسِيوم مَعَ جِمَضِ الْبَكْرِيك .. بَيْن
الضَّلُوع .. قَبْلَةَ شَدِيدَةِ التَّفْجِير .. رَغْبَةً مُتَأَخِّرَةً تَطَارِدُهُ بَعْدَ زَمَنِ عَاشٍ
فِيهِ كَفْكَرَةٌ .. تَرَسَ فِي آلَةٍ .. رَقَمَ فِي خَلِيَةٍ .. رَصَاصَةً فِي طَبَنَجَةٍ .. قَلْبَ
مَسْحُوقٍ وَالْبَصَقِ عَلَيْهِ أَسْلُوبَ حَيَاةٍ .. رُوتَيْنِ يَوْمِي .. رُوتَيْنِ كَسَرْتَهُ
نَازِلِي بِكَعْبِ جِذَائِهَا الرَفِيعِ بَعْدَ مَا اخْتَرَقَتْهُ .. بَاتَتْ بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ الْخَيْطِ
الْوَحِيدِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ .. فَتَحَتِ الْهَوَاءُ الضَّيِّقَةُ فِي مَقْبَرَةٍ فِرْعَوْنِيَّةٍ
لِتَنْتَفِسَ الْمَوْمِيَاءُ .. حُضُورٌ يُشْعِمُ حَيَاتِهِ كَمَا تُشْعِمُ الْأَلَاتُ تَلِييْنَا حَتَّى
لَا تَتَأَكَلُ تَرُوسَهَا .. لَكِنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِيُحْصِيَ الْقَبَلَاتُ !

لَمْ يُخْلَقْ لِيَعْمَلَ مُوظَّفًا يَحْمِلُ بِطِيخَةٍ وَيُنْجِبُ سَعِيدَ وَزِينَبَ وَصَلَاحَ .
لَمْ يَخْلُقْ وَعَيْنَاهُ الْاِثْنَتَانِ تَخْلُقَانِ رَفَاقِيَّةً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

إِنْ كَانَتْ ابْنَةُ الذَّوَاتِ لَمْ تَمْشِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ مِنْ قَبْلِ فَهَوٍ قَدْ
مَشَى عَلَيْهَا بِطَنُهُ وَخَفَرُ فِيهَا كَالثَعْبَانِ خَطًّا .

لَكِنْ يَبْقَى اللَّغْزُ فِي قَرَارِ الْاِقْتِرَابِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِانْجِرَافٍ
لَا إِرَادِيٍّ .. اِنْدِفَاعِ طِفْلِ نَحْوِ جِرْفٍ لَا يُدْرِكُ خَطُورَتَهُ .. مُحَاقَلَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ
لِلْإِدْرَاكِ حَيَاةٍ تَنْزَوِيٍّ .. قَبْلَ أَنْ تَبْخُرَ رُوحَهُ أَوْ يَعْجِفَ جَسَدُهُ كَجَذَعٍ خَاوٍ .

سَأَلَ نَفْسَهُ : مِنْذُ مَتَى تَعَوَّدْتَ أَنْ أَكُونَ طَائِفًا كَعِيَارِ اِنْتِلَاقٍ ؟

مَاذَا لَوْ عَرَفْتَ طَبِيعَةَ عَمَلِي ؟

مَاذَا لَوْ رَأَتْ الدِّمَاءُ تَحْتَ أَظْفَارِي وَالْبَارُودُ فِي كَفِّي ؟

مَنْ تَقْبَلُ بِمَعَاشَرَةٍ ثَائِرٍ يَحْمِلُ كَفْنًا ؟

هَلْ يَتَزَوَّجُ الْمَيِّتُ ؟

هل أملك ما أكلها به؟

هل أستنسخ سعد زغلول حين تزوج بنت رئيس حكومة الاحتلال؟
أتعمد الانخراط في الطبقات العلى لأرى الدنيا بمنظور طائر يُحلق؟
متى تعودت أن أفقد السيطرة على مقاديري؟

أن أطمح لأصبح.. إنساناً؟

أن أجب؟

لا.

لن يُجدي انجذابي لها نفعاً.

سألته وراءها وتبرى سافاي حتى الركبتين.

سأفقد وقودي وحميتي نحو وطني.

سأصير زخواً كينديل خريفي في بدلة سهرة.

سأقبل الإنجليز وأصافحهم مُصافحة الأصدقاء وسأصق صورة

السلطان الخائن فوق سريري!

لا

هكذا تضمحل الأمم وتنهار الحضارات.

لكن... لكن نازلي ليست من النوع الذي يعبر في الحياة فيهمل

أو يُجاهل!

إنها نازلي! نازلي التي كسرت حائط التخوين وقفزت حواجز الشك

قبل أن تُغلق الأبواب وراءها وتقتل كل الحریم.. بداخلي.

مُهْرَة سَبَاق تَسْتَحِقُّ الرِّهَان.

لَمْ تَنْطَفِئْ هَوَاجِسُهُ إِلَّا حِينَ وَصَلَ الْبَيْتَ، صَعِدَ السَّلَامِ وَأَغْلَقَ بَابَ شَقَّتِهِ فَأَخْبَرَتْهُ أُمُّهُ أَنَّ عَشَاءً مُعَدًّا وَأَنَّ غَرِيبًا مَرَّ وَتَرَكَ رِسَالَةً، فَضَّهَا فَوَجَدَ فِيهَا كَلِمَاتٍ مُقْتَضِيَةَ الْبَيْتِ حِذَاءً وَأَرْجَعَتْهُ الشَّارِعَ ثَانِيَةً، اتَّجَهَ إِلَى مِيدَانِ «الْعَتَبَةِ الْخَضِرَاءِ» حَيْثُ قَهْوَةٌ «مَتَانِيَا» تَقَعُ خَلْفَ دَارِ الْأَوْبَاءِ، سَاهِرَةٌ تَعُجُّ بِالْمُرِيدِينَ أَسْفَلَ بِنَايَةِ صَخْمَةٍ حَمَلَتْ نَفْسَ الْأَسْمِ، اسْتَقْبَلَهُ ضَجِيجُ رَقَعِ أَفْرَاصِ الطَّائِلَةِ وَأَحْجَارِ الدُّومِينُو، صِيَاخُ التُّدُلِّ بِالطَّلِبَاتِ، صَخْبُ الْحُضُورِ وَرَايِحَةُ النَّارِ جِيلَةً، وَقَفَ عَنْ بَعْدِ بِنَاءِ رُكْنًا بَعَيْنِيهِ فِيهِ كُرْسِيَانِ وَمِنْضَدَةٌ خَلْفَ بَابِ رُجَاجِي، رُكْنٌ ابْتَسَمَ فِيهِ أَبُوهُ يَوْمًا وَعَدَّلَ هِنْدَامَهُ لِيُسْجَلَ الْكَامِيرَا الْحَفْظَةُ فَرِيدَةً بِجَانِبِ سَعْدِ زَغْلُولٍ فِي صُورَةِ مُهْتَرِكَةٍ، اسْتَشْعَرَ طَيْفُهُ وَاشْتَمَ عَيْقَ ثُورَةٍ مَنَكُوبَةٍ تَرَكْتَ أَثَارَهَا عَلَى الْجُدْرَانِ قَبْلَ أَنْ تَعْمُرَ عَيْنَاهُ عَلَى عَبْدِ الْقَادِرِ، شَارِدًا مُلْفِيًا رَأْسَهُ لِلرَّوَاءِ وَبَيْنَ أَصَابِعِهِ سِيَّجَارَةٌ مُحْتَضِرَةٌ، بِغَرِيزَةِ أَمْنِيَةِ تَفْخِصُ الرُّوَادَ مِنْ حَوْلِهِ بَحْثًا عَنْ وَجْهِ يَنْتَمِي لِمَكْتَبِ الْخِدْمَاتِ^(١)، لَمَّا اطْمَأَنَّ لِنِيَابِهِمْ اقْتَرَبَ، جَلَسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ الْمُقَابِلِ فَتَنَّبَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ، ارْتَكُزَ بِمِرْفَقَيْهِ عَلَى الْمِنْضَدَةِ وَدَعَلَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ طَالِيًا الْإِفَاقَةَ.

- اطلب لي قهوة ثاني ع الربيعة.

زفرها عبد القادر فأشار أحمد لناؤل يعرفه، حيَّاه باسمه وطلب كوبي قهوة قبل أن يرجع عبد القادر بظهره إلى الكرسي، بعينين محققتين سأل:

(١) جهاز للأمن السياسي أنشأه الإنجليز ومهمته تتبع ورصد الوطنيين والفضاء على مقاومتهم للاحتلال... يُطلق عليه: مكتب الخدمات السرية.

- هُوَ مِن اللى اخترع القهوة؟
- بيقولوا اليمين أول ناس شربوها.
- ناس مُحترمين.
- محتلين من الإنجليز بَرَضه.
- الإنجليز! ديك أم الإنجليز.
- أنت بتشم؟
- نظره عبد القادر دقيقة قبل أن يُجيبه: ساعات.
- ما ينفعش تشم وأنت معانا.
- البودرة مش كيف.. زهازي القهوة عندي.. بتظبط
الدماغ.. بتصحّصّحني.
- تطلّها.
- مسح عبد القادر رأسه بعصيّّة وشخر بخفوت قبل أن يزفر:
ماشي.. أبطلّها.
- مُوافق تشتغل معانا؟
- مُوافق بس على شرط.. أقابل الراجل الكبير اللي مشغلك.
- الراجل الكبير اللي مشغلني؟
- ما هو أصل أنا ما بأخُدش أوامر من حد.. وأنت لا مؤاخذه شكلك
تلميذ في الموضوع.
- تلميذا لو هتشارك لازم تعرف إن الشغل كُلُّه هايبقى عن طريقي.

- يَعْنِي أَنْتِ الرَّاجِلُ الْكَبِيرُ؟

- رَجُلٌ كَبِيرٌ إِيَّاهُ؟ هِيَ عِصَابَةٌ؟ - ثُمَّ نَظَرَ أَحْمَدُ حَوْلَهُ لَمَّا لَمَسَ عُلُوَّ صَوْتِهِ فَأَخْفَضَهُ - دِي مُقَاوِمَةٌ احْتِلَالٌ وَلِيهَا قَوَاعِدُ تَأْمِينٍ.. كُلُّ حَاجَةٍ فِي وَقْتِهَا.. لَازِمٌ تَشَارِكُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً عَشَانَ يَفْهَمُ.. تَتَعَوَّدُ تَسْمَعُ الْأَوَامِرَ عَشَانَ مَا تَتَكَشَّفُشْ وَتَتَكَشَّفُنَا مَعَاكَ.. الْمَسْأَلَةُ مِشْ لَوْ تَارِيَةً تَدْفَعُ قَرَشِينَ وَتَكْسِبُ.. الْمَوْضُوعُ كُلُّهُ مَخَاطِرُ.. يَعْرِفُ يَضْرِبُ نَارَ؟

- يَعْرِفُ أَنْتِ تَضْرِبُ نَارَ؟

اقْتَرَبَ النَّادِلُ وَأَنْزَلَ الْقَهْوَةَ فَسَكَنَّا لِلْحِظَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْشِفَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ يَنْظُرُ لِأَحْمَدِ.
- شَرِطْ كِمَانِ.

- شَرِطْكَ كَبْرَتِ!

- كَلِمَةُ شَرَفٍ لَوْ حَصَلَ لِي حَاجَةٌ تَبْلُغُ أُمِّي وَالْحِجَّةَ كُلِّهَا إِنِّي ضَرَبْتُ فِي الْإِنْجَلِيزِ عَشَانَ الْبَلَدِ.. وَعَشَانَ أَبُوبِ اللَّهِ يَرْحَمُهُ.

نَظَرَ أَحْمَدُ فِي عَيْنَيْهِ مَلْتَمَسًا الْجَدِيَّةَ حَتَّى وَجَدَهَا.. غَائِمَةً مُبْهِمَةً.. لَكِنِّهَا مَوْجُودَةٌ فَأَجَابَهُ: وَعَدَ.



اليوم التالي

وَسَطَ البلد... كافيه «ريش»

الاسم مَكْتُوب بِخَط دِيواني انسيائي فوق باب الدخول الرُّجَاجِي
المُواجه للحديقة التي تمتد حَتَّى مِيدان سليمان باشا، تراصت
المَناضيد على العُشب الأخضر تكسوها المَفارش البيضاء والأواني
اللامعة، جلس الروّاد حولها يستمعون لأنغام فرقة صَغيرة تعزف
لَحْنًا لموتسارت.

منذ بداية الحرب أصبح هذا المَقهى المَطَّل على ميدان سليمان باشا
مُلْتقى الطبقات الوسطى المعارضة من كافة التيارات الفكرية، أدباء
وَشُعراء وفناني مسرح وصحافيين، تُقام فيه الندوات وتعرض على
مَسرحه الصغير المَسرحيات والحفلات الغنائية، وفي نفس الوقت،
نُقطة تَجَمُّع للجواسيس والمُخبرين! كاشفي الوطنيين المُجاهرين
بآرائهم، الحقيقيين منهم ومُدَّعي النُضال الذين دَخَلوا المسجون
وخرجوا لينحاكوا بالبطولات الوطنية الزائفة.

«ميشيل بوليتس» صاحب المَقهى، يوناني شارب أبيض ووجهه
مشرَّب بحمرة النبيذ، كان يقف بجانب البار متحدِّثًا مع أحد الزبائن
حين دلف عبد القادر وأحمد من الباب ليجلسا إلى أقرب مائدة، التفت
عيناه بالأخير فأحنى رأسه بهدوء قبل أن يُكمل حديثه:

- ما كنّا نقابل الراجل الكبير في الكراكون أحسن! ألقاهما
عبد القادر مُتهكِّمًا.

- راجل كبير إيه وكراكون إيه؟!

- لو المشوار بتاعك ده بتدوروه من هنا تبقى أكيد مناخوليا..
المكان ده مرشوق مُخبرين.. يله بينا يا عم.

أمسكه أحمد بيده: اقعدي.. ده آخر مكان يتوقعوا نختاره.

لحظات وانفصل ميشيل عن زبائنه.. صعد سلايل المسرح الصغير
الذي تراصت عليه الآلات أمام العازقين وصَفَّق فسكنت الهمسات
قبل أن يتكلَّم بعربية لا تخلو من لكنة:

- أصدقائي.. يُسَيِّد كافييه «ريشر» أن تقدّم لكم مسيو
«فؤاد الجزائر لي» وفرقة الرائعة التي سيطربكم فيها الشاب
لطيف الصوت «مُحمَّد أبدي الوهاب».

صَفَّق الحاضرون بفتور حين تخلل المناضيد شاب لم يتعد العشرين،
نحيل طويل شعره مُموَّج عالٍ يرتدي بدلة ذا كنة من الصوف، توسّط
المسرح بتواضع واثق وابتسامة هادئة قبل أن تبدأ الفرقة في العزف،
عينا أحمد لم تُفارقا ميشيل الذي تنحّى عن المسرح وهز رأسه لأحمد
قبل أن يختفي خلف بارافان خشبي.

- دقيقة وحصلني ورا البارافان.

تحرك أحمد فتبعه عبد القادر بعينيه حتّى اختفى ثم قام من مكانه
مُخلِّلًا المناضيد متأملًا المطرب الصغير وهو يتنحّج استعدادًا للغناء،
عَمَزَه بعينيه تشجيعًا فابتسم امتنانًا قبل أن يختفي وراء البارافان، ميشيل

كَانَ واقفًا في انتظاره، وَضَعَ سَبَّابَتَهُ أمامَ قَمِهِ حَائِثًا عَبْدَ الْقَادِرِ عَلَى الصَّمْتِ وَأَشَارَ فِي جَدِيَّةٍ إِلَى بَابِ الْحَمَامِ.

بِالدَّخْلِ كَانَ أَحْمَدُ مُتَنَظِّرًا أَمَامَ بَابِ الْكَابِيْنَةِ الثَّانِيَةِ، أَشَارَ لِعَبْدِ الْقَادِرِ أَنْ يَقْتَرِبَ فَرَمَقَهُ بِدَهْشَةٍ ثُمَّ تَقَدَّمَ، أَغْلَقَ أَحْمَدُ الْبَابَ عَلَيْهِمَا بِصُعُوبَةٍ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ خَلْفَ الطَّارِدِ وَجَذَبَ ذِرَاعًا خَفِيَّةً فَانْفَتَحَتْ فُرْجَةٌ فِي بَابٍ، دَفَعَهَا مُتَقَدِّمًا عَبْدَ الْقَادِرِ إِلَى دِهْلِيزِ مُظْلِمٍ.. مَشَى أَحْمَدُ خَطَوَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَتَوَقَّفَ وَيُخْرِجَ مِنْ جِيْبِهِ مُصْحَفًا ثُمَّ يَلْتَفِتَ لِعَبْدِ الْقَادِرِ:

- حَطَّ إِيْدُكَ عَلَى الْمُصْحَفِ.

لَمْ يَرُدْفَ عَبْدَ الْقَادِرِ.. وَضَعَ يَدَهُ الْيَمْنَى عَلَى الْمُصْحَفِ حِينَ قَالَ أَحْمَدُ:

- قَوْلُ وَرَايَا: أَقْسَمُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ.. أَنْ أَحَافِظُ عَلَى شَرَفِ الْمُنْظَمَةِ وَأَنْ لَا أَفْشِي أَسْرَارَهَا لَا بِالْإِشَارَةِ وَلَا بِالْكَلَامِ.. وَإِنِّي إِذَا حُشْتُ بِيَمِينِي أَكُونُ قَدْ حُخْتُ وَطَنِي وَأَهْلِي.. آمِينَ.

رَدَّدَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ وَرَاءَهُ فِي خَشْوَعٍ شَارِدٍ قَبْلَ أَنْ يَغْلِقَ أَحْمَدُ الْمُصْحَفَ.

- مَهْرُوكٌ عَلَيْكَ الْانْضِمَامُ لِلْيَدِ السُّودَاءِ.

- كَدَهُ هَسْ!! مَفِيشْ كُونْتَرَاتُو؟

هَزَّ عَبْدَ الْقَادِرِ رَأْسَهُ وَلَمْ يَعْقِبْ، لَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ عَضْوًا فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ، كَانَ قَدْ سَمِعَ اسْمَ «الْيَدِ السُّودَاءِ» كَثِيرًا خِلَالِ نَمِيمَةِ الْمَقَاهِي وَفِي أَخْبَارِ الْجَرَائِدِ الْجَرِيْشَةِ، الْجَمَاعَةُ الَّتِي رَوَّعَتْ

الوزراء بالرسائل واغتالت عددًا من المستولين الإنجليز والضباط، اسمها مقتبس من جماعة تحمل نفس الاسم تكونت في صربيا لمحاربة الاحتلال النمساوي - المجرى، وكانت عملياتها فتيل إشعال للحرب الكبرى.

انتشله أحمد من شروده حين اقترب من الباب الصغير وفتحه.

الجو كان حارًا الزجًا ورائحة الكحول نفاذة رغم المروحة التي تقلب الهواء، وسط براميل التبذ وصناديق البيرة استقرت فوق منضدة ماكينة طباعة «رونيو»، ينحني فوقها رجل يلقمها الأوراق الفارغة فتصرخ بصريير مكتوم قبل أن تلفظها من الجهة الأخرى مملوءة بحبر وحروف، وأفكار، منشورات فيها نص خطاب الرئيس الأمريكي ويلسن في مؤتمر فرساي، يُقر الحماية البريطانية على مصر ويرفض فكرة استقلالها! ثم كلمات نحتت الناس على الصُمود في وجه الاحتلال.

توقفت الحركة حين دخل القبو، بجانب ماكينة الطباعة والرجل الذي يلقمها كانت هناك فتاة وسيدة مكشوفتا الوجهين سال العرق على نحو رهن قبلل الحجاب، واحدة تجمع الورق لتضعه في الكراتين والأخرى ممسكة بختامة تختم بها على النقود، قدمهم أحمد لعبد القادر:

- عبد القادر أفندي... راجل محترم هيبقى معانا من النهاردة.

هز العجوز رأسه والسيدتان فأردف أحمد: عم إسحاق.. خبير الطباعة بتاعنا وعامل في العنابر.. قابلته قبل كده في المركب.

هز عبد القادر رأسه تحية للرجل فأشار أحمد للسيدة التي تجمع الورق:

- الست بدرية.. مُمرّضة في القصر العيني.

ثم أشار للفتاة الخمرية التي تختتم النقود: الآنسة دولت.. مُدرسة في مدرسة الهلال.

ساد الصمت لَحَظَات قبل أن يَقْطعه عم إسحاق حين أدار ذراع التشغيل لتُكْمِل ماكينة الطباعة عملها، انهمكت السيدتان في العمل فاقترب أحمد من دولت والنقط من أمامها ورقة نقدية مَخْتومة بكلمتين «بحيا سعد»، رفعها أمام عيني أحمد الذي أردف:

- دي فكرة دولت.. دلوقت الموظفين الإنجليز يقبضوا فلوس عليها اسم سعد باشا.

هز عبد القادر رأسه متعجبًا قبل أن يتحجى بأحمد جانبًا ويهمس:

- إحنا ما اتفقناش على كده.. طباعة! دي سُغلانة ترسو.

التقطت دولت الكلمة فرمقت عبد القادر بحدة قبل أن تلتفت للمُنشورات بين يديها حين أردف أحمد:

- أنت مش هتشتغل في الطباعة.. شغلتك هتكون تأمين المجموعة مع «ميشيل» صاحب الكافيه.. تراقب الزباين.. ولو اشتبهت في حاجة تدي المجموعة إشارة وتساعد في الهروب.

- بس كده؟

- دي مش سُغلانة سهلة.. توزيع المُنشورات فيها يسجن.. التزم لغاية ما تتعود على نظام الحركة.. وبعدين نقوم بعملية أكبر.. كله في وقته.. خلّي دي معاك - وأخرج من جيب سترته طبنجة صغيرة - تستخدمها في أضيق حدود.

دس عبد القادر الطبنجة في سترته حين سألته أحمد:

- بالمناسبة.. أنت ساكنين فين؟

سألك عبد القادر حنجرته بكحة كسبًا للوقت قبل أن يجيبه:

- قرب طباب.. سيب لي خبر في قهوة سلطان.

- عال..

شرد عبد القادر في حركة المطبعة الرتيبة والعاملين عليها، في السيدة التي انهمكت بجدية في مناولة الورق، والفتاة العائسة التي رفقته باحتقار منذ دقيقة قبل أن يسأل أحمد همسًا:

- الناس دي شغالة لله وللوطن؟

- مفيش مقابل لمساعدة الحركة.. إحنا بالعافية بنوفر مصاريغنا..

أنت بتشتغل دلوقت؟

زفر بضيق: يعني.

- هاكلم لك ميشيل يصرف لك مئرب حارس ووجبة.. كده كده وجودك في المكان لازم يكون بشكل قانوني.. هاسيبك دلوقت مع المجموعة.. شد الحبل ده - وأشار لحبل متدل على الحائط - ميشيل هيا من الجو.. الستات يخرجنوا الأول.. عم إسحاق.. وبعدين أنت بعد ما تخبي الماكنة في الفتحة دي - وأشار لفتحة خشبية في الأرض - وبعدين تخرج.. استيينا؟

- استيينا.. قول لي.. هي البت دي مالها؟ بتبهر لي بقرف تقولش جوز أمها!

- مالکش دعوة بدولت.. ویستحسن بلاش کلام من أصله.. کل ما عرفنا عن بعض معلومات أقل يكون الأمن لينا کلنا.. هاسيک دلوقت.. راجع مع ميشيل وعم إسحاق مواعيد حضورك.

ألقاها ثم انحنى على عم إسحاق وهَمَس بكلمات قبل أن يفتح باب القبو ويخرج.

- أنت رايح فين؟ سأله عبد القادر.

- عندي حفلة.

- حفلة؟!

لم يترك أحمد لعبد القادر فرصة السؤال، قالها ورحل، انزوى عبد القادر في رُكن يتأمل حركة الطباعة الميكانيكية، أشعل سيجارة فرمّاه عم إسحاق بنظرة لوم فأطفأها تحت حدائه ثم اقترب، التقط ورقة المنشور فضوّلًا وقرأ رأي الرئيس الأمريكي في أن مصر أمة لا تستطيع إدارة شئون نفسها! دائمًا ما كان مُقتنعًا ومتوافقًا مع هذا الرأي، إلا أن ضيقًا تملكه حين مرّت عيناه بالكلمات، صيغة الإهانة المُحمّلة خلفها أحرقت صدره.. لو كان الرئيس الأمريكي فتوةً خي مجاور لويسعت ضربًا وقطعت وجهه برقبة زجاجة مكسورة وحلقته على حَنَطور يلف به حارات السيدة زينب تنكيلاً، لكنه للأسف يقطن قارة بعيدة لا تصلها عربات الكاروا أرجع عبد القادر المنشور مكانه والتقط ورقة نقدية فضوّلًا وهو يختلس ملايح دولت عن قُرب، الخبرة لم تنجح في إخفاء جمال وحشي عابس مكسو بلون الخمر، أنف حاد، شفاه مكتنزة، وغضب مشرّب بالُم يُلوح في العينين العسليتين، مدّ يديه مُساعدة في تنسيق النقدية فأطبقت كفها على النقدية ورَمَقته بضيق:

- سَاعِدِ السَّتْ بِدِرِيَّةٍ وَلَا عَمَ إِسْحَاقَ.

رَمَقَهُ عَمَ إِسْحَاقَ بِابْتِسَامَةٍ شَمَاتَةٍ فَبَادَلَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ نَظْرَةً إِحْبَاطَ ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنَ السَّيِّدَةِ بِدِرِيَّةٍ وَمَدَّ يَدَيْهِ يَسَاعِدُهَا، قَضَى دَقَاقَتَ يَرِصُ الْأَوْرَاقَ فِي الْكَرْتُونَةِ وَيَخْتَلِسُ النِّظَرَاتِ لِدَوْلَتِ التِّي لَمْ تَعْرِهِ اهْتِمَامًا حَتَّى انْتَهَتْ الطَّبَاعَةُ، قَامَ عَمَ إِسْحَاقَ وَجَذَبَ عَبْدُ الْقَادِرِ مِنْ ذِرَاعِهِ هَامَسًا:

- تَعَالَى نَخْرُجْ عَشَانَ الْحَرِيمِ تَبْدُلْ هَدُومَهَا.

تَبِعَهُ عَبْدُ الْقَادِرِ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ، جَذَبَ الْحَبْلَ ثُمَّ خَرَجَا إِلَى الدَّهْلِيزِ ثُمَّ الْحَمَّامِ، مِيشِيلُ كَانَ فِي انْتِظَارِهِمَا، اتَّفَقَ مَعَ عَبْدِ الْقَادِرِ عَلَى الْحَضُورِ يَوْمِيًّا فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَكُنْ أَعْضَاءُ الْمَقَاوِمَةِ مَوْجُودِينَ دُرًا لِلشَّهْبَاتِ، وَأَنَّهُ سَيُعْطِيهِ فِي الْيَوْمِ عَشْرِينَ قَرَشًا نَظِيرَ عَمَلِهِ، اسْتَهَانَ عَبْدُ الْقَادِرِ بِالْمَبْلَغِ وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ حَقَّ الْجِدَالِ أَوْ الرِّفْضِ، كَمَا اسْتَغْرَبَ لَفْظَةَ الْمَقَاوِمَةِ حِينَ سَمِعَهَا، بَدَتْ جَدِيدَةً عَلَى قَامُوسِهِ.

دَقَاقَتِ وَخَرَجَتِ السَّيِّدَتَانِ، بِدِرِيَّةٍ وَبُصْحَبَتِهَا دَوْلَتُ أُخْرَى غَيْرِ التِّي كَانَتْ تَجْمَعُ الْأَوْرَاقَ، بَدَّلَتْ حَبْرَتَهَا وَبُرُقَهَا بِفَسْتَانِ بَنِي وَوَشَاحِ أَرْزَقِ رَائِثُ لَمْ يَخْفِ خَصْلَةُ فَاحِمَةٍ، بَدَتْ كَفْتِيَّاتِ الْأَرَسْتَقْرَاطِ، أَوْ كِبْنَاتِ الْإِنْجِلِيزِ اللَّاتِي يَلْمَعْنَ فِي الْخَفَلَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفَنَادِيقِ الصَّفْوَةِ، رَمَقَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ فِي ذَهُولِ قَطْعِهِ إِسْحَاقَ:

- اخْرُجْ أَنْتِ يَا عَبْدُ الْقَادِرِ الْأَوَّلِ.. أَمْنُ الشَّارِعِ وَإِحْنَا هَا نَخْرُجُ بَعْدَ دَقِيقَةٍ.

انْتَزَعَ عَيْنِيهِ مِنْ وَجْهِهَا الْعَابِسِ رَغْمَ سِحْرِهِ وَخَرَجَ إِلَى الشَّارِعِ، مَسَّحَهُ بَعَيْنِيهِ لِدَقِيقَةٍ قَبْلَ أَنْ يُشِيرَ لِمِيشِيلِ الَّذِي أَعْطَى الصَّوْءَ الْأَخْضَرَ لِلْسَيِّدَاتِ وَإِسْحَاقَ، خَرَجَتَا تَحْمِلُ كُلُّ وَاحِدَةٍ حَقِيَّةً مَتَخَمَةً بِالْمَنْشُورَاتِ

والنقدية المحتومة باسم سعد، ثم تفرقنا كلٌّ إلى اتجاه، تابع عبد القادر
دولت تسير ناحية الميدان قبل أن يلتفت لعم إسحاق:

- إيه فصّتها دي يا عم إسحاق؟ هي بخبرة وبرقع ولا بنت ذوات؟
نظر له الرجل من بين دخان سيجارته ولم يعقب..
أردف عبد القادر:

- أصلها مبوّزة أوي! بس الهيئة بريمو في الفستان.
- أحسن لك تبعد عنها لأن القضية عندها أهم من أي حد.
- لا إله إلا الله! هو أنا قلت حاجة يا عم الحاج؟! أنا باستفهم بس.
- رَفَع الرجل حَقِيبة المنشورات واستعد للرحيل:
- بُكرة معادنا الساعة ستّة.. تيجي بدري.. سَلامو عليكو.
- طب وأنا مش هاوِزُع منشورات زيكم؟
- ترقف الرجل ونظر إليه:
- لَمَّا عضمك ينشف.. وتركّز.
- أنا ناشف على فكرة هه.. ناشف أوي.... يا عم إسحاق! عم
- إسحاق....! طب رد عليا طيب.
- ابتعد الرجل ولم يلتفت.. زفر عبد القادر: ديك أمّك.
- ثم دفن سيجارته ونثّم على الطبنجة في جيبه قبل أن يتنهد وصورة
- الغستان تراود خياله.



ضَاحِيَة هَلِيو بوليس.. قصر البارون إِمبان

القمر كَانَ بِدَرًا، نوره الْبَارِد انساب على الْحَدِيقَة الواسعة الغنية
بالنباتات النَّادِرَة، حَدِيقَة يتوسطها طَرِيق صَاعِد إلى باب الْقَصْرِ،
دَرَجَات سَلْجُه عَرِيضَة اصطَلَقَتْ عَلَى جوانبها أشجار مُعَلَّقة فِي أغصَانها
فوانيس نُحاسِيَة تحوي شُموعًا تنير سَبِيل المَدْعُوين، تحرسهم ثلاثة
تمائيل بِيَضَاء بِالْحَجْم الطَّبِيعِي لِمُقَاتِلِينَ أَشْدَاء يَحْمِلُونَ نِسْرًا وسِوْفًا
ويطشون رءوس أَعْدائهم تحت أَقدامهم الرخامية، الخدم انتشروا فِي
كل مَكَان يرشدون المَدْعُوين لِلْمَدْخَل وَيُعَاوَنُونَ السَيِّدَات فِي النزول
من الْعَرَبَات، وآخرون يُسَاعِدُونَ السَّائِقِينَ وَالسَّائِسِينَ فِي اصطِفاف
وتنظيم سياراتهم والعربات.

قُرْب الثَّامِنَة مساءً كان الزحام قد بلغ أَشْدَه، عَرَبَات الدوكار الفُخْمَة
والسيَّارات الفارحة صَنَعَتْ طابورًا أَمَام سُور الْقَصْرِ المَهِيب تَنْتَظِر
دَوْرها فِي الدخول لِلْحَفْل الْأَسْطُورِي، نزل أَحْمَد من الترام فتمشَّى
حَتَّى حُدُود الْقَصْرِ مُتَخَلِّلًا الزحام فِي بدلة سَمُوكِينْج سَوْدَاء وبابون
لَا مِيع لُورِي قَمِيص أبيض، فِي قلبه يَقلُّ يُبْطِئُ ضَرْبَاتُه وَيَبِين يَدِيه قِنَاع
فُضِّي سِيْخْفِي مَلَامِحُه بعد قليل.

عِنْد البوابة سَأَلُوهُ عَنْ اسمه فَأَبْرَز دَعْوَة باسم «شريف صبري»، اسم

شقيق نازلي الذي كَانَ مُسَافِرًا للندن في ذلك الوقت، تَوَعَّلَ في الحَدِيقَةِ
مُتَأَمِّلًا البِنَاءَ الأَسْطُورِيَّ المَشِيدَ عَلَى الطَّرَازِ الهِنْدُوسِيِّ الَّذِي طَالَمَا
يَهْرَهُ كُلُّمَا مَرَّ خَلْفَ الأَسْوَارِ، البُرْجُ العَالِي المُنْحَوْت بِالْأَفْيَالِ والأَسُودِ،
والبوَابَةُ العَظِيمَةُ المَنْقُوشَةُ بِفَتَيَاتِ هِنْدِيَّاتٍ يَرْقِصْنَ حَوْلَ مُجَسِّمٍ لِبُودَا.

تَطَعَ المَسَافَةُ مُنْبَهَرًا بِفَخَامَةِ البِنْيَانِ وَرَوْنِقِ التَّمَائِيلِ الضَّخْمَةِ الحَامِلَةِ
لِلشُرَفَاتِ، مُرَاقِبًا عِلْيَةَ القَوْمِ مِنَ البَاشَاوَاتِ وَكِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَأَصْدِقَائِهِ
الْإِنْجِلِيزِ، يَنْزِلُونَ مِنْ سِيَارَاتِهِمْ فِي أَرْيَاءٍ تَنْكِرِيَّةٍ خَفَّتْ مِنْ ثِقَلِهِمْ
السِّيَاسِيِّ وَهَيْئَتِهِمُ الجَامِدَةِ الَّتِي يَظْهَرُونَ بِهَا فِي الجِرَائِدِ وَالمَجَلَّاتِ،
أَلْوَابِ مُلُوكِ الفِرَاعَةِ وَالمَلَكَاتِ، شَبُوحِ العَرَبِ وَجَوَازِيهِمْ، فَسَاتِيْنِ
عَلَى المَوْضِعِ مَزِينَةً بِالْكَرَانِيْشِ، وَأَرْدِيَةِ السَّهْرَةِ البَاهِظَةِ، أَحْذِيَّةٍ لَامِعَةٍ
لَمْ تَطَأِ الأَرْضَ مَرَّتَيْنِ وَمُجُوهَرَاتٍ تَسُدُّ دِيُونَ العَالَمِ

دَلَفَ إِلَى البَهْوِ مُتَأَمِّلًا أَرْضِيَّاتِ الرُّخَامِ وَالتَّرْمَرِ مُخْتَرِقًا صَخْبَ
الألْوَانِ وَالفُضْحَكَاتِ، زَوَائِحَ مَمْرُوجَةٍ بِعَبَقِ الكُحُولِ وَدُخَانِ التَّبَاقِ،
مُوسِيقَى صَاخِبَةٍ تُسْعِرُ الدَّمَ فِي العُرُوقِ، تَمَائِيلَ مِنَ الذَّهَبِ وَالبَلَاتِيْنِ
وَالعَاجِ وَلَوْحَاتٍ لِمَشَاهِيرِ رَسَامِيْنِ قَرَأَ أَسْمَاءَهُمْ فِي الكُتُبِ، وَسَاعَةً
فَخْمَةً اسْتَرَقَ ثَرْوَةً المَدْعُوِيْنَ عَنْهَا، قَالُوا أَنْ لَا مِثْلَ لَهَا إِلَّا فِي قِصْرِ
الْمَلِكِ بَلْنَدِنِ، تَوَضَّحَ الوَقْتُ بِالدَّقَاقِيقِ وَالسَّاعَاتِ وَالأَيَّامِ وَالشُّهُورِ
وَالسَّنِيْنَ مَعَ تَغْيِيرَاتِ أَوْجِهِ القَمَرِ، بَلْ وَتَقْيِيسَ دَرَجَاتِ الحَرَارَةِ!!
اسْتَفْرَقَ أَحْمَدُ فِي الأَنْبِهَارِ دَقَاقِيقَ حَتَّى اسْتَعَادَ مَا جَاءَ مِنْ أَجَلِهِ، وَضَعَ
الْقِنَاعَ عَلَى عَيْنَيْهِ دَرَأً لِلْأَسْئَلَةِ حَوْلَ هَوِيَّتِهِ ثُمَّ التَّقَطَّ كَأَسِ شَامِبَانِيَا
اَنْدَمَا جَا فِي الأَسْمِ المَكْتُوبِ فِي الدَّعْوَةِ، بَحْثَ بَقِيَّتِهِ عَنْ نَازِلِي الَّتِي

وَعَدته ببقاء أبيها.. ماذا أفعل؟ سأل نفسه.. ثم أجاب في لحظة: أجازف
كما أجازف بإطلاق رصاصة في قلب إنجليزي.. ألقي بنفسي من النافذة ثم
افكر فيمن يتلقفني.. أمزج كيمياء قبيلة فأنثر أشلاء ودماء ثم أطلب القهوة
وأدخن سيجارة.. نعم.. أنا أصنع قنراً موازياً لقنري.. حياة جديدة غير التي
أمرسها تحت قدمي كحذاء بالك يشرب مياه المطر.. حياة قد أموت فيها
على الفراش بأزمة قلبية أو مضاعفات كبر.. بدلاً من رصاصة في الظهر..
لا أحد يمشي حمره كله في الصفوف الأمامية.. سأذبل يوماً كورقة خريف
وستهرسني الأقدام.. يجب أن أتفرغ يوماً لإدارة الأمور بعد عمر لهشت فيه
وراء كرامة تتعد كالسراب.

هكذا قال سعد حين تزوج صفيّة بنت رئيس الوزارة.

ولنفس الأسباب كرهته!

كرهته... ١

ردّدها أحمد في نفسه للحظات حتى اقتنع بحيدته عن الطريق،
ترك كأسه في صينية عابرة وأطفأ سيجارته ثم اتجه إلى باب الخروج
ناوياً الانسحاب.. الاختفاء.. الرجوع للحياة الحقيقية التي يعرف
تضاريسها.. كان ذلك حين أوقفه فستان «فلاير» برونزي وقناع قطعة
ذهبي وسلسلة تحمل حرف «N» صغير تتدلى فوق صدره:

- رايح فين؟

عرف صوتها: كنت بدور عليكي.

- حد ضايقك في الدخول؟

- محدّش هنا يعرف أخوكي.. حلو فستانك.

أمسكت بسلسلتها تداعبها بين أصابعها: شفت السلسلة الجديدة بتاعتي؟

- وحشة.. مين اللي جابها لك؟

- إوعي تهزأ بيه.. تعالى.

سحبت يده إلى درّج دائري عجيب من خشب الورد الفاخر، بدا لأحمد لانيهائياً وهو يتبعها صعوداً كتعقّب ثوانٍ يطارد عقرب ساعات، فأمل ساقها الرشيقتين تقفزان الدّرج خماساً وخط الجورب الدّاكن الذي يتوسّط السّمانة لينتهي على شكل ورقة لوتس عند الكعبين، طلاء أظافرها البرونزي في أصابعها الرقيقة التي عانقت يديه ورائحة الياسمين النفاذة التي تخلفها وراءها، تنظر إليه وتضحك فيطر بهما الزمن، ابتسم في نشوة وصوت الموسيقى يغمره مع كل درّجة يصعدّها حتى بلغا سماء القصر.

الهواء كان أكثر برودة والصّخب هادئاً في السّطح الذي كشف مدينة «هليوبوليس» كأنها خريطة صغيرة، البرج العجيب بدا أكثر إبهاراً عن قُرب، والأعمدة صليبية الشكل المزدانة برءوس الأفيال أهضفت على الأجواء هيبة كهية المعابد، المناضيد على الحواف رُصّت، تحمل فوقها كل ما لذ وطاب من فواكه ومقبلات، والمدعوون مُندمجون في الرّقص فوق سجّاجيد هندية على أنغام موسيقى «الشارلستون» الهادرة المنبعثة من فرقة جاز أمريكية استضافها البارون خصيصاً لإحياء الحفل.

استند بجانبها إلى سور يطل على الحديقة الواسعة بعدما التقطا كأسين، تابعا الرقصة المَجْنونة لدقائق تبادلها فيها الابتسام بدون كلمات حتى اقتربت منه ورفعت صوتها لئيسمعهما.

- مَصِر كُلِّها تقريبًا مَعزومة النهاردة.. أنا شُفْتُ مُوصيري وقطّاي باشا، وهارون وفيكسور كوهين بتوع محلات بوتريمولي، وسوارس ومنشي، ويوسف شيكوريل، ده غير أمراء وأميرات الأسرة، بالمناسبة ابن السلطان حسين كامل اللي رفض العرش هو السمين اللي قاعد هناك ده.

- يرفض العرش بدون إبداء سبب!

صاحت في أذنه لئيسمعهما: سمعت إن فيه قصة حُب مع واحدة فرنساوية.

- دايما قصة حُب! والفرنساويات حلوين.

ابتسمت لما التقطت التلميح حول أصلها قبل أن يسألها: أمال فين البارون؟

- شايف الراجل أبو سكسوكة.. اللي خَاطَط مَاسك بمناخير طويلة.. هو ده.

- ممم.. هو صحيح عامل الحفلة دي بمناسبة إيه؟

- إعادة علاقات وصداقات جديدة.. أنت عارف البارون هو صاحب شركة «واحة هليوبوليس» اللي عاملية المدينة دي كلها، هو اللي عامل مضممار الخيل وملاهي لونا بارك وقصر هليوبوليس والقصر العجيب اللي إحنا فيه ده.. كل حاجة كانت

ماشية تمام لغاية ما حَصَلت مشادة بينه وبين السلطان حسين كامل
الله يرحمه.. لأنه كان عاوز القصر ده هدية.. البارون ما وافقش..
فالسلطان ضيق عليه مشاريعه.. خاف على نفسه فسافر مع أخته
وبيته الوحيدة لبلجيكا.. لغاية ما سمع خبر موت السلطان.. وأول
ما انتهت الحرب قرر يرجع.

- قصر هدية ٩-

- طبعا.. البارون من أغنى أغنياء العالم.. بس القصر ده عزيز
عليه أوي.

ثم أشارت نازلي لسيدتين مبهرجتين في الخمسين لم تُخف
الأقنعة وجهيهما.

- اللي لابسة أبيض دي تبقى ليدي «جرهام» مرات مُستشار وزير
الداخلية.. واللي جنبها إيفيت بُغدادلي.

- سمعت الاسم ده قبل كده.

غمزت بعينها وهَمَسَتْ: عشيقة البارون.. والسبب الرئيسي
لوجوده في مصر.. بيحبها حُب غير عادي.. يقولوا إن القصر ده
كله بناء عشانها.

- وليه ما يتجوزهاش؟

- لأنها متجوزة!

- تمام!! واضح إنك بتحبِّي أخبار الصُفوة.

- ريحتهم هي اللي فايحة.. بيتجي لغاية أوضة نومي.

صَحَّحَا قَبْلَ أَنْ يَصُمَّتَا.. نَظَرَ إِلَيْهَا لِلْحَفَظَاتِ وَجَاهَدَتْ لَتُبْقِيَ عَيْنَيْهَا
فِي عَيْنَيْهِ:

- وَحَشْتِي.

ابْتَسَمَتْ بِخَجَلٍ: أَنْتَ كَمَا.

- جَمِيلَةُ النَّهَارَةِ.. وَمَشَّ عَشَانَ عَلَى رَأْسِكَ رِيْشَةً.

ضَحَكَتْ وَمَسَحَتْ بِأَنَامِلِهَا الرِّبَاطَ الشَّفَافَ الْمُحِيطَ بِجَبْهَتِهَا
وَعَدَلَتْ مِنْ وَضْعِ الرِّيْشَةِ الذَّهَبِيَّةِ الْمَثْبُتَةِ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَقَاطِعَهُمَا رَجُلٌ
يَرْتَدِي زِيَّ الْفُوسْتَانِيَلَا الْيُونَانِيَّ التَّقْلِيدِيَّ.. طَرَبُوشًا قَصِيرًا وَتَنْوَرَةً
بَيْضَاءَ وَجَوَارِبَ طَوِيلَةً فَوْقَ جِذَاءِ أَحْمَرَ.. أَمْسَكَ مِرْفَقَ نَازِلِيٍّ بِرَفَقٍ:

- أَنْتِ قِيلَ يَا نَانَا؟

التَفَتَتْ نَازِلِيٍّ بَارْتَبَاكَ: أَنَا هُنَا.. ثُمَّ تَمَالَكْتَ نَفْسَهَا: أَقْدَمُ لِحَضْرَتِكَ
أَحْمَدُ.. صَدِيقٌ اتَّعَرَفْتُ عَلَيْهِ فِي بَيْتِ بَابَا سَعْدٍ.

ثُمَّ نَظَرَتْ لِأَحْمَدِ الَّذِي يَقَاوِمُ الضَّحْكَ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الزِّيَّ.. جَذَبَتْ
أَصَابِعَهُ تَنْبِيْهًا:

- أَقْدَمَ لَكَ بَابَا.. عَبْدُ الرَّحِيمِ بَاشَا صَبْرِي.

اعْتَدَلَ أَحْمَدُ فَجَاءَهُ: تَشْرَفْنَا يَا بَاشَا.

ابْتَسَمَ الرَّجُلُ: فَرَسَةٌ سَعِيدَةٌ يَا أَحْمَدُ أَفْنَدِيَّ.. وَأَنْتِ تَعْرِفُ سَعْدَ
بَاشَا مَنِينٍ؟

- وَاللَّهِ إِلَهُ يَرْحَمُهُ كَانَ صَدِيقَهُ.

- وَاسْمُهُ إِيَّاهُ الْوَالِدُ إِلَهُ يَرْحَمُهُ؟

- عبد الحي .
- عبد الحي إيه ؟
- تردد أحمد للمحطات : كبيرة .
- ضيق الرجل عينيه وداعب الطربوش الأحمر القصير فوق رأسه :
ة ! الاسم ده هتش غريب عليا ! كان يشتغل فين ؟
- بكباشي في الجيش .
- وهو توفي في ...
- أدركه أحمد : كان مريض .
- الله يرحمه ويحسن إليه .. وأنت بتشتغل فين يا أحمد أفندي ؟
- القصر العيني .. مدرسة الطب .
- عفارم .. ويبدوك ماهية كويسة ؟
- كويسة .
- لفهم الصمت للمحطات قبل أن يلحق الرجل جرح صدغ أحمد ..
ب منه مدققاً بعد أن رفع مونوكل أمام عينه اليمنى .
- واضح إنه كان جرح حاد .
- شقاوة طفولة .. ابن خالتي كان يبهزر بعصاية فمورني .
- لكن ما قتلش .. أنت مين اللي دعاك على الحفل النهاردة ؟
-

أشغقت نازلي على أحمد فقاطعت أباها:

- بابي! إحنا في حفلة مش في المحافظة! سيل قويليه؟

ابتسم أبوها فاحتضنها ولثم جبهتها ثم نظر لأحمد: غلباوية..
زي سعد زغلول.. ماشي يا ستي.. النهاردة حفلة ويس.

- يا عبد الرحيم باشا.

كان المُنادي أحد المدعوين.. ربت الرجل على كتف نازلي وابتسم
لأحمد: كيرة.. اسم مميز جدًا.. أستاذنكم.

قالها وانسحب مُندمجًا مع معارفه حين استطردت نازلي:

- آسفة.. بابي بيهتم جدًا بالتفاصيل.

- أنتِ لو بتتي هاعمل أكثر من كده.. بالمناسبة هدومه تجنن.

- أنتِ كُنتِ هاتموتني من الضحك لما بصيت للهدوم.. تخيلت
أنك هتألَس عليها.. بابا بيعتَز جدًا بالفرع اليوناني في الحيلة.

- غريب الخليط اللي أنتِ جاية منه.. جريجى على فرنساوي
على عثمانلي.

- على مصري.

- أحلى حاجة فيكي.

بدأت الموسيقى تعزف لحناً راق إلى أذنيها.. نظرت إلى الفرقة
وبدأت تتمايل في خفة قبل أن تميل عليه:

- على فكرة.. أعتقد أنك عجبت بابا.

ابتسم أحمد بترقب وهو يراقب أباه.. أردفت نازلي:

- أنا بعشق الأغنية دي.. A Good Man is Hard to Find ..

ماريون هاريس.. صوته يخبيل.. أحسن مطربة في أمريكا.

مدّ يده إليها: ترقصي؟

أغمدت كفها في أصابعه فسحبها إلى المرقص، تمايلا لدقيقة قبل
تتكلم:

- بترقص هايل أودكتور.. واشتغلت مع ساحر فرنساوي في سيرك!

إيه ثاني المفروض أعرفه؟

- بطبخ ملوخية تجنن.

- وإيه كمان؟

- وقاتل قتلة بعد الظهر.

ضحكت حتى دمعت عيناها: أنا موافقة.

نظر إليها في استغهام فأردفت:

- موافقة أعيش معاك عمري.

ضخّط على أصابعها في كفّه وابتسم ابتسامة حاول أن تبدو طبيعية.

الانجراف مع النهر الثائر لم يعد اختيارًا.. أما المقاومة فتزيده غرقًا:

- نازلي.. أنا...

فجأة انقطعت الموسيقى بعدما همس رجل في أذن العازف الأول
رقعة.. تكهرت الأجواء وانسحب البارون إيمان من السطح في

عُجالة رغم عرجه الواضح وخلع قناعه.. تبعته عشيقته المزعومة إيفيت
بغدادلي.. نظر أحمد لنازلي في استهزام فيادلته الاستغراب ثم راقبت
المصعد الذي تحرّكت أسلاكه صعودًا قبل أن يعتلي أحد الأشخاص
منصة الفرقة ويُعلن:

- أرجو الالتزام.. نحن في حفرة صاحب العظمة.

قالها بالعربية والإنجليزية والفرنسية فعَلَّت الهمهمات واضطربت
الجُموع، أخلى الخَدم الطَّريق الخارج من المصعد ووضعوا كُرسياً
وثيراً أمام منصة في رُكن مُميّز، عدَّل الرجال والنساء من هندامهم
وخلعوا الأقنعة ووقفوا على أهبة الاستعداد حين انفتح باب المصعد،
تخرج البارون إيمان بوجه بشوش ومن ورائه برز السلطان فؤاد في بدلة
سوداء أنيقة، كرش عظيمة ولغد مُحْتَبَس، حذاء لامع لا يغطّ الأرض،
وشارب ضخم مبروم كقرني ثور تحت عينين جامدتين لا تُشِفان
ما وراءهما، رَمَقه أحمد بنظرة لم توارِ كُرْهه، نظرة لَمَحَتْ فيها نازلي
بُغْضًا واحتقارًا لم تجرِّبه رغم معرفتها بخبايا أخبار السلطان ومهادنته
الاحتلال، إلا أنها لم تملك يومًا مثل تلك النظرة ناحيته

شقَّ السلطان طريقه يُحنِّي هامات الرجال وينكس ركبات النساء
إجلالًا، يَمُنّ التحيات عليهم بابتسامة وهزّة رأس ويمد يده فتُلْثم من
الواقفين شرفًا وتقديرًا، ثبّت نازلي ركبتيها احترامًا وانحنى أحمد
برونوكولًا، غاظته ثقة السلطان وذكاء لمحبه حين التقت الأعين
للحظة، كان يتمنى أن يستشعر الغباء في نظراته.. الغل أو الغطرسة..
لكنه استشعر ثباتًا وثقة حفزت لديه رغبة المنافسة.

استوى السلطان على كُرسيه فالتفت حوله البارون إيمان والسيدة هام وبعض الساسة الإنجليز ورجال المال المصريون والنبلاء، لواء حديثاً مَرَحاً قبل أن تندمج الفرقة في العزف، لحناً هادئاً لبرامز ران «Poco Allegretto».

تكلمت نازلي لتخرج أحمد عن شرود تملكه:

- أول مرة تشوف السلطان ع الحقيقة؟

أفاق أحمد من سرحته: أيوة.. أول مرة.. ما كنتش متخيل إنه قصير... ببيان طويل في الصور.

- باي بيقول عليه ذكي جداً.. ويفهم تمام في المالية.

- الوصول للعرش مش محتاج ذكاء.. محتاج دم أزرق.

- بتكرهه؟

- حد يقدر يكره السلطان؟ قالها بسخرية.

همست: أنا مش بحبه.. بس شايفة اللوم على الإنجليز أولى.. همّا حَطُّوه على العرش.

- هبلاقوا مين أحسن من أمير مفلّس وقُمرتني يتحكموا فيه!

- لو مطرحه كنت تعمل إيه لو اتعرض عليك العرش؟

- أطالب بالاستقلال لبلدي بدل ما أقف أنفرج عليها بتتحلب قدامي.. أعرض القضية على العالم بنفسي بدل ما أسيب سعد باشا زغلول يتنفي.

- پامي دايمًا يقول إن المناصب كثير بتغلب الرجال.. وإن ما ينفعش
نحكم ع الناس وإحتا في أماكتنا.. لازم تقعد في كراسيهم ونحس
ضغوطهم.

- والدك بيقول كده عشان مُحافظ عنده.

- ساد الصمت للحظات.. لم تشأ نازلي أن تعقب فتدرك أحمد
كلماته: أنا آسف.. ما كانش قصدي.

- أنا كمان مش عاجبني إن پامي بيشتغل في وزارته.. كل واحد في
منصب وموافق على اللي بيحصل يبقى مقصر في حق مصر.
- ده صحيح.

- بس تعرف.. أنا لو ما أعرفكش وشفت نظرتك ليه وهو بيعدي
جنبنا كنت قلت إنك مُمكن تطلع مُسدس وتقتله!
- للأسف المسدس النهاردة في البيت.

- ضحكت فضحك.. سَحَبَتْهُ لِمَرْقَصٍ وَعَيْنَاهُ لَا تُفَارِقَانِ مِنْضِدَةَ
السلطان.. كان ذلك حين مالت السيدة جرهاًم إلى السلطان بابتسامة
وَهَمَسَتْ بِانْجَلِيزِيَّةٍ:

- كيف حَال ابنتنا العزیزة الأميرة فوقية؟

- سلك حنجرته بصوت غليظ يشبه الشخير من أثر رصاصة قديمة
استقرت فيها ولا تزال ثم تحدث: بخير.

- لِمَ لَمْ تَأْتِ لِمِرَافِقَةِ عَظَمَتِكَ؟

- فوقية عنيدة ولا تروقها الحفلات.

- الحياة ليست لطيفة بدون رفقة يا صاحب العظمة.
- بابتسامة أجابها: العرش لا يترك وقتاً للعبث يا عزيزتي.
- ومن تكلم عن العبث؟ أنا أتكلم عن الزواج.
- فلتت منه ضحكة.
- لقد جرّبت سخطي مرة ولم أوفق.. أميرات الأسرة العلوية صعبات المراسم.. عنيدات.. ومُدللات أكثر من اللازم.
- أتفق مع عظمتك.. لذلك يجب كسر القواعد من حين لآخر.
- أشعل غليوّنًا محشوًّا بتبغ «دانهل» المفضل لديه ثم ضيّق عينيه: ماذا نعني بكسر القواعد؟
- رضا عظمتك غاية تتسابق عليها ربيبات الأسرة العلوية.. بجانب عائلات مصرية كريمة الأصل أيضًا.
- تقصدين الزواج بواحدة من عامة الشعب!
- ولم لا؟
- هذه سابقة ليس لها مثيل في الأسرة!
- لكل شيء بداية.. الزمن يتغير والمفاهيم تتبدّل.
- هل للأمر علاقة بقصر باكينجهام؟
- بدبلوماسية ازدادت منه قربًا: بالطبع نشاط سعد زغلول والاضطرابات المترتبة أزعجت العرش كثيرًا في الآونة الأخيرة.
- توقيت غريب للبحث عن زوجة! البلاد في قمة الاضطراب.

- العكس صحيح، سلطان يتزوّج امرأة من العامة سيكون أكثر قرباً من قلب ذلك الشعب الطيب في تلك الفترة العvisية، عرش أكثر استقراراً، ولي عهد «ذكر»، دماء مصرية خالصة، لن يملك المصريون سوى الولاء والطاعة، والمحبّة بالطبع.

بَرَم شاربه في شرود أفاق منه بعد لحظات: ولكن.. من قد تكون؟
قاطعتُه مُتصنّعة دلالاً لا تجيده الإنجليزيات: يجب أن تكون أكمل وأجمل فتاة لتناسب عظمتك.. بالصدفة.. هنا في هذا الحفل اثنان تناسبان المقام السامي.. هل تلمح عظمتك صاحبة الفستان الأحمر الواقفة بجانب البار؟

رمى السلطان الفتاة ثم أردف: لقد سئمت البدينات يا عزيزتي.. زوجتي السابقة كانت مائتين وعشرين رطلاً.

- إذن أجد هوى عظمتك مع تلك الرقيقة ذات الفستان البرونزي في مُتصف المرقص.

مسح الجسد بعينيه للحظات قبل أن ينسم: من هي؟

- نازلي.. كريمة عبد الرحيم باشا صبري.. محافظ القاهرة وخادمك المطيع.. يا له من شرف قد يناله!

- جميلة.. لكن من الشاب الذي يُراقصها؟

ابتسمت لئلا لمست الاهتمام ثم نظرت لأحمد وهو يراقص نازلي:

- مَنّاكُد تماماً أنّه أخ لا تجوز له.



في بدايات مايو ١٩١٩ كانت الثورة المصرية قد نجحت في
يل من ثقة الإنجليز في أنفسهم، أفلقت الجيوش الواثقة وهزت في
اكينجهام» عرش ملك ثابت.

لكنها أنهكت! ثقل الاحتلال أرخى عَضَلات الثوار وثبط الكثير
من عزيمتهم فبدون جيش يقف بجانبهم وشرطة تدود عنهم وسُلطان
ضرب من أجلهم، ظل الاستمرار في التظاهر نزيهاً لا يتجَلَط.

كان ذلك قبل تصريح الرئيس الأمريكي بشأن القضية في مؤتمر
مصلح، التصريح الذي بقدر ما أثار من سَخَط وأشعل في الصدور
لهباً، بقدر ما كان ضربة قاصمة بثت اليأس بين ضلوع المصريين..
عض أعضاء الوفد في باريس!

وكانت تلك المرحلة الثانية من الثورة.

مرحلة أخرج فيها الفلاحون وأهل الصعيد من العمل الثوري صحبة
مَسَف الوحشي ولغراغ بيوتهم من الأقوات، انحصرت الثورة تقريباً
في القاهرة والمُدن المُجاورة، بقيادة الطلبة والمُحاميين والعُمال،
بامر من بحياتهم مُقاومين إنذارات شديدة اللهجة بالطرد التعسفي،
ب بضعة أيام تحدث في صفوفهم اختلاجة كاختلاجة مريض مَحْموم
شتعل المُسيرات والمُظاهرات، يَجويون الشوارع هاتفين ضد

الاحتلال رافعين رايات الحرية قبل أن يُقَابِلُوا بقمع وعنف شديدين
فيتفرقوا وتبقى بطولاتهم التي تتحوّل بسحر الأفواه إلى أساطير يتحاكى
بها أبناء البلد فخراً وتثيلاً لبعضهم البعض .

أمّا الوفد برئاسة سعد فقد جاهد ليُبقِي قضية الاستقلال حيّة على
المنابر في أوروبا وخارجها رغم الخلافات الداخلية والانشقاقات،
جَمَعَ الشعب الثبرات تطوعاً من أجل استمرار عرض الفكرة، وتأكيداً
لمطلب الاستقلال أمام المجتمع الدولي ضد إقرار الحماية الإنجليزية
«الإجباري» على مصر، قاوم الوفد العراقي التي وضعها الإنجليز في
طريقهم، وخاطبوا مندوبي الدول المختلفة ليقابلوا بصمم كلما أتت
سيرة الاستقلال.

منذ الذي يُعارض كلمة الفصل الأمريكية؟ فمصر يجب أن تظل
حظيرة إنجليزية.. وغنيمة حرب ليس لها أن تُسأل في مصيرها مع
الوقت ونحت رعاية لورد «ألبي» المندوب السامي البريطاني الجديد
والأكثر شراسة في تاريخ الاحتلال والمعروف بـ «الشور الدموي»،
مع الوقت ضاقت قبضة الإنجليز على البلاد، ازدادوا إمعاناً في إذلال
المصريين واضطهاداً لحركتهم الوطنية، بات الكبراج حَدَثاً عَادِيّاً لكل
من يُشتبه في أمره، مثله مثل الرصاص، بدون إبداء سبب! امتد النهب
والاعتداء كالنار في الهشيم عقاباً وتنكيلاً، قبل أن تنوّه بريطانيا عن
إرسال لجنة برئاسة وزير المستعمرات البريطانية اللورد «ملتر» للتحقيق
في أسباب اشتعال الثورة المصرية، مُهمّشة لدور الوفد المحوري في
تحريك القضية، ومُتجاوزة لشخص سعد!

كان مقهى «ريش» قد أصبح ملاذًا حميميًا لعبد القادر، غادر
بيون بنبة مُتَحَجِّجًا بالعمل، تاركًا سلامة النجس بوجه معجون وعين
طوبية بيضتها النار، يُعثر اللعنات باسم ورد مُتَوَعِّدًا إياها بموت
بيء من بعد تشويه، يبحث عنها يوميًا في الشوارع والأزقة ويسأل
ها أصحاب بيوت الفواحش «الرسمية والسرية» ثم يترك عنوانه في
لحظة إذا ما صادفها أحدهم، أمّا بنبة فتأثرت بما أصابها من تلميذتها
سقراء المارقة، تصرخ في لبواتها ليفرجن سيقانهن ويزين استجلابًا
رزق، ودّعت عبد القادر بحرارة حين قرر الرحيل قبل أن تدس في
به خمسة جُنيّات ولقافة كوكابين تكفيه أيامًا.

زار عبد القادر حبيته مُتَخَفِيًا فاطمان على أمه وإخوته وملاً حَقِيبة
بسه ثم غادر، سَكَنَ قُبُو الخُمُور واستجلب من ميشيل صاحب
مقهى مرتبة تقيه جفاف أخشاب الأرضية، ينام فوق آلة الطباعة
بدفونة مُحْتَضِنًا زجاجة كونيّاك، مُريدو المكان والعاملون عرفوه
بد القادر القبضايا، حامي المكان من الشغب، يقوم صباحًا ليجلس
نام المقهى قبل أن يؤمّن وصول أعضاء الحركة إلى القبو بسلام
لّا من ميشيل الذي لا تفارقه عيون الزبائن، بات اصطكاك الكئوس
ميميًا، همهمات الزبائن وصوت محمد عبد الوهاب بأغانيه الجديدة
مبيه بنشوة حلقات الذكر، سُكُونٌ غريب يجتاح كيانه ويخدر خلاياه،

قل استهلاكه للكوكايين لضعف موارده فاكتفى بالخمور، وانفتحت شهيته على الطعام مرة أخرى، حتى صَوَّت المَطْبعة المزعج رغم رتابته بات مُريحًا لأعصابه، والسبب.. دولت.

ما الذي فعلته مُختلفًا عَن بقية النساء اللاتي عَرَفهن فسَحَرهنَّ فذاقهن ثم ألقاهن؟ كيف جَذَبته تلك الصَّعيدية الخَمْرية؟ الغاضبة العابسة النافرة منه المتحاشية حتَّى النظر في وجهه، أي راهبة هي؟ أي مُكبِّرة؟ يَسأل نفسه طوال اليوم فيُثار غضبًا ويقطب وجهه ويوشك أن يشتبك مع أحد الزبائن حتَّى تحضر فتبَدُّ الغضب كدخان في الهواء، ويبقى وجهها، عيناها العسليتان الواضعتان، وشفتاها، وإسحاق القبطي، أيرمه بشك وإحباط حتَّى يتنهوا من طباعة المَنشورات وترتيب حَرَكَات التوزيع والتأمين، قبل أن تبدِّل مَلابسها لتخرج واحدة من ربيبات البيوت، كيف تفعلها؟ كيف تتحول فجأة من الوحشية إلى سحر الأنوثة؟ كيف تُطفئ لكننتها الصَّعيدية وتشغلها كأنها تنزل مفتاحًا في لوحة كهرباء وترفعه؟ الهيم المُعطَّشة تصير جيمًا والياء الممدودة تقصُر مثل حبرتها التي تتحول إلى فستان!!

أضتته الأسئلة وأرهمته فتسلل وراءها مُراقبًا، سَحبه كعُبتها إلى الشوارع المزدهجة، انتظر الحبيب أن يظهر أو دخولها للمقهى ليلى تعمل فيه راقصة، لكنها ما لبثت أن فاجأته واختفت من عينيه وسط الجموع، هَاج وهاج وبحث بين الواقفين ساعة فلم يجدها، كالولح في الماء ذابت، تقهقر مهزومًا لتأتي في اليوم التالي إلى مقهى ريش وأول ما فعلته حين خرجت من المقهى أن اقترت ورمفته بتحد:

- ليه مشيت ورايا إمبراح؟

حكَّ عبد القادر مؤخرة رأسه ثم أجاب: صدفة.. كُنت... رابع
مب سجاير.

- من فضلك ما تراقبنيش ثاني.

- أنا ما راقبتكيش.

تركته فلاحقها: وانت كنت رابحة فين؟

- خليك في خالك.

- تسمحي لي أوصلك؟

- شكرًا.

- النهاردة حصل ضرب نار قريب.. خيليني أوصلك لأقرب
سكّة.. ما تحضرنا يا عم إسحاق؟ عم إسحاق؟ النبي ما تعمل
نفسك ميت.

نظرت دولت لإسحاق فهزَّ رأسه موافقًا.

- خليه يوصلك يا بنتي عشان الشوارع هايجة.

مشيا في صمت لدقيقتين قبل أن يُخرج عبد القادر من جيب سترته
رة فوتوغرافية صغيرة يقف فيها مسكًا برشاش ضخم أمام سيارة.

- شفتي الصورة دي؟

نظرت فيها دولت ثم أشاحت بوجهها.

- أوتومبيلي ده.. كروسلي موديل سنة أربعناشر.. آخر إنتاج الشركة
قبل الحرب.. جفته من ظابط ما قعدش معاه سنة.. بريمو.. والله
كنت بجيب ييه ستين كيلو في الساعة.. وده رشاش كان معايا
برضه.. «مادسن» ألماني.

نظرت إليه نظرة جعلته يدفن الصورة بين أصابعه.. ساد الصمت
قبل أن يُردف: أنا كنت ماشي وراكي لمبارح.
- عارفة.

- ليه بتصدّي؟

...

- عليك تار في بلدكم؟

...

- مش إحنا في مركب واحد؟ المفروض...

قاطعته: المفروض تسمع الكلام وتعمل زي ما أحمد أفندي قال..
نشوف شغلنا وبس.

- لا حول ولا قوّة إلا بالله.. هو أنا بترازل لا سمح الله.. ده أنا
بوصّل الود بس.. وبعدين ده أنا أصولي من الصعيّد برضه..
ليامرات عم من أسوط.. من.. من نجع حمّادي.

- نجع حمّادي في قنا!

- أيوة قنا صح.. شُفتي بقّة؟ بلديات.

توقفت فجأة فتوقف: أنت علوز إيه؟

- عاوز أعرف إزاي مزميزيل زي البدر في تمامه كده ما اتجوزتش
لحد دلوقت؟

- أنا مخطوبة لابن عمي.

وقف عبد القادر ولم تقف: ابن عمك؟

أكملت مشيها فأفاق من المفاجأة وأدركها: وأنت.. بتحبينه؟

...

- طب هو عارف أنت بتعملي إيه في مصر؟

- ده شيء ما يخصكش.. ولا يخصه.

- تبقي مش بتحبينه.

!!!...

حدجته باستنكار قبل أن تتركه وتعبّر الشارع، عبر وراءها متفاديا
لمورا أوقفته وصعدت سلّمه فقفز بجانبها.

- اطلع يا أسطى ع الضاهر.

استدركه عبد القادر: اطلع يا أسطى ع الكورنيش.

ألقاها للعربجي فرمقته بغضب.. أردف:

- ابن عمك ده تلافيك مخطوبة له من وأنتي في اللفة.. فهريتي

من البلد على مصر عشان ما تتجوزيش.. أصل الست اللي تعمل

اللي بتعمله ده حاجة من اتنين.. يا عانس.. يا بتهرب من حاجة.

- لو سمحت يا أسطى على جنب!

- لف بينا يا أسطى شوية.. صبرك بالله.. أنا لازم أقول لك كل
اللي في بالي.. أنا مش عارف أنتِ عملتي لي إيه! أنتِ غير أي
مزمزيل شفتها في حياتي.. أنتِ مملكة...

- شايف الشاويش اللي هناك ده؟ والمعبود لو ما نزلتش
حالاً هاندعه.

لمس عبد القادر في عينيها جذية وتهوراً فوقف على الحنطور:
- ماشي يا بيت الناس.. بشوقك.

ثم قفز.. استقر على الأرض فرفع صوته حتى تسمعه:

- بس على فكرة بقي أنا عاجبك.. باعرف نفسي لما بشاغل البال.

لم تعقب ولم تنظر وراءها.. هزت رأسها في استنكار ومضى بها
الحنطور قبل أن تلاحظ الصورة التي وقعت منه.. أو ربما تركها عمداً
ليهرها.. صورته مع سيارته والرشاش.. التقطتها من كنية الحنطور
وتأملتها قبل أن تدسها في حقيبتها الصغيرة.



فيلا عبد الرحيم باشا صبري.. الجيزة

على غير العادة وفي غير وقته عاد الباشا من المحافظة، نزل من سيارته يحمل في وجهه بُسرى وتوترًا عجلاً خطواته، حيًا العاملين والخدم دون أن ينظر في وجوههم وصعد السلم العالي بسرعة لا تتفق مع سنّه، دلف إلى غرفة نازلي فأشار للخادمة المعجوز أن تتركهما قبل أن يحتضنها حُضنًا طويلًا كأنه لم يرها منذ سنة.

- فيه إيه يا بابي؟

- كل الخير يا حبيبتى.. اقعدى.

أغلق الباب بإحكام ثم جرّ كرسيًا وجلس قبالتها.

- أنت تمام؟

- تمام يا بابي!

- مبسوطة؟

- مبسوطة! فيه إيه؟

- كان نفسي تكون توفيقه عايشة عشان تحضر اللحظة دي.

- الله يرحمها مامي.. بابي فيه إيه أنا قلقك؟

- عاوزك تتمالكي نفسك كويس وتسمعيني بهدوء ومش عاوز أي رد فعل على الكلام اللي هاقوله ده.. ده غير إن ما ينفعش حد يعرف من الخدم.. ولا حتى الدادا.

حفرت علامات القلق وجهها: حاضر.. فيه إيه؟

- السلطان.

- ماله؟!!

- طلب إيدك.

مادت الغرفة بها للحظات فارتعشت أطرافها واجتاح جسدها عرق بارد فقامت لإيرادياً.. مشت إلى النافذة حين أردف أبوها:

- مدام جرهام حرم مستشار الداخلية زارتني في المحافظة.. وفانحتني في الموضوع.. عارفة ده معناه إيه؟

التفتت إليه ولم تسأل فبدأ يخط بسابته بروازاً في الهواء:

- نازلي عبد الرحيم صبري.. حرم عظمة السلطان.. سلطنة مصر.

لم تسمع الكلمة الأخيرة.. قرأتها بين شفتي والدها قبل أن تخفت التفاصيل وتتشرب البرودة في أطرافها ثم تعيد الغرفة فتختفي بفتة...

بعد ربع ساعة أفاقت.. رأت وجوه والدها والطبيب ومربيها العجوز.. التقطت أذناها «الحمد لله.. مُشكر يا حضرة الحكيم.. حضري لها الغدا يا دادا».. ثم خرج الجميع ولم يبق إلا والدها.. أغلق الباب وعاد إليها مُكملاً ما بدأ قبل أن تغيب عن الوعي.. استندت بصعوبة إلى مخدتها ورمقته في بهتان.

- عارف إن الخبر مش سهل.

- المفروض إن ليا اختيار؟

تأمل وجهها الباهت للحظات ثم مسح جبهتها بحنان قبل أن
يها: نتناقش يا نانا.

- إשמعني أنا من دون البنات؟

- مفيش حاجة اسمها إשמعني.. كل شيء مكتوب.. وبعدين
السُّلطان هيلقي مين أحسن من نازلي؟

- يشوف قريبة من قريباته يهدلها.

- إيه الكلام ده!!

- يا يي أنت نامي عمل إيه في الأميرة شويكار؟ ضربها ويهدلها لغاية
ما أخوها ضربه بالرصاص في كلوب محمد علي.. الرصاص
لغاية دلوقت في رقبتة وصوته يشع.

- شويكار دي مجنونة.. سيرتها معروفة في الخبل.. تسبب بيتها من
غير إذنه وتبعث له رسائل تطلب منه الصفع.. وأخوها مجنون
رسمي ويتعالج في مصحة في لندن.

- وقمرتي ومديون.

- الراحل ما يعيوش يلعب قمار.. سعد زغلول يلعب قمار.

- دي بنته فوقية تقريبًا قدي!

- نانا يا حبيبي.. إحنا بتكلم عن رجل غير عادي.. السن هنا
مالوش معنى.. أنت مُدركة يعني إيه تكوني مرات سُلطان؟ يعني

الدنيا كلها تصبح ملكك.. مصر فيها ثلاثاشر مليون بني آدم..
مليون ونصف عامل.. ميت ألف إخصائي.. عشر تلاف حكيم..
خمسين عالم.. ثمن وزراء.. سلطان واحد.

شُل تفكيرها وذُهِلت عيناها.. ضُربَت قلبها باتت مَسْموعة تطرق
أذنيها بدويٍّ مؤلم.. نهيجها يتزايد والندى البارد ينشع من مؤخرة
رأسها وجبينها.. تنظر لوالدها فتراه مُلامًا معلقًا عليه شارب أبيض فوقه
طربوش.. لا تميّزه أو تفهمه.. رُوح انفصلت عن جسدها.. عقل فقد
رُشده.. تُباغتها عينا أحمد ونظراته إليها وهما يرقصان.. ابتسامة شفتيه
وهو ينطق كلمة «بحبك».. النسوة التي اجتاحتها.. القُبلة الساحرة
التي اختلساها في الحديقة الخلفية للقصر.. الوعد... قبل أن تُداهمها
اللحظة التي عبر فيها السلطان.. بينهما.

- نانا.. أنت عارفة أنت غالية عندي قد إيه؟ أنت اللي فاضلة لي من
الدنيا أنت وشريف أخوك.

صَارَعَت رغبة مَحْمومة في الصراخ منادية اسم أحمد.. دَفَنَ نفسها
في حُضنه والبكاء.. التفتت لأبيها:

- أنا مش محتاجة الجواز دي!

- ليه تحرمي نفسك من شرف لا تتخليه؟

- مش محتاجاه.

- مش محتاجة تكوني علامة في التاريخ؟

- مدام جرهاام وعدت حضرتك بالوزارة؟

بأغته سؤالها رغم توقُّعه.. ابتسم بعصية مكتومة وجز أسنانه ثم
قام.. تمَّ على طربوشه واتَّجه إلى الباب قبل أن يلتفت إليها:

- بُكرة مدام جرحام منتظر الدُّع الفطار في فيلَّتْها.. العربية هاتكون
جاهزة الساعة ثمانية تمام.. ما تتأخريش.

قالها ورحل، تماكنت نفسها فقامت إلى التليفون، رَفعت السَّاعة
وأدارت القرص، طلبت من السُّترال تحويلها بمقهى متاتيا، تلَّفت
فَصَجَّح رَقع أقراص الطَّاولَة وصباح النُّدُل بالطلبات ثم صوتًا غليظًا:
قهوة متاتيا.. أفندم... أفندم...

- من فضلك ممكن توصِّلني بأحمد أفندي كيرة.

- لحظة يا مزميل.

سمعت صَوْت الرجل يُنادي أحمد قبل أن تسمع صوته: آلو.. آلو.
أغمضت عينيها وتهدَّج نفسها فأغلقت الخط وارتمت على
سريرها، مدَّت يدها وسحبت من تحت الوسادة كتابًا بين إحدى
صفحاته تذكُّرة دخول لمسرحية «قولوا له».. نظرت في ظهرها فقرأت
كلمات كتبها بخطِّها:

«أحلى يوم في حياتي».



حديقة الأزبكية

اقترب النادل المعجوز في زيّه القرمزي من المقعد المجاور للكوبري الخشبي الذي يعلو البحيرة المغطاة بأوراق الزنبق الدائرية.. جلس أحمد وعبد الرحمن فهمي يستقبلان أشعة الشمس في صمت.. وضع النادل كؤوبي شاي ورحل قبل أن يتكلم الأخير:

- أوروبا كلها تقريباً أبدت الحماية على مصر.. آخرهم ألمانيا..
وقنصليات الدول رافضة بضغط من الإنجليز تجدد التأشيرات
للوفد عشان يسافر لعرض القضية.

- الوفد كده اتنفى بالفعل!

- المشكلة أكبر من كده بكثير.

التقط عبد الرحمن فهمي حقيبته الجلدية الموضوععة بين ساقيه..
فتح قفلها وأخرج رسالة ناولها لأحمد:

- عضو من أعضاء الوفد في باريس بعث الرسالة دي.

قرأها أحمد بعينيه.

«مُند وُمولنا وُجدنا جميع الأبواب مُوصدة في وجوهنا، كل
الجهود والتساهي لم تؤد إلى نتيجة».

زفر عبد الرحمن: فيه تشقق.. جبهة مُعارضة ضد سعد باشا شايفة أنه لا يصلح.. مش عاجبهم تمسُّكه بالاستقلال الكامل.. شايفين إن مُمكن توافق على استقلال مُنقوص أو نقدم تنازلات.

- والأفراد دول مؤثرين؟

- بشكل كبير.

- ويعرفوا عن المراسلات الخاصة مع سعد باشا؟

- طبعًا لا.. لكن شاكين فيه.. يراقبوا رسايله العادية ويفتحوها.. وأكثر من مرة نوهوا بالكلام.

- لازم تغير نمط الإرسال كل فترة.

- طبعًا.. وعلى الصعيد المصري أديك شايف.. السلطان والإنجليز هدفهم الأساسى تهميش الوفد وسحب المفاوضات من إيده لصالح الأمراء عشان ينالوا رضا الشعب.. كمان الوزارة الجديدة اللي بتتشكل هاتعطل القضية كتير.. الكلاب شالوا الرجل المحترم اللي كان بيساند الوفد وحطوا بداله أسماء عندها استعداد تبيع البلد عشان بس يكونوا وزراء.. هانحتاج ضربات تحت الحزام.. ضربات مش عادية.. مش بمستوى ظابط أو مسئول بريد زي ما حصل قبل كده.

- وزرا؟

هز الرجل رأسه إيجابًا ثم سأل: إيه إمكانية تنفيذ ده؟

- المُعدات موجودة.. اتصالات.. مُراقبات أكثر.. وشخص جريء ينفذ.. شخص عارف كويس إن احتمال هروبه ما يتعداش خمسة في المية.. قلب ميت.

- فُكِّرْ وَرُدَّ عَلَيَّا.

- وهو كذلك.

هَمَّ أَحْمَدُ بِالْقِيَامِ حِينَ اسْتَدْرَكَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَهَمِي.

- نَازِلِي إِزِّيْهَا؟

التفت أحمد قبل أن تتسلل لشفتيه ابتسامة لإرادة أجلسه ثانية:
أنا متراقب؟

- إطلاقاً.. نازلي هي اللي متراقبة.

- متراقبة؟

- أنت صارف إنها مصرية في بيت سعد باشا.. وصفيّة هانم تكاد
تكون والدتها.. هو كمان وصاني عليها قبل النفي.

- منطقي.

- بتحبها؟

سكت أحمد لحظات.. يستوعب المخرق الذي حدث في رأسه
وتعزّت فيه الأفكار.. قبل أن يكشف ورقه دفعة واحدة:

- بحبها.

- وبَعْدِين؟

- هانتجوز!

- إزاي؟

- زي الناس.. أول ما البلد تستقر هاكلم والدها بشكل رسمي.
- نازلي ما تنفعكش يا أحمد.
- قالها الرجل بدون أن يلتفت، كأنه يلقي بعقب سيجارة إلى الأرض
بإهمال.. أردف أحمد:
- حضرتك ليه بتقول كده؟
- بلدنا طبقات.. صناعة احتلالات.. مش سهل المزج بين طبقتك
وطبقة... مش بتاعتك.
- حضرتك تقصد طبقة أعلى.
- ما تخذش الموضوع بشكل شخصي.
- مع احترامي لكلام حضرتك أنا بحب نازلي.. ونازلي بتحبي..
ثم إني بشتغل في مدرسة الطب و...
- وبتصنع متفجرات وبتشتغل في المقاومة.
- البنت الغنية والولد الفقير.. المسرحيات الخيالية.
- سعد باشا اتجوز صفيّة هانم وهو أفوكاتو.
- نازلي وضع مختلف.
- هز أحمد رأسه وهمّ بالقيام: عموماً أشكر حضرتك على النصيحة..
بعد إذنك.
- السلطان طلب إيد نازلي يا أحمد.

الكلمات أصابت مؤخرة رأسه فتوقف والتفت: السلطان مين؟!

- السلطان اللي ساكن قصر عابدين.

نجح الخبر في إفقاده التوازن: الكلام ده مش صحيح.

- إمتى آخر مرة شفتها؟

أجاب بشروء: في حفلة البارون.. من ثلاث أيام.

- كلمتها بعدها؟

- اتكلمت في التليفون.. لكن.. ما بتردش!

ساد الصمت لحظات ثقيلة قبل أن يقطعها عبد الرحمن: أحمد..

أنا مش عاوزك تتلذي.

.. بعد إذنك.

تركه ورحل.. أغمض عبد الرحمن عينيه ألما ثم زفر وهو يشعل

عود ثياب أحرق به رسالة الوفد متابعاً نارها التي تشبه كثيراً ناراً
أضر بها منذ قليل.

في قلب أحمد.



بار «كافيه إچيبسيان».. شارع وش البركة.. الأريكة

وقفت السيدة بديعة في مُتصف المسرح بفستان أسود متألّج، بدون كورسيه يقوم خصراً أو سوتيان يرسم صدراً عصامي الاستدارة، تضرب أصابعها الصّاجات النحاسية ببراعة عجيبة متزامنة مع إيقاع التخت الموسيقي ومن حولها ثمانى راقصات في بدلات ملوّنة مُبهرة يتفصعن في استعراض طالما خلب العقول وتحاكت به أخبار الفن «الشارلستون».. انتهت المُقدمة الموسيقية حين توسّطت المسرح قبل أن يصدح صوّتها:

«يا حبيبي ونور عيني.. ده بعاذك يضمنيني.. يا خفافتك
يا لطافتك.. أنا أبوسك من خدك».

تمايلت الصّالة مع غنائها ودلال راقصاتها ففرشت المِزات على المناضد وفتحت الزجاجات فاصطكت الكئوس ودارت الغنيات بين أيدي المُريدين، في منتصف الرقصة نزلت الدرك ورد، بدت مُختلفة كثيراً، شعرٌ أسود فاحم وفستان جديد وجِذاء كانت قد غادرت الكنيسة بعد أن وعدت القس بالذهاب للجمعية الخيرية الأرمنية لتلقي الإعانة والتطوع للخدمة الربانية نظير الطعام، حين وصلت الجمعية شاهدت طوابير طالبي القوت والمحتاجين من عشيرتها يتكالبون

على الأغطية والأدوية، وقفت لساعة تتابعهم قبل أن تعدل عن قرارها، رَهِنت سَاعة عبد القادر التي تلقتها منه فوق سَلَم بِنَة واشترت بَشمِها وَجبة تَقِيم أودها وفستائنا، وصِبغة سوداء أَطفأت وَهَج شَعرها قبل أن تتجه إلى الأَرَبكية مُتَخفية في الخُصَلات الداكنة، طلبت من الحارس مُقابِلة السَيِّدة بديعة مدعية أَنها قَريبة من لَبنان، نزلت السَلَم وراءه مُلتَصِفة بالجدار، عَيناها تَأْكُلان بديعة وفَرقتَها أَكْلاً، تركها الحارس في الكواليس فوق كُرسي تَتَظَير النَجمة أَن تُنهي فِقرتها حَتَّى خَبت الموسيقى، لَحَظات ومَرَّت بِجانِبِها، المُعْجِبون يَحفَونها مُقبِلين يَدِها والرائِصات يَسِرْنَ في ذيلِها، تَبعت الموكِب بِأعْجاب حَتَّى دَخَلت غَرفتها قبل أَن يَشير لَها الحارس أَن تَتَقَدَّم لِتجد وَرد نَفسها في حَضرَة مَلِكَة الرَقص الشَرقِي.

الغرفة كانت متوسطة، مُنخمة بالزهور، الحوائِظ مَكسُوة بِصور أَحجامها مُختلفة لِلنَجمة وفي المَتَصف مِرآة مُحاطة بِاللَمبات الكَهرَبائية تَعمِص وَجَهِ بديعة التي أَمسَكت بِشَاش مَغموس في زَيت الزَيتون لِتَزيل بِه أَثار العَرق والزينة رافعة ساقِها لِخادِمة تَخْلَع عَنها جُورِب شَبك طَويلاً يَصل لِلمَخدِين.

- يا هَلا حَبِيبَتِي.. شَو اسْمُكَ؟

أَسَدَلت وَرد خُصَلَة دَاكِنَة فوق العَين الباقِي فيَها أَثر وَرَم وأَحاظت مَرفَها بِيدِها وهي تَرمَق انعِكَاس بديعة في المِرآة:

- وَرد.

- مِن وَين مِن لَبنان يا وَرد؟

- بصراحة أنا مش من لبنان.. أنا من سوريا.
- ... أبضاي الصالة قال إنك من لبنان!!
- عشان أشوفك اضطررت أقول هيك.
- التفتت بديعة وتأملتها للحظات قبل أن تسألها: من وين من سوريا؟
- ماردين. —
- اقتحم الألم وجه بديعة: أكيد خضرتي مذبحة الترك.
- كان عمري ثلاثاش سنة.. عيليتنا كلهم ماتوا.. وأبي وأمي ماتوا هنا بالمرض الإسبنولي.
- يا قلبي! اقعدني يا شاطرة.. هيدا مقدر ومكتوب.
- جلست ورد فأشارت بديعة إلى إبريق ليمون فصببت الخادمة كوباً لته لورد.
- أقدر أساعدك إزاي يا ورد؟
- بدني شغل.
- بتعرفي رقص تركي؟ إسبنولي؟ عجمي؟ لبناني؟
- برقص عال.. ويتعلم بسرعة.. وبغني كمان.
- بتغني لمين؟
- لحضرتك وللشيخ سلامة حجازي وللشيخ سيد درويش.
- تعرفي تغني إيه لسيد درويش؟ سمعيني صوتك.

تذبذب صوتها فمسحت على شعرها بحركة لا إرادية قبل أن
تستعيد نفسها محاولة منع الدموع من الانفلات، ثباتها اليوم سيحدد
ملايح مستقبلها، هكذا قالت لنفسها وهكذا خرجت كلماتها:
الحبيب للهجر مايل.. والفؤاد ميال إليه.. من جفاه الدمع
سائل.. يا ناس قولولي لعمل ايه.

قاطعتها بديعة بابتسامة: صوتك حلو ووشك سميتك كثير.. بييجي
منك.. ساكنة فين؟

- ... ماليش مكان.

تأملت الكدمات في وجهها: أنت هربانة من حاجة يا ورد؟
- قصّة طويلة.

- سمعيني؟

تملكها الصمت وطأطأت رأسها فصرفت بديعة خادمتها بإشارة من
يدها والتفتت: لو ما عرفت قصتك مش هاعرف أشغلك معايا.

بعد لحظات من الصمت والهرب من عيني بديعة حكيت ورد..
فاضت كنهر هشم سدّه.. أبكتها التفاصيل وهزت بديعة التي تأملتها
بشبات.. تُحقّق في الكلمات وتستفسر حتى انتهت وخمدت.. راح لونها
ونهج صدرها وتبلبل جبينها عرفاً.. اقتربت منها بديعة فقامت.. رفعت
خصلة ورد وتأملت الورم في عينيها ورعشة أصابعها اللاإرادية.. تقاوم
الخجل والحاجة إلى الأفيون:

- كثير فاسيني على سنك.. وكثير محتاجة وقت عشان تقومي
على حيلك.

فأملتها ورد في ترُقُب.. تتنظر منها كلمة تحيها.

- هاتباتي في كافيهِ إچيسيان مع البنات لحد ما تأجري مكان.. ولما تتعافي وتصيري بصحتك نتكلم.

- الله يخليكي يا ست بديعة ويعلي شأنك كمان وكمان.

- على شرط.

- لو عرفت إنك اتعاطيتي أفبون ثاني رح تمشي.. وما راح توريني وشك هدا بمصر كلها.

- حاضر.

- وشرط كمان.. اسمك لازم تغيريه لجبل لا يتابعك ها الزفت سلامة.. اسمك من اليوم... «لينا».

هزّت ورد رأسها ولم تعقّب فابتسمت بديعة وفتحت الباب ونادت..
نلات وأتاها الحارس.

- لينا بنت أختي.. رح تبات هنا من اليوم ورايح.. لا تخرج إلا بإذني.. لا حدا يقابلها إلا بإذني.. مفهوم؟

- مفهوم يا ست الكل.

ابتسمت ورد ففاضت عيناها.. ربت بديعة على كتفها وسلّمتها
إرس الذي صاحبها لـتخرج قبل أن يخلق الباب من ورائه.

قضت ورد ليلتها في غرفة مع ثلاث فتيات ترعاهن السيدة بديعة
مة صدر حُرُفت بها مع المحتاجين وخاصة من أبناء جلدتها
ماميات، حيثهن بصمت ثم تكسورت على سرير متواضع كجنين

نُبذ، قاومت بصعوبة نوبة احتياج للأفيون نهشت خلاياها ببطء، مائة ألف نملة تحتك ببعضها تحت جلدها وومضات مُختلطة من ذكريات زبائن بيت بنية، أنفاس وأجساد وطأتها ولا تزال تفعل، طاردها بين الحلم والواقع في هذيان كريح استنزفها واعتصرها حتى عضت بفكيها الملاءة، داوتها الفتيات بكدمات باردة حتى خمدت بعد أن استولى عليها الضعف والإنهاك، غابت في ثبات لا يخلو من ارتعاش وارتعاد وكلمات مبهمة وصريخ مَحْموم.



نفس اليوم.. وسط البلد.. كافيه «ريش»

هي.. كغادتها عَابسة.. مَحْمومة الروح والجسد لم يفلح الشتاء في تبديد الحرارة عنها.. في قَمَّة تركيزها لا ترفع عَيْنِهَا عَمَّا تفعله يَدَاهَا.. تَجَمَّع الحُرُوف البَّارِزة لتصنع بين أصابعها مَنشورًا سياسيًا يُحرِّك القلوب.

هو . كغادته لا يرفع عينيه عنها.. بغضب بتملكه كلما تذكر النسوة اللاتي سبَّاهن وسلسلهن بين ضلوعه.. ومخالبه التي تكسَّرت واحدًا واحدًا على صخرة رفضها.. يتحرَّق شوقًا كي تصير في حوزته.. تدخل حریمه ليفقد الاهتمام بها.. يشمل النار في فستانها ولا يعود في حاجة لكسب ودّها.. مُمارسًا نذالة تُريحه من شغف زاد عن حدّه وطفح.. تصرخ نفسه: «ما الذي يُسمرني فيها فكُلُّهن ممنعن قبل السقوط بين حبالتي.. لم لم تسقط؟».

هي.. تشعر به.. يُحيطها من كل جانب ويُحاصر حتى كُحل عينيها..
فترق البرقع وينفذ إلى شفثيها.. يتنفس فيهما ويبت جنونه وشغفه..
هدجه بحدّة لِيبتعد.. تزرجه مثلما تزر جر طفلاً سخيّاً ليكف عن
قَبْث.. صدمتها في ياسين لم تزل تشطر رأسها نصفين وحال البلد
يلذي تعشقه وتخاف لحظة الرجوع إليه يورقها.. بجانب هم إثبات
سها أمام صَفِيّة زغلول ومن ورائها أحمد وعم إسحاق.

أحجار ثقيلة معلقة في رقبتها

ليس من عادته أن تُغيّر نثاية (أنسى بلغته) من عاداته.. ابتعاده عن
كوكايسن لم يكن لضيق حال قدر ما كان مُوازياً لفتوتها التي أراد أن
جاريها.. يُقاوم الاحتياج المُلح للبودرة البيضاء ليصير كاملاً أمامها
لما هي كاملة أمامه.. يكاد يشعل النار في عم إسحاق ليُعرف سبب
ورها منه.. لم تُجد مُراقبته لها شيئاً.. كتومة لا تحمل عيناها أي بوادر
شغال.. مغرورة؟!

ليس من عادتها أن تستشعر العشق بتلك الطريقة الجريئة الفجّة..
بشق الصّعيد صمت وتقاليد تُتبع وقداسة حتى الزواج.. من بعد ابن
م رُبِطت إليه شفويّاً منذ بين الثالثة عشرة كان عليها أن تعيش كراهية..
لا دير.. زهرة تفتتح على استحياء فتلملم أوراقها وتحبس أريجها..
سطع عليها الشمس في القاهرة وتُروى جذورها في قريتها بالصّعيد
سط غيظان البرسيم.. نشاطها السياسي في القاهرة مُقاومة.. وفي
صّعيد عار وسفور.. كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لا تناسب ابن
مها.. كما كانت تعرف أن ارتباطها به موت مُؤجل لا فيكاك منه.. لكنها
م تكن تعرف أن العشق يتسلل مثل الوباء.. وأنه لا تجدي مُقاومته لأنه

لا يرى.. هو عبودية تُرتجى.. وقطار لا يتوقف في محطات إلا ليستزيد من الفحم فيستعر.

كانت العادة بالنسبة إليه أن لا يستغرق الأمر أيامًا معدودات.. لكن الخيوط تلك المرة تتعقد وتتشابك.. تلتف حول رقبتة.. تلجمه.. تشنقه ببطء.. هو لا يُحب.. فالحب وهم لا وجود له.. المجد للجسد الذي يغلي ويَفور ثم تتطفئ جذوته «مؤقتًا» لتخبو معه أعتى حالات العشق.. الجنس هو المحرك دائمًا.. زيارة لبننة مستفي بالغرض.. مستجعلي أكثر مقاومة.. ظننت ذلك ولم أكن أعرف أن تلك الزيارة ستؤكد حقيقة مرضي بدولت.. كم أود أن تسسلم.. أن تقترب.. وكـم أود أن أطلق النار على عم إسحاق فقط لأتخلص من هم نظراته ناحيتي.

صارت الساعات التي تقضيها دولت في القبو السري لقهوة «ريش» هي الحياة بالنسبة لعبد القادر، لم يزد الصد والمنع والإعراض منها إلا عنادًا ورغبةً محمومة تستعر فيه يومًا بعد يوم، نار لم تعد تطفئها أجساد عاهراته، نار أحرقت ما غات وما سيأتي، لم يردعه فضح أمره ولا اللمزات أو الزجر الخفي، حتى كلمات عم إسحاق ضرب بها عُرُض الحائط.

ثم أتى يوم سار فيه وراهها، شعرت به ولم تعره انتباهًا، اقترب وناذى اسمها فلم تجبه، مدَّ يده ليلا مس مرفقها فالتفت إليه وصفت وجهه.. بتضرعيني بما دولت!! ظلت يده فوق موضع الصفحة للحظات قبل أن ينفجر في الجمع المتفرج بصرخة أرجعتهم إلى خطوط سيرهم، منذ تلك اللحظة انقطع عن الجلوس في محراب دولت، صار كل عمله

أن يراها قادمة، يتجاهلها، ويلمحها تخرج فيشيخ برأسه في اتجاه آخر حتى تمر، بقلب مُحترق، وكرامة لم ترجع إلى مكانها، حتى فتيت بنبة لم يستطعن سد الجرح أو تلطيفه، بل طال الأمد به بين الزيارة والزيارة وزهد كما العاجز، قبل أن ينقطع.

وللمغربة فقد اضطربت دولت هي الأخرى، لم تعد الوائفة الجامدة، باتت تنظر للكرسي الصغير الذي طالما اتكأ عبد القادر على ظهره ليتمعن فيها، تجده فارغاً فتزداد اختناقاً على اختناق، منه، ومن نفسها حين صفعته، ثم تدس وجهها فيما تفعله عائدة إلى رداء الراهبة التي طالما لعبته ببراعة.. ولم تحبه يوماً.



ايمنى ميزاج



فيلا عبد الرحيم باشا صبري.. الجيزة

في الشُرقة فَكَّتْ صَفِيَّةُ الحِجَابِ لتستجدي نسمة تُخَفِّفَ مَوْجَةَ حَارَةٍ
ممتدَّة منذ أيام، ارتشفت فنجان شاي منقوشًا بالورود وهي تتأمل نازلي
الواقفة بجانبها، شبحًا شفافًا لا لون فيه، ذهبَت نضارتها وابتناسمتها ولم
يبق فيها إلا الجحوظ والشرود، شهيق متوتر وزفير، ولا صوت يعلو
فوق نبضات قلب متوتر نطن في الأذان.

- إيه اللي حصل عند الزّفتة جرهام؟

- رُحِت لها السراية.. كانت عاملة فطار في الجنيّة وبعدين قُمنّا
اتمشينا.. دردِشِت معَايا عن زيارات أوروبا وأمريكا وعن الموضة
الجديدة.. بعد شوية نادتها الكماريرة فاستأذِنَتْ.. تخيلي حصل
إيه؟ شفته.

- السلطان؟

- كان واقف جوا القصر ورا برافان.. مش باين منه إلا عينيه..
بيراقبني.. دقيقة ما اتحرّكش.. حسّيت أنه بياكلني بعينه.. أول
مرة أحس الإحساس ده.. أكني أتعريت.. وشّسي نعل وعِرقْت..
رحت قايمة من مكاني.

- وبعدين؟

- رجعت.. قالت إنه جه بالصدفة.. زيارة.. طبعًا مش صُدفة.. عاوز يشوفني عن قرب.. وسأب لي هدية.

فتحت نازلي أصابعها عن بروش على هيئة فراشة مرصعة بالآلماس.. تأملت صَفِيَّة البروش ولم تلمسه.. أردفت نازلي:

- حاولت ما أقبلش.. مَدام جرهام قالت لسي دي إهانة للمعرش ومش إتيكيت.

- أنا مش متصورة إزّاي يفكر في الجواز والبلد بالحالة دي ا كمان دي أول مرة يفكّر حاكم من الأسرة يتجوز من الشعب!

- أنا مش موافقة.. وأعلى ما في خيله يركبه.

- فؤاد خيله عالي يا بنتي.. لكن برضه لو اطرقت السماغ الأرض يستحيل تتجوزي واحد بيخون البلد! ده سعد لو عرف.. يا الله.. أنت عارفة أنت بالنسبة له إيه.

- المُشكلة في بابي.. بريق المعرش صعب يترفض.. عينه على الوزارة.. أنا هانتحر لو أجبرني.

- إوعي يا نازلي.. إوعي.. فيه طرق كتير للتصرف يا بنتي.. الناس مش هاتسكت.. هاتكتب المنشورات في كل حنة.. هانقف ضده.. مش هايخذلك منّا.

غاصت نازلي في حُصن صَفِيَّة هربًا، أطلقت أنفاسًا حارة ودموعًا قبل أن تطوي السيارة حديقة القصر الدائرية وتتوقف لينزل منها والد نازلي.. نظر إلى الشرفة ثم صعد سلالم القصر مُسرّعًا.

- أكيد عرف إني هنا.. قالت صَفِيَّة.

- الخدم ينقلوا له كل حاجة.

- ما تخافيش.

- مَمْنُونَة يا مامي إِنَّكَ جيتي.. أنا عارفة إِنَّكَ صعب تسيبي البيت في الظروف دي.

- أنا أجبي لك في أي مكان وأي وقت يا حبيبتني.. ما بقاش فيه حاجة يتخاف عليها.

لحظات وسمعتا طرقات الباب.. انفضل يا بابي.. قالتها نازلي بعد أن مسح دموعها وارتدت صَفِيَّة الحجاب.. دخل الرجل وفي وجهه ابتسامة مُجبرة.. صَفِيَّة كانت الصديقة الأقرب لزوجته الراحلة.. لكنها لم تكن الأقرب إليه يومًا وخاصة بعد تمرد سعد السافر على الحياة السياسية الهادئة المستقرة.

- منورة يا صَفِيَّة هانم.. خطوة عزيزة.

- أهلاً يا باشا.

- قولي للدادا تحضر العشا يا نانا.

- لا ملوش لزوم أنا ماشية.

لم يزايد على جملتها الأخيرة.. لثمت نازلي في جبهتها وبشها الهمسات في أذنها ثم اقتربت من الباب قبل أن تثوقف وتواجه الرجل:
- توفيقه هانم الله يرحمها وكُلّنتي شأن نازلي قبل ما تموت زي ما حضرتك عارف.

- أنت والدتها يا صَفِيَّة هانم.

- ووالدتها بتقول نازلي محدش يجبرها على حاجة.

نظر لنازلي بابتسامة ثم رجع لَصَفِيَّة: خالص.. الأمر مافيهوش
أر.. مصلحة نازلي أهم حاجة عندنا كلنا.. ولأ إيه يا نانا؟

أردفت صَفِيَّة: ومصلحةها مش في القصر يا عبد الرحيم باشا.

- اللي فيه الخير يقدمه ربنا.. نورتي يا صَفِيَّة هانم.

لم ترد تحيته.. فقط أعطته ظهرها وخرجت.. ودَّعتها نازلي حتى
ية التي تنتظرها في الباحة الأمامية ثم رجعت لأبيها الذي وقف
بل صورة لها في برواز تجمعها بأמהا.. دَخَلت نازلي من الباب في
سب مكتوم ووقفت أمام والدها الذي ابتسم لها:

- اتعشيتي؟

- صَفِيَّة هانم نازلة زعلانة.

- أنا جعان جدًا.. تتعشي معايا؟

- حضرتك عارف إنها في مقام مامي.

- الله يرحمها.. هي اللي سمحت لها بالتدخل في حياتنا..
لغاية دلوقت.

- لو مامي عايشة كانت هايبقى ده رأيها برضه.

- ما أفكرش.

- مامي ماكانتش توافق أبدًا على صفقة.

- توفيقه كانت عاقلة.. ويتفكر.. ودي مش صفقة يا نانا.

- داكور بابي.. طالما مش صفقة أنا مش موافقة.

شبكت يديها أمام صدرها فجلس على مكتبها الصغير في صمت، أخرج غليوئا حشاه تبغاً ثم أشعله بولاعة مقلوبة، نفث دخانه وهو يتأمل تحديقها قبل أن تزحف عيناها إلى كتاب نأت من بين صفحاته أوراق ورده حمراء جافة، نظر في عيني نازلي للحظة فاختلجت قبل أن تمد يدها إلى الكتاب، لكنه كان أسرع، التقط الكتاب فتغير وجهها، بهتت، تلاحقت أنفاسها، رجع بظهره إلى الكرسي فجلست على طرف السرير بعينين جاحظتين، تأمل غلاف الكتاب المرسوم فيه بحيرة مُحاطة بالأشجار يسير على ضفافها شاب وفتاة.

- مجدولين.. الرواية دي قريتها وأنا في باريس سنة تسعين مثلاً.. ستيفن الخالم ومجدولين.. الضحية.. مشوقة.. بس نهاية مأساوية.. في الحقيقة كل القصص الناجحة نهايتها مأساوية.. روميو وجوليت.. عطيل وديمونة.. قيس وليلى.. يتعجب القراء لأن الحياة المستقرة بيعتبروها.. مُملة.

قلّب الصفحات في هدوء حتى توقف عند الوردة الحمراء الجافة.. رفع الكتاب إلى أنفه واشتم:

- الورد البلدي بيحتفظ بريحته فترة كبيرة.. دي لازم تذكاري

وضع الكتاب جانباً: من أحمد... كبيرة؟

بوجوم لم تعقب.. لم تتقن الكذب مرة فتوترت أطرافها.. رمقته
فأس محبوسة فسلك غليونه ثم أردف:

- ولد لطيف جدًا.. وسيم.. من يوم ما شفته معاكي في الحفلة
واسم عيلته ما راحت من بالي.. كبيرة.. اسم غريب.. فاكر إني
أكيد سمعته قبل كده.. لغاية ما قابلت نواه جيش.. صديق عمر..
دردشنا سوا وسألته بفضول إذا كان يفتكر الاسم ده.. وافتكراه
فعلاً.. تخيلي!

سكت ولم يكمل فاشتعلت قلعا.. تركها حتى خرج الدخان منها
حست: وبعدين؟

- الكذب يا نانا أكثر صفة تخوف.. الرجل ممكن يكون عينه زايفة..
قمرتي.. صاحب كاس.. لكن كداب! صعب.

نبضات قلبها باتت مدفعا رشا شاف ضفط جُندي زناده ونسي أن
فعه.. لما لمس الصدمة فيها والخرس متمكنا أكمل.

- طبعًا أنت ما توعيش على هوجة عرابي.. عبد الحي كبيرة والد
أحمد.. اللي قال إنه مات بمرض.. كان بكباشي في أورطة
عرابي.. واتقبض عليه معاه.. وأعدم.. رميًا بالرصاص.

تنلّي جبين نازلي.. ضمت يديها إلى صدرها كمن تعرّت في ميدان
يء بالبشر قبل أن تتمالك نفسها وتشن هجومًا يائسًا:

- يعني بطل؟

- بطل في أورطة عرابي اللي دخلت الإنجليز مصر.

- بايي !!! أنت محافظ في حكومة الإنجليز.

وسعد زغلول باشا برضه كان وزير في حكومة الإنجليز ورأيه إن
التعاون معاهم يساعد أهل البلد.. أفضل من العزلة لغاية ما يكون
لينا قوة نقدر بيها نقف قدامهم.

- رجالة عرابي ما كانوا خاينين.

- وتفتكري ليه أحمد ما قالش؟

ازدحمت الإجابات في حلقة ولم تخرج.

- مش ده بس اللي خباه أحمد.

!!...

- نفتكري محاولة اغتيال السلطان سنة ١٩١٥؟

هزت رأسها إيجاباً.

- المُنفذ الرئيسي اللي رَمَى القنبلة تحت عَرَبية السلطان أخذ حُكم
مؤبد.. كان ولد خُمري.. صُباعه الإبهام مقطوع أنا متذكر.. وكان
صديقنا العزيز أحمد كيرة مِن ضِمن المُشتبه فيهم لكن خرج لعدم
وجود دليل.. وزار صديقه في السجن خمس مرّات.

توقف قلبها للحظات وانسكبت دماؤها على السجادة.. وراء
سكون أحمد كانت تستشعر دوماً رائحة حياة سرية أقصى تنبؤاتها لم
تكن لتتعدى المُغامرات النسائية.

- شوفي يا نانا.. الشباب من سن عشرين إلى خمسة وثلاثين
بيكروا في قمة الخطورة.. طيش.. تجارب قليلة.. حُب البطولة

ضد كيانات أكبر منهم.. وطبعاً دي من الحاجات اللي بتجذب
الجنس اللطيف.. مش عيب.. كُلنا في يوم اتشاقينا.. وبعدين
كبرنا.. عِقلنا.. عرفنا إن الدم ما بيعركش قضية.. اللي بيعركها
الحوار.. التفاوض.. خاصة أننا بنواجه أقوى جيش في الأرض..
ميسن يقف قدام الإنجليز يا نانا؟ أمّا إن الأمر يمتد للاغتيال..
الدم.. ده كتير.. كده إحنا بندمر بلدنا بإيدينا.. أنا جالي كمان
أخبار من مكتب الخدمات بتقول إنه بيوزع منشورات وليه نشاط
سياسي.. ده شخص عمره ما هايقل.. الدم هايفضل مغّي عينيّه
طول العمر.. وحياته هاتفضل مزدوجة لازم يخفيها عن.. أقرب
الناس ليه.

- أنا مش مصدقة الكلام ده.

- لو مش مصدقاني.. اسأليه.

انتابتها عصبية لم تستطع السيطرة عليها.. فورة غضب أشعلت
رأسها فقامت تجوب الغرفة وتحرق محتوياتها:

- أنا مش صغيرة عشان أحاج رقيب على تصرفاتي.. أنا عندي
خمسة وعشرين سنة.

- بتسمّيها مُراقبة.. أنا باسمّيها عناية.

قام الرجل وأحاط رأسها بكفيه ونظر في عينيها: صُبّي غضبك على
الشخص الصحيح يا نانا.

سكنت.. طأطأت رأسها خجلاً وتخبّطاً.. أشاحت بوجهها ومشت
حنّى الشرفة.. من بين الستائر بحثت عن قمر لم تجده.. تخلّى عنها

وغاب وراء الغيوم.. ترققت عيناها بدمع حين وقف أبوها خلفها
وهَمَس بين خصلات شعرها:

- هاسيك تتجوزيه وهانتظري معاه السعادة.. ما تعرفيش عنه
غير قشور.. شهر شهرين.. وتبدتي تشوفي حقدّه وغله على
كل الصِّقَات الأعلى منه وكل صَاحِب سُلطة.. عيلتنا كُلها
ضِمن أعدائه.. وأنت متناهما انفصلتي.. مش هاتدري بنفسك
إلا وأنت بتزوريه في السِّجن.. بتهمة الخيانة العظمى.. تعيشي
بعد كده منبوذة.. فيه ناس يا نانا أتخلقت عشان تصنع التاريخ..
بالعار زي «جافريلو برنسيب» النِّي قتل وليّ عهد النمسا من
أربع سنين.. كان فاكرا إنه بطل.. وماكانش يعرف إنه يشعل حرب
هايروح فيها الملايين.

التفتت إليه: كُل ده عشان أقبل أتجوز السُّلطان؟

- ولو حتى ما اتجوزتيش يا نانا.. ده شخص خطر.. أنا مُمكن
بمُكالمة تليفون للحكمدار أرميه في المُعتقل وأنت عارفة..
ما تصعبيش الحياة على نفسك.. ده مش الشخص اللي
يناسب تاريخنا.

قالها ورحل.. سَحَب غليونه ودُخانَه.. وماتني جرام من قلب نازلي
قبل أن يتركها فريسة للتخبط.. والأسوأ.. فريسة لنفسها.. حتّى الفجر..
أطفأت نور الفُرفة وجَلست على أرض شُرفتها تستند الحائط.. خرقت
خمس سيجارات من عُلبة تخفيها بين كتبها للطوارئ.. ذبلت واحترقت
وكسرت ظفرين في أصابعها قبل أن يتحجر كل ما فيها.. تملكها سكون

والعُشب لا يُحرّكه سوى نفْس تسحبه كل بضع ثوانٍ مجاملة لجسدها..
إذا تذكّرت.. كان ذلك حين التقطت صوت جسم يرتطم بزجاج الشباك
واسمها يُنادى همساً: نانا.. أفاقت من شرودها ورجعت للحياة تسترق
السمع كقطعة منبهة.. نازلي.. سمعتها ثانياً واستيقنت أنها قادمة من
الحديقة.. قامت ورنّت محاولة تمييز مصدر الصوت بين عتمة الحديقة
حتى لمحته.. كان واقفاً وراء شجرة يشير بيده إليها أن انزلي.. رُمقته
لثوانٍ محاولة استيعاب حضوره حتى أشار بيده إشارة تعجّب!!! لم
تُعطِ إشارة أنها رآته.. رُمقته لدقيقة قبل أن تدخل غرفتها وتتخشب فجأة
لا تعي ما تفعله.. فتحت دولابها والتقطت معطفاً داكناً.. ارتدته فوق
قميصها وخرجت.. نزلت الدرج ببطء متجنبة صوت احتكاك أخشاب
الأرضية.. وصلت إلى الباب الحديدي الكبير فمسحت دموعاً أطفأت
لمعة وجنتيها ثم أدارت المقبض.. خرجت إلى الحديقة غير عابئة
بقدميها الخافيتين.. غاصت أصابعها في العُشب تبحث بعينيها عنه
حتى تبيّنه.. تواري وراء شجرة حتى جاءته على استحياء تنظر إليه في
صمت.. جذبها خلف الجذع بقلق وهو ينظر حوله ثم همس:

- أنت كويسة؟

- كويسة.

- كلمتك في التلفون أكثر من مرّة على مواعيدنا والدادا هي
اللي بتردا

- أنت دخلت هنا إزاي؟

- من فوق السور.. فيه إيه؟

- سهل بالنسبة لك مش كده؟ تنط الأسوار؟
- مش وقته يا نانا.. أنا سمعت حاجة مش عارف إذا كانت...
هو فعلاً السلطان...؟
- قاطعته: إزاي عرفت؟
- مفيش حاجة بنستخبي.
- تفنكر الحياة دي مُمكن تكون عاملة إزاي؟
- سكت أحمد للحظات ثم أردف: مُجتمع مُزُيف.. مريض..
هاتكوني فيه زي الضحية في بيت عنكبوت.. اللي برّه مش ممكن
يتخيل قد إيه أنت وحيدة وخائفة.
- ابتسمت في مرارة وطأطأت رأسها إلى الأرض: تشبيه حلو
بيت العنكبوت.
- سحب نفساً إلى صدره وأخرجه تهدئة: ويعدين؟
- بتحبني؟
- طبعا يا نانا.
- وإيه اللي مُمكن نعمله؟
- مُمكن نهرب.. نروح أي مكان ماحدث يعرفنا فيه.
- وتسبب شغلك... في مدرسة الطب؟
- طبعا.
- وتعيش حياة عادية مافيهش أحداث؟

- جَرَّيْنِي.
- طب ولو ما قدرناش؟ هاتعمل إيه؟
- هاتقله؟
- أَكُنْكَ عَمَلْتَهَا قَبْل كِدْه!
- لكل مرة أول مرة.
- مين اللي يَمْلِك الجِراءَ يقتل سلطان؟
- واحد مؤمن بخيانتة.
- واضح إنَّكَ طالع لو الدك الله يرحمه.. أكيد كان جريء زيكَ.
- جزر أحمد أسنانه: مش وقته.. نانا أنا مش هاسمَح للخايين ده إنَّه
يقربُ لك.. بُكرة زي دلوقتي هاكُون مستنيكي.. هاوضب مواصلة
تاخذنا لمكان بعيد.. مؤقتًا لغاية ما نشوف صِرفة.
- وتفتكر هايسيبيني لو عرف إني هربت مَعاك؟
- مش هايعرف عنك أي خبر طول ما هو عايش.
- هاتخبييني؟
- الدبان الأزرق مش هايعرف مكانك.
- سكتت.. نظرت في عينيه حتى هز رأسه استغرابًا قبل أن تردف:
- مِش عَاوِز تقول لي حاجة ما أعرفهاش عن الشخص اللي
هاهرب مَعاه؟

- عاوز أقول لك إني بحبك... جدًا.. ومُستعد أعمل أي
حاجة عشانك.

- مش عاوز تقول حاجة ثانية؟

- ...!

ترقرقت عينها بالدمع: وأنا كمان بحبك يا أحمد.

اقترب ولثم شفيتها بقبلة طويلة.. أغمضت عينها وتركت النشوة
تجتاح كل خلية فيها قبل أن يعنصر يدها.

- بُكرة زي دلوقت.. ما تتأخريش.

انسحب وابتمامة وعد وإثقة تغزو وجهه فصعد السور برشاقة ورفع
يده مودّعا.. ظلّت في مكانها متييسة تداعب الطين بين أصابع قدميها
حتى اختفى.



في اليوم التالي.. قبل الفجر

قفز السور ووقف خلف الشجرة التي شهدت قُبَلتهما.. لمّا اعتادت
عَيْنَاه الظلمة راقب مدخل القصر وستائر شرفتها.. كَبِثَ في مكانه دقائق
حتى اطمأن للسكون قبل أن يلتقط حجرا صغيرا ويقذفه تجاه النافذة..
ارتطم بخفوت.. لحظات واقترب وَهَجَ شمعة يترافق من ورائه ظل
أزاح الستارة.. مَبِزَها فرفع يده في إشارة.. رَمَقته بنظرة طالت حتى أشار
إليها ثانيا.. بجمود لم تُحرِّك ساكنًا.. لم يفهم.. قطب جبينه وفتح يديه

استفهام.. تفرقت عيناها ولم تتحرك فتقدم خطوة.. خطوات..
مبات في منتصف الحديقة الوارفة.. رفع كفه إليها فهزت رأسها
ة.. تعرق جبينه من إشارتها.. أنزل يده وتسمّر محدقاً.. ظل يُراقبها
م أدنت الشمعة من شفيتها وأطفأتها بنفخة قبضت صدره.. ساد
لام ولم يبق إلا ضوء قمر أحذب مئز حدود جسدها.. لحظات
بدلت نازلي الستائر ثم أغلقت النافذة.. ساد الصمت إلا من صوت
اق الشجر تتحرك على الأرض قرب قدميه.. تمالك نفسه ثم
حسب.. يلتفت كل لحظة علّها تفتح النافذة أو تضيء الشمعة.. لم
ل.. صعد جذع الشجرة المائل ثم اعتلى السور.. نظر نظرة أخيرة
النافذة المعتمة ثم قفز.. دس يديه في جيبه وابتعد.





أمر سلطاني كريم

نحن فؤاد الأول سلطان مصر

«رسمنا بما هو آت»

«المادة الأولى»

عُيِّن عبد الرحيم صبري باشا وزيراً للزراعة.

«المادة الثانية»

«على رئيس مجلس وزرائنا تنفيذ مرسومنا هذا»

صدر المرسوم بسراي القبة بتاريخ ٢١ مايو سنة ١٩١٩ من
أصليين يُحفظ أحدهما بديواننا والآخر برئاسة مجلس النظار.



٢٤ مايو ١٩١٩

سراي البستان بباب اللوق

بلا زينة أو أعلام كَانَ حال الشارع المواجه للسراية يُنبئ منذ أيام
بمُحْضور سَام وضيافة عالية المَقَام، سَاد النشاط في الأجواء فكُنست
الأرض وغسلتها المياه، مَصاييح الأرضفة جُلِيت واشتعل غَازها
فأَضَاءت الأرض بيقع هَادئة كل بضعة أمتار، بَسَط الفراشون بِسَجَادًا
أحمر عَرِيضًا أمام الباب الرئيسي وَرَّضُوا بطول الشارع وَعَرَضه أواني
الزروع والورود، رجال البوليس والخاصة السلطانية انتشروا في كل
مَكَان ومن ورائهم ذئاب مكتب الخدمات، يَطوفون بين الناس مَسْحًا
وتدقيقًا، أغلقوا الشوارع المُحِيطَة وأبعدوا أصحاب الجلابيب وفتشوا
الآفندية والعربات.

في تمام الثامنة قَلَّت الحركة وسَاد الصمت.. اشترأبت الأعناق جِهَة
اليسار حين لاحت خيول التشريفَة من بعيد تسير أمام القرية السلطانية
المَجْرورة بحصانين.. انفتح الباب الرئيسي للسراية فوقف رجال
الحاشية في صَف مُنضبط يُحاذون مُقدمات أحذيتهم اللايمعة إلى
خط أصفر مَرسوم أمامهم قبل أن يخرج التشريفاتي ثم الشماشر جي
يتبعهما السُلطان فُزَاد في بَدَلَة سوداء مُرَّصَة بالنياشين والميداليات
يقطع صَدْرها وشاح أخضر عريض، في أكمامه أزرار معدنية ذهبية

عليها اسمه ويعلوه التاج، وفي كفه اليسرى قفاز أبيض، وقف فؤاد أمام الباب مُشبِّكاً يديه خلف ظهره يتطلع للموكب بجبين ازداد عبوساً حين لَمَحَ المُصَوِّرُ يُعَدُّ الكاميرا لالتقاط صور تذكارية، نهائياً بإشارة من يده فاختنفى حين توقفت العربة الرئيسية أمام المدخل، هرع خادم إلى باب العربة وجذب من تحته سلماً ذهبياً صغيراً له ثلاث درجات وفتح الباب، اقترب السلطان من العربة ومد يده ليد أنثى في قفاز، استندت عليه ونزلت الدرجات في فستان أبيض متلألئ رفع ذيله من ورائها أربع فتيات صغيرات، أمام وجهها ياشمك أخفى فمها وأنفها وفوق رأسها ثبت تاج مرصع بالألماس، انحنى الحاضرون إجلالاً قبل أن يدخل العروسان القاعة الرئيسية في صمت.

الحفل كان محدود الحضور، ضم فقط أمراء الأسرة وأقارب العروس ورجال العاشية والوزراء، على أضواء الشموع جلسوا إلى موائد رُصَّتْ بالورود وأشهى المأكولات، عُقد قران وقُطِّعت كعكة من ستة مستويات قبل أن تعزف الفرقة السلطانية ألحاناً ناعمة لتشيكوفسكي وموتسارت، بعدها توسط العروسان القاعة، جلسا إلى مائدة توالى العائلات الاقتراب منها لتقديم هدايا الزفاف الثمينة من الساعات المرصعة والمجوهرات المختومة بحرفي فاء لفؤاد، ونون، لنازلي، قبل أن ينتهي الحفل بعد ساعتين ليقوم العروسان إلى العربة السلطانية التي ستحملهما إلى سراي القبة حيث ستقضي نازلي ليلتها الأولى، ضربت سنابك الخيل الأرض فتحرك الموكب مُسرَّعاً في نفس اللحظة التي انكسر فيها ضلع أحمد كيرة تحت وطأة قبضة حديدية كفَّ عن مقاومة صاحبها من دقائق!

قبلها بساعة كان يسير هائماً مُخترقاً الشوارع.. يسد أذنيه عن أخبار الزواج السلطاني التي تسربت إلى الأفواه وملأت الأذان.. زواج فؤاد.. من نانا.. عاقداً العزم على إيجاد إنجليزي ثمين يستدرجه إلى فخ ليقتله.. أو يتركه عن طيب خاطر ليُجهز عليه.. سيان.. فالقاتل والمقتول يتلذذان كل على طريقته.. المهم أن ينسى.. ينسى أن ناناته اختارت منذ اليوم أن تصبح سيّدة.. سلطانته التي ستجمل للسلطان وتتعطر.. وترتدي وتقلع.. تتركه ينهش جلدها.. يعب رَحيقها.. يستعبدُها برضاها ويودعها حر ملك مُغلَقاً لا تدخله الشمس إلا بإذن الستائر.

«اللجنة عليك يا نازلي! لم ضحيتي بي وبنفسك؟ لم اقتلتي جفوني بسكين بليد؟».

أوقفته الأسئلة في منتصف حارة ضيقة مُلاصقة لكافيه إيجيپسيان.. بحث عن الإجابة تحت قدميه حتّى وجدها.

«أنت يا نازلي! الأفعى والتفاحة معاً».

قالها وأشعل سيجارة حين انتبه إلى وجود شخصين يسدان مقدمة الحارة.. يغال مكتب الخدمات لهم هيكل مألوف ورائحة لا تُخطئها أنف مُدرب.. التقط بعدها حفيف الخطوات خلفه فالتفت ببطء.. زميل ثالث يحكم غلق الفخ على بُعد أمتار.. قياساً كان الاستسلام حتمياً.. لكن المقاومة واجبة تحليلاً للمأهية التي يقبضها هؤلاء الأوغاد.. سحب أحمد نفساً من سيجارته حين تحركوا.. أخرج أحدهم من معطفه هراوة خشبية وارتدى آخر قبضة حديدية فوق أصابعه.. من نوع الأسلحة أدرك أحمد أن اللقاء درس تأديبي.. ثقيل.. كان ذلك حين بات الأول على بعد مترين.. رفع هراوته ليهوي بها على رأس أحمد..

تفاداه الأخير قبل أن يقذف سيجارته في وجهه.. ضربت ما بين عينيه
 فنشرت شظاياها ففزع وكان ذلك كافياً ليهديه أحمد لكمة عانقت ذقنه
 المريض.. انشئ ألماً وسقطت هراوته حين طوَّح زميله قبضته المُدرَّعة
 بالحديد.. تركت على الحائط علامة غائرة وشرارة قبل أن يُودعه
 أحمد لكمة في رقبته لم تعجبه فأهداه أخرى أقنعتة بالسجود.. كان
 ذلك حين استعاد ذو الهراوة توازنه ووقف متحفزاً فتدخل الواقف في
 الخلف وهوى على أحمد بقالب طوب صغير أصاب مؤخرة رأسه..
 ارتجعت الحارة وتفككت البلاطات المُحدَّبة تحت قدميه فاستند على
 الحائط.. ثم عانق خذّه الأرض.. تكالب عليه الثلاثة ركلاً وتهشيمًا
 حتى انفجرت الدماء.. كسروا ضلعين وثلاث أصابع ثم ختموا الأمسية
 بركلة أخيرة في وجهه بعد أن انحنى أحدهم وهمس: المرأة دي إنذار..
 المرأة الجاية رقبتك.

أظلمت الحارة حوله إلا من وجه نازلي.. كما رآها أول مرة في
 حديقة بيت سعد.. كانت تبسم.

في خجل...



انقضت دقائق قبل أن يصير الباب الجانبي للمسرح.. أضاءت لمبة
 المُنسخة بلاط الحارة الضيقة فتسرَّب عبق الرواد ونغمات المسرح
 المتداخلة قبل أن تنزل السلم قدمان رقيقتان مصبوغتان بالأحمر..
 مُضطربة ترتعش تبغي خلوة صغيرة في جِداء فضي وفستان أسود
 صدره وإيسع، ووجه أخفاء قناع من أقنعة فينيسيا التكرية المكسوة
 بالريش.. مشت خطوات تتحامل على ساقين واهنتين قبل أن تستند

المحايظ وترتج فتفرغ عصارة معدتها.. بقايا أفيون في دمها تنير ثورة
أخيرة.. هدأت أنفاسها من بعد سُعال عنيف فمسحت فمها بمنديل
حين التقطت من ورائها أنثى خافتة.. ضيقت عينها فميزت جسداً
مُكروماً.. نظرت حوله فلم تجد أحداً فمدّت خطواتها فزعة نحو سلم
الكافيه.. سعدته قبل أن تتأمل المسجى باستسلام.. نفسه اليأس
ودساؤه النازفة من نحته أبطأت حركتها.. بتردد نزلت السلم.. اقتربت
منه في حذر تتلفت حولها.. وكزته بمقدمة جذائها فاهتز ولم يستجب..
الحنن عليه تفحص أنفاسه الخافتة فتأثرت من وجهه المُهشم وعينه
المغلقتين بوزم ينمو.. تنهدت في حيرة ثم حسمت أمرها.. أجلسته
بصعوبة فصرخ من ألم ضلوعه المكسورة قبل أن يوارب عينه.. أدرك
فناهما للحظات ثم غاب ثانياً.. نظرت إلى ملامحه ملياً تقيس خطواتها
الثالية ثم تحاملت وأسندته.. في صحوّة استجاب لها فاتكأ إلى كتفها
كأنما صراخه.. سعدت معه السلم واتجهت به إلى غرفتها الصغيرة..
هزبت الباب بظهرها وأسجته على كنية صغيرة تنام عليها قبل أن تهرع
لطلب استغاثة.

أنهت بديعة فقرتها وأتت.. تأملته عن قرب ثم لامست طرف ذقنه
ونظرت في جيبه.. وجدت فيها نقوده وساعته وبطاقة عمله بمدرسة
الطب فالتفت لورد التي باتت لنا:

- بيشتغل حكيم! هايدا مو ضربوه عشان يسرقوه.. هايدا انتقام..
لازم نتصل بالبوليس.

فتح عيني بصعوبة وقبض على أصابعها برفق قبل أن يشدّد عليها
ويهز رأسه نفيًا: بوليس... لأ.

عَاجَلْتُهَا لَنَا: مُسْتَعِدَّة أَخْلِيهِ فِي غُرْفَتِي لِحَدِّ مَا يَقِفُ عَلَى حِيلِهِ.

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِدِيْعَةٍ لِلْحَفَظَاتِ قَبْلَ أَنْ تَتَأَمَّلَهُ ثَانِيَةً ثُمَّ حَسَمْتُ أَمْرَهَا..
اسْتَدْعَيْتُ طَبِيْبًا يُونَانِيًّا تَعْرِفُهُ.. طَلَبْتُ مِنْهُ عِلاجَ الشَّابِّ الْمَجْهُولِ
وَالْكَتْمَانِ فَاسْتَجَابَ.. صَرَخَ أَحْمَدُ حِينَ شَدَّ صَدْرَهُ بِرِبَاطٍ ضَاغِطٍ
لِتَلْتَحِمَ الضَّالُوعُ وَغَطَّى وَجْهَهُ بِشَاشٍ مُعَقَّمٍ بَعْدَ أَنْ مَسَحَهُ بِمَرِّهِمْ مَرَّطٌ
يُهْدِي الأَوْرَامَ ثُمَّ حَقَنَهُ بِمُهِدٍ سَيَفِيْقُ مِنْهُ بَعْدَ يَوْمٍ.

تَوَلَّيْتُ لَنَا مِنْ بَعْدِ فَقْرَتِهَا كِرَاقِصَةً وَمُرْدَّةَ كُورَالٍ خَلْفَ بِدِيْعَةٍ
العِنَايَةِ بِأَحْمَدَ.. تَرَكَتُ لَهُ غُرْفَتَهَا وَأَتَتْ لَهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيَّرَتْ
الشَّاشَ فَوْقَ جَرَحِهِ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ دُونَ أَنْ تَسْأَلَ عَمَّا أَلَمَّ بِهِ رَغْمَ فَضُولِ
نَهْمٍ يَجْتَاكِهَا.. تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَيُخَفِّتُ فِيهَا اشْمِزَازَ الذِّكُورِ الَّتِي
وَرَثَتْهُ مِنْ زِبَائِنِ بَنِيَّةٍ وَيَعْلُو شُغْفٌ يَتَأَكَّدُ كُلَّمَا انْفَشَعَ الْوَرَمُ عَنْ وَجْهِهِ
وَوَظْهَرَتْ مَلَامِحُهُ.

فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ نَظَرُ إِلَى عَيْنَيْهَا وَهِيَ تَعْتَنِي بِهِ فَارْتَعَشَتْ أَصَابِعُهَا
اضْطِرَابًا.. ابْتَسَمَ بِحُزْنٍ ثُمَّ انْتَقَطَ عِدَدُ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ مَآيِمٍ مِنْ
جَرِيدَةِ الْبُورْصَةِ «La Bourse Egyptian».. طَلَبَهَا حِينَ انْجَلَتْ غُشَاوَةٌ
عَيْنِيهِ جَزْئِيًّا.. قَلَّبَ أَوْرَاقَهَا حَتَّى تَوَقَّفَ عِنْدَ خَبَرٍ:

«إِنَّ حَضْرَةَ صَاحِبِ الْعِظْمَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ «فُؤَادَ الْأَوَّلِ» سُلْطَانَ
مِصْرَ الْمُعْظَمِ قَدْ نَظَرَ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ الدِّينِيَّةِ إِلَى وَجُوبِ
التَّمَسُّكِ بِمَا وَصَّى بِهِ الدِّينُ الْحَنِيفُ مِنْ أَمْرِ الزَّوْجِ وَالْإِهْتِمَامِ بِهِ
فَعَقَدَ قَرَانَهُ عَلَى سُلَيْلَةِ بَيُوتَاتِ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ حَضْرَةَ صَاحِبَةِ
الْعِظْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ نَازِلِي عَبْدِ الرَّحِيمِ بِاشَا صِهْرِي».

سَطُورٌ قَلِيلَةٌ قَرَأَهَا عِدَّةُ مَرَّاتٍ حَتَّى حَسِبَتْهُ يَحْفَظُهَا لِئَسْمَعَهَا قَبْلَ أَنْ
يَقْطَعَ الْقِصَاصَةَ مِنَ الْجَرِيدَةِ وَيَضْمَعَهَا فِي مُحَفَظَتِهِ.

في اليوم الرابع لمّا جلست بجانبه لتغيير شاش صدره كانت المَـسَافَة
أفـيـة لـيـمـسـح فيها مَـلـامـحـها.

وكافية لكسر حاجز الصمت بينهما.

- الدكتور قال إنك راح تعيش.

- وده خبر كويس؟

- المفروض.

- اسمك؟

- لينا.

- شامية؟

- من ماردين.

- جيتي بعد المذابح؟

بدون أن تنظر في عينيه هزّت رأسها إيجاباً ثم أردفت: أهلي ماتوا
لـوـبـا الإسـبـنـيـولي.. هنا في الأـزـبـكـيـة.. والسّت بـدـيـعة عـطـفـت عليـا
شغلتنـي مـعـاها في الفرقة.

- البقية في حياتك.

انهمكت في ربط الشاش على أصابعه المكسورة متصنّعة
لـنـشـغـال.. مـاد الصمت للحظات قبل أن تقطعه:

- وأنت... شوقصّتك؟

لم يجيبها ولم تكرر السؤال.. شرد في صورتها بين أبويها على ظهر
باخرة.. ألصقتها في طرف المرأة الكبيرة.

- أكيد رحلة قاسية إنك تسيبي بلدك وكل حاجة بتحبها.
- مصر قسيت عليا أكثر بكثير من سوريا.
- هي قاسية فعلاً... قالها بشرود قبل أن يتسم: على فكرة ضوتك حلوة.. سمعتك مرة.
- الشئ بديعة كثير بتسييني أغني لحالي.. لما تقوم بالسلامة أعزمك في الصلاة وتسمعني عن قرب.
- انتهت من تغيير الشاش بالكية وساعدته في الانكاء على الوسادة ثم انسحبت.. قبل أن تصل إلى الباب تكلم.
- بنت كنت بحبها هي سبب الحادثة.
- توقفت ثم التفتت.. أردف:
- كنت فاكرها بتحبني... لغاية ما جالها عريس أغني.
- استحثته بصمتها أن يكمل.
- ومش أي غني.. أغني واحد في مصر.. هي دي القصة الحقيقية.. الشاطر حسن وست الحسن عمرهم ما اتجوزوا.
- لكن هادول ناس كانوا قاصدين يموتوك! ليش ما تبلغ البوليس؟
- فلتت ضحكة رغم آلام وجهه: أصل جوزها وأبوها... هما البوليس.
- كنت كثير بتحبها؟
- يمكن لأن في حياتي ما حسنت الحُب اللي حسيته معاها.
- يمكن تسامحها؟

شرد للحظات: ربنا اللي بيسامح.

ابتسمت مخففة: الله راح ينشيك ويطيب خاطرك.

- مُتشكر يا لينا.. لولاكي ما كنتش...

نظرت في عينيه للحظة وابتسمت: اشكر الله.. والسبت بديعة..
والصدفة.. بعد إذنك.

في اليوم التالي ساندته إلى تليفون طمأن به عبد الرحمن فهمي وعم إسحاق ولم يذكر ما حدث.. أخبرهم بنية غيابه لأمر عائلي وأغلق الخط قبل أن تزيد استفساراتهم.. أما والدته فتلفت رسالة فيها كلمات مقتضبة.. أخبرها بسفر مفاجئ خاص بمدرسة الطب وأرسل مبلغًا يكفيها أسبوعًا.. تلقتَه بقلق لم تخفه وجلست شاردة تناجي صورة أبيه على الحائط.

بعد أيام بدأ التعافي يزحف ببطء.. انقشعت الأورام جزئيًا من وجه أحمد وإن تركت مسحة بنفسجية.. أما الأصابع المكسورة والضلوع فجعلت حركته عسيرة مؤلمة يلعن الكون ومن فيه إذا عطس أو سعل.. زارته بديعة مرتين لتطمئن على حاله ولسماع قصته.. وأدركت أن هناك المزيد خلف الرواية الرومانسية الركيكة التي طرحها لكنها اكتفت بابتسامة سياسية منعا لإحراجهِ وربت على كتفه متمنية الشفاء.. أما لينا فكانت ملاحًا حارسًا أرسله الله.. تُنهي فقرتها خلف بديعة قبل الفجر لتأتيه بالفاكهة والسجائر والجرائد.. يقضي الليل في قراءة نهمة لما يحدث في البلد خارج الغرفة.. وتقضي هي ليلتها على كرسي في ركن لا تُبارحه.. تتأملُه متصنعة مُطالعة مجلة موضة.. ثم يتبادلان حديثًا عامًا يهربان فيه من البوح بمكنون مؤلم يكاد يفيض منهما.

حكى لها عن سعد والثورة.

وحكت هي عن والديها ورحلتها المريرة هرباً من ذبح عشيرتها.

لم تحك عن المهر.

ولم يحك عن القتل.

تبكي فيضحكها.

ويشرد بعيداً فترجعه إلى الغرفة.

لا تفسر له لِمَا تعيش في كافيه «إيجيسيانه» سجنية بلا قضبان.

ولا يفسر لها كيف استحال حبّه خيانة وخيبة أمل.

قبل أن تستسلم أعينهما للنوم..

في اليوم الذي استطاع فيه المشي انكأ على حائط الممر المفضي إلى الصالة.. جلس إلى البار فطلب كأساً وانتظر.. دقائق وأعلن المقدم عن الفقرة.. خرجت بديعة متوسطة فتياتها وكانت لنا في الصف الخلفي.. تتلوى ببراعة في ديكولتيه أسود وتنورة قصيرة وشراب من الشبك.. أثار انتباهه فشرد في تفاصيلها وتباطأ الزمن.. لم تكن تلك الشاحبة الرقيقة التي تُعاني في شد رباط صدره وترتعش يدها بملعقة الشوربة وهي تؤكله.. رآها لأول مرة امرأة كاملة.. فائنة تكوي صدرًا وتركع عائشًا تحت قدميها.. تُكرر كلمات الجوقة بعيون لامعة خلف قناعها المكسوريشًا.. قناع يضاعف فتتها أضعافًا.. لمحت من خلال العيون المثقوبة فرفع يده بتحية فابتسمت في سعادة قبل أن تنتهي الفقرة.. مشّت إلى البار دون أن تنزع قناعها.. لفّت إليها الرؤوس وتلفت ثلاثة

عروض بالاستضافة فلم تستجب.. تجاهلتهم واستوت فوق الكرسي العالي بجانبه.

- ليش قمت من سريرك؟

- كنت عاوز أعرف بتعرفي ترقصي ولأ لا.

ضحكت: عجبتك؟

- عجبتيني.. مش عارف لو ما كُتبتش بتشتغلي أرتيست كنت هاتعملي إيه؟

- وعدت «أبونا» في البطرخانة مرّة أروح الجمعية الخيرية الأرمينية أشتغل مع المحتاجين.

- فرق كبير!! وبعدين؟

- طلعت بعرف أرقص.

ضحكاً ثم سكتا.. نظر في عينيها: هاتفضلي لابسة الماسك؟

- ما بحب الناس تعرفني.

- أنت فنانة ولازم الناس تعرفك.

- برّء المسرح الناس ما بيعنيها أنا مين.

ارتشف من كأسه رشفة ثم رمقها للحظات طالت قبل أن يسألها:
أنت هربانة من إيه؟

لاذت بزحام الصّالة فراّذاً من الإجابة ثم رجعت: هربانة من بلدي.

- أنسي تقريباً مش بتخرجي من الكافيه؟ سمكة خايضة تخرج من الميّة.

- الدنيا بين حيطان الكافيه.. من وراء الماسك.. أجمل.. آمن.

- ولما تغيّر الفرقة يمرتها وشيلوا الماسكات؟

أشارت للقناع: الماسك مو هادا اللي على وجهي - ثم نظرت للناس حولهما - كل هدول الناس لابسين ماسكات.. أنت نفسك عايش بماسك!

نظر في عينيها كثيرًا قبل أن يتكلّم: عندك حق...

ثم سحب نفسًا لصدرة وابتسم: ممكن أبقي أعزمك على الغدا مرة؟ هاتبقي معايا.. مش هاتخافي.

- أنت خلاص راح تمشي؟ اتعافيت؟

- أنا أحسن كثير.. مش ممكن أتقل عليك أكثر من كده.

قاطعته: ما حدا قال إنك تقلت.. خليك.. لحد ما تقدر تقف على حيلك.

- عندي التزامات لازم أقوم بيها.

ضربها الشرود.. تابعت يد الساقى وهو يخلط الخمر وترقرقت عيناها.. سحبت دموعها الكحل ونزلت من تحت القناع إلى ذقنها.. كانت تعلم أنه استغنى عنها.. استغنى كما استغنى العالم بأكمله من قبل.. مد يده ومسح دمعة من على خدّها فقامت فجأة.

- هاشوفك؟

سألها.

— أنت بتعرف مكانى .

قالتها وابتعدت .. أنهى كأسه ثم رجع الغرفة .. دس قُصاصه الجريدة
في جيبه وارتدى مَلابسه بصعوبة قبل أن يكتب رسالة للسيدة بديعة ..
شكرها على المعروف الذي قدمته وفتح الباب فوجد لينا أمامه .. نظر
في عينيها لدقيقة قبل أن يمد يده ويُزيل القناع عن وجهها .. لاحظت
عينها اللتان اختلطت فيهما الدموع بالمساحيق فتلاحقت أنفاسها
ونعالت قبل أن تنغرس في حُضنه .. أغمضت عينيها وكتمت نفسها
قبل أن تبعد سستيمترات وتطبع قبلة طويلة على شفثيه .. تركت عبقها
في أنفه ونكهتها في فمه وندبة بحجم رَصاصة في قلبه قبل أن تبعد
رَكْضًا .. لم تنظر وراءها حتى اختفت .. ظل أحمد في مكانه مُحاولًا
استيعاب اللحظة التي انقضت قبل أن يُلقي على الغرفة التي ضُمَّت
ألمه وراحته نظرة أخيرة ويغلق الباب .



«لا يجوز لمصري حُر أن يؤلف الوزارة في ظل الحماية البريطانية
على مصر» .

سعد زهلول باشا



رقم «٣٨٧» .. «عاجل»

من الجنرال سفير أ.ه. ألفتني إلى إيول كيرزون

- في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم أقيمت قنبلة بمنطقة جناكليس على سيارة رئيس الوزراء «محمد سعيد باشا» ولم يُصب... ثم القبض على أحد المتطرفين^(١) ويُدعى «سيد علي محمد»... طالب بالمعهد الديني بالإسكندرية وجار التحقيق معه.

- العمليات الإرهابية بدأت تستهدف الوزراء المصريين جرّاء تصريح «سمعد زخلول» الذي اتهم فيه من يتولون المناصب في ظل الحماية البريطانية بالخيانة.

ألفتني (هولد مارشال)

المنسوب السامي

(١) المنطرون: مُصطلح يُطلق على كل من يُطالب بالاستقلال التام أسرة سمعد زخلول وأعضاء الرفد... أما المُعتدلون فهم من يؤمنون بوجود إنجلترا كحامٍ للبلاد لكنهم يطالبون ببعض الحقوق المعقولة وهو ما يسمى بالاستقلال الذاتي.

سري.. نمرة ٢٤

القاهرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٩

سعادة سعد باشا زغلول

- الشعب متعجب جداً بما يراه يومياً من نصف الإنجليز واستهتارهم بمطالب المصريين الحققة واستهتارهم أيضاً بأرواحنا.. الجيوش الإنجليزية تطلق الرصاص بلا حساب وبلا مبالاة ولا يعلم إلا الله نتيجة هذه المأساة فنسال الله الخلاص.. لكن ما يميزنا هو أن الروح الوطنية هائلة جداً ومتماسكة.

- استقال أمس «محمد سعيد باشا» من رئاسة الوزراء اعتراضاً على حضور لجنة «ملتر» الإنجليزية إلى مصر للتحقيق في الحوادث الأخيرة منذ نُفي الوفد إلى مالطة، في محاولة لإدانة المصريين وتغليظ العقوبات عليهم وتضييق الأحكام العرفية.

- وقد أهد «محمد سعيد باشا» بياناً للسلطان فعواه أنه لا يقبل بوجود تلك اللجنة في ظل الظروف المضطربة التي تعانيها البلاد، وأن وجودها للتحقيق سيزيد من حالة الاضطراب ويهيج المصريين مما لا يدع مجالاً للمساعدة في التهدئة.. وطلب الإغفاء من منصبه.

- تم الاتفاق على تعيين «يوسف وهبة باشا» خلفاً له.. استياء شديد في صفوف الأقباط والبطريركية الأرثوذكسية بسبب قبوله المنصب في هذه الظروف وتم إصدار بيان إدانة ضده.

- نعتقد أن السبب الرئيسي لتعيين قبضي هو بث الفتنة بين عنصرى الأمة الأصليين وبلر النفور، لذا أجمعنا كلمتنا على إسناد منصب وكيل الوفد الشاغر - لظروف اعتقال الوكيل الحالي - إلى قبضي أيضاً لنرد كيد الإنجليز إلى نحورهم ونعلمهم أن مصر للجميع.

سيد الرحمن فهمي

القاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٩

رقم «٤٠٦»... «عاجل»

من الجنرال سير أ. هـ. ألفني إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية

- قُتل اليوم الكابتن «صمويل كوهين» من ضباط الجيش بوحدة العمال
بجوار مستشفى شبرا وتمكن المتفدون من الهرب.

ألفني (هيلك مارشال)

المندوب السامي



سري.. نمرة ٣٥

القاهرة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٩

سماعة سعد باشا زغلول

- أطلق الرصاص اليوم على خمسة جنود بريطانيين بجوار مصلحة
السكك الحديدية بالقاهرة.. أصيب أحد الجنود إصابة خطيرة
وفر الفاعلون.. وفي نفس اليوم قُتل ثلاثة ضباط بريطانيين بجوار
قنصل القنصلية.

- نرجو التعجيل بتوفير المبالغ اللازمة للأعمال السرية.. فقد صرفت من
جيبى الشخصي أكثر من ١٤٣ جنيهًا في فترة لا تتعدى شهرين.. هناك
صعوبة في طلب المزيد من أموال التبرعات لأن أمين الخزنة يطالبني
بإيصالات دفع موقعة من سعادتك شخصيًا!

صهيد الرحمن فهمي

القاهرة في ٢ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ. ه. ألفنبي إلى إيرل كيرزون وزير
الخارجية.. رقم «٤١٨».. «عاجل»

- قُتل ضابطان بريطانيان بجوار محطة كوبري الليمون بالقاهرة.. هرب
الفاعلون.. الاختبالات تتطور تطوراً سريعاً مع ملاحظة أنها تقتل
ضباطنا وتكتفي بإرهاب المصريين المتعاونين!

ألفنبي (هولد مارشال)

المندوب السامي

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ. هـ. ألفنسي إلى إيرل كيرزون وزير
الخارجية.. رقم «٤١٩».. «عاجل»

- وصلت لجنة «ملتر» إلى القاهرة ولم يُعلن عنها في الجرائد إلا يوم
الوصول تحسباً للاضطرابات، تم تسكينها في فندق سميراميس مع
حراسة مشددة.

- أصدرت أوامري للحكومة المصرية والدواوين بتحضير ملفات
الحوادث المصرية وشهادات الشهود من تاريخ ٨ مارس الماضي حتى
الآن وتم تجهيز مكتب بوزارة المواصلات لتسهيل عمل اللجنة.

- تزامن وصول اللجنة مع وصول رسائل تهديد بالقتل للوزراء المصريين
وبعض المسئولين ذوي الشأن، عثر كل وزير على مكتبه أو في البريد
الخاص على رسالة تلخصها أن التعاون مع اللجنة والاستمرار في
المنصب سيعرض حياة الشخص المعني للخطر، والإبقاء منظمة
«اليد السوداء».

- تم اتخاذ اللازم من تدابير أمنية مشددة وجارٍ التحقيق مع الموظفين
المرافقين للوزراء.

ألفنسي (هتلر مارشال)
المنسوب السامي

١٥ مرة

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٩

أرجو الالتزام فيما يخص لجنة «ملتر» بالمقاطعة وعدم التعاون أو إبداء طلبات، والتمسك بالمفاوضات مع الوفد فقط.

سعد زغلول باشا



القاهرة في ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩

من الجنرال سير أ. ه. ألفنبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤٣٦».. «هاجل»

- في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم ألقى قبلي قنبلتين على رئيس الوزراء «يوسف وهبة باشا» أثناء سير موكبه ولكنه أخطأ.. تم القبض على الفاعل واسمه «هريان يوسف محمد».. اعترف بجريمته بلامبالاة وجار التحقيق معه بسجن الاستئناف للوقوف على باقي أعضاء المنظمة الإرهابية.

- صرح المتهم بأنه قصد اغتيال رئيس الوزراء لأنه مسيحي بطله كبلًا تستغل بريطانيا الحادثة لإشغال الفتنة بين المسلمين والأقباط.. ونبحث مع السلطان الحكم الراجح لأمثاله.

- أعضاء لجنة ملتر يواجهون مشكلة حقيقية في التواصل، سادت المقاطعة بين المصريين الذين يرفضون الحديث أو التعاون ويجيبون على أسئلة أعضاء اللجنة دائمًا بعبارة مستفزة: «سأل سعد زغلول!»

ألفنبي (فيله ماوشال)

المنسوب «سامي»

سري

٨ يناير سنة ١٩٢٠

من الجنرال سير أ. ه. ألتفبي إلى إيرل كيرزون وزير الخارجية.. رقم «٤٦٦»

- ردًا على الاستفسار الخاص بالمنظمة المتطرفة التي تستهدف ضباطنا والمسؤولين المصريين.. فإن متفذي الانفجارين الآخرين اللذين تم إلقاء القبض عليهما مؤخرًا اعترفا - بعد ضغط - بأسماء تم التحقق من أن بعضها غير حقيقي وبعضها لم يستدل على مكانه مثل «سيد الباشا وأحمد كيرة وعبد الحكيم محمود».. وجار البحث عنهم.

- وبالتعاون مع مكتب الخدمات السرية تبين أن منظمة «اليد السوداء» المتطرفة تتكون من خلايا عنقودية منفصلة / متصلة لا يعرف فيها الفرد سوى الشخص الوحيد القائم بالتكليف وإصدار الأمر.. وغالبًا يكون اسمه مُحرقًا.. نجحوا في شهرين فقط في قتل سبعة وعشرين جنديًا من جيشنا.

- نرجو إحكام السيطرة على مراسلات «سمد زهلول» فإن الشك قائم بضلوعه في التحريض على التطرف.

ألتفبي (هيلم مارشال)
المندوب المامي

سري.. نمرة ٨٦

القاهرة في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- هناك شخصان سيجومان في الفترة القادمة حول أعضاء الوفد لادعاء المساعدة في العمل الوطني، إنما لم يأتيا إلا للتجسس لصالح الإنجليز فأرجو الحذر.. ملحوظة: مُرفق صورتهم وبياناتهما.

- نشط قلم المطبوعات نشاطاً زائداً في مراقبة الجرائد والتضييق عليها، فهو يستدعي أصحاب الجرائد ويهددهم بالقتل إن لم يمتلكوا في لهجتهم ويحذرهم من التمرض للحالة العامة ووضع الحماية وأخبار الوفد.

- النقدية المتاحة على وشك النفاذ لتضييق السلطة الإنجليزية على جميع التبرعات.. أرجو مخاطبة الأمة في خطابكم القادم حول أهمية مساعدة الوفد.

- ألقى تجهول قنبلة على سيارة إسماعيل مسري باشا وزير الأشغال في منطقة المنيرة.. لم تتم إصابته.

عهد الرحمن لله

أبشاق الغزال.. مركز بني هزار.. المنيا

بمرور الأيام لم يعد لأم ياسين شاغل سوى متابعة من أرسلوه لها بدلاً من ابنها، خيال المائة الذي فاق خيالات الغيطان صمتاً وموتاً، طائف يجول ببطء قرب الترع وأطراف الحقول ثم يجلس فلا يحرك الهواء فيه سوى الجلاب، صورته وسط أهل البلد الصغير بدأت تدنو من صورة المَجذوب لولا مكانة آل فهمي بينهم وهيبة رُجوعه الأليم من الحرب الكبرى، متبوء تخافه الأقهار على أبنائها، وغريب يتزوي عنه رفاق ما عادوا يعرفونه، لا يمشي إلا وتتبعه أمه على مسافة، تُراقب سلوكه الغريب منذ عاد، تكلمه فلا تسمع منه سوى كلمات مُشتتة، ترجوه الزواج من خليلات العائلة أو بنات الجيران فيأبى إباء الرهبان، أو العجزة! تسأل الأولياء في أضرحتهم: «هل خصّوه الكفرة الملاحين؟ هل بذلوه؟ هل أبسه هفريت جثم على صدره ولف خطمه على قلبه ليمنعه من الزواج؟»، ملأت البيت بخوراً في حضرتة وصنعت له حجاباً رفض أن يُعلّقه فخيّطته في جلبابه سرّاً، ابتهلت ونصرعت إلى الله: «فلتُحي ياسين ولدي الذي أعرفه.. أو ليُمِت كَرِيم السيرة كما ظننت لسنين أنه مات».

هكذا ظل الحال يسير من سيئ إلى أسوأ.. يزيد بها انطواؤه كرباً على كُرب.. حتّى أتى يوم غفلت عنه دقائق فاختفى.. لمّا قاربت الشمس المغيّب ولم يعد اشتعلت قلقاً.. خرّجت تبحث عنه بين الحقول في

رعة تتزايد حتى سمعت جلبة في أرض ليست بأرضه.. أرض وقف
محبها على مسافة منه يراقبونه بخذر.. ما إن رآوها حتى أكبروها
طلبوا العون على إخراجه بسلام.. نظرت إلى بكرها بقلب يحترق
سم اقتربت.. كان الأخير فارجا ساقه وبهمة لم تعهد لها منذ عاد يرفع
أمه ويرشقه في الأرض حفرا.. ركبناه كانتا تحت مستوى السطح..
دت فلم يستجب.. منهما لم ينتبه.. يتمتم بكلمات مُترسلة.. يُكلم
بخصا يرقد في الحفرة التي تتسع بين قدميه.

- ياسين.. ياسين!!

نادته بعدة حين باتت على بُعد أمتار منه فبتر حركته وتوقف.. رفع
أسه ونظر إليها بهدوء ثم ابتسم ابتسامة عصبية.

- بتعمل إيه في أرض وهدان يا ياسين؟ سألته.

أجابها بعد دقيقة: أصل عطية ابن أبو وهدان كان... كان أصير على
وجه... جبل ما الرصاصة تصيبه.

اقترب أهل الأرض مُتبهين حين مرّ ذكر الرصاصة بأذانهم..
لهتين لاسم ابن لهم ذهب مع ياسين ولم يعد.

- وأنت شفت فين عطية ابن أبو وهدان يا ياسين.. مش جُولت
يا ابني إنك فارحته وركبت الجطر؟

سألته أمه فرفع فأسه وضرب ضربتين في الحفرة ثم توقف.. نظر لها
للناس بعينين متحجرتين ثم أردف:

- لازم أغسله.. ما يصحش يجابل ربنا بجلابية نجسة.

خُرج والد عطية من الجمع واقترب من ياسين: أنت سُففته يا ابني؟
شفت عطية؟ عطية انطخ؟ الله لا يسيتك انطج.

- ياسين.. رُديا ولدي... أنت جابلت عطية؟

سَقَط الفأس مِن يد ياسين في الحفرة.. أخذ ينظر إليه ثم رفع كَفِّيه
وتأملهما كأنهما نبتتا للتو من ذراعه قبل أن يخرج من الحفرة وَسَط
ذهول أصحاب الأرض والأب المكلوم.. بهدوء سار خارجًا من الغيط
متمتًا في سره:

أول واحد كان شعبان ابن معوض البجّال.. ثاني واحد كان عطية ابن
أبو وهدان.. ثالث واحد كان هويضة ابن مرعي.

لم تمالك الأم نفسها.. وضعت كَفَّها على فيها تمنعه من الصُراخ
وواست صاحب الأرض بدموع ودعوات قبل أن تجري مُحاولة
اللاحاق بياسين.





الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٢٠

«أمر كريم إلى رئيس الحكومة»

«حاضرة صاحب الدولة ورئيس الوزراء»

المنة لله وحده، بما أنه في الساعة العاشرة والنصف من مساء
الأربعاء المبارك الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٢٠، قد من الله
هلينا بولد ذكر أسميناه «فاروق»، فقد استصوب لدينا لإصدار
أمرنا لدولتكم، إحاطة لعلم هيئة حكومتنا بهذا النبأ السعيد،
وتعميم نشره في جميع أرجاء القطر، وأنه أسأل الله القدير
المنان أن يجعل هذا الميلاد مقروناً باليمن والإسعاد للبلاد
والعباد من فضله وكرمه.

امضاء



كافيه «ريش»

جو القبو كان حارًا خائفًا، لا شأن له بموجة البرد التي اجتاحت البلاد منذ بداية فبراير، جلس إسحاق على كُرسىه العالي أمام منضدة ينظف خزانات مُسدسات إنجليزية ويحشوها.. غَنيمة آخر عملية وزاد للعمليات القادمة.. فيما استقر عبد القادر على كرسي قصير يهز قدميه في رَنابة وينقر بيديه المنضدة في ملل:

- هو عريان يوسف سعد اللي ضرب رئيس الوزارة ده تبعنا؟ إيد سودا برضه؟

- ما أعرفش.

- يا عم إسحاق! ده أنتو نصارى زي بعض؟

نظر إسحاق للسقف وزفر في يأس: والإنجليز كمان نصارى.. قلت لك ما أعرفوش.

- مش مآمن لي أنت!

لم يعره اهتمامًا فأردف عبد القادر:

- طب واللي رمى قنبلة على وزير الأشغال في المُنيرة؟

- ما أعرفوش.

- هو إيه أصله ده؟

- كل حاجة بتتعرف بمعاد.

- يا مقدّس إسحاق أنا من يوم ما جيت وأنت بتقول الكلام ده!

- أنا لسة ما قدّستش.. ناولني الفرشة.

ناوله عبد القادر فرشة رفيعة دسّها إسحاق في فوهة المسدس لتنظيفه.. استطرد عبد القادر:

- هو فيه عملية جاية؟

- المسدسات لازم تبقى نظيفة حتى لو مقيش عملية.. واسكت شوية عشان أركز.

زفر عبد القادر ثم قام من مكانه وأشعل سيجارة.

- الأرضة مكتومة.. اطلع اشرب سيجارتك برّة.

خبط عبد القادر الباب مُستاء حانقًا وخرج إلى الصالة.. جلس إلى البار وطلب كأسًا وهو يستعرض ثمانية أشهر قضائها في ذلك المكان.. نائمًا في قبو فوق مطبعة وفي يده مسدّس.. ثمانية أشهر يستمع لأغاني الصبر من الفتى محمد عبد الوهاب ولم يقتنع.. ثمانية أشهر تم فيها تنفيذ أكثر من عملية ولم يُشارك في أي منها.. كانت المحبّة دائمًا إدمانه الكوكايين.. «أنت لست متزنًا.. الأمر لا يحتاج لقوة بل هدوء أعصاب لا تملكه، ونهور تعتلى به عيناك حين تستنشق البودرة البيضاء».. الآن وقد استشفى منه لا زالت مشاركته مؤجلة! اللعنة على أحمد ویده السوداء.. المتأتى يُصبره بحجج مائعة ويقطّره عم إسحاق بكلمات

مُبهمَة وحِكم بائدة عن الصَّبْر.. شعور قاتل أن يقضي وقته في جِراسة
مجموعة ساكنة لا تتكلم.. مُمرضة مُسنة وقيطي يجيب أسئلته بقطارة..
وصَعيدية! تسقيه نازًا.. تتجاهله.. تتحاشاه.. نافرة منه بلا سبب كفرس
بري.. الرفض! شعور مُهين لم يجربَه من قبل.. فقد الإلحاح بِسحره
عند أهدابها.. ولم يفلح استعراض العضلات مَعها.. حتَّى لَحِن
الكلمات لم يَفد والتجاهل لم يثنها أو يرقِّق لها قَلْبًا.. مَنبِعة دولت..
حَصينة كفلعة في جزيرة.. باردة صلبة.. وجميلة.. لونها ضرب من
الجنون.. عينها بحر رائق لا يهزّه موج.. ورفضها... لا يزيده إلا شغفًا
واهتمامًا.. وولعًا.. حتَّى بهية القعر تلمِيزة بِنَة وما لنصفها التحتاني من
تأثير خاص عليه؛ بطل سحرها.. لم تُعد تُغريه أن يقربها.. كل النسوة
بنن فواكه معطوبة فقدت طعمها.. مُقارنة بدولت.

لم يتشله من جِزأت أسنانه سوى أحمد الذي دخل الكافيه.. أشار
إليه بعينه فتبعه.. في القبو ارتقى أحمد على كرسي وفي يده جريدة
فتحها ليطلع ما فيها باهتمام.. أشعل عبد القادر سيجارة رغم نظرات
عم إسحاق.. لحظات لم يستطع فيها كبح عصبته.. انفجر بغتة:

- أنا مش هاكمل اللعبة السوداء دي.. شوفوا لكم حد يُحرس
المكان؛ دي شغلانة عيِّل صُغير.. أنا وافقت آجي هنا عشان
أشتغل.. وبطلت البودرة عشان أشتغل.. ونمت أرديحي في
التربة دي باحرُس المطبعة عشان أُنيل أشتغل.. مش كلام ده..
أنا مش صغير عشان أشوف عيال قِلَة تروح تنفذ عمليات وأنا
قاعد هنا في دار مُسنين.

رماه إسحاق بنظرة ضيق ثم عاد لعمله فأردف عبد القادر، والنبي
يا عم إسحاق ما تبص لي كده أنت بالذات.. أنت يتنقطني بالكلام أكتي

مش فاهم حاجة.. أنا أبو المفهومية.. وأبويا اتقتل عشان البلد دي..
يعني تصحوا كده وتشوفوا حل في الموضوع ده أحسن يمين الله...

قاطعه أحمد بدون أن يرفع عينيه عن الجريدة: مش أنت الوحيد
اللي مات له حد عشان البلد.. إذا كنت محتاج العملية دي عشان
تنصف سيرتك وسط أهلك يبقى أنت جيت للمكان الغلط.

ترك أحمد كلماته تخترق صدر عبد القادر قبل أن يردف:

- أنا ماأخّر مشاركتك لغاية دلوقت عشان ما ينفعش تنفيذ عملية بدافع
الانتقام.. اللي بنعمله ده بنعمله عشان البلد.. الاستقلال.. الانتقام
لوحده هايحولك لو حش.. إحنا محتاجين ذكاء مش عضلات.

حذجه عبد القادر بغضب وشهيق متحفّز.. أغمض عينيه وألقى
برأسه إلى ظهر الكرسي محاولاً استيعاب السؤال المفاجئ.. ساد
الصمت للحظات قبل أن يعتدل وينظر في وجه أحمد: مفهوم.

- محمد شفيق باشا.

- نعم!

- وزير الزراعة.

- ماله؟

- هانفذ فيه عملية بعد أيام.

أخّرت الكلمات عبد القادر.. ظل يحدث في أحمد غير مستوعب
فأردف عم إسحاق:

- مالك؟ اتخربت يعني لما جه سُغل!

- ما اتخرستش ولا حاجة.... قذها وقودود إن شاء الله.

أغلق أحمد الجريدة بحق استشعره عم إسحاق الذي التقطها
وفتحها ليقراً فيها خبر ولادة ولي العهد.. ابن نازلي.. أدرك ما يضطرم
في نفس زميل الكفاح فطوى الجريدة بأسى ونظر لأحمد الذي
تحجرت عيناه ثم قام وواجه عبد القادر.

تلاحقت أنفاس عبد القادر وانتفخ أنفه نهيباً: خليها على الله.
أردف أحمد:

- من بكرة هانبدأ التدريب.. نام بدري وتقابل بعد الفجر في الغابة
المتحجرة في المقطم.. دلوقتي مسيني شوية مع عم إسحاق
عشان عندنا شغل.. لو حد جه من المجموعة خليه يستنى برة
لغاية ما أخرج.

كانما أنفاسه خرج عبد القادر من القبو بعدما تلقى دعوة إلى القبر..
في الشارع أمام الكافيه أشعل سيجارة بيد لأول مرة ترتعش.. أحكم
كوفته ودعك يديه تثبيتاً ثم سب نفسه مرة قبل أن يسب الإنجليز
مرات.. تطلع إلى الشارع كأنه يراه لأول مرة.. دقائق وانتشله مَجِيء
دولت.. تباطأت خطواتها حين اقتربت منه.. كان عليه أن يؤمن طريق
دخولها.. نظر إليها بقلق لم تمهده فيه.. لم يقترب منها كما كان يفعل..
لم يتصنع جسده الحركات ليجذبها.. لأول مرة نلمح في عينيه الحاجة
إلى صديق لا الشوق والهيام.. اقتربت.

- فيه حد جوّة؟ سأله.

- عم إسحاق وأحمد.. يتكلموا في شغل.. استنى لما يخرج.

لاحظت أصابعه التي تمسك السيجارة.. ترتعش وهي تقترب من فمه.

- أنت عيان؟

هز رأسه نفيًا.

- إيدك بتترعش.

- خليك جوة عشان البرد.

- أنا مش بردانة...

قالتها فساد الصمت.. لاحظت نظراته للشارع والمارة بشروء.

ته: حصل حاجة أنا ما أعرفهاش؟

لم يرفع عينيه عن الشارع.. زفر دخانًا واضطرابًا وجوعًا لحياة قديمة

ت: الدنيا صغيرة أوي.. الواحد بيتها له في لحظة إنه فاهمها.. وفي

لظة... يكتشف إنه مش فاهم حاجة خالص!

- أنا مش فاهمة!

- ولا أنا.

- ...!!

- ما تزعلش مني إذا كنت ضايقتك قبل كده.

- ...!! له بتقول الكلام ده؟

- أهه... ما تزعلش وخلاص.. أنا عمري ما كنت بعاكسك..

أنا فعلاً كان نفسي...

....؟؟

- كان نفسي أتعرف عليك في ظروف أحسن من كده... استني
أحمد لما يخرج وبعدين ادخلي.

قالها وعبر الشارع.. دس يديه في جيبيه ومد خطواته مُبتعدًا
بداري عينين رقرقهما الدمع.. ظلّت تتابعه في حيرة وتستعيد كلماته
حتى اختفى.

في الغرفة انتهى إسحاق من تنظيف المسدسات وتزويدها
بالرصاص وهو يتأمل أحمد الغارق في أفكاره شاردًا تُدير أنامله
رصاصه بحركة سريعة منتظمة وهو يطالع باهتمام جريدة «المسلة»
السّاخرة التي يُحررها «بيرم التونسي».. سأله إسحاق:

- فيه إيه؟

- نظر له أحمد قبل أن يعطوي الجريدة ويناولها له.. قرأ إسحاق أربعة
أبيات كتبها بيرم التونسي نكايه في ولادة فاروق ابن فؤاد ونازلي:

الوزة من قبل الفرح مذبوحة والعطفة من قبل النظام مفتوحة
ولما جت تتجوز المفضوحة قلت اسكتوا خلوا البنات تتسكّر

عقب إسحاق: بيرم ده مش هايحييها لبر لغاية ما مكتب الخدمات
ينشوره.. هو ماله ومال إن السلطانة خلفت بعد سبع ولأتمن شهور! ما
فيه ابن ستة وسبعة.. إوعى يكون ابنك يا نمس؟

لم تُضحك الدعابة أحمد.. أردف إسحاق: بزيادة يا ابني.. كنت
متخيل إيه؟ هاتخنتني من حياتك زي دخان السيجارة؟
لم يُجبه.. تنفس بعمق وأغمض عينيه.

- انسأها يا أحمد.. واحدة وراحت لحال سيلها.

- نسيها.

- تكذب على عمك إسحاق!

- أنا بقيت أكره الجرايد.. عشان ما أشوفش اسمها.

- لو بتحبها اديها عذرها.. المُلْك له تحكماته.

- اديها عذرها؟ دي باعتني يا عم إسحاق!

- ويا ترى كنت هاتحكيها عن حياتك؟

سَقَطَت الرِّصَاصَةُ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ أَحْمَدَ عَلَى الْأَرْضِ.. نَظَرَ إِسْحَاقُ
عَيْنِيهِ وَهَزَّ رَأْسَهُ:

- لَأَطْبَعًا.. كَانَتْ هَاتِفْضِلْ طُولِ الْوَقْتِ مَتَجَوِزَةَ وَاحِدِ تَانِي.. فَوْقَ
يَا أَحْمَد.. أَنْتَ حَيِّيتِ.. وَاتَعَمَّيْتِ.. أَتَهْيَأُ لَكَ إِنَّهَا مُمْكِنٌ نِيْجِي
مَعَاكَ الْأَوْضَةَ هُنَا وَتَطْبِيعَ مَنَشُورَاتِ.. تَبَاتَ مَعَاكَ فِي بَنَسِيُونِ
وَتَاكُلْ أَيَّ حَاجَةِ عِشَانِ خَاطِرِكَ.. تَنْزِلُ مَعَاكَ مَظَاهِرَاتِ وَتَشِيلُ
عِلْمِ.. مَا قَدَّرْتِشِ الْمَسَافَاتِ صَح.. رَكِبْتَ بَرِيْمُو وَتَذَكَّرْتَكَ تَرْسُو
فِي تَرْمَايْ مَشْ رَايِجْ حَارَتِكَ اللَّيْلِ أَتَوَلَدْتَ فِيهَا.. وَيُمْكِنُ يَكُونُ
مَا عِنْدَكَشِ تَذَكُّرَةَ أَصْلًا.

- هِي كِمَانِ حَبَّتْنِي.

- هِي كِمَانِ مَا قَدَّرْتِشِ الْمَسَافَاتِ.. لَغَايَةِ مَا جِهَ السَّالْطَانِ.. فَكَّرْتَ
فِي نَفْسِهَا.. انسأها.. رَكَّزْ فِي طَرِيقِكَ اللَّيْلِ اخْتَرْتَهُ.

سكتا.. طرق الصمت أذنيهما حتى قطعه أحمد بزفرة حارة: أنا تعبان
يا عم إسحاق.

- فيه يا بني شعرة بين النسيان والغفران.

- مش قادر أغفر.

- يبقى الانتقام هايحولك لوحش.. أنت اللي لسة قابل.. انسأها
يا ابني عشان تعيش.

هز أحمد رأسه ثم التقط الرصاصة من الأرض وقام.. دسها في
خزانة المسدس وشد الأجزاء وصوب في الفراغ.. في وجه لا يريد أن
يُمحى.. ثم أنزل الفوهة وأدار المسدس ليناوله لإسحاق ثم خرج.



هابة المتحجرة.. جبل المقطم

بل الشروق بدقائق

الشُعاع الأبيض المُشَرَّب بِزُرْقَةِ السَّمَاء رَسَمَ عَلَى الْأَرْضِ ظِلَالًا
بِهَمَّةٍ تَتَحَرَّكُ بِطُءٍ، أَغْصَانٌ وَجَذُوعٌ مُتَنَاشِرَةٌ تَحْجَرُ مِنْذُ مَلَائِينَ
سِنِينَ فِي الْوَادِي، صَنَعَتْ طُرُقًا وَخَوَاجِزَ وَمَغَارَاتٍ، تَتَخَلَّلُ الرِّيحُ
مَسَافَاتٍ بَيْنَهَا فَتَحْدُثُ صَفِيرًا وَسَطَ ضُجَابٍ يَهِيمُ قَرَبَ الْأَرْضِ لِيُخْفِيَ
بُغْىَ السِّيْقَانِ.

وَقَفَ عَبْدُ الْقَادِرِ مُتَدَنِّرًا بِمِعْطَفٍ وَكَوْفِيَّةٍ وَفَوْقَ رَأْسِهِ كَاسِكِيْتٌ
سَوْفَ لَمْ يَغْنِيهِ مِنْ بَرْدٍ، أَطْرَافُ أَنْفِهِ وَأُذُنِيهِ تَكَادُ تَقَعُ مِنَ الصَّقِيعِ، عَانَى
شَعْلَ سِيَّجَارَةٍ وَسَطَ الرِّيحِ وَسَبَّ أَحْمَدَ كَبِيرَةٍ فِي سِرِّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَبْلَ
، يَظْهَرُ الْأَخِيرُ، مُرْتَدِّيًا زِيَّ صَعِيدِيٍّ مُلْتَحِقًا بِشَالٍ أَخْفَى نِصْفَ وَجْهِهِ
بِحِمْلٍ فِي يَدِهِ مَشْنُوَةٌ فَوْقَهَا مَنْدِيلٌ، بِلَا كَلِمَةٍ تَأْمُلُ الْمَكَانَ مِنْ حَوْلِهِ
مُنْتَكِشًا قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ وَجْهَهُ وَيَقْتَرِبَ.

- مَالِقِيْتِشْ غَيْرِ الْحَتَّةِ دِي نَتَقَابِلْ فِيهَا.. أَنَا نَشَفْتُ مِ الْبَرْدِ.

لَمْ يَجِبْهُ أَحْمَدُ.. انْشَغَلَ بِإَخْرَاجِ مَنْدِيلٍ مَحْلَاوِيٍّ كَبِيرٍ مِنْ جَيْبِهِ..
حَدَّ وَأَخْرَجَ مِنْهُ عُدَّةَ صُورٍ نَاوِلَهَا لِعَبْدِ الْقَادِرِ.. صُورًا مُلْتَقِطَةً فِي
سَوَارِعِ لُرْجَالٍ غَلَاظٍ يَرْتَدُونَ السِّتْرَاتِ فَوْقَ جَلَابِيْبِهِمْ وَفَوْقَ رُءُوسِهِمْ
رَابِيْشٍ مُسْتَقِيمَةٍ مُلْقَاةٍ إِلَى الْخَلْفِ.

- مين دول؟

- دي صور المخبرين اللي ممكن تقابلهم يوم التنفيذ.. عاوزك تحفظهم كويس عشان لو قرب حد فيهم أو اشتبه فيك قبل وصول الهدف هاتلغي العملية.. حظهم في جيبك.. تحفظ أشكالهم كويس وترجعهم لي ثاني.

دسّم عبد القادر في جيبه بعدما قلبهم سريعًا حين أخرج أحمد من سيالته مسدّسًا.. أخرج ساقيته وأدارها ليطمئن على سبع رصاصات تبيت بداخلها قبل أن يُغلقها ويُمسك المسدس من ماسورته ويناولهُ لعبد القادر.

- قلت لي إنك بتعرف تضرب نار؟

- كان معايا رشاش «ماديسن» ألماني.

- المسدّس حاجة ثانية.. محتاج قرار صح لأن طلقاته محدودة.

جذب عبد القادر إبرة الضرب وصوّب على زجاجة بيّرة فارغة وقريبة نسيًا.. وأطلق طلقتين.. أصابتها الرصاصة الثانية فتناثرت شظاياها بدوي مزعج.. نظر لأحمد في سخرية فالتقط أحمد منه المسدّس وصوبه إلى عُصن رفيع متحجّر يبعد عنهم مسافة كبيرة.. جذب الزناد وأطلق فأصابه قبل أن يُعطي المسدس لعبد القادر.

- هاتحتاج شوية تمرينات عشان المُسدس خفيف عليك.

- هو أنا هانفذ العملية بالمسدس؟

- لا.. بالقبيلة.

- آمال إيه لازمة المسدس؟

- يعني.. يمكن تعرف تهرب.

ابتلع عبد القادر ريقه فجلس أحمد على صخرة وأشعل سيجارة فيما
أما عبد القادر التصويب على أهداف من الشجر المتحجر.. بعد عشر
صاصات وإرشادات من أحمد تركزت في طريقة الإمساك الصحيحة
للمسدس وتنظيم النفس تمكن من إصابة أهداف بعيدة نسيئاً قبل أن
يقنه أحمد بعض التعليمات بشأن زر الأمان وإخفاء المسدس وطريقة
تجه أجزأة والتخلص منه في حالة التتبع.. حين انتهيا دس أحمد يده
حت منديل المشنة والتقط عبوة أسطوانية متوسطة الحجم.. ناولها
بهد القادر:

- دي عروستك.

!!....

نظر عبد القادر للمعبوة بروع فأردف أحمد:

- لو خفت منها مش هاتعرف تستخدمها.

بحذر التقطها عبد القادر من يده.. وزنها.. تأملها كما يتأمل المرء
ببل مشنقته أو رصاصة أخيرة في مسدس انتحاره.

- هاحس بحاجة؟ سأل عبد القادر.

- القنابل دي بتنفجر قبل ما توصل الأرض.. قبل ما تستوعب
هاتكون في عالم ثاني.

.... -

- لَسَّة القَرَار في إيدِكَ!

- أنا مش متردد.

التقطها أحمد من يده بحذر وابتعد خطوات قليلة إلى سفح منحدر
يطل على واد صخري متوسط العمق.

- ركّز كويس.. عشان تخلط المحاليل جوة العبوة لازم نشد الحبل
ده الأول.

وأشار بيده إلى دوبارة غليظة تتدلى من منتصف القبلة.

- لما تشد، السوايل بتختلط.. أنت كده في مرحلة الخطر.. أي رجّة
غير محسوبة هاتنفجر فيك.. سنة خمستاشر شاركت زميل ليا في
رَمي قبلة على السلطان حسين كامل.. كنا بنجرّب القنابل هنا
في الغابة برضه.. وفي يوم اتأخر لحظة في رمي قبلة.. انفجرت
بَدري.. شظية منها قطعت صُباعه ده.

وأشار لإبهامه ثم أشار إلى صدغه: وعملت لي الجرح ده.

ابتلع عبد القادر ريقه: وصاحبك ده مات؟

- لا.. عايش.. مسجون مزيد في سجن طره.. راجل.. عذبه رفض
يعترف عليا... المهم.. رَميتك لازم تكون هادية.. استعمل ثقل
القبلة في إنك تمرجحها مرة وترميها على المكان اللي هايكون
فيه الأوتومبيل بعد ثوانٍ.. لاحظ إن الموكب ييمشي بسرعة ستين
كيلو في الساعة على الأقل.. يعني لازم توصل العبوة في نفس
وقت مرور الأوتومبيل.

وضع أحمد القنبلة بجرح على الأرض ثم التقط حجراً أرجحه في
هواء مرة قبل أن يرفعه عاليًا مُستقلًا ثقلاً ويطلقه من يده ليسقط على
بد عشرة أمتار منه .

- فهمت ؟

- فهمت .

- داري روحك ورا الجذع اللي هناك ده وركز معايا .

ابتعد عبد القادر قبل أن يستتر أحمد خلف صخرة كانت يوماً
حجرة .. تابعه عبد القادر وهو يجذب الدوبارة الغليظة قبل أن يورجح
ه في الهواء بالعبوة فيلقبها عاليًا ويخني رأسه .. قبل أن تلمس الوادي
بشر واحد انفجرت محدثة دويًا شديدًا وصدى ضرب سفح الجبل
تردد في الفراغ .. ساد الدخان الخائق للحظات قبل أن تبدده الريح ..
برجا من سائرهما يسمعان طينًا يصم الأذان .. طل عبد القادر على
مكان الانفجار فرأى حفرة حديثة تتصاعد منها الأدخنة .. بهدوء سأل
حمد: تجرّب؟ هز عبد القادر رأسه موافقة دون أن ينبس بكلمة .. ناوله
حمد عبوة أخرجها بعناية من الحقيبة .. التقطها عبد القادر في حذر
لم تبارحها عيناه .. أشار أحمد إلى الدوبارة الغليظة ثم ابتعد في هدوء
أشعل سيجارة قبل أن يستتر خلف شجرة .. لحظات ووقف عبد القادر
بلف الصخرة .. نظر لأحمد الذي ابتسم وهز رأسه محثًا إياه أن يلقبها ..
سحب عبد القادر نفسًا إلى صدره ثم جذب الدوبارة بحذر وأرجح يده
م طوّح القنبلة في الهواء بصرخة عصبية وارتدى على الأرض بسرعة
تاميًا رأسه بيديه .. لم يحدث انفجار .. ظل على هذه الوضعية لدقيقة
أمللة حابسًا أنفاسه حتى لكزه أحمد بمقدمة حذائه :

- قوم.

- ما انفجرتش!!

- لأن فيها مية.

وقف عبد القادر يحذر ونظر للعبوة التي نثرت المياه حولها قبل أن ينظر لأحمد بغضب: هو إيه أصله ده؟

- بقول لك صديق ليا طار صُباعه في غلطة.. أقوم أنا ولك قنبلة حقيقية في أول مرة تدريب؟ المرة الجاية ترمي واحدة حقيقية.

قالها أحمد وتركه مُحاولاً السيطرة على غضبه.. التقط بقايا العبوتين ووقف بجلبابه المَكسو بالتراب كفلاح انتهى من بلر أرضه حين اقترب عبد القادر.

- ليه قودت إني أنا اللي اقتل الرجل ده بالذات؟

- عملنا قرعة على اللي يقتله وطلع اسمك.

- بس كده؟

- بس كده.

- يعني صُدفه؟

- كل القرارات التاريخية مبنية على الصدف.. الحرب نفسها قامت صدفة.

- وليه الراجل ده بالذات؟

- بعد ما رمينا القنبلة على الوزير اللي قبله كش واستقال.. اتَهزّت الوزارة والإنجليز اتجننوا.. مَما حدش قابل يمسك المنصب

في ظل الحماية.. حتى لما السلطان عمل معاش مُستديم مدى الحياة للوزراء عشان يغريهم والإنجليز زودوا الحراسات عليهم.. برضه الناس لسة بترفض.. خايفين.. مسمينًا المتطرفين.. يبجي محمد شفيق وسط كل ده ويقبل ثلاث وزارات بياشرهم في وقت واحد.. أشغال وحريية وزراعة!

- يابن الكاااالب.. طب وبالنسبة لي.. لو تَفَدت؟

- من القنبلة وحرس الوزير؟ دي القصة الثانية اللي هاندرسها تمام.

التقط أحمد غصنًا يابسًا ورسم على الرمال دائرة كبيرة.

- إحنا مَسَحنا المكان واخترنا موقع التنفيذ.. ميدان الضاهر.. عند ناصية الشارع ده مع آخر ترام ١٧.. ده طريق الهدف من بيته للوزارة كل يوم.

ثم نغز الأرض بنقطة بين مُربعين رسمهما على أطراف الدائرة.

- هاتقف هنا.. بين دكان مانوسيان بتاع الدخان.. والمراحيض العامة.. عشان تكون مَذاري من اليمين والشمال.. الساعة تمانية ونص بالظبط بيخرج الوزير من بيته.. تسعة إلا تلت بيكون في الميدان.. هاتكون متنكّر.. حضّرنا لك هدوم سفرجي.. تلبسها فوق هدومك العادية.

- اشمعني سفرجي؟

- هاتفرق معاك؟

- لا.

- سفر جي عشان طيعي إن السفرجية الصبح بينزلوا يشتروا طلبات البيوت.. قبل نص ساعة من وصول الهدف هايعدي جنبك واحد يسيب لك السَّبَّ ده.. وقبل وصول الوزير بدقيقة هايعدي قدامك موتوسيكل فيه واحد مننا.. هايرمي تحت رجلك جُرْنال.. ده معناه إن الموكب على بعد لحظات منك وإن الهدف في الأوتومبيل اللي وراه.. أول ما تشوفه ترمي القنبلة.

سكت أحمد للحظات نظر فيها إلى عينيَّ عبد القادر اللتين لم ترمشا قبل أن يرسم على الرمال أربعة شوارع متفرعة من الميدان.

- لو حرس الوزير ما قدروش عليك - وأشار في الرمال إلى شارع خلف نقطة وقوف عبد القادر - هاتهرب من شارع النزهة.. تجري بأقصى سرعة.. بعد ناصيتين هتلاقي على شمالك خرابة.. ترمي فيها هدومك والمسدس.. هاتلقطهم منك زميل ها يكون مستيك.. وتمشي بعدها عادي وما تبهش وراك.

- أروح على فين؟

- هاتعرف بعدين.

لاحت ابتسامة على وجه عبد القادر من بين غبار المعركة التي دارت نظرياً أمام عينيه فأمسك أحمد بقدميه وأنزله من سماء الأحلام.

- ده طبعا لو نجيت من القنبلة ومن الحرس.

اكفهر وجه عبد القادر وكسته الجدلية قبل أن يسأله:

- ولو اتقبض عليا؟

- دي القصة الثالثة.. تحت الضغط طبعا وارد تتكلم؟

- أنا راجل ابن راجل.

- الإنجليز ما عندهم مش حدود للتعذيب.. إحنا فعليًا مالناش تمن بالنسبة لهم.

- أنا بيعت نفسي للموت.. هاحضن قنبلة وأقف قدام الرصاص وعملتها قبل كده.. مش هاتفرق لو عذبوني.

- هانشوف.. ركز معايا.. لو الوزير عاش.. يبقى أنت حاولت تهدده وتخوفه عشان وافق يقبل الوزارة وخان البلد.. يعني ماكانش فيه نية تقتله.. مفهوم.. وده ممكن يخفف الحكم من إعدام لأشغال شاقة.. افكر.. الاعتراف بنية القتل يعني إعدامك.

- ولو مات؟

- مش هانقدر نهرب من الإعدام.. وساعتها يبقى تقول إنك قتلت عشان يبقى عبرة للي يمسك الوزارة في فترة الحماية.. ولو ما قدرتش تستحمل التعذيب الورقة دي هتلاقي فيها ثلاث أسماء ممكن تذكرهم.

- افتن!!!

- تفتن إيه! دي أسماء بعض الخونة اللي عاوزين نتخلص منهم..

- فهمت.. وأنت هاتكون فين؟

- مش هاسيك لحظة.. فيه حاجة كمان...

قالها وأخرج من جييبه قرصًا صغيرًا جدًا لونه أبيض مغلفًا لموفان داكن.

- في حالة التعذيب الشديد أو التهديد بالقتل.. ده قرص سيانيد.

- بسم؟

- ثلاثين ثانية بالظبط.. مش هاتلحق تحس بحاجة.

- ما يلزمينش... التنفيذ إمتى؟

- لما القنابل تجهز.

ساد الصمت لحظة فتوقفت الريح احتراماً قبل أن يُردف عبد القادر:

- أحمد.. لو مت...

عاجله أحمد: أمك والحنة كلها هاتعرف دورك يا عبد القادر..
والأهم من ده كله بلدك.. مش هاتروح هدر.

هز عبد القادر رأسه وزفر نفساً حاراً يحرره التوتر حين ربت أحمد
على كتفه.

- كفاية عليك كده النهاردة.. بكرة نعاين مكان التنفيذ.. وبالليل
عازمك على العشاء.. أهم حاجة تحافظ على هدوء أعصابك.

كان يعرف أن كلماته لا ثبت طمأنينة في شخص تقرر مصيره مقدماً..
الساثرون إلى الموت دائماً يتبعون الخطوات نفسها.. سيودع النوم
عينيه.. سينظر للشوارع والناس كأنه يراهم لأول مرة.. سستناباه فرحة
مبالغتها يتبعها صمت مطبق ووجوم.. سيختم إنجيلاً أو قرآناً أو تورا
ويبتهل في كل لحظة.. أو يطوف بينات الأرض جميعاً يشرب
من رحيقهن ليخفف روعه.. كل من ودعهم أحمد بعدما أعدهم لم
يخرجوا عن ذلك الخط.. وفي النهاية.. إما إلى سجن.. وإما إلى قبر.

ودائماً كان القبر أخف وطأة.

برد فبراير أخرج من الأفواه بُخارًا وأخفى أيدي المارة في الشُّترات،
ان الوقت قرب المغرب حين وصل أحمد وعبد القادر إلى ميدان
ظاهر، في خطى متمهّلة اقتربا من مكان إلقاء العبوة المُحتمل،
متوَعِب عبد القادر جغرافيا المكان قبل أن يتمشيا في شارع النزهة
تتّى رأيا الخرابَة، تمم أحمد على خط السير قبل أن يشقّا طريقهما تجاه
ر «كافيه إچييسيان»، كان عبد القادر على مَوْعد عشاء على شرف قيامه
لمهمة، طقس يحرض عليه أحمد مع كل روح قبلت التضحية بنفسها
ن أجل الاستقلال، وداع بسيط ورسالة شكر وتقدير من المنظمة إلى
يد لا يكاد يعرف من الأعضاء أكثر من أربعة أفراد.

قُرب ناصية شارع المغربي المُطلّة على ميدان إبراهيم باشا وحين
حرفا ليمبرا الشارع استوقف عبد القادر النداء: عبد القادر أفندي...
نفست الأخير فوجده.. يقف في بقعة مظلمة أمام جدار.. اقترب.. لم
يلح الشال القريض المكبوس تحت طربوشه غير المُستوي في إخفاء
جبهه المتعجن كشمعة ذابت فوق جذع يابس ولا عينه التي احترقت
بيضت.. بث النفور في وجه أحمد الذي تفحصه بشك قبل أن يمد
.. إلى عبد القادر زاحفًا:

- عاش مين شافك يا عبد القادر أفندي.

اقتضى الرد من عبد القادر لحظات حاول فيها تخطي بشاعة التشوّه
في وجهه واستحضار كلمات تنهي اللقاء بسرعة:

- أهلاً يا سلامة! بتعمل إيه هنا؟

- درب طياب زيونه شاحج.. بقالي فترة باجي أسحب من هنا.

- الرزق يحب الخفية.. سلم على نسوانك.

- ما اتعرفناش بالأستاذ!

نظر عبد القادر لأحمد الذي أجاب سلامه بلا تردد: فهمي.

- عاشت الأسامي يا فهمي أفندي.. مفيش كده أبداً لطف

ومفهومية.. إحنا لازم نتعرف.. تشرفني مرة في البيت.. فركة

كعب لغاية درب طياب.. محسوبك سلامة النجس...

باستغراب نطقها أحمد: نجس!!

- عدم اللامؤاخذه اسم اتعرفت بيه من صفري.. شقاوة عيال..

دلوقتي بيقلوا سلامة المحروق...

قاطع عبد القادر فيض التعارف فسحب أحمد من ذراعه:

- يدوبك يا سلامة عشان عندنا مشوار.. سلامو عليكو.

مدّا خطواتهما ابتعاداً.. عبرا الميدان واتجها صوب شارع وش

البركة.. تبعهما سلامة رافعا ذيل جلبابه.. أسرع حتى لحق بهما:

-- خدوني معاكم.. كده كده رايح وش البركة.

لم يعرفه عبد القادر انتباهاً ولم يشأ أن يفتعل شجاراً أو ينهره فسلامة

إن كان يجيد في الحياة شيئاً من بعد القوادة فهو التجريس.

بعد بضع خطوات بدأ سلامة في الثرثرة، يلغو كيبغاء حَيَّيس، حَكى
هَن بِنِة التي باتت أكثر عصيية وتحكُّم، وعن مَنية «السودا» التي
أصابها داء الزهري وكيف سَرَّحوها من الخِدمة بدكاء قبل أن تحتضر
أمامهم وتلوث الفراش وسمعة البنسيون، ثم حكى عن السوق من بعد
الاضطرابات وكيف ابتعد جنود الإنجليز عن درب طياب خوفاً على
أنفسهم من العمليات الانتقامية التي ينفذها «المتطرفين المخابيل»
الله يخرب بيت أهاليهم، قبل أن يسأل عبد القادر فجأة عن ورد إن كان
لمحها، اكتفى عبد القادر بهزة رأس نافية وكانا قد وصلا إلى البار فترك
أحمد يتعدَّ عُدَّة خطوات والتفت لسلامة ووضع يده على كتفه:

- سلِّم على بِنِة.

أخرج سلامة من جيبه ورقة صغيرة وسحب عبد القادر خطوتين
بعيداً عن أحمد: مش عاوز كوكو؟

- لا أنا خلاص.

دَسَّها سلامة في كَفِّه: دي واجب من عندي.

نظر عبد القادر للورقة التي استقرت في راحته بتردد ثم التفت
لأحمد الذي وقف أمام البار ينتظر للافتة عليها صورة بديعة مصابني
قبل أن يرجع لسلامة الذي أردف: النبي قَبِل الهدية.

- ماشي يا سلامة.. تُشكر.

ربت عبد القادر على كتفه وابتسم مضطرباً وابتعد قبل أن يستدركه
سلامة: لو.. لو شفتها.. ابقى أذيني خبير.

رفع يده فأنكشف نصف وجه ذائب فامتعض عبد القادر:

- ماشي يا سلامة.. ماشي.

ابتسم سلامة في ودواخفى وجهه ثم عبر الشارع إلى ناصية مقابلة للبار.. استقر ورمى شباكه.

- مين النجس ده؟ وإيه اللي شوّه وشه كده؟

سأل أحمد فأجابه عبد القادر: قصّة طويلة أحكيها لك بعدين.



بعد أن أوّسد مزلاج الحمام وقف عبد القادر أمام مرآة وأسند يديه على حافة الحوض، على ضوء الللمبة الصفراء تأمل عَيْنين تشعبتا بعروق حمراء وسواد جرى تحتها، شفيتين بهت لونهما ويدين ترعشان، الأرق كان قد نخره كشجرة مريضة تقاوم السقوط في أي لحظة، منذ عَرَف بالمهمة الموكلة إليه غادره النوم بلا رجعة، أن يعرف ميعاد موته، أن يُقتل أو يعيش مشوّهاً في غياهب سجن، أن يهرب، أكثر ممّا هو هارب، تلك كانت قائمة الاختيارات الإجبارية التي عليه أن يواجهها بعد أيام.

لم يشعر عبد القادر يوماً بما يشعر به الآن رغم ماضيه مع البوليس والإنجليز، الألم يفزوه كجسمار طويل بارد يخترق الضلوع، ضيق صدر وثقل لم تعد تحتمله الأكتاف، وفوران يجري في عروقه ليسعر ويحرق، هياج، هياج اسمه دولت، انقلق والخوف من الزمن القصير المتبقي هيّج ذكوره وبت فيه رغبة معمومة ناحيتها، يُريد أن يندفن فيها، يخبئ، يبكي بحرقه ويصرخ، مرة أخيرة، قبل أن يودعها.. مدّ يده ولفك البايون الذي يطبق على رقبتة وحرر الزر، شهق نفساً طويلاً إلى

رتبه ثم أخرج من جيبه ورقة سلامة الصغيرة، الفرج المسحوق الأبيض فوق الحوض ثم سجد بأنفه خشوعاً، كاد يستنشق أولهما قبل أن يمسك برأسه ويقوم، ضرب الحائط بقبضته ثلاث مرات ثم نظر لنفسه في المرأة، مسح دَمْعَة لإرادية وهو يرمق البودرة، قبل أن يُعثرها بكفيه وينثرها، سَوَّى بعد ذلك قميصه بسرعة وعقد البايون ثم أسكت نهيجه بصفعة على خدّه، غَسَلَ بعدها وجهه بالماء ثم خَرَجَ.

صوت الموسيقى بدأ أضعافاً مضاعفة في آذنيه، أبواق حرب تزوم، تماسك وتخلل الرءوس حتى وصل لمنضدة بعيدة نسبياً عن المسرح جلس إليها أحمد، بلا كلمة ارتدى بجانبه وأشعل سيجارة، لفهما الدخان وصخب الموسيقى وضمت احترامه أحمد قبل أن يبدأ عبد القادر في ثرثرة طائشة تتخللها ضحكات عصبية وحركات يدين كافح أحمد كيلا تطيح بزجاجة النيذ المفتوحة، حكى ذكريات طفولته ونشأته، اجتر كيف كان مهاباً، قدوة أقرانه من أبناء الحي ومحطّ حَسَدِهِمْ، حكى عن نسوته اللاتي هَمَنَ فِيه عَشْقًا وعن معاركه ضد أنداد أذاقهم الهزيمة بقوته المفرطة، ثم اكتأب حين جرى لسانه يذكر أبيه، سكّت واكفهر وجهه، شرد، ثم هرب ثانية إلى مغامراته مع فتيات الحي ونسائه، ضرب خمس كتوس نيذ قبل أن يغلّي أحمد حافة كأسه السادسة بأصابعه.

- كفاية يا عبد القادر عشان نعرف نروّح.

تحولت ثرثرته فجأة إلى سيرة بيت بنية وعاهراتها، وعن قصّة تشوّه سلامة بالنار من مصباح الكيروسين، وعن ورد التي لم يقابلها أحمد، ضحك بهستيريا قبل أن يصمت تمامًا، نزل الطعام في الأطباق حين

بدأت فقرة بديعة مصابني في العزف، انسابت الفتيات كالـمياه الجارية يُحطِن بديعة من كل جانب، وفي الخلف، دائماً في الخلف، كانت ورد تتفتح، ورد التي نسيت اسمها للمرة الثالثة من «فارتو هي» الأرمنية إلى «ورد» المصرية ثم «لينا» الشامية، مَسَحَت الصالة من وراء القناع قبل أن تعلو شفيتها ابتسامة حين وقع بصرها على أحمد فرفعت ذقنها تحية، ابتسم الأخير ثم تابع عبد القادر الذي تأرجح بين متابعة الفرقة والرغبة في الثروة ليطمئن نفسه، أكل جُزءاً من شريحة اللحم ثم تيسس كتمثال لم ينته منه نحاته، ينظر للشوكة بين أصابعه حتى طقطق أحمد أصبعيه فتنبه.

- أنت شامم؟

- أنا مبطل البودرة من زمن.

التفت أحمد ليتابع لينا بين الراقصات تنماوج.. عُصفور يشنهي قصصه الاختياري.. كان قد دأب على زيارتها أسبوعياً.. تنتهي من فقرتها فتأوي إلى منضدته.. يتبادلان حديثاً مفتوحاً وأخباراً طازجة.. عن كل شيء.. إلا عنهما.. وخاصة الماضي.. اتفقا بدون أن يتفقا على أن يغلقا سيرته ولا يتطرقا إليه طالما أرادا الاستمرار في اللقاء.. لا هو يُريدها أن ترى الدماء على يديه ولا هي تريد أن يخوض مبتراً في أحوال ماضيها بيت العُهر.. اكتفيا منذ زمن بانجذاب صامت ورغبة ناضجة تعمي تماماً أن الوقت غير مناسب إلى أن يصبح.. مناسباً.. وأن أي كلمة حب ستعني حتماً بداية سريعة لنهاية.. مع كل لقاء تزداد فيه حفرًا ويزداد هو معها شوقاً وتعوداً.. لم تُمحَ ذكرى نازلي فيه.. ظل تخوين الأنثى حاضراً لا يختفي وإن وهن.. كانت تطرق على قلبه كنقاط المياه.. نقاط مُلحّة متواصلة مستمرة.. نقاط بعد وقت تغلق الحَجَر.

- انتشله من شروده صوت عبد القادر الذي حبّ كأسه السابعة.
- مرافقها بقالك كثير؟ ولّا حُب؟
- التفت إليه أحمد: ١١...
- المزمازيل اللي عينك ما فارقتها لحظة.. أم ريش أسود دي..
- لينا؟ لا دي صديقة عزيزة.
- صديقة! مفيش هنا أصدقاء.
- ممكن تمسك نفسك عشان هاتخلص نمرتها وتيجي تقعد معنا شوية؟ مش عاوز لخبطة في الكلام.
- يعني آخر مرة هاكون معاك ومش عاوز تفتح لي قلبك؟
- أنا ما قلتش إني بحبها.
- مش لازم تقول.. عينك فاضحاك.
- أنت سكران.
- أنا ما بسكرش.. أنت مكسوف.. بقه بدمتك جاييني من قفايا لغاية هنا عشان تعزميني ع العشا؟ أنت جاي تشوفها.
- أبوة جاي أعزمك ع العشا.. وأشوفها.. فيها حاجة؟
- مفيش.. بس برفكس المزمازيل.. عود يوناني أكيد؟
-
- تبقى إيطالية.. العود ده إيطالي.
- بنفاد صبر ألقاها أحمد: أرمنية.

قاطعه أحمد: أنت قلت النسوان مرتين!

- حاسس إني لما أقابله مش هايقابلني.. هايقول لي أمشي أجري
ياض يا عبد القادر أنا ما خلقتكش.. أنت شيطاني.. ويسيب
عليا زبانية جهنم ترثني علقمة سخنة وتولع فيا ويرموني من
فوق السحابة.

- طب وهاتعمل إيه؟

- هارجع أقعد عند بنته.. وأشتغل معرّص مع سلامة النجس.. ما هو
أكيد هو كمان هايطرّد بوشه الملحفن ده.. أقعد أطير كده عنده
في سقف الشقة.. وأزوم بصوت عالي وأرعب النسوان.. بالذات
بهية القعر.. أصلها مفترية أوي بنت الكلب.. س عليها حنة...

قاطع خواطر النبيل تصفيق رواد القاعة حين انتهت الرقصة..
انسحبت الفرقة وانسكب الستار على المسرح وكان آخر ما رأى أحمد
نظرة وعد من صاحبة القناع.. «أنا آتية».. هذا التصفيق فظهر صوت
عبد القادر الذي لم يتوقف عن الكلام.

- رُحت راقعه قلم كوّعه زي أسير يوناني وقع في إيد الترك..
وهبشته لو كامية طرقت عظام وشه وبعدين جرجرته م الجاكّة
وقلت له إياك أشوف وش أمك هنا ثاني يا خبؤ.

- أنت بتكلم عن إيه!!!

- عن سعيد جرح اللي ضربته في الزرايب.

- أنت إيه اللي وذاك الزرايب.. مش كنت بتكلم عن ربنا؟

- أيوة صحيح.

- أنت بتضحى بنفسك عشان بلدك.. وده وزنه كبير عند ربنا
يا عبد القادر.

- يعني هايقابلني؟

ابتسم أحمد: هايقابلك.. ومش هايقول لك امشي اجري يا ض
يا عبد القادر أنا ما خلقتكش!

شردت عينا عبد القادر في الفراغ وارتعشت ابتسامة في عينيه حين
اقتربت لينا.. في منتصف طريقها ابتسمت لأحمد قبل أن تتفحص
بعينيهما الجالس بجواره.. أبطأت خطواتها للحظة حين تأملت وجه
عبد القادر ثم توقفت بغتة.. رَمَقَهَا أحمد باستغراب قبل أن يرفع يده
مُشيرًا لها أن تقترب.. كجسمار غُرِز حتى رأسه في الأرض لم تتحرك..
انتبه إليها عبد القادر ولم تزدها نظره إلا إصرارًا على الانسحاب..
الهرب.. نسيت أنها ترندي قناعًا.. أنها لم تعد ورد.. قام أحمد لرفعت
كفَّها تستيقه.. اقترب فتوترت أطرافها.. رواد منضدة بجانبها لاحظوا
ارتعاش أصابعها في استغراب.. قام أحمد فابتعدت خطوة.. صبت
وجهه استغرابًا وحدث في عينها حين دارت على عقيبها.. استبَّها
حتى التقط عضدها.. التفتت.

- فيه إيه؟ مالك؟

- تعبانة.

- حاسة بيايه؟

- دايدة شوية.

- تعالي اقعدي واشربي حاجة مُنعشة...

قاطعته: ما في داعي.. أنا روح أروح...

قاطعها: مفيش داعي إيه! أنا مش هاسيبك تمشي وأنت تعبانة.

كان ذلك حين برز عبد القادر من وراء كسف أحمد.. نظر إليها بابتسامة ثملة قبل أن يمد يده:

- كينيش.. بيس.. يك؟ ثم نظر لأحمد وترجم: يعني كيف الحال بالأرمني.

رمقته ورد للحظات ثم أجابته: أحمد الله.

- بتتكلمي عربي!! إيه يا مازيل! أنا شكلي يخوف أوي كده؟ اسم القمر إيه؟

استغرق الرد منها نصف دقيقة: لينا.

سلمت عليه فلكم يدها تحية.. لم تملك رفاهية الانسحاب.. تقدّمهما عبد القادر إلى المنضدة فجلسوا.. صَبَّ عبد القادر لها كأس نبيذ فامتنت.. أنفاسها تهدّجت وهي تتابعه من خلف القناع.. ابتسم فأولّت وجهها شطر الصالة المفتوحة متفادية النظر في عينيه حين لمح في عنقها ثلاث حسنات متجاورة! ثلاث حسنات لفتت نظره من قبل!! في رقبة أرمنية شقراء.. صعد بعينه فلمح لون الذهب في منابت الشعر يقاوم الصبغة السوداء.. نزل إلى رسخ مكتظ بأساور لم تخفي أثر جرح انتحار قديم.. طار الكحول من رأسه دفعة واحدة.. رمقها لدقيقتين وهي تستمع لكلام أحمد قبل أن يهمس بخفوت حين التقت أعينهما: ورد! نظرت إليه ففهمت قبل أن يقاطعهما أحمد: حاسة بإيه؟

نظرت إليه ولم تُجبه.. كانت تنتظر ضربة استباقية من عبد القادر لكنه لم يفعل.. رمقها طويلاً ثم نظر لأحمد الذي لم يقرأ في عينيه شيئاً حين عزفت الفرقة لحنًا من موسيقى الفالس.. ترقص؟ على غير عادتها طلبت من أحمد.. استغرب طلبها وإن لبّاه بلا تفكير.. قامًا تاركين عبد القادر الذي لم يرفع عينيه عنها.. يسأل نفسه: «هل يعرف أحمد ناريخها؟ هل يحبها؟».. لم يجد إجابة فصب كأسه الثامنة.

توسّطت ورد المرقص بين ذراعي أحمد قبل أن تدفن نفسها في حُضنه.. لحظات من التمايل غير المتماشي مع إيقاع أغنية It's time to say good night قبل أن يسألها: مالك النهاردة؟

- مين هادا الشخص اللي أنت قاعد مَعه؟

- صديق..

- من وين بتعرفه؟

- بتشبهني عليه؟

هزّت رأسها نفياً ولم تعقب.. تنظر لعبد القادر فتهرب بعينيها.. صُدّرت إليه ظهر أحمد متوازية من عينيه الثاقبتين فسألها:

- فيه حاجة مزعلاكي؟

- بفكر أمشي من هون..

- هاتروحي فين؟

- كل مرحلة وإلها مطالبها.. عم يافكر أرجع سوريا.

- سوريا؟!

- بلدي.. رح أكون على راحتى هناك.

- ده كلام فارغ.. الأتراك مش هايسيبوكى فى حالك.

- ما عم بحس بأمان طول الوقت.. عم بحس إني بختنق.. ما عدت قادرة اتنفس.

- أمان! أنت تقريباً مش بتخرجى من البار يا لينا!

أشاحت بوجهها: الظروف بتبدل.

صَمَتَا فاشتعل الصِّراع فى نفسه كما اشتعل منذ تسعة أشهر.. البحث عن تعريف لوضعه من بعد نازلى كان أمراً مُعقّداً.. يحتاج لقاموس لم يُكتب بعد.. سأل نفسه مرّات: «هل يُحب لينا؟ هل يشتبهها؟ هل يستأنس بها فقط؟ أم هو التعمُّد؟» كانت لخفّتها تتأرجح بين كل تلك المعاني ولا تملأ واحداً.. إلا أن فكرة فراقها كانت بثقل مِكواة حديدية استقرّت بين رتنيه.. مِكواة سَاخنة.. ضاق صدره واتقدت فيه عَصِيبة كبِبحها بصعوبة.. ضَغط على يديها فنظرت فى عينيه.. «أنا خايف أحبك».. ردّدها نفسه وقرّأتها وردّ قرنا ببصره بعيداً يشتكي إلى الموسيقى.. «نازلى أهدتني رابطة عُنق.. ساحة جيب «زينيث» موديل السنة.. ومندبل مذيل بأول حرف من اسمها.. الـ Ni الملعونة.. قبل أن تأخذ رُوحى.. ثقتى فى الحب وفى نفسى.. ولدغة لن ألدغها مرّة أخرى فأظن يوماً أنني أهل للارتباط.. اخرجى يا نازلى من رأسى.. ابتعدى.. فلياكلك هينئاً مريئاً من زار شفّيتك بعدى.. سيكتشف بصماتى فى أول قُبلة.. امنحني الفرصة كي أحيّا ثانية».

- تتجوزني؟

صفعته ورد من وراء القناع وفي عينيها دموع تترقرق ثم أردفت:

- خدني من هون.. وديني لمطرح ما حدا يعرفه.. ما عدت أوثق
بحداء غيرك يا أحمد.

تجمد.. تيس.. سحب نفسا لم يخرج وصرب على قلبه ضربة أخيرة
لعل أحدا يفتح الباب.. قرأت في عينيه ترددا.. رفضا.. رمقته بشك ثم
اشتمت رائحة حرق ومرارة تأكلها.. سحببت أصابعها من بين أصابعه
فتركها تنسل.. ابتسمت بآلم.. قبل أن تبعد.. وقف عبد القادر مُحاولاً
استيعاب الموقف.. ظل أحمد في وضعه وسط الراقصين وحيدا حتى
لُفت الأنظار قبل أن يتشله عبد القادر.. أرجعه إلى المنضدة فجلسا.

- زعلتها؟

- مالذ؟

- مفيش..

- اسمها لينا؟ ده اسمها الأصلي؟

- بتسأل ليه؟

- لا.. أبدا.. أصل الأرستقراط دايما يغيروا أسماءهم.. تعرفها من
قد إيه؟

أجابه بشرود: تسع شهر.

- بتحبها؟

صَبَّ أحمد كَأْسًا تَجَرَّعَهَا دفعة واحدة ثم ترك الحِساب على المنضدة وقام: يَلَّا يينا.



قبل دقيقتين كانت ورد ترمق انعكاسها في مرآة عُرفتها الصغيرة التي آوت أحمد أياها حتى استشفي.. لم يتخذ الأمر أكثر من دقيقة تفكير.. راثعنها فاحت وقريبًا سينجذب الذباب.. عبد القادر سيفشي حتمًا ماضيها.. أفضل لها أن ترحل بكرامتها.. أن تهرب مرة ثالثة.. أخرجت حقيبتها التي أنت بها من قريتها المنكوبة في سوريا.. لملت ملابسها ودمست فيها الصورة التي تجمعها بأبيها وأمها.. كتبت خطابًا للسيدة بديعة شكرت فيه كرمها ورحمتها واعتذرت عن الاختفاء المفاجئ.. أغلقت حقيبتها وتركت قناع الريش بجانب المرأة قبل أن تتسلل من الباب الخلفي للبار.



حين خرج أحمد وعبد القادر إلى الشارع توقفًا تحت بافطة اتقاء للمطر الذي انهمر بشدة.. لحظات واستدار أحمد إلى عبد القادر مُجيبًا:

- مش عارف.

- مش عارف إيه؟

- مش عارف إذا كنت بحبها ولأ.. ساعات بحس إنني بحبها.. وساعات بخاف من الفكرة.

مَطَّ عبد القادر شَفْغِيه لَمَّا لم يجد ما يَقُولُ: «هَلْ هَلَاكَ هِرْفَت يَا صَدِيقِي
أَنْ حَبِيبَتِكَ تَخْفِي عَنْكَ اسْمُهَا الْحَقِيقِي وَمَا ضِيءُهَا مَهْمَا وَرَاءَهُ ١٩٢٠» كَانَ ذَلِكَ
حِينَ لَمَحَهَا عَبْد الْقَادِر تَخْرُجُ مِنَ الشَّارِعِ الضَّيِيقِ الْمَجَاوِرِ لِلْكَافِيهِ
حَامِلَةً حَقِيقِيَةً مَتَوَسِّطَةً وَتَحْمِي رَأْسَهَا مِنَ الْمَطَرِ بِجَرِيدَةٍ.. قَبْلَ أَنْ
يَلْمَحَ سَلَامَةَ النَجَسِ فِي الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ.. يَقِفُ عِنْدَ النَّاصِيَةِ يَبَادِلُهُ
الْإِبْتِسَامَ بِنَصْفِ قَمٍّ.. يَطْوِي الزَّمَانَ وَخَفَّتِ الْأَصْوَاتُ بَغْتَةً.. سَلَامَةُ
أَدَارَ رَأْسِهَا نَاحِيَةَ الْيَسَارِ.. نَاحِيَةَ وَرْدٍ.. سَيَعْرِفُهَا.. سَيَعْرِفُ الشَّارِعَ رَكْضًا
نَاحِيَتِهَا وَهُوَ يَسْتَلُ مِطْوَاتِهِ الْمُقَوَّمَةَ مِنْ جَيْبِ جُلْبَانِهِ.. سَيُدْرِكُهَا قَبْلَ
أَنْ تُدْرِكَ الْمَسْكِينَةَ اقْتِرَابَهُ.. سَيَسْلُ ذِرَاعَهَا يَدًا وَبِالْيَدِ الْآخَرَى سَيَغْمِدُ
نَصْلَهُ بَيْنَ ضُلُوعِهَا.. سَتَسْقُطُ وَلَنْ تَلْفِظَ أَنْفَاسَهَا الْآخِرَةَ قَبْلَ أَنْ يُمَزَّقَ
وَجْهَهَا وَيَسْلَخَ جِلْدَهُ.. سَتُخْتَلِطُ دِمَاؤُهَا بِالْمَطَرِ قَبْلَ أَنْ تَتَسَرَّبَ بَيْنَ
الْبَلَاطِ الْمُحْدَبِ.

- سَلَامَةُ...

نَادَاهُ عَبْد الْقَادِر فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ.. لَمْ يُمْهِلْهُ وَقْتًُا لِلْإِجَابَةِ.. أَرَادَ أَنْ يَشْغَلَ
عَيْنِيهِ فَعَبَّرَ الشَّارِعَ رَكْضًا بَيْنَ الْحَنَاطِيرِ وَعَرَبَاتِ الدُّوْكَارِ تَارِكًا أَحْمَدَ
خَلْفَهُ.. مُتَابِعًا بَعَيْنِيهِ وَرَدَ الَّتِي تَوَقَّفَتْ وَالتَفَتَتْ بِفَرْعٍ حِينَ سَمِعَتْ اسْمَ
سَلَامَةٍ.. كَانَ ذَلِكَ حِينَ لَمَحَهَا الْآخِيرَ.. تَلَاقَتْ عَيْنُهُ السَّلِيمَةُ مَعَ الْعَيْنَيْنِ
الْفِيرِ وَزَيْنِ فَتَعَارَفُوا.. جَزَعَتْ مَلَامِحُهَا حِينَ حَدَّجَهَا سَلَامَةُ بِظَفَرٍ..
ذَنَبَ عَشْرَ عَلَى حَمَلِهِ الْهَارِبِ.. حَمَلَ أَشْمَلَ فِيهِ النَّارَ قَبْلَ أَنْ يَفِرَ بَيْنَ
الْأَشْجَارِ.. فَجَاءَتْ وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ عَبْد الْقَادِرَ رَكْضُ الْمُسْوَءِ.. فَزَعَتْ
وَرَدَ فَتَسَمَّرَتْ مَكَانَهَا وَسَقَطَتْ حَقِيقَتُهَا عَلَى الْأَرْضِ بِجَانِبِ قَلْبِهَا
تَحْتَ الرِّصِيفِ.. تَابَعَ أَحْمَدُ عَبْد الْقَادِرَ الَّذِي انْطَلَقَ وَرَاءَهُ

سلامة.. ثم رأى ورد.. لما أصبح سلامة على بعد أمتار أخرج مطواته..
تحركت ورد كغزالة متأخرة فجري أحمد ناحيتها في اللحظة التي طوَح
عبد القادر ساقه بين ساقَي سلامة الذي تعثر فسقط أرضاً.. ارتدى
عبد القادر فوقه حين قفزت ورد في حنطور مر من أمامها.. أمرت
العَرَبجي بالسرعة فَضْرَب كُرْباجه في الهواء قبل أن يصل أحمد..
نظرت إليه من بين خصلاتها المُبللة.. شاهدته يركض خلف العربة
رافعاً يده مُشيراً إليها أن تنتظر.. أن لا تترك طعنة إضافية بين ضلوعه:
«لينا استني».. صرخ فهَمَسَتْ: «إسمي مش لينا يا أحمد».

ابتعد الحنطور ولم يستطع أحمد مُجاراته.. كان ذلك حين هوى
عبد القادر على وجه سلامة بلكمة ثم جرّه إلى حارة بين بنايتين.. سَمَره
في الحائط بقبضته ثم أطبق على عنقه المَعجون قبل أن يُخرج من جيبه
مطواة مكسوّة بالصدف محفوراً عليها شعار الجيش الإنجليزي..
وضعها تحت ذقنه فصَرَخ بحسرة قبل أن يهمس في أذنه:

- اسمع يا بغل البرك.. أشوفك تحوم ولّا ألمحك تخرجم هنا ثاني
هالمخطط خلقتك أكثر ما هي ملخبطة.

- ده أنت طبّختها من الأول بقّة عشان تلهف البت؟ اتفتت معاها
تولع فيّا وعمَلت النمرة دي عشان تخلع بيها م البنسيون.

كَمَح عبد القادر أحمد قادماً فضغط على عنق سلامة: لو شفتك
هنا ثاني الدهبان الأزرق مش هايعرف لك طريق جسرّة.. هايجيوك من
الشفخانة يا ابن المحروقة.. غور.

وأطاح به عبد القادر فسقط في بركة مياه مطر.. وقف متألماً يلملم
جلبابه المبتل: ماشي يا عبد القادر أفندي.

ثم ابتعد أمتارًا إضافية أبلغته مأمنا فرفع الشال من فوق رأسه المشوه وأردف:

- وماله.. ياما وراك البنات غلبت رجالة بشتبات.

التفت إليه عبد القادر: يلا يا ابن المرة.

غاب سلامة في ظلمات الحارة حين اقترب أحمد.. رمق عبد القادر باستغراب فعاجله:

- كان عاوز يبيع لي بودرة.

- الشخص ده يعرف لنا؟

- لنا مين يا عم أحمد؟

أمسك أحمد بتلابيه: أنت بتكذب يا عبد القادر.. المعرض ده كان يبجري وراها ليه؟ إنطق؟

بنفاد صبر زفر عبد القادر وهو ينظر في عيني أحمد.. لحظة طالت أدرك خلالها أنه لن يستطيع المضي في تغطية ورد أكثر من ذلك.. انتزع ياقته من بين أصابع أحمد:

- ما اسمهاش لنا يا أحمد..... ما اسمهاش لنا.



في اليوم التالي سيفجّر عبد القادر ثاني قنابله في الغابة الحجرية بالمقطم.. بعد قنبلته الأولى التي فجّرها أمس بين ضلوع أحمد حين سرد له قصّة لنا التي كانت ورد.. ورد التي قابلها في بيت بنية.. عاهرة من عاهراتها.. عرض له ماضيها المأساوي مع أسرتها ومحاولة

انتحارها.. ولم يحك بالطمع عن وطنها أو قضائه ليلة كاملة نائماً على ظهرها.. سَمِعَ أحمد دوي الحقيقة في أذنيه ولم يُعقَّب.. بلا ردة فعل هز رأسه بهلوء وأردف:

- بكرة مَعادنا في نفس المكان الساعة ستة.. سلام.

افترقا فتابعه عبد القادر وهو يتعد حتى اختفى فهمس لنفسه:
ادبك أم هباء أهلي؟

قبل الشروق حضر أحمد.. كان يرتدي زي عامل من عمال العنابر وفي يده حقيبة حديدية ترقد بباطنها العبوة الناسفة ومن ورائه أنثى في حَبْرَة وبرقع.. اقترب غير بادٍ عليه أثر مما سَمِعَ أمس.. وضع حقيته على الأرض وسط الضباب الخفيف وفتحها حين أنزلت دولت برقعها.. لم تتحدث.. تفحصت المكان من حولها هاربة من عيني عبد القادر اللتين لم تغادرا وجهها.. أزاح أحمد شريحة حديدية تحمل المعدات وأخرج من تحتها الموت في عبوة.. وضعها بحرص على الأرض ثم أخرج زي السفرجي في كيس وناول له لعبد القادر الذي أفاق من شروده ووضع أمام صدره قبل أن يلاحظ رغيغ عيش إفرننجياً (فينو) موضوعاً في الجيب حين أردف أحمد:

- بكرة التنفيذ.

برقت عينا عبد القادر: بكرة؟ بكرة بكرة؟

- الوقت ضيق وكل ما أتأخرنا البوليس ومكتب الخدمات يغيروا خطوط السير والشوارع.. بكرة سبعة ونص الصبح هاتكون في الميدان.. بين دكان ماتوسيان بتاع الدخان و...

أكمل عبد القادر: والمراحيض العامة.. عشان أكون مدّاري
يمين وشمال.

- الساعة تمانية ونص بالظبط يخرج الوزير من بيته.. تسعة إلا تلت
يكون في الميدان.. قبلها بنص ساعة هاتوصلك العبوة من زميل..
تكون أنت واقف زي ما اتفقنا.. تستنى الجرنال اللي هاتيرمي
تحت رجلك...

أكمل عبد القادر وعيناه لا تفارقان دولت: بعدها بدقيقة
يبجي الموكب.

- تمام كده.. تنفذ وتدخل شارع التزهة.. ترمي مُسدسك وتغير
هدومك في الخرابة اللي شفتها وتخرج.. تمشي لآخر الشارع
وتركب الترام.. أما لو شكيت إن فيه حد بيلاحقك ومش هاتقدر
تهرب.. فاكّر مدرسة الهلال اللي شاورت لك عليها بعد حوالى
ثلثميت متر من الميدان؟ بواب المدرسة زميل.. هاساعدك
توصل من غير شوشرة.. لدولت.

نظر عبد القادر إليها حين أردف أحمد: دولت مُدرسة في المدرسة
دي.. هاتخبيك بمعرفتها نغاية ما الشوارع تهدى وبُعدين تخرج.
أجابه عبد القادر بشروء: مفهوم.

- دولت جاية النهاردة عشان تنسق معاها وتراجع التحرك.. وعشان
تسألك يعني في حالة... عن وصيتك إذا حبيت توصّل حاجة
للوالدة أو إخوانك.

ثم ابتعد أحمد ليتيح مساحة من الحرية.. حاول عبد القادر التماسك
ثم تكلم:

- سلمني لي عليها.. وقولي لها إني مش عيل طايش.. وإني أخذت
حق أبويا.. وإني.. بحبها رغم الجفا.

التقطت دولت كلماته في ثبات ظاهري قيل أن يسود صمت
قطعه أحمد:

- عاوزك تجرب العبوة دلوقتي عشان نتأكد إن كل حاجة ماشية تمام.
يثبات سَحَب عبد القادر عَيْنِه من عَيْنِهَا والتقط العبوة من
الأرض.. للحظات هاجمه هاجس أن يفجرها في المسافة بينها وبينه
علها تصطحبه إلى ملكوت لا تملك فيه رفضاً أو نفوراً!!

ابتعد أحمد ومن ورائه دولت.. تواليا خلف صحرة.. وزن
عبد القادر العبوة ثم جذب الفتيلة ووطّح القبلة إلى الوادي الصخري
الجاف وانحنى.. دوى الانفجار وتعفّر الهواء للحظات قبل أن يموت
الصدى ويسكن الوادي.

- أشوفك بكرة.

قالها أحمد بعد أن جمّع شظايا العبوة وأغلق حَقِيبة المُعِدَات..
رَحَلَ مع دولت تاركاً عبد القادر ليتحرك بعدهما بدقائق تمويهاً.. ظل
يرموق دولت التي أسدلت البرقع على شَفَتَيْهَا وأنفها وابتعدت حتى
باتت كعود كبيريت قبل أن تختفي.



السبت ٢١ فبراير ١٩٢٠

٧:٣٠ صباحًا

مسجد الظاهر بيبرس كان محفوفًا بالنخل من كل جانب، يتوسط الميدان بأسوار مُرتفعة أخفت من هيئته ما يدل على أن هذا المكان كان مسجدًا، لا مئذنة ولا قبة، فقد هَدَمَ الفرنسيون مئذنته سنة ١٨٠١ م واستخدموه كقلعة حربية مدة وجودهم في مصر، ثم حوَّله الإنجليز حين أتوا بجيوشهم إلى مذبح للحيوانات قبل أن يتم العفو عنه وتُغلق أبوابه على خليط من روائح الروث والدم.

عبد القادر كان واقفًا كما اتفق، أمام المسجد، بين المراحض العامة ودكان ماتوسيان للدخان الذي اشترى منه علبته الأخيرة، بدت ملابس الشُرَجِي عليه كأنها ستفتق في أي لحظة ونظير أزرارها تُصيب المارة، يتربص ما حوله في صمت، أنفاسه بطيئة وشفته تتحرر كأن بآيات القرآن همسًا مُجَاهِدًا لتذكُر تربيها، يكاد يسقط ميتًا من شدة اختلاج صدره، يُقاوم ضربات قلب تتسارع في اضطراب ووساوس قاسية تنهاه عما هو مُقدم عليه، تستعرض بطولاته البائدة على الأرض، وفوق السرير، تستدعيها ذاكرته حادة واضحة، في كأمب الإنجليز، فوق فتيات بنية، وفي معارك الحارات بجانب أبيه، ثم تُسمعه الوسوس نعيه بصوته:

«رحمة ونور على روح المرحوم عبد القادر شحاتة الجمن!!».

ثم تحكي له الوسواس عن الأوقات التي ستفوته من بعد الموت،
عن بلده الذي سيظهر من الأنجاس قتله أبيه ومتوجيه بإكليل العار بين
أهل حيّه، وتحاكى عن «التايات» التي سيرثها غيره ويرتعون فيهن
كيفما شاءوا، عن سيرته التي ستطمس كشواهد القبور المنسية وعن
الجائزة التي ستُمنح لمن يعثر على رأسه من بعد الانفجار.

وعن دولت.

دولت التي لم يستطع أن يتقل بها من مرحلة الصّيد إلى طور
العشق.. لن يترك فيها بصمة أو يغرس فيها زرعة.. ستتزوج غيره ولن
تُسمي ابنها بعبد القادر.. ديك أم الحياة كلها.. ينفض هواجسه فتعاود
الإلحاح عليه كالذبابة.. تنفخ فيه الجنون.. امهرب.. افقد بجلدك.. أهى
موضة السنة أن تموت أيها الأبله؟! هل الكفن هو البدلة الجديدة التي ترغب
في اقتنائها؟ سيكشطون أمعائك من على البلاط المُحدّب يسكن بسبوسة
وستلحق القطط ما تبقى منك...

لحظات وقاطع هواجسه المتشابكة كالأغصان عربة يد تحمل
أسبّة من كل الأشكال والأحجام.. يدفعها عجوز بسيط لم يكن من
الصعب إدراك أنّه إسحاق.. مُمارسًا دوره الطبيعي في الحياة.. عجوز
سخيف يحمل الموت بين يديه.. اقترب من عبد القادر وأبطأ.. سبت
يا ابني؟ سأله ولم ينتظر إجابة.. التقط من العربة ثلاثة أسبّة من الخوص
مُغلقة بنطاء.. عَرَضَها على عبد القادر الذي رمقه قبل أن يختار أكبرها
حين نصّحه إسحاق أن يلتقط المتوسط.. أخذ عبد القادر السبّبت
وناول إسحاق كل النقود التي كانت في جيبه.. ابتسم الأخير قبل أن
يرحل جازًا عربته.. وضع عبد القادر السببت بهدوء على الأرض ثم

رفع غطاءه.. العبوة كانت ملفوفة في ورق أصفر.. تشبه لفة لحم من
الجزائر.. قَضَّ الورق من حولها وعاین الدوبارة الغليظة الخارجة من
متصفها قبل أن يضع السبت بين قدميه ويُخرج ساعته لينظر فيها حصرًا
للوقت المُتَبقي من عُمره.. عُمره الذي يَنْقُص مع كل ثانية يومًا كاملاً..
عقرب ملعون يركض كأرنب يفر من صقر مُحلّق.. ترك ساعته وتابع
السيّارات والحناطير الداخلة للميدان بقلق سَحَق كيانه.. يرمق المارة
مترقبًا ظهور أفراد مكتب الخدمات الذين سيتشّقون رائحة الخوف
فيه كالكلاب المسعورة.. قبل أن يعقروه.. استنحالت الأرض من
تحت جمرات يقف فوقها كفقراء الهنود.. يتصبب العرق رغم برودة
الطقس.. ظل على تلك الحال حتى برز من الشارع ضابط إنجليزي..
تفتت رثنا عبد القادر وتبدّدت أنفاسه حين رآه يُعدّل من وَضع البيريه
فوق رأسه قبل أن يتجه ناحيته في خطوات واسعة.. تحفّزت خلاياه
فحمل السَّبب بيد وبالأخرى تحسّس المسدّس الموضوع في ظهره..
لما أصبح الضابط على مسافة مترين منه جذب عبد القادر إبرة ضرب
النار.. كان ذلك حين رفع الضابط رأسه ونظر لعبد القادر الذي تنفس
الصعداء وهو يتابع عيني أحمد من تحت البيريه ترمقته في هدوء..
ديك أمك يا أحمد.. زفرها عبد القادر نمتمة حين ألقى أحمد بإهمال
جريدة كانت تحت إبطه قُرب قدمي عبد القادر.. كانت تلك الإشارة
تعني أن الموكب قادم بعد دقائق معدودات.. هزّ أحمد رأسه طمأنة ثم
كبس البيريه على عينيه واختفى في شارع جانبي حين ارتفعت طقطقات
الموتوسيكل تتعالى قادمة نحو الميدان.. التقط عبد القادر السَّبب من
الأرض وأخرج اللقافة الصفراء منه قبل أن يلف الدوبارة على أصابعه

مُتَحَفِّزًا.. في اللحظة التالية بَرَز موتومسيكل يَحْمِل الضابط الكشاف..
اقتحم الميدان يفرق الناس ببوق عالٍ ومن ورائه موتومسيكل آخر عليه
ضابط يَحْمِل رَشَاشًا مُعَلَّقًا بِحِزَامِ إِلَى صدره.. ثم ظهرت السيارة..
سوداء لامعة مَارَكَة كَادِيلَاك.. تسير بِسُرْعَة وتحمل بداخلها المَوْت..
استعد عبد القادر لسحب الدويارة حين أصبح الموكب على مرمى
البصر.. مَيَّز الوزير من بين الزجاج متدنِّيًا بِكُوفِيَّةٍ وميز بجانبه سكرتيره
أصلع الرأس.. حين أصبحت السيارة على بعد سِتَّة أمتار التقطت عيناه
رَأْسًا صَغِيرًا.. رَأْسًا فوقه شعر مَعْقُود بِضَفِيرَتَيْنِ فِي نِهَايَاتِهِمَا شَرَايِطُ
حُمْرَاء.. نَزَلَ عبد القادر تحت الرصيف مُقْتَرِبًا.. وَتَرَيْنِ إِصْبَاحَيْنِ
تَأْكُذُ فِيهِمَا أَنَّ فِي السَّيَّارَةِ طِفْلَةً.. أَسْقَطَ فِي يَدِهِ فَيِّيس.. أَصَابِعُهُ
قَابِضَةٌ عَلَى دَوْبَارَةِ الْعَبْوَ لَا تَتَحَرَّكُ.. اعْتَصَرَ الْحَبْلُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ
الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ.. بَيْنَ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالْمَرْحُومِ عَبْدِ الْقَادِرِ.. ثَوَانٍ وَمَرَّتِ
السَّيَّارَةُ مِنْ أَمَامِهِ.. وَمَقَّتْهُ الطِّفْلَةُ فِي بَرَاءَةٍ قَبْلَ أَنْ يَخْتْفِيَ ضَجِيجُ
الْمُوتُوسِيكَلَاتِ وَلَمْعَةُ الْكَادِيلَاكِ وَوَجْهُ غَرِيمِهِ الَّذِي كَانَ مُنْشَغَلًا فِي
حَدِيثٍ مَعَ سَكْرَتِيرِهِ.. دَقِيقَةً وَقَفَهَا عَبْد الْقَادِرُ مُحَاوِلًا تَدَارِكَ أَنْفَاسِهِ
قَبْلَ أَنْ يُرْخِيَ أَصَابِعَهُ عَنِ الدَّوْبَارَةِ وَيَضَعُ الْقَبْلَةَ فِي السَّبْتِ وَيَرْحُلُ..
حَسَبَ تَعْلِيمَاتِ إِجْهَاضِ الْمَهْمَةِ تَخْلُصُ عَبْد الْقَادِرُ مِنْ مَلَابِسِهِ ثُمَّ
تَوَجَّهَ إِلَى قَهْوَةٍ بِمِيدَانِ الْعَبَّاسِيَّةِ.. هُنَاكَ وَجَدَ أَحْمَدَ جَالِسًا فِي بَدَلَةٍ
عَادِيَةِ بِجَانِبِ فَنْجَانٍ مِنَ الْقَهْوَةِ وَطَاوِلَةٍ مَفْتُوحَةٍ، وَضَعَ السَّبْتِ تَحْتَ
الْكُرْسِيِّ وَجَلَسَ فَالْتَفَّ أَحْمَدُ وَفَتَحَ الطَّاوِلَةَ ثُمَّ التَّقَطَ حَجَرِيَّ النُّرْدِ..
اتَّخَذَ الْأَمْرُ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ دَقَائِقَ لِيَنْقَشِعَ عَنْهُ الذَّهْوُولُ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ:

- أنا...



قاطعه أحمد: صح إنك ما نفلتتش.. الأبطال مش هدفنا.

- لا أنا كنت هاقولك إن أنا كنت هاضريك بالنار وأنت
بالبدلة الإنجليزية.

- تضرب ظابط من غير ما يتعرض لك؟ وإنجليزي؟

- أعصابي ما كانتش مستحيلة.

رمى أحمد حجرَي النرد فأتى بواحدین فنظر لعبد القادر: المرأة
الجاية ما تتسرعش.. ولأ تفيش مرة جاية؟

رمقه الأخير لدقيقة كاملة قبل أن يلتقط الحجرين ويلقيهما..
استقرتا على ستين فابتسم ثم أرفف:

- زي ما إحنا.. بالنسبة للأمانة؟

- سيبها في مكانها تحت التراييزة لما تقوم.. بكرة معادنا في
نفس الوقت والمكان.. هتلاقى شنطة جنب رجلي فيها اللبس
الجديد.. شد حيلك.

هز عبد القادر رأسه وقام.. تابعه أحمد حتى اختفى.



الأحد ٢٢ فبراير ١٩٢٠

قبل ساعة من مرور محمد شفيق باشا وزير الأشغال كان عبد القادر قد استقر في مكانه بين دُكان الدُّخان والمَراحيض العامة، يرتدي زي عسكري بوليس كاملاً وفي يده عصا رجال الدوريات، كأس النبيذ التي احتساها فجراً كانت مُقيدة في تهدئة أعصابه بجانب سيجارة مستوردة ساعدت في تنظيم أنفاسه، كُلّما تتمم بالفاتحة على روح أبيه تذهل عيناه في منتصف قراءتها ويتشتت تفكيره فينسى أين توقف فيعيد قراءتها من البداية حتى ينفد صبره فيسبّ الدين! ثم يستغفر الله فيقرأ الفاتحة.

مرّت ربع ساعة مارس خلالها فحص المارين قبل أن تلتقط عيناه مُخبراً من مُخبري مَكتب الخدمات، عَرفه من الصور التي زوّده بها أحمد، لفّ الرجل حول الميدان ثم توقف ونزل عن الدراجة، عدل من طربوشه ومسح بعينه الميدان تأمينا قبل أن ينظر لعبد القادر ملياً ثم يُحييه بهزة رأس، رَدّها الأخير وهو يلف العصا بثاً للثقة، كان ذلك حين اقترب ماسح أحذية عجوز سخيّف يَحمل الموت بين يديه، لم يكن بالطبع سوى إسحاق، اقترب من عبد القادر وأبطأ، وَهَضَ صندوقه بجانب قدم الأخير ثم سأله: تلمّع يا حضرة؟ لم يردف عبد القادر..

عيناه لم تفارقا مُخبر مكتب الخدمات، رفع قدمه على الصندوق فأخذ
إسحاق يُلَمِّع الحذاء مُندمجًا قبل أن يهمس:

- اعمل نفسك بتديني فلوس.

أخرج عبد القادر نقودًا ناولها لإسحاق الذي قام وابتعد كأن
عبد القادر قد أمره بشراء شيء.. أنزل عبد القادر قدمه وفحص
الصندوق بطرف الحذاء فوجد العبوة الناسفة مُستقرة بداخله.. سحب
نفسًا عميقًا ونظر للمُخبر فلم يجد.

- صباح الخير يا شاويش.

التفت عبد القادر بجانبه فوجد المُخبر.. تمالك نفسه فلكر الصندوق
بين قدميه وأغلقهما إحكامًا ثم استدار: صباح الخير يا خضرة.

- أنت تبع إيه؟

أجابه عبد القادر بثقة حاول تأكيدها بهزة من عصاه: تُمن الأزيكية.

- اسم الكريم إيه؟

ارتجل عبد القادر: إسحاق.

- إسحاق إيه؟

- إسحاق... حنا.

- إسحاق.. حنا؟ عاشت الأسامي!

قالها الرجل مبسّمًا وهو يتأمل ملامح عبد القادر وجسده المفتول
قبل أن يردف:

- وأنت قديم بقعة في الأزيكية؟

- يوروه.

أشاح الرَّجل بوجهه جهة الميدان ثم أشعل سيجارة تأمل من بين
دُخانها جسده عبد القادر المفتول الذي لا يتفق مع هيئة تلك الفئة من
رجال البوليس المهمشين، تابع خيط عرق مضطرباً يسيل من تحت
طربوشه على ذقنه فسأله:

- أنت مع البكباشى سراج عبد العال بقعة؟

هز عبد القادر رأسه مُغمضاً عَيْنيه تأكيداً: أبوة.

ألقي الرجل سيجارته والتفت لعبد القادر: لكن البكباشى سراج
عبد العال انتقل الصعيد من ثلاث سنين!

تحسَّس عبد القادر مُسدسه الموضوع في حزام خصره وهو
يرمق المُخبر.. لحظة لم تطل قبل أن يقاطع حديثهما ضابط بريطاني
بلهجة صرامة:

- ماذا تفعلون هنا؟

اعتدل المخبر كمن مسَّته الكهرباء ثم أجاب: أنا من قوة مراقبة
المنطقة يا فنديم.. مكتب الخدمات.

- هل تُدرك أن موكب الوزير على وشك الوصول بعد دقائق؟

أجابه المُخبر وقد توغل الارتباك فيه: أعرف يا فنديم.

- إذن لماذا لم تتخذوا أهبة الاستعداد؟

- يا فنديم أصل الفرد ده...

قاطعه الضابط الإنجليزي بصرامة: لا وقت عندي للترهات..
تفضلاً كلُّ إلى موقعه.

تبيس المُخبر.. بدّل نظره بين الشاويش المشكوك في أمره
والإنجليزي الغاضب الذي نهره: هيّا.. تحرّك يا أبله.

عبر المُخبر الميدان ثم وقف في مكان يكشف القادم من الشارع..
لم تترك عيناه عبد القادر الذي اقترب منه الضابط الإنجليزي وهمس:

- كنت عاوز تضربني بالمسدس إمبراح هه؟

ابتسم عبد القادر ولم يُعقّب فأردف أحمد:

- موكب الوزير جاي بعد دقيقة واحدة.. أنا وراك.. ما تخافش.

هزّ عبد القادر رأسه حين سمع الطقطقة ثم برز مونتوسيكال الضابط
الكشاف ومن ورائه مونتوسيكال يحمل رشاشًا مُعلقًا إلى صدر ضابط
آخر.. ثم لاحت السيارة السوداء.. لامعة ماركّة كاديلاك.. تهذّجت
أنفاس عبد القادر فانحنى على صندوق التلميع.. مسح العبوة
وأمسك بالدوارة.. جحظت عينا المُخبر وهو يتأمل زميله المزيف..
نزل عبد القادر تحت الرصيف مُقترّبًا من خط سير السيارة.. نظر
خلف الزجاج فشهد الهدف وبجانبه سكرتيره.. لا أطفال ولا شيوخ
ولا نساء بجانبه.. بلغت ضربات قلب عبد القادر حد الجنون فتلجّم
لسانه حتّى عن نطق الشهادة.. كان ذلك حين عبّر المُخبر الشارع
مُسرعًا الخُطى.. مُتأخّرًا.. من مدخل بيت يحتل ناصية شارع التزهة
تابع أحمد ما حدث.. حين باثت سيارة الوزير على بعد أربعة أمتار من
عبد القادر جذب الدويارة فأيقظ العبوة النائمة.. رفع يده عاليًا ملقيًا بها
تجاه السيارة وهو يتأمل وجه الوزير الذي جحظت عيناه.

قبل أن يدوي الانفجار...

انفجار أرعش زجاج الفصل الذي تدرّس فيه دولت بقدرسة
هلال.. كانت جالسة على كرسيها خلف مكتب خشبي بجانب سبورة
م تكتب عليها سوى تاريخ اليوم.. ٢٢ فبراير ١٩٢٠م - ٢ جمادى
٤٠٠ هـ.. شاردة في ساعة حائط مُعلّقة تأملت فيها عقرب
نواني حتى دوى الانفجار.. ارتج الفصل فنفضت التلميذات ثرثرتهن
لُمن بفزع يتكوّن وراء النوافذ العالية يتابعن الشارع الذي يركض
الناس ناحية الميدان.. غرقت عينا دولت ففتحت كفها عن صورة
غبرة.. صورة لعبد القادر يقف باعتزاز أمام سيارته الكروسلي التي
الما تحدث عن أمجادها.. صورة تركها يومًا على كنية الحنطور
هوا أو عمداً.. تأملت ابتسامته الواثقة قبل أن تتمالك نفسها وتقوم
حية النافذة مزينة الفتيات لتبدو طبيعية في رد الفعل.. وربما تلمحه
كُض ناحية المدرسة يطلب الاختباء.. أقسمت.. لو عاش لتكف عن
دّه بجفاء.. لتكف عن مُقاومته فمُقاومته لم تزدها سوى رغبة فيه..
حصّت وجوه الناس الراكضة تبحث عن يسير عكس اتجاههم..
حيثها.. لحظات ودخل الفصل بواب المدرسة يلهث.. نظر في عيني
لت: أنسة دولت.. المديرية بتقول محدّش يتحرك من الفصل.. وفيه
نأذ تحت ع الباب طالب يقابلك.

اقتنع قلب دولت بالنبض ثانية ووافقت رثاها أن تنفّس.. أغلقت
اب الفصل وركضت في الطريقة الطويلة خلف البواب قبل أن تقفز
سُلام.. كادت أن تتعثر في خبرتها الواسعة حتى وصلت إلى
باب الكبير.. كان يقف بانتظارها وفي عينيه التيه الذي رأته فيها آخر

مَرَّةً.. الذنب الذي لن يُكفَّرَ عنه جَحِيمٌ بزيانته.. اقتربت منه مُحاولة
استيعاب وُجوده.

- ياسين! إيه اللي جابك يا ياسين؟ حُصل حاجة في البلد يا خوي؟
أمي بخير؟

أفاق من شروده: بخير.. غاوز أتحدّث معاك.

نطلعت وراءه بقلق عارم مُتابعة الشّارع والمارة الذين يُسرعون
ناحية الميدان قبل أن تُردف: ما جولتش إنك چاي يعني!

- ما دريتش بنفسي إلا وأنا في الجَطر.

بهلع نظرت وراء كتفه: ياسين.. مش ماعرف أتحدّث معاك
دلو قيتي.. ارجع البلد الله يرضى عليك عشان أمك وأوعدك هانزل
آخر الأسبوع أتحدّث معاك كيف ما بتريد.

قالتها وأمسكت بمرافقه تدفعه إلى باب المدرسة الكبير.

قبل دقائق طار عبد القادر ثلاثة أمتار إلى الوراء.. زحف بظهره
على الأرض حتّى اصطدم بكُشك السّجائر الذي تبعثرت بضاعته من
أثر الانفجار.. ارتجّت رأسه وضُمت أذناه.. تشوّشت عيانه وأعمّأها
الدُّخان الخائِق ورغم ذلك لَمَحَ السيارة السوداء تبتعد.. انفجرت
عَجلتها الخلفية وتكسر زجاجها ليصيب الوزير لكنها تبتعد مُسرعة..
بصُعوبة جلس مُحاولاً استيعاب ما حدث.. رفع كفه إلى جرح في
جبهته انهمرت منه دماء اخترقت رُموشه صابغة المشهد أمامه بالأحمر
القاني.. لكنه ميّز المُخبر.. يقوم مِن الأرض مختل التوازن ثم يتحرّك
نحوه شأهراً هراوة غليظة يَعرف عبد القادر تمامًا وقعها على الرأس..

نَادَتْ أَعْصَابُهُ عَلَيْهِ لِيَتَقَبَّضَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ.. شَهَقَ نَفْسًا فَلَمْ يَسْتَقْبَلْهُ
صَدْرُهُ.. بَاتَ الْمُخْبِرُ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ مِنْهُ فَرَفَعَ هِرَاوَتَهُ وَهُوَ يَصِيحُ
بَسْبَّةً لَمْ تَصِلْ إِلَى أُذُنِهِ.. أَغْمَضَ عَبْدُ الْقَادِرِ عَيْنَيْهِ مُسْتَسْلِمًا لَخِيطَةِ لَمْ
تَصِلْ.. حِينَ فَتَحَهُمَا وَجَدَ الْمُخْبِرَ مَتَكُومًا بِجَانِبِهِ بَعْدَ أَنْ تَلَقَّى ضَرْبَةً
رَضَّتْ فِيهِ شَيْئًا مَا.. نَظَرَ يَمِينَهُ فَرَأَى أَحْمَدَ يَجْذِبُ يَاقَتَهُ مُسْتَحْثًا إِيَّاهُ أَنْ
يَقُومَ.. اسْتَجَابَ عَبْدُ الْقَادِرِ بِضُعُوبَةٍ وَهُوَ يَسْتَقْبِلُ أَوَّلَ الْأَصْوَاتِ فِي
أُذُنِهِ.. خَافَتِ مَرْتَعِشَةً لَكُنَّهَا كَافِيَةٌ لِيَتَأَكَّدَ أَنَّهُ حَيٌّ..

المُخْطَاطَةُ «ب».. أَرْكَضُ.

قَامَ عَبْدُ الْقَادِرِ مُسْتَنْدًا عَلَى أَحْمَدَ وَرَكَضَا تَجَاهَ شَارِعِ التَّزْهَةِ.. اخْتَرَقَا
ذَهُولَ النَّاسِ وَفَضُولَهُمْ يَمْشُونَ عَكْسَ الْإِتْجَاهِ لَا تَكَادُ الْعَيُونَ تَتَبَّعُهُ
لَهُمَا.. حِينَ بَلَغَا الْخِرَابَةَ تَوَقَّفَ أَحْمَدُ عَلَى بُعْدِ أَمْتَارٍ يُرَاقِبُ عَبْدَ الْقَادِرِ
الَّذِي دَخَلَهَا.. زَمِيلٌ كِفَاحٌ خَلَعَ عَنْهُ مُسْتَرْتَهُ السُّودَاءَ وَالطَّرْبُوشَ.. أَلْبَسَهُ
سِتْرَةً رَمَادِيَّةً وَكَاسَكِيَّتَ أَخْفَتِ جِرْحَ جَبْهَتِهِ وَأَخَذَ مِنْهُ الْمَسْدُسَ حَسَبَ
التَّعْلِيمَاتِ.. خَرَجَ بَعْدَهَا عَبْدُ الْقَادِرِ فَأَشَارَ لَهُ أَحْمَدُ أَنْ يُكْمِلَ السَّيْرَ فِي
نَفْسِ الْإِتْجَاهِ.. مَشَى حَسَبَ الْخِطَّةِ حَتَّى لَمَحَا الْمَدْرَسَةَ.. كَانَ ذَلِكَ
حِينَ التَّقَطَّ أَحْمَدُ صِبَاغَ الْمُخْبِرِ مِنْ وَرَائِهِ.. يُزِيحُ النَّاسَ وَمِنْ خَلْفِهِ
رُجُلًا بُولِيْسَ انْضَمَّ إِلَى مِنْ الْقَدَمِ وَمَلَأَ الْأَجْوَاءَ صَغِيرًا.. مَدَّ عَبْدُ الْقَادِرِ
خُطُوطَاتِهِ مَقَاوِمًا التَّرْنِجَ وَمِنْ وَرَائِهِ أَحْمَدُ.. يَتَابِعُ الدَّمَاءَ الَّتِي تَنْهَمِرُ عَلَى
هُنُقِ زَمِيلِهِ.. التَفَتَ فَوَجَدَ الْمُخْبِرَ قَدْ اقْتَرَبَ مَعَ زَمِيلِيهِ فَنَظَرَ إِلَى شَارِعِ
مُزْدَحَمٍ مَتَفَرِّعٍ مِنْ شَارِعِ التَّزْهَةِ ثُمَّ صَاحَ فِي النَّاسِ بِعَرَبِيَّةٍ رَكِيكَةٍ: الرَّجُلُ
الَّذِي رَمَى الْقَنْبِلَةَ هُنَا.. وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى كُومَةٍ مِنَ الْبِشْرِ يَسِيرُونَ.. هَرَعَ
النَّاسُ كَيْسِرَبَ سَمَكٍ مَتَنَاغِمٍ إِلَى الشَّارِعِ.. سَحَبَتْ مَوْجَةُ الْبِشْرِ زَمِيلِي

المُخبر وإن أكمل الأخير طريقه في نفس الاتجاه.. خلف عبد القادر.. يُوقف الناس ويتفحص الوجوه بحثًا عنه.. خلع أحمد مُتْرته الإنجليزية وقبّعته فألقاهما في صندوق زباله ورفع ياقته.. بدا بدون طربوش كأفندي نسي قواعد اللياقة.. سار مُسرّعًا متابعًا عبد القادر حتى أمسك بهرفقه وانعطف به تجاه مدخل المدرسة.. أشار إلى الباب ثم التفت خلفه ووقف في رُكن غائر في الحائط.. كان ذلك حين انعطف المُخبر.. انتظروه أن يعبر أمامه ثم ناداه:

- يا حضرة.

التفت المُخبر فتلقى لُكْمَةً خاطفة في ذقنه أدخلت بتوازنه للحظات كانت كغيلة أن لا يلحظ عبد القادر وهو يذلف إلى المدرسة.. تلقاه أحمد بين يديه وأمسده على الأرض ثم أشار لجُمع من الناس يقفون على بعد: يا إخوانا الراجل سُورق الله يكرمكم.. أقرب استبالية.

ألقاه أحمد بين أيديهم خائر القوى ثم عبر الشارع وتوارى خلف شجرة.. في تلك اللحظة صار عبد القادر أمام دولت وجهًا لوجه.. كانت مُمسكة برُسخ شاب صعيدي شارد يرتدي جلبابًا ذا كُتًا ويحمل مَلايحها.. لما رآته تصارعت الفرحة في وجهها والقلق.. التفتت إلى ياسين وقالت:

- ارجع البلد الله يرضى عليك عشان أُمك وأوعدك هانزل آخر الأسبوع أتحدث معاك كيف ما بتريد.

قالتها ودفعته برفق خارج المدرسة مُطمئنة إياه بعينيها أن لا يقلق وأشارت لبواب المدرسة: اقفل الباب يا عم عاشور.

تابمها ياسين في دھول وهي تُساند عبد القادر الذي يترنح بين يديها.. التفتت إليه وهزّت رأسها بإبتسامة حتّى واره الباب فسحّبت عبد القادر إلى غرفة تقع تحت بئر سلّم.. أغلقت الباب عليهما وأمسكت بوجهه تتأمل عينه التي امتلأ بياضها بالدم، وجرح جبهته النازف.. أنت كويس؟ سألته فهز رأسه نفيًا ثم أردف بإعياء: أنا بحبك يا دولت.. تبيست للحظة ثم أفاقت فأخرجت منديلًا من جيب حبرتها وكبسته على الجرح فيما كان يتأملها بوهن وعينين تخبوان.. أجلسته على الأرض وراء يانوس كبير: ما تتحركش لغاية ما أرجع.. هز رأسه بضعف فخرّجت وأغلقت الباب بالمفتاح.. صعدت إلى فصلها تتأمل من شبابيكه قوَّات البوليس وهي تمسّط المنطقة بحثًا.. على الرصيف المقابل كان أحمد واقفًا خلف الشجرة.. يتابع باب المدرسة والشارع والمُخبّر الذي بدأ يفيق بين أيدي الناس.. حاول السيطرة على انفعاله حين لحق به زميله من البوليس ليوقفاه على قدميه ويستفهما.. أشار المُخبّر بيد إلى باب المدرسة وبيده الأخرى للاتجاه المُعاكس فتفرقا كلٌّ إلى وجهته.. راقب أحمد المُخبّر وزميله يقتربان من باب المدرسة حين اصطدما بشاب صعيدي خارج منه.. أمسكاه فبدا في أيديهما ذاهلًا مُريبًا.. خلع المُخبّر لبدته من فوق رأسه وألقاها أرضًا ثم أمسك أذنيه ليفحص وجهه فتشجج الصعيدي وعبست ملامحه قبل أن يدفعه.. أوقعوه أرضًا وكبلوا يديه خلف ظهره ونفّخت صفارة.. لحظات وحضر رجل بوليس آخر استلم الصعيدي.. أما المُخبّر فضرب باب المدرسة عدّة مرات.. انفتح فتبادل مع البواب كلمتين قبل أن يحيه بقوة ليدخلا.. نظّر أحمد لدولت في الشباك.. شحّب لونها حين

فهمت.. خرج رَجُل البوليس ونفخ صفارته عدّة مرات فجذبت زملاءه
الذين انتشروا في المنطقة كالنمل.. هروا إلى المدرسة فهوى قلب
دولت وهي تنزل السلم بحذر وسط موجة الطالبات تراقب البواب
بين أيدي رجال البوليس يُمسكون ياقته ويُكيلون له التهديد والوعيد..
بأدلهما نظيرة يأمن وهو يتابعهم يحومون حول الغرفة التي يقبع فيها
عبد القادر.. شهبوا الأسلحة وصاحوا أن سلم نفسك.. وأن المكان
مُحاصر.. ثم استجمعوا أمرهم وضرب أحدهم الباب بكعب بندقيته
قبل أن يدخلوا مُسرعين.. لم تسمع دولت مقاومة أو أنيناً.. فقط وقع
خبطة على رأس.. لحظات من الصمت خرج بعدها رجلان يجران
عبد القادر من قدميه.. يدها مقطورتان خلفه وجسده مَرخي والدماء
ترسم من خلف رأسه خطاً متعرجاً على البلاط.. بصُعوبة كتمت
شهقتها تحت البرقع وتكومت التلميذات من حولها يتابعن المشهد
المثير قبل أن يتابعه أحمد في الشارع وهُم يسحبوه إلى سيارة تنتظره
أمام الباب.



سري.. للمرة ١٣٢

القاهرة في ٦ مارس سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زخلول

- فادر صباحًا من ميناء القاهرة الجوي الموردين «مِلتر» رئيس لجنة التحقيقات في أسباب الثورة.. اتجه إلى لندن مع أفراد ليجته بعد أن أنهى تحقيقاته والتي لم يجد فيها أي تعاون من أي مصري شريف.
- لسدي معلومات تفيد بأنه سيقدّم تقريره للملك في لوندرة^(١) ثم يفتح المفاوضات مع الحكومة المصرية متجنبًا الوفد.
- تم تغيير أسلوب المراقبة على أعضاء الوفد وتوقع اعتقالات في المرحلة المقبلة.. سيتم إخطار سيادتكم بالأسماء المقترحة لحل محلنا في حالة الاعتقال.
- تم إعلان الرقابة على الصحف من جديد.

سيد الرحمن فهمي

(١) لوندرة: لندن

انعكست صورة سعد زغلول على زجاج النافذة، في كامل هندامه رغم الإرهاق المتوغل في ملامحه، شاردًا يحشو بفرفته تبغًا وهو يرمق جسر «واترلو» المتهالك العابر فوق نهر التايمز، الثلوج كست أشجار حديقة فيكتوريا العامرة وأسطح الأبنية وقبعات المازة، أشعل تبغه ثم سحب نفسًا وهو يُراجع في قرارة نفسه ما آل إليه أمر وفده، منذ حُضر إلى باريس وهم يُعاملون مُعاملة الدول المغلوبة في الحرب، رُفض استقبالهم في المؤتمر وحُرموا من حق تقرير المصير الذي نالته دول أخرى أقل أهمية، هذا بخلاف تجسّس الإنجليز عليهم في كل لحظة ورفض منحهم حق التحرك إلى أنحاء أوروبا لإعاقتهم عن عرض قضيتهم، خريف سريع زحف على حلم الاستقلال ونفوس أصدقائه ومعاونيه، حاصرهم اليأس، يلمس اصفرارهم بين يديه يومًا بعد يوم كأوراق شجر ماضية إلى ذبول، مما اضطره إلى فصل بعض الأعضاء الخزعين لتأثيرهم السلبي على البقية التي تقاوم الجفاء والتجاهل اللذين مازستها وفود الدول، رجال باردون مختالون كالإوز دعاهم الوفد إلى اجتماعات ومآدب مؤلّتها تبرّعات الأمة لقرض قضية مصر ورغبتها في الاستقلال، دعوة لم ينجبها إلا مندوب إيطاليا مُجاملة

ورفضها الباقون بدلو ماسية! أما الجرائد فأغلبيتها مؤالية للإنجليز،
تطعن الوفد بادعاءات قحواها أنه حركة مُوجَّهة في الأصل ضد
المُواطنين الأوربي، وأنها ذات صبغة دينية عُنصرية! كان ذلك قبل أن
تنتهي لجنة التحقيقات بقيادة وزير المُستعمرات «ألفريد ميلنر» من صُنع
ملف تحقيق عما حدث أثناء الثورة، وتُقرر فتح المُفاوضات مع مصر،
ليس مع سعد زغلول بل مع الحكومة المصرية متمثلة في شخص
«عدلي باشا يكن».

أيقن سعد أن اللعبة مماثلة، سياسة يُمارسها الإنجليز منذ احتلوا
مصر، ما أسهل صُنع شرخ بين ضفتي أمة راكمة، حكومة وشعبًا، أعضاء
وفد، تنثر بذور الخلاف فتتوه الآراء وتشتعل منافسات السطوة، كان
عليه الاختيار، إما التصميم على أن المُفاوضات لا يصح أن تتجاوز
الوفد الذي فوضته الأمة بالتوكيلات، أو أن يندمج مع مُمثل الحكومة
الرسمي حتَّى يفوت الفرصة على الإنجليز في ذق إزميل الشقاق.

قطع أفكار سعد خبط على الباب، دلف شاب شعره مفروق بيسكين
ويده مثلجتان رغم القفاز الذي صافح به سعد:

- مساء الخير يا سيدي.. الفيكونت^(١) «ميلنر» يتفكر
في الصالون.

تبعه سعد في طريقة طويلة ثم مصعد نزل بهما إلى الدور الثاني
قبل أن يتوقفا أمام باب جرار لصالون فخم، التفت الشاب لسعد ثم

(١) الفيكونت: رتبة من رتب النبلاء.

صَم كَفَّيْهِ فِي ابْتِهَالٍ مُهْلَبٍ وَهَمَسَ: سَيَكُونُ كَرَمًا مِنْ سَيَادَتِكَ أَنْ تَطْفِئَ السَّيْجَارَةَ.

زَمَقَهُ سَعْدٌ يَهْدُوهُ قَبْلَ أَنْ يَسْحَبَ مِنَ السَّيْجَارَةِ نَفْسًا طَوِيلًا جَدًّا ثُمَّ يَدْفِنُهَا فِي رِمَالٍ مَطْفَأَةٍ نَحَاسِيَّةٍ مَحَاوِلًا السَّيْطَرَةَ عَلَى أَعْصَابِهِ، ابْتَسَمَ الشَّابُّ ثُمَّ جَذَبَ الْبَابَ الْجَزَارَ، فِي الدَّخْلِ كَانَ الْفَيْكُونَتُ «مِلْنَر» يَجْلِسُ فِي كُرْسِيٍّ وَثِيرٍ غَاطِسٍ مِنَ الْجِلْدِ الْكَابِتُونِيَّةِ، رَجُلٌ فِي أَوَاخِرِ الْعَقْدِ السَّادِسِ، عَيْنَاهُ حَادَتَانِ جَرِيَّتَانِ وَشَارِبُهُ كَثِيفٌ يَنَافِسُ شَارِبَ سَعْدٍ، يَرْتَدِي بِدَلَّةٍ كُحْلِيَّةٍ مَقْلَمَةٌ تَحْتَهَا صَدِيرِيٌّ وَفِي يَدِهِ أَوْرَاقٌ يُطَالِعُهَا عَبْرَ نَظَّارَةِ مُسْتَدِيرَةٍ انْزَلَقَتْ عَلَى أَنْفِهِ وَبِيَدِهِ الْآخَرَى سَيْجَارٌ مُسْتَعْلٍ!

التفت سعد بغتة للشاب الذي طلب منه إطفاء السيجارة فلم يُدركه، كان قد أغلق الباب عليهما، انتبه ملنر لصوت الباب فتحى الأوراق جانبا وقام ماذًا يذًا كسولة إلى سعد:

- سعد باشا.. سعيد بمقابلتك.

- أشكرك يا سيادة الفيكونت.. كنت أظن قبل أن أدخل أنك لا تُدخِّن! سكوتيرك للتو طلب مني إطفاء...!

قاطعته الرجل: نعم نعم.. غريب أنني أدخِّن الآن أمامك.. لكنني في الواقع أكره دخان الآخرين.. يكون مُحَمَّلًا بِثَانِي أَوْكْسِيدِ الْكَرْبُونِ.. عَبَقُ أَنْفَاسِهِمْ.. وَصَغَاتِنِ يَحْلُو لَهُمْ أَنْ يَنْفَسُوها فِي سَقْفِ غُرْفَتِي.. لَكِنْ ااسمح لي...

قطع الرجل كلماته واتجه إلى صندوق خشبي فتحه وأخرج منه سيجارًا ثمينًا.. التقط مقصلة صغيرة من فوق المكتب قطع بها طرفه ثم لوح به إلى سعد.

- أنت ضيف استثنائي يا سعد باشا.

نظر سعد في عيني الإنجليزي لحظة طالت حتى أناخ الرجل
السيجار بين أصابعه وابتسم ثم تمشى إلى منضلة تحمل زجاجات:

- يبدو أنك تفضّل السيجارة المعتادة.. لعلك تريد كأسًا؟
نبيذ؟ سكوتش؟

- أشكرك.

- كما تريد... كيف حال صحتك؟ سمعت أنها مُعتلة قليلاً.

- طقس لندن لا يُفيدني.. لكنني أتحسن.

- تمنياتي لك بدوام الصحة يا باشا.. لتجلس.

صبّ الرجل لنفسه كأسًا ثم جلس بجانب سعد.. قرأ عدّة أسطر من
أوراقه مُتظاهراً بالانشغال ثم وضعها جانبًا وخلع نظارته:

- سيتر ديفيد لويد جورج رئيس الوزراء يُرسل إليك تحياته.. كان
يُريد أن يُقابلك لكنك بالطبع تتخيل ازدحام جَدوله.. هل تستمتع
بالإقامة في لندن أنت ورفاقك؟

- تستطيع أن تسأل عيونكم التي تحوم حولنا طوال الوقت.

- حماية الوفد المصري من أولوياتنا يا باشا.. قل لي.. إلى أين
ينوي وفدك أن يتّجه بعد لندن؟ عودة إلى مصر؟

- ليس بعد أن نجد مُستمعًا رشيديًا يؤمن أن مصر تستحق مكانها
تحت نور الشمس.. وأن تعترفوا صراحة بإلغاء الحماية
بلا مِماطلة أو تمَلُّص.

- دعنا من الديباجات السياسية التي تقولونها للصّحافيين في
مآذبيكم يا باشا.. ألا ترى معي أن الذي حدث في الشهور الماضية
يُعدُّ مُعْجَزة.. يتم اعتقالكم في مارس ١٩١٩ ثم يتم الإفراج عنكم
بعد شهر.. والآن ترون أنفسكم في لندن تُستقبلون استقبالا لم
تعهدوه.. أليست الحياة مليئة بالمُفاجآت السّارة؟!!

- أولا.. اعتقالكم لنا ليس بونه تُشكرون عليها.. ثانيا.. استقبالكم لنا
في بلدكم ليس مُعْجَزة بل هي مُفَاوِضَات مُلْزِمة.. ثالثا.. كلماتي
تلك ليست ديباجات سياسية بل هي مطالب أمة وتحفظاتها
على مذكركم التي قدمتموها والتي تُرْسِخ الاحتلال والحماية
بُشُمُيَات مُختلفة.. نحن هنا نبحث عن حق ضائع وقانون يحمي
أُمَّة تُعاني.

خلع الرجل نظارته وابتسم: كيف لم تهين لك خبرتك الطويلة أن
تعرف أن مصر ليست بعد دولة قادرة على إدارة نفسها؟

- أقوانينك تهين لك إصدار أحكام نهائية على الشعوب
وتحديد مصائرهم؟!!

- فيما عدا الرّصايا العشر التي نزلت من السماء كل قانون هو أمر
نسبي يتغير مع الزمن.. يضعه الأقوى حسبما يجد المصلحة
العامة التي يراها بشكل أكثر وضوحا.

- مصلحة إنجلترا الشخصية.

- مصلحة إنجلترا هي مصلحة مصر.

احتد سعد: تلك هي الديباجات الصحفية.

- في الأيام القادمة ستشاهد الوضع الاقتصادي في مصر وكيف سيتغير للأفضل تحت إشرافنا.. ولا تُنكر أن مصر استفادت الكثير طوال الحرب.. على الأقل سددت الكثير من ديونها لفرنسا وإنجلترا.

- استفاد أغنياء الحرب.. أما الفقراء فأكلوا التراب.. هناك ما يزيد على مليون شخص أخذوا من أراضيهم وماتوا في خدمة جيوشك.. الرب لا يرضى عن تلك المهانة.

- دَعِ الرب جانباً فلا شأن له بتلك المسألة.. فالله لو رآها فكرة ظالمة لتكلم.. أما عن الذين ماتوا فهي الحرب يا عزيزي.. كما أن السلطة العسكرية دفعت لهم الرواتب مقابل خدماتهم.

- هراء.. ذهبوا بالسُّخرة وماتوا بلا ثمن.. وجودكم أصبح غير مرغوب فيه.

- الوجود البريطاني طفل تمّت ولادته منذ ثلاثة وثلاثين عاماً الآن... قاطعه سعد: طفل غير شرعي.

- لكنه وُلِد.. وكبر.. هل تستطيع أن تقتل طفلاً غير شرعي.. يجب أن تتعلم التعامل معه.. بجانب أنه أخذ على عاتقه إدارة بلادكم بمنتهى الحكمة.. هل تتخيل أمر مصر إذا دخلت الحرب الكبرى بدون راع يعمل على حمايتها؟ هل تفضّل الرجوع تحت العباءة العثمانية من جديد؟ بلادكم يا باشا ومركزها الجغرافي يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها.

- فقررتم أنتم يا فاعلي الخير أن تحتلوها خوفاً عليها.. أرجوك يا سيدي لا تتحايل بالمعاني فأنت تعلم أن مصر أمة جربت

الاستغلال لعقود من قبل ولم تنهوا.. وكلانا يعلم أنكم حين دخلتم مصر دخلتم تحت غطاء تأديب عرابي وقمع ثورته.. والآن حجتكم انتهت ومات أصحابها.. لِمَ لا ترجعون بلادكم وتبقى الصداقة فيما بيننا؟

- إنك تطلب شيئاً كبيراً مُقابل لا شيء.. ماذا ستقدم مصر بالمقابل؟ صداقة! وماذا تملك مصر غير الصداقة؟ أي مجنون يرغب في مُعاداة التاج البريطاني بعد النصر الساحق الذي حققناه؟ بأي حال أنا لم أقابلك اليوم لتناقش فلسفة الوجود البريطاني الذي لا تقدرون قيمته فلست أنا الشخص المناسب لتلك المهمة...

قاطعه سعد بحدة: ومن هو هذا الشخص المناسب؟ مليكك جورج الخامس؟

- نعم.. ولك أن تسأله بنفسك إن استطعت.

- هذه ليست دبلوماسية!

- سمّها ما شئت فكما قلت لك لم آت لمناقشة فلسفة الوجود.

قام سعد من مكانه.. أغلق أزرار المعطف استعداداً لإنهاء المقابلة: حسناً لماذا إذن طلبت الاجتماع؟

قام الرجل واتجه لمكتبه: لأن لديّ رسالة من أجلك.. وعرضاً.

زفر سعد في ضيق فأردف الرجل: من فضلك.. اجلس.

جلس سعد فالتقط الرجل من فوق مكتبه تلوغرافاً نظر فيه ثم اقترب من سعد وأردف:

- اليوم صباحًا أرسل لورد أَللنبي برقية من مصر.. بالطبع تعرف
فحواها.. قبل العاشرة صباحًا حَدَثَتْ مُحاولَة اغتيال أخرى لوزير
الأشغال العمومية مُحَمَّد شفيق.. تم القبض على الجاني وهو
شاب اسمه عبد القادر شحاتة.. يُعاني ارتجاجًا في المُخ وسيتم
استجوابه قريبًا بسجن الاستئناف.. بالطبع سيرفض الاعتراف
بأنه ينتمي لمنظمة اليد السوداء.

- وما شأني بذلك؟

- هل تنكر معرفتك بمنظمة اليد السوداء؟

- هل هذا تحقيق؟

- هل تدرك كيف تضر الأعمال الطائشة بالقضية؟

- لا أستطيع لوم من يرى أن تولي الوزارة بعد كل ما حَدَث في
مارس الماضي هو الخيانة بعينها.

- لا تنسَ أنك توليت وزارتين من قبل يا باشا.

- هذا صحيح.. كنت أعمل من أجل مصلحة بلادِي حين كنتم
تتوغلون في المناصب التي تُصب كلها في سُلُتكم.. كُنّا نؤمل
فيكم خيرًا ونظنكم تعزمون الرحيل فإذا بكم تعزلون الخديوي
بأمر من مليككم وتولون سُلطانًا بلا سلطة حقيقية.. رجلًا
لا يمثل سيادة مصر بل سيادة إنجلترا.. أي أننا الآن نشاهد جورج
الخامس وهو يفاوض جورج الخامس.. ثم تُعلنون الحماية
وتخوضون بنا حربًا شواء كثر فيها جرحانا وموتانا.. وأخيرًا
تنوون البقاء بزعم أن مصلحتنا مُشتركة! أي مصلحة مُشتركة

وأنتم تفتصبون ثلاثة عشر مليون نفس فوق ثلاثمائة وخمسين ألف ميل مُربَّع بمواردها؟ تشدَّقون بمبدأ تقرير المصير الذي زعم الرئيس الأمريكي أنه حق لكل الشعوب ثم تستثنوننا منه.. لا بد هنا من وقفة يا سيدي الفيكونت.. تولي الوزارة من بعد كل تلك الإهانات يُعد بالفعل خيانة لمصر.

- إذن أنت توافق على الاغتيالات السياسية؟

- أنت تبحث عن نُهمة لتلصقها بالوفد.

- بالنسبة لشخص اشترك من بعد انقلاب عُرابي في...

قاطعه سعد: حركة عُرابي لم تكن انقلاباً.. قلب وضع معكوس يُسمَّى اعتدالاً

- أها كان المُسمَّى.. من اشترك في منظمة تُدعى «الانتقام» بالطبع يرى الحياة من منظور متطرّف.

- مستر ملنر.. إذا كان لديك تحفظات على شخصي فلمَ اجتماعنا؟
لِمَ لم تتحدّث مع ممثل الحكومة عدلي باشا يَكن في ذلك الأمر؟
ظل ملنر صامئاً يحسب كلماته حتى نغزه سعد:

- إذا كان لديك من أجلي رسالة فمن الأفضل أن تُبلغها.. لا أملك وقتاً للجدال العقيم.

- الرسالة التي أود إبلاغك بها هي أن عيوننا ترصد الاغتيالات بدقّة وستصل قريباً إلى خيط متين نتبعه.. وإن لم تتوقف تلك الأعمال المُتطرفة سيكون لنا رد فعل ليس في صالح وفدك أو القضية.

- أهذه رسالة أم تهديد؟

- بل هو الواقع الجديد.. نحن نملك معلومات عن كل العالمين في الوفد.. بداية من سكرتير اللجنة المركزية السيد عبد الرحمن فهمي لأصغر معاونين.. صدّقني إذا قلت لك إن ملفاتهم تتضح يوماً بعد يوم كثير منهم يلتهم كل ما يراه.. مسألة وقت قبل أن يتم الزج بهم في السجون.. إذا أردت برفاقك خيرًا فلتوجد طريقة للتعاون.

- وماذا أنتم فاعلون بعد ذلك؟ أستمثقون شعب مصر كله؟

- أعوانك في الوفد قد يواجهون تهمة خيانة عظمى تصل للإعدام.. وكل من تسول له نفسه الإضرار بمصالح الإمبراطورية سيقطع رأسه.

- اقطع رأسًا وسينمو بدلًا منها عشرة.

- أعتقد أنك لا تُدرك خطورة ما تقول يا باشا.

- بل أدرك كل كلمة أتفوه بها.. وقد سمعت رسالتك فما هو العرض؟

- حسنًا.. العرض هو العودة لبلدك الذي بالطبع تفتقده.. زوجتك.. بيتك.. تهدئة الأوصاع والنفوس.. العمل على الاستقرار والبناء من أجل المصلحة العامة.. المساعدة في إبعاد رفاقك عن السجون.. وربما لاحقًا.. المنافسة المضمونة على العرش.

- العرش؟

- ولم لا؟ ففكر جيداً.. ألم تحلم يوماً بمصري يتولى عرش بلاده؟
فلاح بسيط يحكم بالعدل.. من يستطيع ذلك غير سعد زغلول؟
أنت رجُل ذو شهرة ومكانة لا بأس بها.. لم تُضَيِّع ما تبقى من
عُمرك بسبب العناد؟ لم لا تختتم حياتك بمنصب مرموق واسم
يُكتب في التاريخ بين الزعماء بدلاً من التمشك بسراب خالم
تعرف جيداً أنك لن تجد عنده ماء.

خدجه سعد مضيقاً عينيه: إني أفضل أن أكون خادماً في بلادي
المستقلة على أن أكون سلطاناً مُستعبداً في بلادي المحتلة.

- لم تُخلف ظنّي.. عنيد وخالم وتعشق الدياجات الصحفية التي
تُطبع منشورات لتقرأ ثم تُلقى على الأرض لتدهسها الخيول.. إن
كنت خائفاً من أن يقول المصريون لقد لفظ سعد زغلول مبادئه
فأنت لا تعرف الشعب المصري.. عاش السلطان مات السلطان..
ذلك دستوركم.

- أنت لا تعرف شيئاً عن شعبي.

- ها أنت تقول شعبي.. هذه بداية طيبة.

- وفّر على نفسك كلمات لن تجني منها طائلاً يا سيد ملنر.

- بل وفّر على نفسك وعلى وفدك عناء تسؤل التبرعات والتسكع
في أوروبا لاستجداء التعاطف.. أتعرف معنى أن تكون سلطاناً؟
لن تكثرث للنقود من اليوم ولن تُعبأ بقرض بنك «كريدية ليونيه»
الذي يُثقل كتفك.. ثمانية آلاف وخمسمائة جنيه هه؟ ستؤني

صَلاحيات لم تُجَزَّ لأحد من الأسرة المالكة قبلك.. نفوذ حقيقي
يَجعل منك حَاكِمًا فريدًا من نوعك.. ستفعل ما تشاء كيفما
تشاء.. سيُسطر اسمك في التاريخ كأول حاكم مصري يحكم
مصر في العصر الحديث.. ستُدفن وستُخلَّد ذكراك في ضريح
عظيم تأتي من أجله الوفود للقاء نظرة على جَسَدك بدلا من
مقابر قريبك الصغيرة.

رَمَقه سعد للحظات بلا تعبير ثم قام.. أخرج من جيبه عُلبة سجائر
وَوَضَعَ واحدة في فيه.. أشعلها ونفث دخانها باستمتاع في السقف ثم
تمشى بهدوء نحو الباب قبل أن يلتفت:

- أتعرف.. فرض «كريدو ليونيه» أصبح سبعة آلاف ومائتي
جنيه الآن.

- هل هذا هو ردك الأخير؟

ابتسم سعد: هو كذلك.

قالها وخرج.. توقف أمام سكرتير الفيكونت ملنر.. رَمَقه بازدراء
قبل أن يسحب من السجارة نفثا طويلا ثم يُسْقِطها على الأرض
ويدهسها بنعل حذائه.



بعد يومين

حمام الثلاثاء

البُخار كان يكسو الهراء السَّاكِن، تغذّيه مياه ساخنة تُضخها
مواسير تُمر من تحت مُستوقد للقمامة مُجاور للحمام، تشتعل فيه
النفايات فتنتقل الحرارة إلى المَواسير التي تُصَب بدورها في مغطس
حجري واسع تستحم فيه الأجساد ثم تستلقي من حوله على البلاط
عارية إلا من فوط تداري القورات، نائمة على وجوها في استرخاء
مُستسلمة لأيدي رجال غلاظ يفركون جلودها بليف خشن وأحجار
تستخلص الخلايا المُتهالكة والعرق والإرهاق لتبث النشوة والنشاط.

عبد الرحمن فهمي كان مُلتحفًا بشكيرًا كبيرًا لم يُخف قلقه، يجلس
على مصطبة حَجَريّة في رُكن، صامتًا عابسًا كحَجَر، يتأمل رواد المَكان
المُنتشئين بالبُخار ويتابع عَقارب ساعة نحاسية استقرّت بجانب محفظته
ونظاراته، دقائق لم تطل حتى حَضَرَ أحمد يلف خصمه ببشكير لم يخف
ندبات وخياطات المعارك القديمة، أبطأ خطواته حين التقت أعينهما
فهزَّ عبد الرحمن فهمي رأسه مطمئنًا فاقترب أحمد، جلس بجانبه
بعد أن جَذَب مِنشفة غطّى بها شطر وجهه المُواجه للمغطس ورواد
الحمام، كَمَح عبد الرحمن ماسورة مُسدس ملفوف حول فخذ أحمد
فهمس بدون أن ينظر في وجهه:

- ذاري سلاحك.

أخفاء أحمد: ليه غيرنا مكان المقابلة؟

- المراقبة علياً اتغيرت.. تضاعفت.. فيه حاجة بتحصل.

- اختراق؟

- أو اعتراف.

- عبد القادر ما يعرفش حاجة عن حضرتك.. ولو عرف ما يتكلمش.. أنا واثق.

- هو جاله ارتجاج وكان في شبه غيبوبة لغاية إمبراح.. ممكن يكون اتكلم تحت تأثير البنج أو سألوه أول ما فاق.. المتهمين بيكونوا في حالة ضعف وصراحة في اللحظة دي.. ولو مش هو اللي اتكلم يبقى فيه تسريب حصل من حد ثاني وده أخطر.. هو مكان خليته كان فين؟

- كافيه ريش.. مع ماكينة الطباعة.

- ودابرتة كانت كام شخص؟

- أنا وتلاتة.. من إمبراح وقفت نشاطهم مؤقتاً.

- لو جه اسم كافيه ريش في التحقيقات مكتب الخدمات هايصروا العمال لغاية ما يعرفوا المترددين.. لازم تنقطع كل صلة بعبد القادر والمكان.. هو كان بيبات فين قبل كده؟

- تردد أحمد حين تذكر قصة بيت بنة التي حكاهما عبد القادر.. أردف:
- الموضوع مُعقد شوية.. ناس مش هايساعدوه في شهادته.

- وبيت أهله؟

- أصعب.. ماراحش هناك من سنة تقريباً وكل أهل الحي عارفين.

- لازم حد يشهد إنه كان بيبات عنده.. لازم تقطع نهائياً كل صلة

بيه وبالكافية.. الاستجواب هايبدأ من بكرة بحضور وكلاء نيابة

مصريين وإنجليز ومش عارف هايقدر يستحمل في أيديهم لغاية

إمى.. ده غير إن المحاكمة عسكرية.

أطرق أحمد برأسه للأرض.. الاحتمالات تتخط في رأسه كثرة

تنس جُن جنونها في غرفة بلا شبك ولا باب.. قطع عبد الرحمن

أفكاره: الفترة الجاية لازم يعرفوا إن واحد بيع بيطلع بداله عشرة..

خصوصاً إن الوضع مع أصدقائنا في باريس مش مُطمئن خالص..

جمود وتراجع.

توترت ملامح أحمد فقام وأحكم البشكير على وسطه: هادرس

العملية الجاية وأوافي حضرتك بالتفاصيل.

- خلّي بالك على نفسك.

زَحَل أحمد مُتخطياً ستائر البخار وفُضول المُستلقين وسَفَحَا حَدَا

لا أرض بعده.



بعد أسبوع

غُرُفة التحقيقات بسجن الاستئناف

استوى على كُرسيه في هزال وضعف، الأصفاذ في قدميه ثقيلة ضيقة ومربوطة في خصره ويديه، في مواجهة دائرة الضباط المصريين بالإضافة لوكيل حكمدار القاهرة آرثر باشا، يُترجم بينهما مترجم مُعتمد ويُسجل الأجوبة كاتيب التحقيقات ومن خلف كتفيه مُخبران غليظان، يصفعانه إذا تبجح أو تذمر، وإذا لم يفعل شيئًا صفعاه ليفعل، بدا في حالة مُتقلبة بين الغضب والإعياء من أثر الحجز الانفرادي وبقايا الارتهاج، حُرب نفسية مارَسها المحققون ببراعة استحلًا بمعلومات لم ينطق بها رغم فقدانها أغلب أظافر يديه وكَيّ تمسّس على باطن فخذه، بالإضافة لكدمات السُحل الباقية من يوم القبض عليه والتي يصعب تمييزها عن رُضوض الانفجار الذي خلف له ارتجاجًا جعله يتقيأ طوال ليلتين ويستعِر حرارة حتى حاصرتَه الهلاوس، زاره أبوه «الجن» في الزنزانة مرة، صامتًا مثل آخر عهده به، صدره وجبهته تزينا بالرصاصات الإنجليزية ينظر إلى شبّاك ينسلل منه ضوء الشمس ليلاً لم يُكلمه لكنه نظر إليه وابتسم ثم أدار وجهه ثانية قبل أن تنوء ملامحه في ظلمة الغرفة.. غفا عبد القادر بعدها ثم عاد، عاد على صوت نداء

حارس يهمس من فرجة في الباب برسالة: «اثبت يا عبد القادر وانكر صلتك بالقهوة».

أنشاء التحقيق كانت الأسئلة تنطلق منهم جميعاً في وقت واحد، كالإعدام رمياً بالرصاص الكل يتنافس للفوز بالقلب، تتنوع استفهاماتهم بين السؤال المباشر والخيي، أو التهديد، أنكر عبد القادر ألف مرة وجود شركاء له: «أنا ضربت عليه القبلة عشان يخاف.. عشان يراعي رينا فينا وما يتولاها الوزارة.. طب والقبلة جبتها منين؟ اشتريتها من ظابط إنجليزي اسمه بيتر.. بيتر إيه؟ ما أعرفش.. تقدر توصف شكله؟ الدنيا كانت ضلمة وكان لابس بيريه.. طب لون شعره كان إيه؟ نقول طور يقولوا احلبوه! قلت لابس بيريه! كنت بتبات فين؟ كنت ببات كل يوم في مكان.. ليلة الحادثة قضيتها في سيدنا الحسين.. إيه صلتك باليد السوداء؟ ما أعرفهمش».

ثم طُرق الباب، دَخَلَ أحد المُخبرين ليهمس في أذن الضابط بكلمات قام على أثرها وخرَج، أكمل الباقي أسألهم لذائق قبل أن يعود الضابط ومعه رجل يحمل بين ضلوعه بذور الطاعون والكوليرا ووباء الإنفلونزا الإسبانية، دَخَلَ ينصف سَالم مكبوس تحت طربوش غير مُستوي، لم يُخَفِ وَجْهاً متعجناً أو عَيْناً يَبْصُرُ الحرق، بَثَّ النُفُور في وَجوه الجالسين قبل أن يقف قرب المكتب الذي يجلسون خلفه. سَأَلَهُ الضَّابِطُ الذي اصططحبه بعد أن سجَّل اسمه في سِجِل التحقيق.. سلامة عبده نجاتي.. الشهير بـ «سلامة النُّجس».

- تعرف الشخص ده؟

- إلا أعرفه.. عبد القادر أفندي.

- إحكي ظروف معرفتك به.. واللي أنت قلت لي عليه برّه.

نَظَر سَلامَة في وَجْه عبد القادر المحتقن فابتسم إليه مُطمئنًا بفم
احترقت جوانبه ثم قال:

- عبد القادر كان عِشرةً عُمرياً سَعَادَة اليه.. زبونني.. راجل كسيب
وغاوي.. حَاكِم أنا عِنْدِي بيت مرخّص في ذَرَب طِيَاب.. القصد..
عبد القادر أفندي بعد أبوه الله يرحمه ما مات في المظاهرة...

قاطعه الضابط آرثر الذي تكلم لأول مرّة منذ بدء التحقيقات:
مُظَاهَرَة؟ سألها بعربية سليمة.

- أيوة يا سعادة الباشا.. المُظَاهَرَة اللي كانت طالعة على بيت سَعد
باشا في مارس.. حَاكِم أبوه كان فتوّة كبير.. وشهرته الجِن.

حين تُرجمت تلك المَعْلُومَة لآرثر انتبه.. نَظَر إلى عبد القادر متلمسًا
مَلامِيح والده الذي عَرَفَه زَمَنًا قَبْل أن يقتله بيده.

أكمل سلامة:

- شوف يا باشا بقى البني آدم وَقِلَّة الأَصْل.. بعد ما مات أبوه أويته
وصرفنا عليه لأنه ما كانش ينفع يرجع حتّته حَاكِم كان بيشغل مع
مُعسكر إسماعيلية والأهالي غضبانين حبتين.. الكلام ده كان قبل
ما يهاجمه بمتريوز.. وفي يوم أخشع اليه ابن الأصول ألاقيه
بيحشي قنبلة بالبارود.. بتعمل إيه يا عبد القادر أفندي؟ أنا لازم
أمروت البخونة اللي كانوا السبب في موت أبويا وسمعتة ببيير طم

باسم سعادة اليه الوزير.. يا عبد القادر أفندي اعقل يا عبد القادر
أفندي ما يصحّش.. رأسه وألف جزمة يعمل عمله.. بعيد عنك
يا سعادة اليه الدويح الودن أمر من السحر.. هو ليه أصحاب
تشوفهم تشوف الخبل كده في عندهم ما تفهم شياطين ولا مدرك
إيه.. المهم.. رُحت طارده وقلت له هابلخ البوليس.. وعنهما...

رمقه عبد القادر بلا تعبير.. خلّايا جسده كانت تستعير ثم تنفجر
واحدة واحدة بصوت مسموع.. أكمل سلامة روايته في يقين:

- يقوم بعمل إيه؟ يضربني بلمبة مولعة جاز.. زي ما أنت شايف
سماعتك.. عاهة مستديمة.

وكشف سلامة عن حرقه فامتعض المحققون وأمره الضابط
المصري بتغطية عاهته.. أردف سلامة: الله يسامحه.. ربنا كريم
يا سعادة اليه إن الباشا الوزير يسلم ووقع البعيد في أيديكم.. كله إلا
الدم.. إحنا لينا غيركم عشان نقبل عقلنا.

ويكى سلامة بحرقه حقيقة فصجبه المُخبر إلى الخارج وهو يردد
أن له طلبًا عند الوزير وحلاوة سلامته من الاعتداء.

تم تسجيل شهادته وسؤال عبد القادر عنها.. أفاق من شروده بعد
دقيقة وكف عن جز أسنانه قبل أن يصرّح: معرّض نجس.

ثم إنهاء التحقيقات بدون أن يُسمح لعبد القادر بالاستعانة بمُحامٍ
إلا بمُحامٍ إنجليزي عَيّنه من أجله ورفض عبد القادر الكلام معه،
أضيفت شهادة سلامة ومُخبر مكتب الخدمات الذي ألقى القبض على

القادر وعسكريي البوليس اللذين طاردها ولم تغلح النيابة في إقناع
له من المارة أو أصحاب المحال بالشهادة على عبد القادر لتأكيد
سمة، رَفَضُوا تضامناً مع موقفه، بَعْدَهَا يَوْمَيْنِ تم تحديد ميعاد النطق
بِحُكْمٍ، في نفس اليوم الذي حَضَرَتْ فيه إلى سجن الاستئناف سيِّدة
يَلة، طلبت مُقَابَلَةَ الضَّابِطِ الْمَسْتَوِلِ عن التحقيق مع عبد القادر،
سَتْ أَمَامَهُ ورفعت الشبك من فوق عينيها ثم قالت بهدوء:

- عبد القادر سُحْرَانَةٌ يَبْقَى عَشِيقِي.. كان بيّات عندي في الشقّة..
وَكُنَّا هَانَتْجُوز.



بعد ساعات

استقر عبد القادر مُكبَّل اليدين فوق كُرسي خَشبي وَسط عُرفة خالية.. لم يقترب منه أحد لساعة زَمَن سَبَّ فيها كُل مَنْ حَقَّقوا مَعَهُ حَتَّى أَرِهَقَ نَظَاطاً رَأْسَهُ عَلَى صَدْرِهِ فِي صَمْتٍ.. لِحَظَاتٍ وَالتَقَطَتْ أذُنُهُ وَقَعَ خُطُوبَاتٍ تَقْتَرِبُ.. انْفَتَحَ الباب عنها واقفة بين الضابط المصري الذي استقبلها وآثر الإنجليزي الذي آثر حضور اللقاء بنفسه.. ثَرَنَدِي فُستَانًا أَحْمَرٍ مَيِّزٍ خَصَرَهَا.. فِي رُموشها كُحَلٌ وَفِي عَيْنِهَا عِشْقٌ لَمْ يَعهده.. تنحَّى الضابط المصري جَانِبًا فاندفعت ناحيته والأصفاد فِي يَدَيْهَا.. قام مَذْهولًا مَحْبوس النفس:

- دولت!!

لَمْ يُكْمِلْ.. أَغْلَقَتْ فَمَهُ بِشَفَتَيْهَا.. أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا وَتَنَفَسَتْ فِيهِ.. ثُمَّ مَسَحَتْ شَفَتَيْهَا وَطَعَنْتْ خَدَّيْهِ وَجَبْهَتَهُ وَهِيَ تَزْفِرُ: «حَبِيبِي» ثُمَّ تَهْمَسُ بِجَانِبِ أذُنِهِ: «جَارِينِي».

همس عبد القادر: إيه اللي جابك هنا؟

أجابته بصوت يُسْمِعُ مَنْ خَلْفَهَا: ما كانش ينفع أسيبك تأخذ حُكْمَ وَيفتكروك مُنْضَمٍ لِمُنْظَمَةٍ سِياسِيَّةٍ عِشان تداري قِصَّةَ حُبِّنا.

أخزسه تصريحها.. جاهد عقله ليستوعب ما تقوله.. مجنونة..
نطقها عيناه فحركات شفيتها:

- هانروح أنا وانت في ذاهية!

نظر خلف كتفها لأرثر الإنجليزي الذي يفحص ملامحه حين
عاجلته دُولت بصوت مسموع:

- أنا بحبك يا عبد القادر.. مش محتاج تبقى بطل عشان أحبك.. إيه
اللي عملته ده يا مجنون؟

نظر إلى عينيها التي ترقرت مطراً في صيف فيظ! لا يمكن ليلك
الدموع أن تكون كماليات مسرحية متقنة.. مثل باروكة وفناع وأصباغ
رخيصة تُقنع مُتفرجاً بأن البطلة تفور عشقاً في البطل.. السخونة التي
تزفرها.. الابتسامة المترددة التي تُرعى أسفل وجنتيها.. الصمت..
والكلمات بين الكلمات.. اللعنة!! أجنث الآن لتنقذيني يا خمرية؟
لتقتليني؟ لا فرق.. فالأقدار شاءت أن أزهد في جميع النساء من
أجل طعنة من تلك السفاه.. لا بأس إن كان وجهك آخر مشهد في
المسرحية.. لا بأس إذا ضمتك أمام الجمهور قبل أن تنزل الستائر
آخر يوم في العرض.. كأنك حبيبتني.. اللعنة علي اليوم الذي ظننت
نفسي فيه بحاراً.. وأنتك نسمة هواء تحمل عطرًا مختلفاً.. لم أعلم
وقتها أنك مقدمة أعصار.

- ليه؟ ليه يا دُولت؟

- مش ممكن كنت أسبك.

اكتفى الضابط آرثر بما رآه فسحب دُولت من مرفقها وناولها للضابط المصري الذي أوقفها بجانبه.. وَضع يده على كَتِف عبد القادر ليجلسه بحيث يكون ظهره إلى دُولت.. سَحَب كُرْسِيًّا قبالته وجلس يُتابع وجهيهما قبل أن يُنادي المُترجم ويشير للكاتب أن يكتب الأجوبة وراءه ثم وَجَّه كلامه لعبد القادر: منذ متى وأنت تعرفها؟

- سنة.

- هل تعرف اسمها كاملاً؟ أين تسكن؟

تردَّد عبد القادر للحظة قبل أن يُقرر حَكِي قصته الحقيقية معها.. قِصَّة عاشق حفظ تفاصيل محبوبته وعدَّ عليها أنفاسها شهوًّا:

- دُولت عبد الحفيظ فهمي.. من أبشاق الغزال المِنيا.. ساكنة في شقة إيجار في الضاهر.. مُدرسة إنجليزي في مدرسة الهلال.. بتحب شعر محمود سامي البارودي وعلي الجارم.. وتسمع الشيخ سيّد درويش ومحمد عبد الوهاب.

سأل آرثر: علامة مُميّزة في جسدها؟

- أنت راجل قليل الحياء.

ابتسم آرثر ابتسامة واسعة ثم صَفَّعه بظهر يده صَفعة شديدة.. فتح خاتم ذهبي يوتديه جرحًا غائرًا في خَدَّ عبد القادر.. نظر آرثر لخاتمهِ المَحْفُور فيه اسمه والدماء التي خَضِبَت حروفه فأخرج من جيبهِ مِنديلًا مسح به قبل أن يَسأله:

- هل كُنت تبيت في شَقَّتْها يوم الحَادث؟

صَمَتَ عبد القادر للحَطَّاتِ ثم التف لينظر إلى دَوْلَتِ فَصْرَخِ فيه
آرثر: هل كنت تبیت في شقتها؟

طاطاً عبد القادر وجهه للأرض: أيوة.

- هل تنتمي هي الأخرى لمنظمة اليد السوداء؟

بعضبيّة رفع رأسه: لا مسودا ولا بيضا.. أنا فجّرت الراجل ده عشان
ترجّعوا سعد باشا.. ده آخر كلام عندي.

حكّ آرثر أنفه للحطّات: حسنا.. أخرجوها.. بل اخرجوا جميعا.

خلت الغرفة فقام ينظر إلى الشارع من بين حَدِيدِ الشَّبَاكِ للحَطَّاتِ
ثم عَادَ إلى عبد القادر الذي نَزَفَ جرحه وأردف بهدوء:

- أتعرف؟ ستذهب معك إلى المشنقة.. فهي مُشتركة في الجَريمة
بأيواء مُتطوِّف ومَعْرِفَتها بهدفه.. صدّقني قد تكون عنوستها هي
الدافع الحقيقي خلف إحساس الوطنية المُباغت الذي تُعانيه..
لو تزوّجتك لنسيت كُلَّ شيء ولأرادت الاستقرار والإنجاب..
أتمنى أن تكون قد استمتعت معك بأي لحظة لطيفة في ذلك
العالم البغيض قبل أن تُفارقة.

- دَوْلَتِ ما تعرفش حاجة.. أنا اشتريت القنبلة وأنا اللي
قررت أرميها.

- يا لك من ساذج قصير النظر.. كم تُشبه أباك!

نظر إليه عبد القادر في عدم استيعاب:

- تستغرب أنني أعرفه؟ سأحكي لك القصة أيها البانس.. قصة فتوة الحي الذي لم يكن يوماً ضد وجودنا.. فتوة الحي الذي نال سطوة المنطقة بمباركتنا.. فتوة الحي الذي يتقاضى الهبة الشهرية مني شخصياً ليشتي بأمثالك من الخالمين الذين يفسدون الحياة بخيراتهم الفضيلة وحماستهم الساذج.. ألم تسمع منه اسم آرثر باشا وكيل الداخلية من قبل؟

توترت ملايح عبد القادر أردف آرثر

- لا بُد أنه كان يخجل من حكي تلك القصة أمامك.. لكنها الحقيقة.. أنتم شعب لا يقرأ.. لا يفقه.. تأكلون وتنكرون مثل القطط كما تقولون.. والدك كان يتقاضى مني شخصياً راتبه الشهري منذ تولي فتوة منطقة الناصرية.. هكذا كان الحال لسنين.. حتى تلفت خلايا دماغه تدريجياً ربما بسبب الأفيون الذي يمحّضه أو الخمر سيئ الصنع.. مسكين.. المهم أنه انقطع عن زيارتنا.. اعتقد أن السبب كان رغبته في زيادة المرتب.. أو أن جزار الفخار التي يخفي فيها النقود لم يعد لها مكان تُدفن فيه.. تلك مرحلة جديدة في عمر كل مُرتزق.. تبدأ لديه أعراض الإحساس بالأهمية.. تتحول إلى ندبة.. ثم عداة كاملة مصحوب بغباء.. الجنون بعينه.. في الأيام الأخيرة أرسلت له أكثر من مرة وفي كل مرة كان يمتنع عن زيارتي.. حتى أتى يوم وجدته أمامي في مظاهرة.

تيس عبد القادر ونهّدت أنفاسه.. ذلك الرجل كان ينبش في جرح مفتوح.. بسكين صدي.. أكمل آرثر:

- لَمَسْتُ فِي عَيْنَيْهِ دَاءَ الشُّعَارِ.. وَكَفَضَ نَحْوِي كَالْمَجْنُونِ يَبْغِي
قَتْلِي.. أَعْمَى نَسِيَ سَيِّدَهُ.. نَسِيَ مَنْ كَانَ يُطْعِمُهُ.. لَا تَأْخُذْ الْأَمْرَ
بِمَحْمَلِ شَخْصِي.. الْمَرْحَلَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ دَاءِ الشُّعَارِ لَا عِلاجَ لَهَا..
مُحْزَنَةٌ.. أَرَدَيْتَهُ.. ارْتَعَشَ قَلِيلًا ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنَاهُ قَبْلَ أَنْ يَتَبَوَّلَ عَلَى
نَفْسِهِ.. مَاذَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ مِنِّي؟ أَنْ أَتْرَكَهُ يُهَاجِمَنِي؟

انكسر في فم عبد القادر طرف ضرس.. نفر عرق جبهته وحاول أن
يقوم فتأهب آرثر ووضع طرف عصاه المزيّنة بالنَّجْمِ الْمَلَكِي الْبريطاني
على كتفه ليُجْلِسَهُ:

- دَعْنِي أَكْمِلْ كَلِمَاتِي حَتَّى تَتَّضِحَ الْمَصُورَةُ.. يَمُوتُ الثَّائِرُ «النَّبِيلُ»
يَسْتَرُ «الْحِجَن».. وَيَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ شَابٌ مِثْلُكَ صَحْلُ التَّفَكِيرِ..
تُحَدِّثُ فِي عِلْمِ السِّيَاسَةِ.. وَلَا تَعْبَأُ أَنْ يَتَعَلَّمَ.. يَعْمَلُ مَعْنَا
وَيَكْسِبُ قُوَّةَ يَوْمِهِ مِنْ خِدْمَةِ الْمُعْسَكِرِ.. يَشْتَرِي بِنَقُودِنَا سِيَارَةً
جَدِيدَةً وَبَدَلَةَ طِرَازِ السَّنَةِ رَسْمَهَا مَصْنُوعٌ بِانْجِلِيزِي.. ثُمَّ فَجْأَةً تَأْتِيهِ
الْقَضِيَّةُ عَلَى طَبَقٍ مِنْ فِصَّةٍ.. الْإِنْتِقَامُ.. فَيَنْدَفِعُ كَالرَّصَاصَةِ الْعَائِثَةِ
بِلَا هَدَفٍ وَقَدْ امْتَلَأَتْ جَنْبَاتُهُ بِرُوحٍ وَطَنِيَّةٍ حَدِيثَةِ الْعَهْدِ.. لِيَنْتَهِيَ
كَيْفَاحَهُ حُفْرَةً فِي حَائِطٍ أَوْ فِي جَسَدٍ لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَخْلِدُ قَضِيَّتَهُ
الْمَزِيْفَةُ.. ذَلِكَ أَنْتَ.. رَّصَاصَةٌ بِلَا هَدَفٍ.

كَانَتْ الْكَلِمَاتُ الْأَخِيرَةُ كَغَيْلَةٍ أَنْ يَقْرَأَ عَبْدُ الْقَادِرِ مُطْلَقًا صَرْخَةً عَالِيَةً
قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّى صَرِيَّةً مِنْ عَصَا آرثر أَسْقَطَتْهُ أَرْضًا.. ثُمَّ أَرْدَفَ الْأَخِيرُ:
- سَتُعَدُّمُ.. لَيْسَ لِمَحَاوَلَةِ قَتْلِ الْوَزِيرِ.. بَلْ بِتُهْمَةِ الْغِيَا.

لَمَّا أَغْلَقَتْ زَنْزَانَتُهُ أَطْبَقَ جُفُونَهُ.. جَلَسَ فِي رُكْنٍ يَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ
وَهِيَ تَزْحَفُ نَحْوَهُ بِطُءٍ مِنْ فَتْحَةِ السَّقْفِ.. تَرِيْسِمُ عَلَى الْأَرْضِ صَلِيْبًا

حَدِيدِيًّا اكْتَسَى تَدْرِيجِيًّا بِلَوْنِ الْغُرُوبِ.. لَوْنِ الْجَمْرِ الَّذِي يَتَدَفَّقُ فِي
الْعُرُوقِ.. النَّارُ الَّتِي تَشْوِي جَوْفَهُ.. يُصَلِّي قَلْبُهُ حَرِيقًا كُلَّمَا تَذَكَّرَ وَجْهَ
آرْتَرِ.. الْكَلِمَاتُ وَهِيَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ الْبَيْضَاءِ الْمُسْتَوِيَةِ الْمِثَالِيَةِ..
عَيْنِيهِ الْمُسْتَرْخِيَتَيْنِ.. ثَقَتَهُ.. غَطَّرَ سِتَّهُ.. وَطَنَهُ الَّذِي لَا تَغِيبُ شَمْسُهُ..
تَفَاصِيلُ لِحَظَاتٍ قَتَلَ أَبِيهِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ دَبَابِيْسَ حَادَّةٍ وَإِبْرَ خِيَاطَةٍ
تَسْرِي فِي الْمَرْيَةِ.. إِحْسَاسٌ بِالْعَجْزِ تَوَعَّلَ حَتَّى شُلَّتْ حَرَكَتُهُ.. دُمُوعٌ
انْهَمَرَتْ وَلُعَابٌ مَسَالٍ وَرَقَبَةٌ طَوَّطَتْ لَا إِرَادَةً عَلَى صَدْرِهِ.. نَشِيْجٌ مَزَّقَهُ
فَقَامَ يَضْرِبُ بَابَ الزَّنَانَةِ بِقَبْضَتِهِ حَتَّى تُسْرَخَ أَصْبَعُهُ.. ثُمَّ سَقَطَ عَلَى
رُكْبَتَيْهِ.. يَوْمَانُ بَلَا أَكَلٍ وَلَا شُرْبٍ.. تَجَاهَلُوهُ ثُمَّ هَدَّدُوهُ وَضَرَبُوهُ.. نَقَلُوهُ
إِلَى مُسْتَشْفَى وَفِي لَحْظَةٍ غِيَابٍ عَنِ الْوَعْدِيِّ نَادَى دَوْلَتِ.. أَتَوْهُ بِهَا فِي
غُرْفَةٍ يَقْسِمُهَا قَضِيْبَانِ حَدِيدِيَّةٍ عَلَيَّهَا تَقْنَعُهُ بِالْكَلامِ.. جَلَسَتْ عَلَى كُرْسِيٍّ
خَشَبِيٍّ أَمَامَهُ.. شَعْرُهَا مَحْلُوقٌ كَأَوْلَادِ الْمَلَاجِي.. فِي عَيْنَيْهَا مِسْحَةٌ
بِنَفْسِيَّةٍ وَفِي شَفَتَيْهَا تَوْرَمٌ.. رَمَقَهَا مِنْ وَرَاءِ ضَعْفِهِ فَقَامَ مِنْ سَرِيرِهِ
وَاقْتَرَبَ بِصَعْوَةٍ بِسَبَبِ الْأَصْفَادِ وَهُوَ يَرْمِقُ الْعَسْكَرِيَّ الَّذِي وَقَفَ
بِجَانِبِ الْبَابِ.. جَلَسَ أَمَامَهَا يَتَأَمَّلُ وَجْهَهَا فَابْتَسَمَتْ مُلْطَفَةً.. هَمَسَتْ:

- مِشْ بِنَآكُلْ لِيهِ؟

- ضَرْبُوكِي؟

- أَنَا كُوَيْسَةٌ.. مَا تَقْلُقْشِ.. أَنْتِ لَازِمٌ تَأْكُلِي يَا عَبْدَ الْقَادِرِ.

- لِيهِ؟

- عَشَانُ مَا يَنْعَشُ تَخْلِيهِمْ يَشُوفُوا ضَعْفَكَ.

- إِزَايِ تَعْمَلِي كِدَهُ؟

ابتسمت ولم تُعقّب فهَمَس: وليه اختارك أنت؟

- أحمد مالوش ذنب.. أنا جيت من وراءه.

- جيتي عشانتي؟

نظرت في عينيه متضرّعة أن يصمّت.. أردفت:

- ما تصعبش الموقف.

لامس القضبان بأصابعه: دُولت اِكفاية.. أنا عمري ما حُييت
حدّ قدّك.

بدون مجهود ترقّرت عيناها بدمعة.. انحدرت ساخنة.. سقطت
على أناملها فنظرت إليه للحظات طالت حتّى رجع بظهره بعيداً عن
شعاع الشمس المار بينهما.. همست باختناق:

- طُول عمري كُنت عارفة إن اللحظة دي هاتيجي.. بخاف منها أكنّها
الوباء.. بهرب.. بس كنت عارفة إنها هاتيجي.. عارف... أنا بهرب
من يوم ما وعيت ع الدنيا.. مش من اللحظة دي بس.. بهرب من
المنيا.. من ابن عمّي اللي مكتوب يتجوزني.. من التقاليد.. العار
اللي بجرّه ورايا ذنب زي ديل الفستان.. عار إنني بنت.. بنت بس ا
حتّى أخويا اللي مربيني وعمري ما شُفت في عينيه ده.. ما بقينش
قادرة أشوفه.. بقى واحد ثاني.. أنا قطعّت بإيدي كُل خيط يفكرني
بيهم.. يضعفني.. صمّمت أكون عروسة.. بس عروسة خشب
ملوّنة زي عرايس الأراجوز وصندوق الدنيا.. من غير جبال
تحركها.. تشدّها.. إيه هو الحب؟ إيه؟ يعني إيه؟ كل يوم كنت
بسأل نفسي السؤال ده لغاية ما جيت أنت... واللي كُنت خايفة

منه حَصَلَ .. إحساس إني بتسحب وراك .. ما أبقاش إليك نفسي ..
كان بيكرهني فيك كل لحظة يبصر لك فيها .. بقاومك عشان
ما أقعدش في يوم على الكرسي ده .. أقول الكلام ده ... في عالم
تاني كان مُمكن ... أحبك زي ما أحب أحبك .. زي ما المفروض
كان يكون .. ساعتها مكتش مخاف أقولك .. وما كتش هتوجع
لما نسمع .

ساد الصمت .. توقفت الشمس عن الدوران وصَدَّت القضيبان قبل
أن تتساقط على الأرض متفسخة .

- كُل اللي أقدر أقدمه لك .. إني أعرفك إنك مش لوحدك .. وإني
ممكن أعمل أي حاجة عشان تعرف ... إني ما بقتش مُهتمة باللي
راح .. ولا اللي جاي .. وإن الدنيا كلها بقت لون واحد يوم ما
ودّعتك في المقطم .. وإن ساعة الانفجار أنا مُت قبلك .. وكُونك
عايش .. حتى ولو مؤقتاً .. أحسن حاجة حَصَلت لي .

- دولت ...

- بحبك .

كان ذلك آخر ما قالته .. قامت واقتربت من الحارس .

- دولت ...

ناداها عبد القادر فنظرت إليه في تومل قبل أن يسحبها الحارس من
مرفقها ويُغلق الباب .

على قلب عبد القادر .



في تمام الثانية عشرة ظهرَ اَرْقَعَ الْمُصَوِّرِ الإيطالي وَجْهَهُ إلى السَّقْفِ
الرَّجَاجِي المُصَنَّفِ في الغُرْفَةِ الوَاسِعَةِ، اطمأن على زاوية الضوء
العمودية ثم أشار لمرئيتين تطوفان حول المهد المطلي بماء الذهب
كي تبعدا، تَمَّت الأولى على الملابس الناعمة واطمأنت الثانية على
الشعر الممسوح بالزيت قبل أن تنتحيا جانبا، ضَبَطَ الإيطالي وَضَعَ
المهد في نصف الصورة تماما وراعى أن تظهر الناموسية المزركشة
والتاج المنحوت فوقها ثم رَكَزَ البُورَة على الوجه الأبيض ذي الملايح
الألبانية الفرنسية الذي طُلَّ من بين الملاءات المزينة بالتاج فرفع الغطاء
عن العَدْسَةِ، عَدَّ بالإيطالية ثلاث عدَّات قبل أن يضع الغطاء ثانية ويهمس
بالإيطالية: ممتاز.. اقتربت السُلْطَانَة مِنْهُ مُبْتَسِمَةً وسألته بالفرنسية:

- ألا يجب على الأمير أن يرتدي ملابس ذاكنت بعض الشيء؟
الصورة يطفى عليها الأبيض.. أخشى أن تصبح باهتة!

التفت لها المصور وهمَّ أن يُجيب بأدب جَمَ حين اقتربت مسر
تايلور ضامة يديها إلى بعضها وفي هدوء أردفت:

- الأبيض أساسي في الصور الرسمية للأمراء الصغار.. بالإضافة
أن مواصفات الصورة مُتَّفَق عليها منذ أيام يا مولائي وغير
قابلة للتغيير.

رَمَقْتَهَا نَازِلِي بَغْلٌ قَبْلَ أَنْ تَسْتَطِرِدَ:

- لَا بِأَسْ أَنْ تُبَدِّلَ الْمُرَبَّيَاتِ مَلَابِسَ الْأَمِيرِ وَيَتِمَّ تَصْوِيرُهُ ثَانِيَةً
بِالْمَلَابِسِ الَّتِي اقْتَرَحْتَهَا.

ابْتَسَمَتْ مِسْز تَايَلُورُ ابْتِسَامَةً صَفْرَاءَ:

- مَوْلَاتِي.. عَلَى الْأَمِيرِ الْآنَ أَنْ يَرْتَاحَ لِأَنْ مِيعَادَ طَعَامِهِ قَدْ حَانَ..
قَدْ نَجْعَلُ ذَلِكَ الْاِقْتِرَاحَ فِي وَقْتٍ آخَرَ.

زَفَرَتْ نَازِلِي نَفْسًا مَسْمُوعًا ثُمَّ رَمَقَتْ صَغِيرَهَا الَّذِي يُحْرِكُ يَدَهُ
فِي هَدْوٍ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْغُرْفَةِ وَالشَّرَرُ يَتَطَاوَرُ مِنْ وَرَائِهَا، يَحْرِقُ
السَّجَادَ الْأَحْمَرَ وَأَطْرَافَ النِّبَاتَاتِ فِي الْمَزْهَرِيَّاتِ النَّحَاسِيَةِ اللَّامِعَةِ،
تَلْعَنُ فِي سِرِّهَا مِسْز تَايَلُورُ؛ مُرِيَّةَ الْأَمِيرِ الصَّغِيرِ وَالسُّلْطَانَ الْمُقْبِلَ،
إِنْجِلِيزِيَّةَ صَارَمَةَ لَا تَعْرِفُ مَعْنَى الرَّحْمَةِ، أُنَى بِهَا فُؤَادَ إِلَى الْقَصْرِ يَوْمَ
بَرَزَتْ بَطْنَ نَازِلِي لِتَعْتَنِي بِهِ وَتُشْرِفَ عَلَى تَرْبِيَتِهِ، مُنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ دَبَّتِ
الْخِلَافَاتُ بَيْنَهُنَّ وَبَعْدَمَا وُلِدَ بِسَاعَاتٍ قَامَتِ قِيَامَةً، فَبِالسُّلْطَةِ الْمُخَوَّلَةِ
مِنَ السُّلْطَانِ إِلَى مِسْز تَايَلُورُ كَانَ عَلَى السُّلْطَانَةِ أَنْ تَرْضَخَ.. «نَازِلِي..
مَاذَا تَعْرِفِينَ أَنْتِ عَنْ تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ؟ لَا زِلْتَ صَغِيرَةً لِتَحْمِلِي مَسْئُولِيَّةَ سُلْطَانٍ
الْمُسْتَقْبَلِ.. تَايَلُورُ قَادِرَةٌ عَلَى تَنْشِئَةِ طِفْلِ سَلِيمٍ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُورُبِيَّةِ.. مِنْ
فَضْلِكَ لَا تَتَدَخَّلِي فِي شَتُونِهَا لَهَايَ نَعْرِفُ مَا تَفْعَلُ».

صَاقَتْ حَوَائِطُ الْقَصْرِ بِنَازِلِي فَجَاءَتْ، كَيْفَ تَرَى ابْنَهَا بِمِيعَادٍ؟ تَلْقَمُهُ
ثَدْيُهَا بِمِيعَادٍ؟ وَتَطْلُبُ رُؤْيَاهُ وَهُوَ يَسْتَحِجُّ وَقَدْ يُوْذَنُ لَهَا أَوْ لَا يُوْذَنُ، خَوْفًا
عَلَيْهِ مِنَ الْبَرْدِ! نَحْمَلَتْ كَثِيرًا حَتَّى أُنَى يَوْمَ اشْتَعَلَتْ فِيهِ غَضَبًا بِسَبَبِ
ضَيْقِ وَقْتِ وُجُودِ فَارُوقٍ مَعَهَا، انْتَرَعَ مِنْهَا انْتِرَاعًا تَحْتَ إِشْرَافِ مِسْز
تَايَلُورُ فَخَرَجَتْ مُسْرِعَةً إِلَى غُرْفَةِ فُؤَادَ، اشْتَكَتْ إِلَيْهِ بِانْفِعَالٍ وَصَوْتٍ

نسي نفسه فما كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ صَفَعَهَا وَأَمَرَهَا بِالْإِذْعَانِ! بَكَتْ نَازِلِي كَمَا لَمْ تَبْكْ مِنْ قَبْلُ، أَغْلَقَتْ عَلَى نَفْسِهَا الْحَمَامَ سَاعَةً، جَلَسَتْ تَحْتَ الدُّشِ تَسِدُ بِالْمِيَاءِ أَذْنِيهَا، مُحَاوَلَةٌ تَبْرِيدِ رُوحِ شُيُوتِ، تَتَحَسَّسُ الصَّفْعَةَ عَلَى وَجْتِهَا وَتَجْتَزُّ لَحْظَاتِهَا مَعَ حَبِيبِ غَابَتْ عَنْهُ؛ تَمْشِي الشَّارِعَ، الْأَفْلَامَ وَالْمَسْرَحِيَّاتِ، الْقُبْلَةَ الْأَخِيرَةَ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، وَقَوْفَهُ أَسْفَلَ شُرْفَتِهَا مُنْتَظِرًا وَلَحْظَةَ إِغْلَاقِهَا السَّائِرِ... ثُمَّ تَتَابِعُ الْخَبْرَاتِ عَلَى الْبَابِ لِتَبْدُدَ كُلَّ الذِّكْرِيَّاتِ وَتَسْتَحْثُّهَا عَلَى الْخُرُوجِ، أَفَاقَتْ نَازِلِي وَاسْتَجَابَتْ لِتَجِدُ وَالِدَهَا فِي الْإِنْتَظَارِ، حَكَّتْ مَا حَدَثَ فَسَكَتْ، ذَرَعَ الْغُرْفَةَ ذَهَابًا وَإِيَابًا يَفْكَرُ وَيُقَدِّرُ قَبْلَ أَنْ يَضُمَّ وَجْتِيبَهَا بِرَاحَتِيهِ وَفِي خُطْبَةٍ بَلِيغَةٍ يَهْمِسُ بِهِدْوً أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ طَبِيعِي بَيْنَ الْأَزْوَاجِ، وَأَنَّ الْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ تَتَطَلَّبُ أحيانًا، بَعْضُ الْقِسْوَةِ.. وَالتَّنازُلِ: «ثُمَّ مِنْ رَأْيِي حِينَ صَفَعْتُ؟ أَلَمْ تَكُونَا وَحِيدَيْنِ فِي الْغُرْفَةِ؟ مَا يَحْدُثُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ يَجِبُ أَنْ يَظِلَّ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ».

نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَازِلِي وَلَمْ تُعَقِّبْ، عَرَفْتُ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ لِلْقَصْرِ قَانُونًا، وَأَنَّ لِعَلَّاقَتِهَا بِأَبْنَاهَا قَانُونًا، تَأْكُلُ بِقَانُونٍ وَتَخْرُجُ بِقَانُونٍ، وَتُمَارِسُ الْجِنْسَ فِي وَقْتٍ مَحْتَمٍ، بِقَانُونٍ، وَأَنَّ الْعَرْشَ بَيْنَ عَلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ قَانُونٍ، عَرَفْتُ إِحْسَاسَ زَائِرَةِ بَيْتِ الْعِنْكَبُوتِ، التَّشْبِيهِ الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنْ فَمِ أَحْمَدَ يَوْمًا فِي حَدِيقَةِ بَيْتِهَا، مُحَاوَلَةٌ بِالْخِيوطِ وَحِيدَةٍ خَائِفَةٍ، كُلَّمَا تَحَرَّكَتْ أَزْدَادَتْ اِشْتَبَاكًا، تَرَفَّلَ فِي ثَوْبٍ أبيضٍ مُرْصَعٍ تَتَأَكَّدُ يَوْمِيًّا أَنَّهُ سَيَصِيرُ كَفَنَهَا، فَنُودٍ بِتَجْرِبَةٍ مَعَ زَوْجَةٍ سَابِقَةٍ عَارَضَتْ نِزْوَاتِهِ وَذَلَّتْهُ بِثَوْبِهَا أَدْرَكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ وَاجِبٌ أَنْ تُقَهَّرَ، وَأَنَّ الْغَيْرَةَ عَلَيْهَا أَمْرٌ لَا مَحَالَةَ مِنْهُ، خَاصَّةً إِذَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَةً أَسْرَةً مَائِكَةً، جَمِيلَةً وَصَغِيرَةً، مِنْ ذَا الَّذِي يَتَنَبَّأُ بِسُلُوكِهَا خَاصَّةً مَعَ فَارِقِ الشَّنِّ؟

كان عليه نبذها في رُكن مُذهب، أحاطها بسيّدات العائلة المتلاثلثات،
تقرأ في أعينهن الجحد والحسد والتملق فتبتسم مُرغمة، تمشي في
الحرم ملك مُساردة تنتظر أن تُنعم عليها مسز تايلور بوقت مع صَغيرها
تفضيه، أو تجلس هائمة أمام العرج الأخضر تتأمل نور الشمس وهو
يسير فوق العُشب يلامسه ويُحييه ولا يقربها، لم تشعر بنفسها إلا وهي
تكتب في ورقة، صفحة كاملة بخط عانى ليقرأ قبل أن تطوي ما كتبت
وتُخفيه في صدرها، بعد يومين أتى والدها وفي عينيه غُصَب لم تعده،
سحبها من يدها إلى الحديقة في صمت وانتظر أن يبتعد الخدم قبل أن
يُخرج من جيبه الورقة التي كتبتها منذ يومين، ما إن رأتها حتى رففت
قدمها فحملها فجلست على مقعد يمسح اثنين، جلس بجانبها وقصّ
الورقة يُعيد قراءة ما فيها بعينه قبل أن يتكلم بدون أن ينظر إليها:

- يسمعي عن هارون الرشيد؟

- أشهر خليفة عباسي.. هو اللي أوحى بشخصية شهريار في ألف
ليلة وليلة.. ومسرور السياف كان عبد عنده فعلاً.. جعفر البرمكي
كان أهم وزير عند الرشيد.. أقرب واحد لقلبه ومن عيلة دائماً
كانت في خدمة العرش.. عيلة اسمها البراميكة.. الرشيد كان
عنده أخت اسمها العباسة.. قالوا إنها أجمل نساء العصر وقتها..
حبها جعفر.. حبها بدون إذن الرشيد.. واتجوزوا.. ففضلوا فترة
مُكتفين بالجوابات السرية.. وفي يوم راحت له.. مُتخفية.. قضت
معه ليلة.. ليلة واحدة.. هارون الرشيد عيرف.. الخليفة صعب
تستخبي عنه حاجة.. عيون كثير تتمنى تخدمه.

سَكَتَ أَبُو هَا لِلْمَحْظَاتِ أَخْرَجَ فِيهَا عِلِيَّةٌ ثِقَابَ أَشْعَلٍ مِنْهَا وَاحِدًا مَرَّةً
حَتَّى قَلَبَ نَازِلِي حَتَّى اشْتَعَلَ ثُمَّ تَحْتَ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَتَبَتْهَا مُنْذُ يَوْمَيْنِ..
رَدَفَ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ الْوَرَقَةَ تَحْوِيلَ لِرَمَادٍ:

- عَارِفَةُ عَمَلِ إِيَّاهُ هَارُونَ الرَّشِيدُ؟ قَتَلَ جَعْفَرَ.. وَحَبَسَ كُلَّ عِيْلَةٍ
الْبَرَامِكَةِ وَصَادَرَ أَمْوَالَهُمْ.. وَمَاتَتِ الْعَبَّاسِيَّةُ فِي نَفْسِ السَّنَةِ.. أَقْرِي
تَارِيخَ يَا نَانَا عَشَانَ يَتَعَلَّمِي.

لَمْ تَرَمْشِ.. لَمْ تَتَنَفَسِ.. عَيْنَاهَا كَانَتَا مُتَشَبِّهَتَيْنِ بِفَرْعِ شَجَرَةٍ ضَعِيفٍ
مُحَرَّكَةِ النِّسَمَاتِ.. نَثَرَ أَبُو هَا رَمَادَ رِسَالَتِهَا فِي الْحَدِيقَةِ ثُمَّ ضَمَّ بِقَبْضَتِهِ
صَابِعَهَا.. فَرَكَهَا بِالرَّمَادِ الْأَسْوَدِ ثُمَّ ضَغَطَهَا حَتَّى تَأَلَّمَتْ.. لَمْ تَتِنِ..
أَمَعَتْ عَيْنَاهَا وَتَحَمَّلَتْ الْأَلَمَ حَتَّى تَكَلَّمَ:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي بَعْتِيهِ بِالرِّسَالَةِ هُوَ خَدَّيْجُكَ
وَيَخَافُ عَلَيْكَ.. كَانَ أَكْسَبَ لَهُ يَوْمَئِذٍهَا لِلْإِسْلَامِ.. لَكِنَّ اللَّهَ
يُؤَسِّرُ.. دَهْ بِخِلَافِ إِنْ الْوَلَدَ نَفْسَهُ غَيْرَ مَكَانٍ إِقَامَتِهِ... مِشْ
مِصْدَقُ إِنْ كُلِّ الَّذِي أَنْتَ بَقِيَّتِي فِيهِ دَهْ وَلِسَهُ بِتَفْكَرِي فِي عَيْلٍ
تَافَهُ زِي أَحْمَدُ كَبِيرَةٌ.. أَنْتِ عَارِفَةُ مُمَكِّنٍ يَحْصُلُ إِيَّاهُ لَوْ فَكَّرَ
يَبِيعُ الْجَوَابَ دَهْ لِلْجَرَايِدِ الْمُعَارِضَةِ؟ مُتَخِيلَةٌ مَوْقِفِي هَا يَكُونُ
عَامِلٌ إِزَايَ؟ اسْمُ عِيْلَةٍ صَبْرِي هَا يَتَمَحِّي مِنَ الْوُجُودِ يَا صَاحِبَةَ
الْعِظْمَةِ.. مِشْ هَا سَمَحَ لَكَ بِدَهْ يَا نَازِلِي.. مِشْ هَا سَمَحَ لَكَ أَبَدًا.
نَفَضَ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا وَالرَّمَادَ ثُمَّ قَامَ.. نَظَرَ إِلَيْهَا نَظْرَةً أَخِيرَةً ثُمَّ ابْتَعَدَ
جَلَّ أَنْ تَسْتَدْرِكَهُ:

- أَتَمْنَى تَكُونُ اسْتَمْتَعْتُ.

التفت إليها: استمتعت بإبه بالقطب؟

- كرسي الوزارة اللي قعدت عليه ميت شهر بس قبل ما يستبدلك.
رمقها بغيط جز أسناته قبل أن يتتعد، استأذن في مُقابلة السلطان فأذن
له، دَخَلَ عليه وَكَانَ فِي مَعِيَّتِهِ وَزِير الدَّاخِلِيَّة يناقشان حركة الاغتيالات
المتفشية ويتباحثان الحُكْم على المَسْجُون السِّيَاسِي الَّذِي أَلْقَى القُنْبَلَةَ
مُؤَخَّرًا عَلَى مُحَمَّد شَفِيق باشا وَزِير الْأَشْغَال، صَرَخَ وَزِير الدَّاخِلِيَّة بِأَن
الْقَضَاء يَرَى الإِعْدَام، أَمَّا آرْتُر باشا وَكِيْل الدَّاخِلِيَّة الْإِنْجِلِيزِي فَرَأَاهُ أَن
السَّجْن الْمَوْبِد أَفْضَل.

- رأيك إيه يا عبد الرحيم باشا؟

أفاق الباشا مِن سُروده عَلَى سُؤَال زَوْج ابنته؛ السُّلْطَان، فتدَارَك:
رَأَيْ مِنْ رَأْي آرْتُر باشا يَا صَاحِب الْعِظْمَةِ، الْوَلَدِ اكْتَسَبَ شَعْبِيَّة كَبِيرَةً،
صُورُهُ يَتَّبَع فِي الشُّوَارِع، إِعْدَامُهُ هَايَحُولُهُ لِبَطْل.

أَرْدَفَ وَزِير الدَّاخِلِيَّة: الْحُكْمُ الْمُخَفَّف هَايَجِرُ نَاس تَانِيَّة غَيْرِهِ.

قَالَ السُّلْطَان: الْمَوْبِد مِش حُكْم مُخَفَّف.

عَقَّبَ عَبْد الرَّحِيم صَبْرِي: الْوَلَدُ دِه أَظُنْ يَبْكُون أَضْعَف وَاحِد فِي
الْمَنْظَمَات دِي.. أَقْلَهُمْ ذُكَاء.. عَشَان كِدِه يِيخْتَارُوهُمْ دَائِمًا لَتَنْفِذِ
الْعَمَلِيَّات.. رَأَيْي إِنْ الْأُولَى نَسِيبَ اللَّيْ زِيَه يَتَنَسَوُا فِي السَّجْن..
يُخْرِجُوا عَلَى الْقُبُور.

وَجَّهَ وَزِير الدَّاخِلِيَّة كَلِمَاتِهِ لِلْسُّلْطَان: قَرَارُ صَاحِبِ الْعِظْمَةِ؟

مَسَحَ فُؤَادَ شَعْرِهِ بِيَدِهِ قَبْلَ أَنْ يَحْسِمَ الْجَدَلَ: مِش سَلِيمُ نَصْنَعُ بَطْل
مِنْ نَكْرَةٍ.. مَوْبِد.

انتهى اللقاء فخرج عبد الرحيم صبري في إثر وزير الداخلية.. تمشياً
في رواق القصر وقبل أن يصل ساحة السيارات.. انحنى الأول على
الأخير وهمس: فإكر الولد اللي كنت كلمتك عنه يا باشا؟ أحمد كبيرة...
توقف وزير الداخلية والتفت باهتمام: الولد اللي كان بيتسأخف
على صاحبة العظمة.. طبعاً.

- أنا كنت أظن أنه تم اعتقاله.

همس الرجل: لا.. الحقيقة أنا شيعت له رجالة من عندي..
كسروه تماماً.

- هو.. الولد ده معروف مكان إقامته؟

- هو رجع عمل حاجة ثاني؟

- وهو المفروض نتظر يعمل يا باشا؟ مش كان ليه نشاط سياسي؟
أكيد له صلة بالاغتيالات الأخيرة.. أنا كنت حكيت لك ماضي
والده.. إذا أضفنا كمان ماضيه المنحرف ومحاولاته الدينية إنه
ينول من شرف صاحبة العظمة...

قاطع الوزير: واضح واضح يا عبد الرحيم باشا.. ده أمر ما يتسكتش
عليه.. أوعدك إني هاشوف حل نهائي معاه.

أخرج وزير الداخلية ورقة وقلماً.. سطر اسم أحمد كبيرة بخط
واضح ودسها في جيبه ثم ودّع عبد الرحيم باشا ورحل.



سري.. نمرة ١٤٧

القاهرة في ١٢ يونية سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- ألقى إبراهيم حسن مسعود مُحاسب بوزارة الصحة قناتين على سيارة
رئيس الوزراء الجديده مُحمد توفيق نسيم.. ثم القبض على المتنفل
وجار التحقيق معه في سرايا النيابة.

- اعتقالات تعسفية تسود العاصمة وتضييق على مندوبي الوفد خاصة
في المُحافظات.

- صدر الحكم على عبد القادر شحاتة صَاحِب مُحاولة اغتيال محمد
شفيق باشا بالمؤبد وتم إيداعه سجن طره.

عبد الرحمن فهمي

سري.. نمرة ١٤٩

القاهرة في ٢ يولية سنة ١٩٢٠

سعادة سعد باشا زغلول

- اعتقل أمس عبد الرحمن بك فهمي.. دأهمت السلطة منزله بعد منتصف ليلة ١ يولية.. كما تم اعتقال سبعة وعشرين شاباً من شباب الوفد.. التهمة المعلنه في محاضر الضبط «إنشاء منظمة سرية باسم «الهد السوداء» تهدف إلى خلع السلطان».

- أقترح تجميد النشاط السري حتى نهدأ الأوضاع.. نرجو إيفادنا برأيكم الكريم في المسألة وكذا الرد المناسب لما حدث حيث حكفت هيئة محامي الوفد منذ اليوم على دراسة الموقف لاتخاذ التدابير المناسبة وإصدار بيان عن الوفد وكذا الترافع عن الزملاء المسجونين.

- تم تكليفي مؤقتاً بإدارة سكرتارية لجنة الوفد المركزية.

مصطفى النحاس

حديقة الأريكة

جلس أحمد لعشر دقائق على مقعد خشبي في أطراف الحديقة،
يقرأ جريدة ويأكل شطيرة، اقترب منه رجل في منتصف
الأربعينيات تحمل عيناه حولاً طفيفاً، تفحص رواد المكان قبل أن
يجلس بجانبه ويضع على المقعد حقيبة جلدية كانت لعبد الرحمن
نهمي، لمحها أحمد بطرف عينيه حين تحلج الرجل طربوشه فكشف
عن رأس طمروح للصِّلح، دقيقة وتكلم بدون أن يلتفت:

- أنا اسمي مصطفى النحاس.. طبعاً جالك خبر إن أنا...

قاطعه أحمد: غني عن التعريف يا مصطفى بك.. حضرتك توليت
سكرتارية اللجنة.

- عبد الرحمن بك كان حاسم إنهم هايصدروا أمر الاعتقال قريب
من بعد العمليات الأخيرة.. سآب لي التعليمات كُلُّها وكلفني
أحقق اتصال معاك بشأن نناقش في بعض التفاصيل.. أول
حاجة بالنسبة لعبد القادر شحاتة.. هل له عيلة مُمْكِن نكفلها؟
- أمه وإخواته.

- فيه إعانة هاتخصص لهم من تبرعات الوفد.. هاحتاج العنوان..
كان فيه كمان البنت اللي شهدت معاه.. اسمها...

- دُولت.

- سَعَد باشا مُهْتَم بِأَمْرهَا بِشَكْلِ شَخْصِي.

- دُولت مُتَمَاسِكَةٌ.. رَاحَتْ شَهِدَتْ بِدَوْنِ هَلْمِي فَاسْتَبَعَدَتْهَا
مِنْ النِّشَاطِ.. أَخُوهَا شَابٌ غَلْبَانٌ قَبَضُوا عَلَيْهِ يَوْمَ تَنْفِيذِ عَمَلِيَةِ
عَبْدِ الْقَادِرِ وَلِغَايَةِ دُلُوقْتِ مَقِيْشِ أَيَّ خَبَرٍ عَنْهُ.. يَا رَيْتَ لَوْ فِيهِ
إِمْكَانِيَّةٌ نَعْرِفُ مَكَانَهُ...

- طَالَمَا مَشَى مُسْتَدْلِينَ عَلَى مَكَانِهِ يَبْقَى الَّذِي قَبِضَ عَلَيْهِ مَكْتَبُ
الْخِدْمَاتِ مَشَى الْبَوْلِيْسِ.. يَتَأَخَذُ فِي الرِّجْلَيْنِ وَيَتَنَسَّى فِي
الْمُتَعَثِّلِ مَا يَتَسَجَّلُشْ اسْمُهُ وَلَا يَتَقَدَّمُ لِلنِّيَابَةِ لَكِنْ هَا حَاوَلَ أَعْمَلُ
بَحْثَ عَنْهُ.. هِيَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَتَّهِمِ كَانَ فِيهِ...؟

قَاطِعُهُ: دُولت صَعِيدِيَّةٌ جَدَّعَةٌ.. كَانَتْ مُمَكِّنٌ تَعْمَلُ كِدَهُ مَعَايَا
شَخْصِيًّا.. هِيَ بِسِ أَخْطَآتِ الْحِسَابَاتِ.

- عَظِيمٌ.. دَهْ يَنْقَلِنَا لِنَقْطَةَ ثَانِيَةٍ.. الْفَتْرَةُ الْجَايَةِ لِأَزِمٍ...

قَاطِعُهُ أَحْمَدُ: لِأَزِمٍ نَكْتَفِ الْعَمَلِيَّاتِ.

رَمَقَهُ النَّحَاسُ فِي صَمْتٍ ثُمَّ أَرْدَفَ: اِعْتِقَالُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِكَ زَائِدُ
الْوَضْعِ غَيْرِ الْمُطْمَئِنِّ مَعَ أَصْدِقَائِنَا فِي لَنْدُنِ يَخْلِيْنِي أَقُولُ...

قَاطِعُهُ أَحْمَدُ: لِأَزِمِ الْإِنْجِلِيزِ يَعْرِفُوا إِنَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِكَ يَمِشُ هُوَ
الَّذِي وَرَا الْعَمَلِيَّاتِ.. وَدَهْ أَدْعَى لَتَنْفِيذِ عَمَلِيَّاتٍ بِشَكْلِ أَوْسَعِ.

- السِّيَاسَةُ دُلُوقْتِي بِتَقْوَلِ نَتَنَظَّرُ لِغَايَةِ مَا نَشُوفُ الْمُحَاكِمَةَ رَايِحَةً
عَلَى فِينِ.

التفت له أحمد.. فتح صفحة في الجريدة على عنوان كبير..
«المؤامرة الكبرى».

- أظن اسم القضية كفيلاً بأننا نعرف المحاكمة رايحة فين.. حُكم
الإعدام من أول درجة مضمون يا مصطفى بك.
زُفر الرَّجل: عندنا مُشكلة ثانية.

قالها والتقط من حقيبته الجُلدية وَرَقَةً مَطْوِيَةً وَضَعَهَا بِجَانِبِ
سَاقِ أَحْمَد.

- الإخطار ده طلع إمبارح بالليل من حِكمدارية البوليس.. اتوزع
على المُخبرين.
التقط أحمد الورقة وقرأ.

سُرِّيَ هَذَا

«أحمد عبد الحي كيرة، يَمْتَلِكُ كِيمِيَانِي بِمَدْرَسَةِ الطَّبِّ، خَطِيرٌ
فِي الْاِغْتِبَالَاتِ السِّيَاسِيَةِ. فَاتِحُ الْمَلَوْنِ، مَتَوَسِّطُ الْقَامَةِ وَذُو شَارِبٍ
وَهِمَرِهِ حَوْلِي ٣٨ حَامًا.. اقْبِضُوا عَلَيْهِ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا».

بلا تعبير ابتلع أحمد ريقه وكوَّر ما تبقى من شطيرته في الورقة
وَأَلْقَاهَا فِي سَلَّةِ بِجَانِبِهِ ثُمَّ وَضَعَ وَرَقَةَ الْإِخْطَارِ قُرْبَ النِّحَاسِ الَّذِي
دَسَّهَا فِي الْحَقِيْبَةِ وَأَرْدَفَ:

- لازم تختفي الفترة الجاية.

- عِنْدِي صَدِيقٌ فِي الْحُسَيْنِ هَاقَعْدِ عِنْدَهُ مُؤَقَّتًا.

- المسألة ما يقتضئ تغيير مكان سكنتك.. أعتقد لازم تفكر تبعد أكثر من كده.

- برّء البلد؟ ده استبعاد؟

- ما تفهمنيش غلط.. آخر كلمتين في الإخطار معناهم بيقول كده.

- أنا مش جبان.

- ده مش جُبن.. أنت على قائمة الإنجليز حي.. أو ميت.. محتاج إيه تاني عشان تفكر؟

- محتاج أعمل عملية جديدة.

الثفت إليه النحاس.. بعصية همس: أنت ليه مش قادر تفهم إن الدم مش ممكن يخدم المُفاوضات.. العمليات بتزيد عناد الاحتلال ورغبته في الانتقام.. المُحتل عنده بَدَل العسكري ألف وبَدَل القائد مئة.. العملية الواحدة بتكلفنا كثير ومش بتؤدي لأي نتائج إيجابية بالعكس.. الناس في الشارع هي اللي بتتضرر واللي بيموت وينجرح من المصريين أكثر من الإنجليز.. بُص للي بيعمله غاندي في الهند.. الساتياغراها^(١) بتحقق نتيجة حقيقية وتعمل ضَغط دولي بيحرك القضية بجد.

- مصر مش الهند.. والساتياغراها فكرة سلبية.

- طول ما عدوك أقوى لازم تكون أكثر دهاء.. العنف بيأذكك أضعافه.

(١) الساتياغراها: مصطلح باللغة السنسكريتية يتألف من كلمتين «ساتيا» وهي الحقيقة، و«غراها» وتعني الصمود والتمسك بالموقف؛ وهي فكرة المقاومة «اللاعنفية» التي ابتدعها المهاتما غاندي لمقاومة الاحتلال والاستبداد من خلال العصيان المدني الشامل وبدون إراقة دماء.

- ده مش رأي سعد باشا اللي في يوم من الأيام وقف ورا عرابي!
- ده رأي الوفد اللي بيحاول يحصل على الاستقلال.. ما تخليش
الانتقام يعميك يا ابني.

- سيادتك عارف إن الأرض مش بتشرب الدم.

- أنا عارف تاريخ والدك.. وهو تاريخ مُشرف.. لكن.. لكل وقت
أدان.. التأثير الحقيقي لازم يكون عارف إمتى ينشط.. وإمتى
يهدا عشان المصلحة العامة.. إحنا مش هانمول خاليًا أي
عمليات سرية.

- يبقى هاشتغل لوحدي.

- تُحد بالك.. سُقوطك مش هايكون زي سُقوط زمايلك..
سُقوطك معناه سُقوط الخيوط كلها.. أنت الوصلة الوحيدة بين
المجموعات.. ما تجاوزفش.. الوقت حرج جدًا.

قام أحمد وزرر سُترته: سعد باشا إزّيه دلوقت؟

أجابه الرجل بعد لحظات: بيحارب.. على ترابيزة المفاوضات.

- يبقى هانفضل نحارب وراه.. لغاية الاستقلال.

رمقه النحاس ولم يُعقب فأحنى أحمد رأسه في احترام: نهارك
سعيد يا مُصطفى بيه.

قالها وكَبَس طربوشه مُبتعدًا.



سجن طرة.. جنوب القاهرة

حين دخلت سيارَ الترحيلات إلى ساحة السجن دارت حول نفسها ثم رجعت بيّطاً حتّى بات بابها الخلفي في مواجهة المبني، فتح الحراس الباب الحديدي وصاحوا في المساجين فنزلوا تباغاً وفي أيديهم وأرجلهم الأغلال توسوس، على يمين ويسار الممر الطويل وقف الحراس وبأيديهم قضبان حديدية غليظة، يلوحون بها في طقس يُعرف بينهم بـ «طابور الاستقبال»، تلقى أول المساجين ضربة على ظهره فركض بقدر طول أغلال قدميه فتبعه الباكون جزعاً، انهال عليهم الحراس ضرباً وتحطيماً فذاذوا بأيديهم فوق رؤوسهم مُراوغين، عبد القادر كان السابع بين زملائه، ركض بقوة مُتجنباً الضربات بانحناءات ودفعات بأيدي لا تكاد تصل إلى رأسه لتحميه، حتّى تعثر في أغلاله، سقط فحاصرتة القضبان الحديدية ضرباً إلى أن أعشى عليه.

حين أفاق خلّقوا شعره بموسى ووضعوا في قدميه أغلالاً ثقيلة تصل إلى ثلاثة كيلوجرامات ثم أودعوه غرفة حبس انفرادي... بعد ثلاثة أيام من الظلمة الخالكة انعدم الزمن، فقد عبد القادر القدرة على تفريق الليل من النهار وعدد الأيام، يلتبس أبعاد الغرفة الضيقة مرّة واحدة في اليوم حين يتسرب ضوء خافت من كوة في بابها الحديدي القصير عندما يفتح ليُلقي إليه طبق حساء ورغيف متلبّد يسمونه «الجراية» وكوز ماء تجري فوقه الطفيليات، رفق في أول يوم أن يأكل، ثم صرخت معدته

ونغزته البرودة نهاية اليوم الثاني فأقبل.. في نهاية اليوم الرابع لم يعد يتساءل عن طبيعة الجساء بعد أن أكل بنهم، كما لم تُعد رائحة الدلو الذي أُنجم بفضلاته تؤثر فيه.. ثلاثة أيام أخرى في الظلام وبدأت تُهاجمه نوبات الهلوسة، ألوان غريبة تراها حديقته، تتحرك كالسراب البعيد، تلتوى كنار في ريح، ثم تلتقط أذناه أصوات حشرات تحتك أجنحتها فيتنفض، يصرخ في الفراغ بغضب، ثم يخبط الباب بهستيريا والحوائط، يُنادي استغاثة، يُسب كل من قابلهم في حياته، وأولهم نفسه، ثم يبكي بحرقة، قبل أن تتابه موجة ضحك عصبية تشرخ رثيه، ثم يسكن، يهدد، يتمدد على البلاط البارد فأقدا القدرة على التفكير، فأقدا الإحساس بالبرودة التي تلعنه وتخلخل عظامه، يمد يده التي لا يراها إلى سقف لا يراه، سقف بدأ يشك في وجوده، قبل أن تتجلى ذولت، تقترب في سُكون وتلتقط يده، تحتضنها ثم تتلاشى.

ثم فُتح الباب يوما، الشمس كانت حاضرة بذات نفسها، صوراها أعمى حديقته فصرخ برُعب وضرب الهواء بيده في هستيريا حتى دخل ثلاثة رجال، بهزال قاومهم فتلقى ركلات في معدته ثم سحبوه من قدميه إلى الخارج قبل أن يلقياه على أرض رطبة في حمام، جرّده من ملابسه ثم رشوا فوقه بؤدرة بيضاء رائحتها نفاذة وفتحوا عليه مياهها صرخ من برودتها، أنموا تفسيله فوضعوا قُرصا مَرّا في حلقه ثم كفّوه في لباس من الخيش وقميص أزرق مكتوب على صدره رقم قبل أن يودعوه غرفة مزدوجة في زنزانة لا تتعدى مساحتها مترين ونصفا في مترين، جلس على السرير السفلي بجانب جردل الفضلات وفي الحائط الأيمن فوقه كوة صغيرة مغطاة بالشبك العديدي على ارتفاع ثلاثة أمتار، تطل على الزنزانة المُجاورة لها.

بعد أيام بدأ عبد القادر يستوعب حياته الجديدة، بهذر، فهم من زميل الزنزانة العجوز أنه يسكن في عُنابر السياسيين، وأنه هو الآخر مسجون منذ سبع عشرة سنة في نُهمة الاعتداء على هياكل إنجليزي ويتنظر إتمام المؤبد، مثله، عَرَفَ أيضًا أن حياة السجين تبدأ في الفجر وتنتهي في الخامسة مساءً، تنطفئ الأنوار وتخفُّ الحركة إلا من هَمَسَات المساجين وسباب الحراس، عَرَفَ أيضًا أن النقود الورقية لا قيمة لها، وأن العملة هنا هي السجائر، مَنْ لا يملك سجائره لا يملك نفسه، والأفضل له أن يعيش في خدمة مسجون ثري على أن يعتدى عليه في الغداة والأصال.

بسبب هيكلة العريض ونُهمته أكلوه تقطيع الحجارة في المحجر، يذهب في الصباح الباكر ليقضي يومه في التكسير والتحميل حتى مغرب الشمس، يرجع في طابور مع مجموعته ليستحموا جماعيًا ثم يتناولوا وجبة لا تُغني عن جوع.. لازمه الصمت والشرود لأيام، يحاول أن يتخيل انتهاء الكابوس، بعثه من عالم الأموات، بعد خمسة وعشرين عامًا، ويتخيل دولت، ثم تستقر عيناه على زميله العجوز، شعره الأبيض وعوده الفارغ ويديه المعروقتين فيحسب سنين عمره المتبقية حتى يلقاها فتهدج أنفاسه قبل أن يُغضض عينيه ويذهب في سُبات عميق لا يفيق منه.. ولا يريد.. حتى التقط يومًا همسًا من جدار الغرفة المُجاورة.. همسًا ينادي اسمه:

- عبد القادر.

اعتدل عبد القادر ونظر إلى الكوة العالية فسمع اسمه ثانية.

- مين؟

- اطلع فوق.

قام عبد القادر ينظر للكوة الصغيرة: أطلع إزاي؟

- لِف طرفين البطانية عُقْدَة واربطهم في حديد الشباك يمين
وشمال.. مُرجيحة يعني.

همَّ عبد القادر أن يعود للنوم قبل أن يتردّد، سَحَبَ نفسًا إلى صدره
ثم قام، صَعَدَ فوق السَّريِر وعَقَدَ أطراف البَطَانِيَةِ بالقُضبان الحديدية ثم
قفز فوق قوسها المُتَدَلِّي لأسفل، اتزن فرمق من وراء القُضبان وَجَّهَهَا
نَحِيْلًا، عَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ فوق أنف حَاد وشارب رفيع، مسحة الضعف
لم تُخْطِئْهَا عَيْنَاهُ رَغْمَ الظُّلْمَةِ، كَانَ يُعْمِسُك القُضبان بيْد وباليَد الأُخْرَى
الناقصة إِبْهَامًا ناول عبد القادر سيجارة.

- امسك.

لم يتردد عبد القادر.. التَّقَطَّ السِجَّارَةُ وأشعلها بعُود ثِقَابٍ مَمْدُود:
- تُشْكِر.

- أنت اللي رَمِيت القنبلة ع الوزير؟

- أنت مين؟

- أنا واحد عَمَلْتُ زَيْكَ كِدْه من خمس سنين.. بس أنا رَمِيت القنبلة
على السُّلْطَان ذات نفسه.

قالها ومَدَّ يَدًا بأربع أَصَابِع: مَحْسُوك نجيب الأهواني.. مُؤَبَّد في
مُحاوِلَة اغْتِبَال السُّلْطَان.

استعاد عبد القادر كَلِمَات أحمد في الغَايَةِ الْمُتَحَجِّرَةِ بِالْمُتَعَلِّم:
اسنة خمسناسر شاركت زميل ليا في رَمِي قنبلة على السُّلْطَان حسين كَامِل..

كنا بنجرَب القنابل هنا في الغابة برضه.. وفي يوم اتأخر لحظة في رمي القنبلة.. انفجرت بدري.. شظية منها قطعت صباعه..

صافحه عبد القادر فأردف الرجل: أحمد إزيه؟

نظر عبد القادر في عينيه بثبات: أحمد مين؟

- الجرايد بتجيني بعد ما الطباط يقرأها.. الخبر كُتب عن خلطة القنبلة بتاعتك عشان يعمل سبق.. الخلطة دي ما يعملهاش في مصر كلها غير أحمد كيرة.. والعبد لله.. كُنا دُفعة واحدة في مدرسة الطب.. شعبة الكيمياء.

أنا مش عارف أنت بتكلم عن مين!

همَّ عبد القادر أن ينزل فابتسم الرَّجل مُستدرِّكًا: أنا أخذت إعدام ولبست البدلة الحمراء شهر.. وما نطقتش.. ولما اتخفف الحكم لمؤبد برضه ما نطقتش.. لو كُنت عاوز أبيع أحمد كُنت بيعته من خمس سنين يا صاحبي.

رمقه عبد القادر لدقيقة قبل أن يتكلَّم: أنت عاوز إيه؟

- أنت عارف ليه حَكَمُوا علينا مؤبد مش إعدام؟

- ليه؟

- عشان اللي بيتعدم بيعيش.. يبقى شهيد.. بطل.. أما اللي بيتسجن.. ييموت.. ستين كمان في طُرة وهاتفهم كلامي.

سَاد الصَّمْتُ دَقَائِق تَأْمَل فيها عبد القادر العَجُوز النَّائِم بجانبه في الزنزانة قبل أن يلتفت للأهواني:

- هو اللي إحنا عملناه ده صَح؟

- إحنّا يا صاحبي عَمَلنا الجَريمة الوحيدة الّلي لو كِمَلت المُتهم يُخرج بَريء.. وإذا ما كِمَلِتَش المُتَّهم ياخذُ إعدام.. لو كنا قتلنا السلطان وكنا مُنظَّمين كان زمانا إحنّا الّلي بنحكم دلوقت.

- نُحكم؟ حتّى لو قتله؟

- كل الّلي قبلينا قتلوا عَشان يحكموا.. مَش مَحَمَّد علي دَبَح المَماليك؟ حَد قال له تَلت الثلاثة كام؟ عَشان تقيم دولة الحق لازم تزيل الباطل.. حتّى لو بالدم.

- بس إحنّا في السُجن!

- وسيئنا يوسف كان في السُجن.. بس شوف رَبِّكَ بعد كِده علاه إزّاي ونَصْرُه.. أول خطوة هي إنك تتعزل عن المُجتمع الفاسد.. تتأمل.. تفكّر.. لغاية ما توصل للحقيقة.

- وإيه هي الحقيقة؟

- الحقيقة مَش تحرير أرض من إنجليز ولا أتراك، الاحتلال كله احتلال، والأرض دي بتاعة ربنا، تحرير مَصِر الحقيقي تطهير الناس من الخونة، فكرك المحتل بيغلبنّا بسلاح؟ أبدا، بيغلبنّا بالرجالة الّلي استعمر روحهم، الوزر الانجاس الّلي لو ما قتلناهمش يقووا المحتل والمَلِك الكافر، لازم يكون فيه جماعة جريئة تقاوم، طليعة، إحنّا الطليعة دي، وأول خطوة إننا اتعزلنا هنا عَشان نشوف الأمور بشكل أوضح، افكر عزلة الرسول في مكّة ثلاث سنين، كانت المفتاح للخروج من الظلم، طالما رَبِّكَ ما حَكَمش علينا بالموت، يبقى شايل لنا مُهمّة أكبر.. افهم.

- ساعات بحس إنه نسيني .

- أعود بالله .. فوق يا صاحبي .. دوام الحال من المُحال .. لَمَّا
تِفشل بتفشل عشان فرطت في حَقك .. نَغِير من نفسنا والدور
هايبقى بُكرة ع الظالم .. يَعْنِي خَد كَانَ يَصَدِّقْ إِنْ سَعِد زَغُول
وزير حُكومة الإنجليز اللي حَمَاه يبقَى مُصطفى باشا فهمي راجل
الإنجليز الأول في مصر هو اللي يُطلب الاستقلال !

- عُمري ما فهمتها دي .

- كُل وقت وله أدان .. مَا هَو بَرَضِه مَا اتولدش وفي بُقَّة مَعْلَقَة ذَهَب ..
اتسجن وشقي وشاف .. النهاردة السُّلطان ذات نفسه بيَكِش من
اسمه .. إحنا كمان هانخرج يا صاحبي واسمنا هايكبر .. إحنا أول
ناس ضحِينَا مَا تَنَاش .

قالها وأشار لكَفِّه مقطوعة الإبهام .

- غريبة إن لَسَّة فيك أمل !

- طالما ما مُتَنَاش يبقَى فيه أمل .. وهايبقى لنا شَأْن كبير أوي .. أوي ..
هانفكر .. وهانحرر البلد دي من الأوساخ .. مش هانموت هُنا
زي الكلاب يا صاحبي .

رغم الأمل الذي بثَّه الأهواني في نفس عبد القادر إلا أن الجملة
الآخيرة قبضت صدره : الموت كالكلاب .. اقشعر بدنه حين تخيل
نفسه مُلقًى في حَمَام السُّجن البارد وعُمره فوق الستين .. مَلْفُوفًا
في قُمَاش مُتَسَيِّخ يتنظر استلام أحد أقاربه الجثة .. لاحظ الأهواني
شروده فسأله :

- أنت متجوّز؟

أفاق عبد القادر من شروده: لا.

- تبقى صاحب كرسي في الأزيكّة.

- كُنت.. وبطلت.

- حيّيت.

- إزاي عرفت؟

- الراجلي ما يطلّش زيارة الأزيكّة غير لما يجب بجد.

- وأنت.. متجوّز؟

- طلّيت الطّلاق من ستّين.. اتجوّزت دلوّقتي ومعاها فاروق..
على اسم السّلطان الصّغير.

سحب عبد القادر آخر نفس في سيجارته قبل أن يطعم الحائط
ببقاياها.. أودف:

- هاتحب تقابلها لما تخرج؟

أجاب الأهواني بحسم: أجب.. عشان تعرف إنها ضيّعت من أيديها
بطل.. وتعرف أنها لو صيرت كانت نالت.

- إزاي واثق من الخروج؟

- البركة في سعد باشا إن شاء الله.



٧:٠٠ صباحًا

نادي الجزيرة.. الزمالك

كَانَ جَسَد آرثر وَكِيل حِكْمَدَارِيَّة الدَاخِلِيَّة مُتَمَاسِك العَضَلَات بالنسبة لِرَجُل تَجَاوَز الثَامَنَةَ وَالخَمْسِينَ، مُنْذُ حَضَرَ إِلَى مِصْر وَسَكَنَ جَزِيرَةَ الزَّمَالِك لَمْ يَتَحَلَّ يَوْمًا عَنِ رِيَاضَةِ الْجَرِي، يَسْتَقِظ بَعْدَ الْفَجْرِ، يَجْرِي بِالنَّبْطَلُونِ الْقَصِيرِ لِنِصْفِ سَاعَةٍ حَتَّى فِي الشِّتَاءِ قَارَسَ الْبَرْدَ، قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ النَّادِي لِيَجْلِسَ فِي «الليدو»، حَمَامَ سَبَاحَةِ الْكِبَارِ وَمُلْتَقَى السِّيَاسِيِّينَ وَطَبَقَةِ الْأَرْمُسْتَرَاطِيِّ، يَضَعُ نَظَّارَتَهُ الشَّمْسِيَّةَ فَوْقَ عَيْنَيْهِ، يَسْنُدُ رَأْسَهُ وَعِضْدَيْهِ عَلَى حَافَةِ الْحَوْضِ الْكَبِيرِ الْخَالِي مِنَ الْمُرْتَادِينَ مُدَلِّيًا بِجَسَدِهِ فِي الْحِمَاءِ الدَافِئَةِ بِاسْتِرْخَاءٍ، يَتْرَكُ الشَّمْسَ تَخْضِبُ وَجْهَهُ بِحُمْرَةٍ عَلَى حُمْرَتِهِ وَتَصْبِغُ شَعْرَهُ الْكَسْتَانِيَّ بِلَمْعَةٍ زَاهِيَةٍ، وَيَمْدُ يَدَهُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ لِاتِّقَاطِ الْمَكْسَرَاتِ مِنْ طَبَقِ عَامِرٍ وَكَأْسِ نَبِيذٍ أَحْمَرَ يَرْتَشِفُهُ عَلَى مَهْلٍ.

لِحَظَاتٍ وَحَضَرَ صَدِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ، انْزَلَقَ بِخَفَةِ إِلَى الْحَوْضِ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ النَّادِلِ زَجَاجَةً بَيْرَةً، نَظَرَ إِلَيْهِ آرثر مُتَرَقِّبًا قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ:

- قُلْ لِي خَبِيرٌ سَعِيدٌ.

عَاجِلُهُ الرَّجُلُ: حَصَلَ.

اعتسدل آرثر وارنسمت على شفّتيه ابتسامة: لا وقت للمزاح.. هل...؟

- قلت.. لك.. حصل.

- وأين هي الآن؟

- مُستَلْقبة في شَفَّتِي.

أغمض آرثر عَينيه في نشوة ثم زَفَر

- يا إلهي.. أتعرف.. حين رأيتها للمرّة الأولى لم أتخيلها سوى في بيتي رغم حالتها المُزرية.. لقد حققت حلمي يا شيطان.. كيف فعلتها؟

- النقود اشترت المسيح يا صديقي.

ضحك آرثر: عندك حق.. كم دفعت؟

- مائة جنيه مصري.. أما الرحلة إلى الصعيد لجلبها فكانت بحق شاقّة.. لا أعرف كيف يتحمل هؤلاء البشر تلك الشمس!

- سأعوضك بسهرة لن تنساها ولكن احكِ لي كيف حالتها؟

- لبوة فائنة ستسيك فائنات لندن.. طوال الطريق لم أستطع منع نفسي من تأمل منحنياتها المثيرة.

ضَحِك آرثر من التعبير: هل لا يزال مفتاح الحياة في يدها؟

- نعم.. ويعلمو الرأس قُرص رَع وثعبان كُوبرا كامل بلا شروخ..
اليصري القديم لم ينس حتى حفر حلماتها تحت غلاتها
الشفافة.. ماذا ستفعل بها؟

- ستسافر معي إلى لندن بالطيعة.. سيُسعد صُوفيا كثيرا اقتناء أميرة
مصرية من الألبستر.. لها مكان خالٍ في الصالون الإفريقي.
- عليك الحذر.. فهي ليست مجرد تمثال.. إنها سبخت
يا صديقي.. إلهة الحرب.

صَحِجًا وقرعا كأسيهما ثم تجرعاهما قبل أن يرفعا أيديهما عاليا
طلبًا للمزيد.. اقترب النايل منهما يحمل صينية.. وقف للمحطات
كانت كافية أن يلتفتا حين استقرت في جبهة كُل منهما رصاصة أرخت
العضلات قبل أن يطفيا فوق الماء.

سجن طرة.. التاسعة صباحًا

عشرون مقعدًا خشبيًا تراصوا في أربعة صفوف تحت سقف الغرفة
الواسعة، جلس أقارب المساجين عليها وبجانبيهم سلال تحوي
مأكولات تم تفتيشها بدقة وعلب سجائر مخفية، تترقب أعينهم الباب
الحديدي الذي سيأتي منه الغائبون الحاضرون.

دقائق ووسوست الجنازير فانتبهت الرؤوس، انفتح الباب وانهمر
المساجين يجرئون سلاسلهم كُل يبحث بعينه عن جذر مقطوع يصله،
عمّت الفرحة الوجوه وقام ذووهم يتلقفونهم ويحتضنونهم، ضحكات
عصبية متألمة وأعين ترقرت وأطفال تلعب حولهم غير مستوعبين
الظرف أو التكان، لم يتبق غير عبد القادر، وقف وحيدًا في بدلته
الزرقاء وقد حلق شعره وازداد نحافة، يُدير رأسه في المقاعد بحثًا

عُشْ طلب زيارته قبل أن يلتقط يدًا مرقوعة من المقعد في رُكن بجانب نافذة، اقترب منها يبطء تعيقه السلاسل، تأمل خصلة شعر تسلفت من نعمت وشاح أزرق رائق وعينين برتقا من الكدمات فتكحلت وشففتين حَجَزتا وراءهما الكلمات، جلس بجانبها بلا كلمة، نظر إلى كمعة عينيها فابتسمت حتى اضطربت فأشاحت بوجهها إلى حقيبتها تُبعثر ما فيها لتُخرج له الطعام.

- وَحشيتني.

خفت الأصوات من حولهما وتلاشت الجدران.. أردفت: أنت كمان... أوي.. عامل إيه؟

- بتعود يوم بعد يوم.

- بسجنتك مش هايطول.. أنت بقيت بطل.. يباعين الجرايد بيسعوا صورك في السُر.

- مش بافتكر الكلام ده لَمَّا بحسب فاضل لي كَام سنة...

سكتت لَمَّا لم تجد ما تقول.. لحظات قبل أن يسألها.

- أحمد إزيه؟

مدت يدها تحت وشاحها.. عبثت بخصلة فأخرجت شيئًا أخفته في قبضتها.. فأولته لعبد القادر وهي تهمس:

- باعت لك السلام.

رَمَقَ عبد القادر الحراس فوجدتهم مشغولين عنه ففتح قبضته بهدوء.. بين أصابعه استقر خاتم ذهبي.. خاتم محفور بحروف

إنجليزية بارزة.. ARTHUR.. صَم عبد القادر قبضته على الخاتم ثم
رَمَقَ دَوْلَت بعيتين لمعتا من الدمع غير مصدَّق.. هَمَسَتْ:

- النهاردة الصُّبَح قبل ما أُجَي لك.. أحمد بنفسه.. الخبر
هايتنشر بُكرة.

- أنا مش مصدَّق!

- بيفكرك بيوم ما اتقابلتوا في بيت الأُمَّة.. لما قال لك إنه هاجيب
لك حَقَّك.

ترقرقت عَيْنَاه واهتزَّت أعصابه: هو كويس؟

- نفسه يزورك.. لكن الوضع بقى خطر.. العيون صاحبة وفيه إشارة
بالقبض عليه.

نأمل الخاتم ثانية قبل أن ينظر في وجهها:

- عارفة...

سكت فتركته.. جال ببصره بعيدًا قبل أن يعود إلى عينيها:

- أوقات كتيرة باغضب منك.. بلومك وأعاتبك أكنك حاضرة
فدَّامِي.. أكن كل اللي حَصَل في حياتي سببه أنت.. وبعدين
أفوق.. وأقول أنت كنتِ أحقل.. يمكن الزمن غلط.. والظروف..
بس يمكن لو كنتِ جاوبتيني.. كان... أو يمكن ما كنتش...
دولت.. أنا حبيبتك بجد... مش زي أي واحدة قابلتها وحياة من
جمّعنا.. بس ذكرياتي معاك.. ملهاش ريحة.. ومش عارف أبطل
أتوجع.. ولا قادر أبطل ألوم نفسي على اللي عملته فيك.

أغمضت عينيها مُحاولَة تما لك نفسها: عبد القادر... أنا...

- أنا.. يَهْمُني أعرف حَاجة.. هاتفرق معَايا رَغم إن ما بقاش فيه
حَاجة مُمكن تفرق.. كلامك اللي قلتيه المرة اللي فاتت...

- حَقِيقِي يا عبد القادر.

زفر وهو ينظر من النافذة إلى زَميله العجوز في الزنزانة.. يجلس
في باحة السَّجن وحيدًا شاردًا في فراغ.. يتنظر زيارة لم تُعد تأتي..
زيارة ماتت أو يشت.. اسود وجهه فعاد إلى دولت وفي عينيه ألم
فابتسمت تخفياً:

- فرج ربنا قريب أوي.

- أنا باعرف الأخبار كُلِّها وأنا قاعد هنا... هنا فيه ناس منسيين
بقالهم عشرين سنة.. وفيه ناس ما بتكلمش.. يتموت.. بيغسلوهم
بخرطوم ويشيعوا تلغراف لأهاليهم وبعدين يدفنوهم في تُراب
الصدقة... مش مصدق إن ممكن تكون دي نهايتي.

- دي عُمرها ما هاتبقى نهايتك.. سَعد باشا راجع.. وكل حَاجة
هاتغير.. صدَّقني راجع.

سَاد الصَّمْت بَعد كَلِماتها قبل أن يُعلن الحُرَّاس أن زمن الزيارة قد
انتهى.. نظر في عينيها:

- أنا طالب منك خدمة.. ما تقطعش زيارتي.. لغاية ما تتجوزي.

- عبد القادر...

- أتمنى لك كل السعادة.... رغم إنني مش قادر أتخيلك مع
حد غيري.

قبضت على أصابعه في قوّة محاولة منع عَينِها من البكاء.. لحظات
ونادى الحُرّاس بانتهاء الزيارة.. سلّلت أصابعها منه فابتسم وهمس:

- خُدي بالك من روحك.. وقولي لأحمد إن هديته دي أغلى هدية.

اختنقت الكلمات في حلقه قبل أن يسحبوه إلى طابور.. لم يفارق
عَينِها حتى حَالَت بينهما القضبان الحديدية.. لَمَّا أغلِق عليه باب زنزانته
أخرج من جيبه خاتم آرثر.. تأمله.. ثم ارتداه وابتسامة ظفر تغزو شفّتيه.



سري.. نمرة ٢١٩

القاهرة في ٦ أكتوبر ١٩٢٠

- صَبَّر أمس قرار محكمة الاستئناف في قضية المؤامرة الكبرى بالحكم
على عبد الرحمن بك فهمي بخمسة عشر عامًا.

بعد يومين.. غنابر السُّكك الحديدية ببولاق

انطلقت صفّارة انتهاء الدوام فخرج العمّال، طُوفان من السترات الزرقاء والوجوه المغنّرة تتدافع بيّطء في لحظة حَشْر حَقِيقَة نَفَرَقُوا بعدها كُلٌّ إلى اتّجاه، بعد دقائق هدأت الحركة وانتشرت الجُمُوع، قبل أن يُفْلِق العنبر بابَه خُرج إسحاق، فوق رأسه قُبعة وفي يَدِه حَقِيقَة جِلْدِيَة صَغِيرَة تكفي لاحتواء عُبُوة فارغة من الزنك تصلُح قنبلة، مَشَى مَسَافَة كَبِيرَة حتّى ركب ترامًا قَرِيبَه من بَيْتِه، هَبَط مِنه في ميدان مُزدحم فَوَجَد على الرّصيف سَابَأًا يَرْتَدِي جِلْبَابًا وفي يَدِه جَرْدَل غِراء وفُرْشَة، يَلصُق إعلانيًا على عَمُود نور، إعلانيًا فيه وَجَه مألُوف، اقترَب مِنَ السَّاب الذي أتمَّ عَمَلَه ونظر للورقة التي تنوَسَطُها صورة، صورة لأحمد كيرة تَرَجِع لأَعْوام مَضَّت، كان فيها أنحف وشاربه أَقْل كثافة، قرأ الكلمات المكتوبة تحت الصورة:

مُكَافَاة ٥٠٠٠ ج.م

أُتْمَطَى مُكَافَاة خَمْسَة أَلْف جُنَيْه مِصْرِي لِمَن يَقدِم مَعْلُومَات تُؤدِي إلى القَبْض على أَحْمَد عبد الحَي كِيرَة، يَمُمِّل كِيمِيائِيًا بِمَدْرَسَة الطَّب، فَاتِح اللون، مَتَوَسَّط القَامَة وذُو شَارِب وَحُمْرَة حِوَالِي ٣٨ هَامًا، تُخَطِّير فِي الاِغْتِيَالَات السِّيَاسِيَة وَمُشَبَّه فِي نَوْرَطِه بِقَتْل آرلر باشا وَكِبَل حَكَمْدَار المَاصِمَة، كُلٌّ مِنْ يَقدِم هَذِهِ المَعْلُومَات يَكُون مُشْمُوعًا بِالمُحَامَاة التَّامَة والسَّرِيَة وَلَا يُسْتَدْمَى أَمَام أَي هَيْئَة تَحْقِيق رَسْمِيَة أَوْ قَضَائِيَة.

افشمر بدن إسحاق فنظر حوله قبل أن يتشزع الورقة من الحائط
ويدسها في جيبه ويمضي مُبتعدًا.



اصطفّت الأجساد في طابور طویل على الرّصيف الملاصق للبوابة
الخشبية الكبيرة، ملابس رثة وقبعات بالية وأبدان أكلها الجوع من
وقت الحرب ثم الثورة.. كانت الجمعية الخيرية قد أعلنت منذ أيام عن
تقديم إعانة لرعايا الكنيسة الأرمنية لمواجهة البرد، لحاف ومفصل مقو
ووجبة مشبعة، تهاقت الجموع حتى من غير المسيحيين لتجاوزت
الجمعية شرط الانتماء للجالية وفتحت أبوابها للجميع.. بالداخل
كان الدفء طاعيًا والهّمسات، الوجوه كالحية واجمة والأعين جاحظة
يصبغها وهج الشموع بصفرة على صفرة الفقر، يرمقون بعضهم في
جمود، يتكلمون بدون كلمات، ثم يتسمون في نعاسة حين يلتحفون
الغطاء ويتلقون المصل في أوردة نحيلة غاطسة قبل أن تُحيط أيديهم
طبق الشوربة الساخن ويقضمون قطعة خبز مع مكعب لحم، يتلقون
وجبتهم العزيزة من أيدي ثلاث فتيات يقفن خلف مائدة تحمل القدور
الساخنة ويرتدين زياً مُحَدّاه، ثوباً رماديًا مائلًا للزرقة وغطاء رأس
أبيض وفوق أنوفهن كمادات تحميهن من الأمراض.

لَمَّا أصبح على بُعد مترين من المنضدة نظر إلى عينيها فوق الكمامة،
لم يُخطئ الوجوم البادي في الحدقتين الفيروزتين، اقترب حتى بات
أمامها وبدون أن ترفع وجهها التقطت طبقه الممدود وصبت الشوربة
ليه، لَمَّا تأخر عن الالتقاط نظرت إليه حتى عرفته، ارتجفت عيناها

وتهدأت الكمامة أمام أنفها وهي تتأمل ذقنه الكثيف والنظارة الطبية
المُسنديرة التي يرتديها! عاجلها:

- هاستناكي برّه.

وسحب طبقه ثم ابتعد.

في كابينة السرام جلست بجانبه، ذقائق لم يتبادلا أثناءها كلمة،
يسترق النظر إلى صفحة وجهها ولا تلتفت، فقط الصليب فوق صدرها
يعلو ويهبط باضطراب رغم الهدوء البادي عليها، نزلا ثم دلفا إلى
مطعم إيطالي جلس فيه من قبل مع نازلي، وضعت كرامتها على المائدة
بجانب كرسيه، طلبت حلييا وطلب قهوة، تأمل بشرتها الشفافة، عينيها
التي تعكس مربعات المقرش البيضاء والخمراء، وأناملها الرقيقة التي
ترتعش قلعا على جوانب الكأس الفارغة.

- زاهية؟

هزت رأسها بتعم ثم نظرت في وجهه: ليش متنگر؟

- البوليس بيدور عليا.

- عملت شيء غلط؟

ابتسم: اتخانقت مع ظابط إنجليزي.

- كيف عرفت مكاني؟

- قلب مرة إنه اتعرض عليك سُفل في الجمعية الأرمنية.. فكُرت
أكيد هلافيكي هناك.

- ذاكرتك هايلة! شو جاتك يا أحمد؟

- جاي أشوفك يا لينا.. ولأ ورد؟
- أرجوك.. إذا كنت جاي تعاتب أنا فيا اللي مكفيني.
- أنا مش جاي أعاتبك.. أنا بدور عليك من آخر يوم كنا مع بعض..
لقيت عليك الصّالات كلها.. مفيش مسرح ما دخلتوش.
- وشو بدك بكل ها التعب؟
- ما قدرتش أتخيل إنك تختفي من حياتي بالشهولة دي.
- هربت من عيّنه إلى ما وراء زجاج المَطعم: كلام.
- أنت مش فاهمة حاجة.
- تفرقت عيناها فالتفتت إليه: فهمني.. فهمني ليش في اللحظة اللي
احتجتك فيها رفضت تكون معي.. تركتني لحالي ورحت.. فهمني
ليش عم تتعب حالك هلا وتدور علي؟ إحساس بالذنب؟
- زي ما عندك الجانِب اللي بتخبّيه يا لينا.. أنا كمان عندي
جانِب بخبّيه.
- والجانِب اللي بتعرفوا عني طبعا بخلّيني مش لايقة! أنا كنت
عارفه إنك رح تستعر مني وصدقتني لو بقولك ما انصدمت.
- أنا عرفت اللي اتعرضتي له.. ومتخيل المَك.. وكفاية إنك
قاومتني.. ليه ما حكيتش؟
- عُمر ما الراجل بينسى ماضي واحدة.. مَهْما حاول يتظاهر
بالعكس.. رح يضل دايما متذكر إنها كانت في يوم من الأيام
مشاع.. وإن كل جزء فيها مش هو أول واحد لمسّه.. حتى
لو مو ذنبها.

- ماضيكي ما يخصّنيش في حاجة.. أنا دورت عليك بعد ما عرفت
اللي حصل لك.. صدّقيني.. أنا ما كنتش أعرف إني بحبك.

- مو صحيح.. أنت بتحب واحدة تانية.

- كنت.. كنت بحب.. حلم غريب.. نسيته معاك.

أغمضت عينيها للحظات ثم تكلمت:

- إيش الجانب اللي ما أعرفوش عنك؟

سحب نفساً ورّج بظهره إلى الكرسي ينظر في وجه غزاه الألم
والتهبط.. لمّا طالت اللحظات أردفت:

- مش مُجبِر يحكي!

- أنا محتاج أحكي لأنني محتاج أحس إني عايش.. وإني مُمكن
أسند على كتف حد.. أنا تعبت إني دايماً لوحدي.. تعبت من
شكّي في أقرب الناس ليا.. تعبت إني أناام بعين مفتوحة وعين
مقفولة.. أنت الوحيدة اللي حسيت بالراحة معاها.

- إسمعني أنا؟

- تصدّقيني لو قلت لك مش عارف.. يمكن عشان أنت البني آدم
الوحيد اللي دخل حياتي من غير ما يستأذن.

قالها وسكّت.. تركته ينظم نفسه حتى تكلم: أنا اترددت وإحنا
بنرقص في الكافيه لنفس السبب اللي باعتني هي عشانه.. كانت بتحب
حد ما تعرفهوش.. خيّت عنها حقيقتي.. ولمّا عرفت ما سامحتنيش.

- ليش ما صارحتها؟

- ما ينفعش.

- عُمرُك ما رَح تنساها.

- صدَّقيني.. لحظة ما كُنَّا بِنرقُص كُنْتَ فعلاً نسيتهَا.. بس لما سألتيني لقيت نفسي بكَرَّر نفس الخطأ معاك.. بعرفك بشخصية ما تشبهنيش.. واحد أنا نفسي ما أعرفوش.

- على العموم ما ضَل مطرَح للحكي.. كل شيء انتهى.

- حتَّى لو مِش عاوزه تشوفيني ثاني.. أنا حَابِب إنك تعرفي أحمد الحقيقي.

ارتعشت أصابعها رَغماً عَنْهَا.. نظرت في عَيْنِهِ دَقِيقَةً فاقترَب واحتضن أطراف أصابعها بِرَاحَتِهِ ثم أَرَدَف:

- أنا اسمي أحمد عبد الحكي كيرة... مواليد ١٨٨٢

لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمُ يَفْتَحُ فِيهِ حُجْرَانَهُ الْمُظْلِمَةَ.. يُزِيلُ العناكب التي ربَّاهَا وَأَطْعَمَهَا يَدَيْهِ لِتُغْزِلَ الخبوط فِي وَجْهِ المتطفلين.. يَغْلِقُ لِخَاخِ الدُّبَّةِ وَيَمْسَحُ سُمُومَ الفُثْرَانِ المَدْسُوسَةِ فِي الْأَرْكَانِ ثُمَّ يَكْنَسُ المَسَامِيرَ المُنْثُورَةَ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ.

حَكَى عَنْ حَيَاةٍ أُخْرَى غَيْرَ الَّتِي حَكَاهَا لِنَازِلِي.. حَيَاتِهِ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهُ يَعِيشُهَا.. بِلَا تَفَاصِيلَ.. عَرَفَهَا أَنَّ الدَّمَاءَ حَقِيقَةٌ لَا تَجْرِي فِي عُرُوقِهِ.. بَلْ بَيْنَ يَدَيْهِ.. دِمَاءٌ إِنْجِلِيزِيَّةٌ زُرْقَاءُ وَأَحْيَاءٌ يَضْطَرُّ لِلدَّمَاءِ الْحُمْرَاءِ إِذَا تَضَوَّرَ جَوْعًا.

عَرَفَهَا أَنَّ حَيَاتِهِ تُشَبِّهُ كَثِيرًا حَيَاةَ الذَّنَابِ.. وَأَنَّ مَنْ يَفْقَدُهُمْ يَوْمِيًّا مِنْ الْقُطْبِيعِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَكْتَسِبُهُمْ.. عَرَفَهَا أَنَّ دُمُوعَهُ خَرَافَةٌ يَتَدَاوِلُهَا النَّاسُ،

وأنه بالفعل يفتقد جرياتها على وجهه .. عرفها أن الحب في حياته لم يكن واردًا وأنه كان نظرية خرقاء تثير السخرية في نفسه والشعور بالضعف .. حتى نبض قلبه يومًا بلا اتفاق .. حلم غريب مثير مزدهم بالتفاصيل .. حلم غاص فيه وثيل حتى تلقى طعنة أيقظته .. قام من غفوته كافرًا بالأنثى وبالحُب وبالحياة .. وبنفسه .. أدرك أنه الطفل الذي عَشِق القمر وظن كل الظن أنه قريب حين احتوته أصابعه فقبض ولم يجد غير سَراب وسُخرية .. ساذج أخرق أدرك متأخرًا أن القمر في السماء وأنه حَجَر مُرَصَّع بالحُفَر وله وَجْه مُظْلَم نظنه قَضَاء ..

ثم عَرَفَها أنها فتاة تسير على الأرض ..

وأن فيروز عَيْنِها وذُهب بشرتها والرقّة التي خُرِطَ بها خَصَرها ليسوا أجملَ ما فيها .. فكم جَمِيلَة صادف ولم يَفْنِ القلب ! وكم فائِة قابل ولم تَحْرُضْه على الحياة .. تحرقه مثلها .. تغرقه فيها .. ترويه وتغسله .. تصالحه على نفسه .. مثلها .. رغبته فيها نَمَت بدون ماء .. بدون هواء .. بدون أرض .. عَشِق توغَّل حتى النخاع حين ظن يومًا أنه لن يراها ..

والبوم بات العشق درجات تنتهي .. عند أطراف قدميها ..

سَمِعَتْ قِصَّتْهُ ففَاصَّتْ في الكُرْسِي .. عُرِقَتْ حتى لَامَسَتْ القَاع وَلَمَّ سَكْتٌ طَفَتْ .. نظرت في عينيه ثم شهقت .. تفرقت حدتها فانسَلَّتْ أَصَابِعُهَا مِنْ أَصَابِعِهِ إِلَى الصُّلْبِ المَعْلَقِ فِي رَقَبَتِهَا .. ضَمَّتْهُ فِي رَاحَتِهَا وَهَمَسَتْ :

- حَقِيقَتُكَ .. مَارِح هَاتِفِيرِكَ عِنْدِي .. المُهِم أَنْتِ هَلَا هُون .. لكن ...

- أتأخرت؟

-!

ارتعشت شفتاه بابتسامة: لينا.

- ورد.. اسمي ورد يا أحمد.

ابتسم وطأطأ رأسه إلى العائدة ثم نظر وراء النافذة مُحاولاً منع عَيْنِيهِ
الانفلات قبل أن ينظر إليها.. أردف:

- أنا يمكن أسافر يا ورد.. سفر طويل.

- على وين؟

- لسة ما قرّرتش.

- مش رَح أشوفك تاني؟

- مين عارف!

قامت.. عدلت من وضع الوشاح الأبيض فوق رأسها والتقطت
بيتها: تعرف مكانني.. خلّي بالك على نفسك.

خرجت من المطعم فتابعها من خلف الزجاج حتى تلاشت.



ميناء الإسكندرية.. صباح اليوم التالي

لم تُبطئ الأمطار نشاط عمّال الشحن والتفريغ أمام الباخرة العملاقة «سردينيا»، ينقلون إلى جوفها شحّات قطن وحُبوب ستصنع في أوروبا ثم يُعاد تصديرها إلى مصر ملابس وأطعمة.. أمام الباب الخاص بالمُسافرين وقف ضابط إنجليزي يفحص بدقة جوازات السفر، يمتد أمامه طابور طويل يتحرك ببطء بسبب تشديد الحكومة الإنجليزية على السفر منذ بداية الحرب رغبة في منع التجسس أو هروب ذوي المَوَاهِب المفيدة، لَحَظَات واقترَب من الضابط رجل كَث اللحية فوق عَينيه نظارة طَبِيَّة مُستديرة.

- بونچورنو.

ألقاها وناوله جواز سفر إيطاليًا.. نظر الضابط في الصورة الشمسية ثم في وَجْه المُسافر.

- أين تعيش في صقلية يا سنيور باولو؟

- سانتا آنا.. بقرب الكاتدرائية.

- وماذا تفعل في مصر؟

- تجارة حُرّة.. لي سَبْع حَاوِيَات من الحُبوب في الباخرة.

مَد الضابط يَدِيهِ بِالْبَاسِوَر:

- يَحْيَا تَشِيزَارِي مُورِي^(١)

أَجَابَهُ أَحْمَدُ بِابْتِسَامَةٍ مِنْ خَلْفِ لَحِيَّتِهِ: يَحْيَا تَشِيزَارِي مُورِي.

رُفِعَت الْمَرَسَاةُ وَحُلَّتِ الْعِجَالُ فَتَأَمَّلَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ تَبَتُّعًا، اجْتَنَحَهُ الصَّمْتُ وَعَانَى صَدْرُهُ فَرَاغًا مُوجِعًا فَأَشْعَلَ سِيَجَارَةً لَمْ يَسْحَبْ مِنْهَا نَفْسًا حَتَّى بَاتَ الشَّاطِئُ فِي حَجْمِ عَقَبِهَا، ثُمَّ انْطَلَقَت السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ.

فِي السَّاعَاتِ الْأُولَى حَاولَ اسْتِيعَابُ أَقْدَارِ زَمَتِ بِهِ فِي الْبَحْرِ، يَتَمَّمُ كُلَّ سَاعَةٍ عَلَى الذَّقْنِ الْمُسْتَعَارِ وَمُسَدَّسِهِ الْمَرْبُوطِ بِحِزَامٍ إِلَى سَاقِهِ وَيَتَجَنَّبُ الْحَوَارَاتِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ حِفَافًا عَلَى حَصِيلَةِ الْإِيطَالِيَّةِ الْمُتَوَاضِعَةِ الَّتِي يُجِيدُهَا، ثُمَّ يَنْزِلُ عَلَيْهِ اللَّيْلُ فَتَتَرَادَى لَهُ حَبِيبَاتُهُ فِي النُّجُومِ، الْأُولَى اغْتَضَبَهَا الْإِنْجِلِيزُ، الثَّانِيَّةُ تَزَوَّجَتْ مَلَكًا وَالثَّلَاثَةُ زَفَّتْ نَفْسَهَا لِمَسِيحٍ فِي السَّمَاءِ!

لَمَّا زَمَسَتِ الْبَاخِرَةُ فِي مَرْفَأٍ صَفَلِيَّةٍ تَسَلَّلَ أَحْمَدُ إِلَى سَفِينَةِ أَلْقَتَهُ فِي مِينَاءِ «هَامْبُورْج» ثُمَّ رَكِبَ مَرْكَبًا صَغِيرًا حَمَلَهُ إِلَى «إِسْطَنْبُول»، مَا إِنْ لَامَسَ بِلَاطُ الشَّارِعِ حَتَّى بَدَأَتْ مُهِمَّتُهُ الْأَسَاسِيَّةُ .. الْإِخْتِفَاءُ.



(١) تَشِيزَارِي مُورِي: مُحَافِظٌ خِلَالِ الْفَتْرَةِ الْعَاشِيَةِ فِي إِيطَالِيَا، عُرفَ عَنْهُ الْحِزْمُ فِي اِئْتِمَاعِهِ مَعَ عَائِلَاتِ الْعَالِيَةِ حَتَّى سُمِّيَ بِالنُّحُفِظِ الْحَدِيدِيِّ.

مَرَّتْ الأيام على مصر ثقيلة، تترقب مفاوضات لندن بفضول الأطفال أمام عرائس صندوق الدمى، معركة ملحمة بين بطلهم الفارس الشعبي سعد وغريمه الشرير ملنر، عرض طويل شاق أنكه المتفرجين وخطم معنوياتهم، البحث عن صيغة استقلال تُرضي طرفي المفاوضات - احتلالاً ومحتلاً - صار سراباً كلما اقتربوا منه لم يجدوا عنده ماء، تمسك كل من الرجلين بموقفه حتى انكسرت مائدة المفاوضات فغادر سعد لندن عائداً إلى مصر، استقبل استقبال الأبطال منذ وطن الإسكندرية وقرر استئناف معركته من أرضه التي غاب عنها زمناً، وما هي إلا أيام وفشلت المفاوضات بين ملنر وعدلي باشا يكن الممثل الحكومى لمصر لأن الأخير تخشى أن يقبل بما رفضه سعد فيكتب عند الناس مُتهاوناً في طلب الاستقلال.

أما الإنجليز فكان عليهم إنجاح المفاوضات، بأي ثمن، للحد من فرصة حدوث ثورة مثل التي حدثت في مارس ١٩١٩، العقبة الوحيدة لم تكن سوى سعد العنيد وشعبيته، ساقوا إليه أصدقاءه قبل الأعداء يُنذرونه ويهدّدونه مغبة تصليب رأيه فأبى، ضيقوا عليه حُرّيته للحد من إثارته للنفوس ضد الاستقلال المنقوص الذين يُروجون له قبل أن يضطروا إلى نفيه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل، فطالما بقى سعد في مصر فإن السياسيين «الممتدلين» سيخشون الاتفاق مع إنجلترا.

وعصّت الإضرابات مصر مرة أخرى.

ثورة ثانية أكثر نضجًا، استعملت المُقاطعة فيها للمرة الأولى ضد كل ما هو إنجليزي، محلات، بنوك، سُفن، شركات تأمين وتجارة، بدايات عصيان مدني عَجَلت باستقالة وزارة عدلي باشا يكن ولم يقبل أحد بعده أن يشكل وزارة، فالقبول يعني التفريط فيما أجمعت عليه القوى الوطنية.

التفريط في سعد زغلول.

مع الضَّغط الشعبي كان على البريطانيين عقد صفقة.. تصريح من طرف واحد لم يجرؤ على توقيعه إلا سُلطان أراد أن يُصبح ملكًا وأن تُصبح الولاية في ذرئته بعدما رُزق بذكر.. تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م.. وبنوده إلغاء الحماية على مصر والاعتراف بها دولة مُستقلة ذات سيادة، إلغاء الأحكام العرفية، تهئية البلاد لحياة دستورية برلمانية عن طريق وضع دستور للبلاد وإجراء انتخابات برلمانية.. مع الاحتفاظ بتحفظات أربعة تقضي على كل ما فات:

- الحق في تأمين مُواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر.
- الحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية.
- الحق في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات.
- الحق في التصرف في السودان.

تحفظات أرجعت البلاد إلى حالة ما قبل الحرب «مقابل» علم أخضر جديد بهلال واحد بدلًا من الأحمر العثماني بأهله الثلاثة، لقب مملكة بدلًا من سلطنة، دستور تم تمريره بسلاسة في غياب المُزعج سعد، ومادة في نظام الأسرة المالكة تُبقي العرش في ذرية أكبر أبناء جلالة ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور.. «فؤاد».

سعيد «فؤاد» بإعلان استقلال بلاده فأقام احتفالات - قاطعها

الشعب - وتوافدت رُسل الدُّول الأجنبية لتقديم التهاني، قابل الملك الرجال وأرسل السيِّدات إلى الحرملك لتهنئة الملكة «نازلي»، جذع نخره الشُّوس من الداخل وترك الوجه بملاصيح دُمية رُسمت على شفثيها ابتسامة مزمنة لن تتغيَّر حتى ولو أُلقيت من نافذة، تقف في القاعة البيزنطية بقصر عابدين مُنتصبة هادئة والتاج الجديد منفرز في رأسها، تُحيي السيِّدات الرَّاكعات بكلمات محفوظة وتلقي كُل بضع دقائق نظرة على صغيرها النائم بين يَد مُرَّيته يسرّ تابلور لتراه المدعوات، تنتهي الصَّرايح لتخلع زيتها وتنزع تاجها وتستلقي على فراشها واجمة قبل أن تسمع خطواته قادمة، يخلع طربوشه وبدلة التشريفة والخاتم ليسقط بثقله فوقها بدون كلمة، تنفرز سلسلة حرف الـ N في منابت صدرها، بسيط، بألم، بضعية وبين لحظات الصُّمود والهبوط فوقها تسحب لرفثيها نفساً يُقيها في منطقة الوعي وتذكّر لحظة أهداها أحمد السلسلة، تراه وهو يُخرجها بسحره من وراء أذنها، أصابعهما المتشابكة في شارع عماد الدين، قُبلة قصر البارون خلف التمثال الرخامي، ثم تفبق على حوار في وَجهها يحمل عبق تبغ ملكي، ينفث شهوته ثم ينتهي فبرتمي فوق صدرها كالقتيل، يذهب في سنة قبل أن يوقظه شخيرها بالكاد قبل أن يتوقف قلبها بلحظات! يفبق فينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، ثم يتدارك نفسه فيقوم ليشعل غليون.. بلا كلمة.. تغمض عينيها مُقاومة التقيؤ من بقايا رائحته وتشكوم علي نفسها كالجنين حتى يخرج إلى عُرفته فتقوم إلى الحمام، تفتح مياه الدُّش فوق رأسها دَهراً، تغسل بصماته وصفعاته قبل أن تشعل سيجارة، تتأمل من بين دُخانها صُورنها المُبهمة في المِرآة، تمسح البخار لترى وَجْها، عَيْنين، وجُروح غرز التاج في جبهة.. وخيوط بيت العنكبوت!



«إلحق يا جدع.. إلحق يا جدع.. عودة سعد باشا ز غلول غذا..
 عودة الباشا ورفاقه إلى مصر غذا.. إلحق يا جدع».
 ما إن نطقها الطفل النحيل حتى هجم الناس عليه يتخطفون الجريدة
 منه ليتأكدوا الخبر.

«بحر سعد باشا يوم ١٢ سبتمبر من ميناء مارسيليا على ظهر
 الباخرة «لونس» قاصداً مصر، تصحبه حرمه المصون السيدة
 صفية ز غلول وبصحبتها السيدة هدى شعراوي وبعض إخوانه من
 أعضاء الوفد».

في اليوم التالي وصلت الباخرة التي تقل سعد إلى الإسكندرية،
 استقبله الشعب استقبالا فاق استقباله بعد نفيه الأول، طافوا بموكبه
 شوارع الإسكندرية يتأمل الجموع من مسيارته يحييهم ويتلقى الورود
 والهتافات حتى نزل في فندق كلاريدج، استراح حتى العاشرة مساءً
 قبل أن يتوجه إلى قصر المنتزه حيث كان الملك فؤاد في انتظاره..

دخل سعد باشا متوكئا على عصاته أكثر من ذي قبل، مقاوماً آلام عظام
 ورعشة في أصابعه تليق برجل في الثانية والسبعين، استقبله تشريفاتي
 القصر والموظفون بحفاوة وحساس قبل أن يدخل غرفة المكتب التي

تعمد فؤاد أن يتركه فيها لعشر دقائق قبل أن يفتح التشريفاتي الباب
ليعلن أن جلالة الملك في الطريقة فقام سعد، التقطت أذناه الخطوات
الواثقة قبل أن يدلف من الباب وجه منتفخ متورّد وشارب أنف، تقابلت
الأيدي تحت النجفة الكبيرة.

- سعد باشا.

- جلالة الملك.

- أصبحت عجوزًا يا صديقي!

قالها فؤاد بالفرنسية فأجابه سعد بمثلها: من لم يمت صغيرًا
يتحمل كثيرًا.

- لن تتغيّل مدى اشتياقي لسهرة من سهرات كلوب محمد علي..
أفتقد تلك الأيام بشدة.. كنت أكيل لك الهزيمة وراء الهزيمة.

- كانت أيامًا جميلة يا جلالة الملك.

استويا على كرسيين متقابلين أمام تمثال نصفي للخديوي إسماعيل،
والد الملك، استأذن التشريفاتي للدخول صينية تحمّل الشاي، وضّعها
السفرجي ثم أغلق الباب عليهما، أشعل فؤاد غليونيه بهدوء ثم تكلم:

- كيف كانت رحلة العودة؟

- مُجهدة.. لكن استقبال الناس جعلها مينة على قلبي.

- أتمنى أن تكون آخر رحلات النفي.

- أتمنى.. ولو أنني لا أظن!

ضحك فؤاد: ومن سينفيك غيري بعدما حصلنا على الاستقلال؟

- جَلالة الملك ! الإنجليز ما زالوا يَرتعون في شوارعنا .
- بنود الاستقلال تعطيتهم الحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية .
- جلالتك .. إنني أحفظ جيدًا بنود الاستقلال المنقوص .
- رمقه فؤاد لثوان ثم هز رأسه : لم تخيَّب ظنِّي يا صديقي القديم ..
- سعد هو سعد .. عنيد لا تغيِّره الأيام ولا تزيده التجارب خبرة .
- جلالتك تسمِّي المطالبة بالاستقلال التام قلة خبرة ؟!
- بل وقلة بصيرة .. يبدو أن الجموع التي هتفت باسمك .. وأتكلم هنا عن الجُموع التي يُموِّلها رجالك من التبرعات .. قد حَجَبَتْ عَنْكَ حقيقة جَلية .. حقيقة أن ذلك الشعب لا يعنيه استقلال تام أو يشعر باختلاف إذا اختفى الإنجليز من الوجود .. ذلك الشعب الطيب يُريد حياة مُستقرة هادئة .. حياة أفسدتها أنت عليه منذ أربع سنوات حين جلبت موضة الثورة إليه .
- الثورة ليست موضة .
- قام فؤاد مُحَتَّدًا : بل موضة من لا مناصب له .. من يفتقر للاهتمام .. من فشل من قبل وراء عُرابي .. من انزوى عن المناصب فأراد أن يُشعل الشوارع ليُضيء دُنياه المُظلمة غير عَابِي بالعواقب .
- قام سعد : جلالتك .. إن الثمن الذي ندفعه من دمائنا هو الذي سيحقق لنا الحُرِّيَّة في النهاية .
- حرِّيَّة ! ! !

تمشى فزاد حتى النافذة ونظر من خلالها لشوان قبل أن يلتفت
لسعد... قال بهدوء:

- هل تعلم أن أبي الخديوي إسماعيل كان ينوي إعلان استقلال
مصر في الوليمة الكبرى التي أقامها بمناسبة حفل افتتاح قناة
السويس والتي دُعي إليها ملوك وملكات العالم؟
- سمعت تلك الرواية.

- أتعرف لِمَ تراجع؟ خوفًا من كلمة دمائنا التي تنطقها ولا تعرف
ثمنها.. خوفًا على مصر.. والآن وبعد خمس وخمسين سنة
وصلنا إلى عقد مُعاهدة مع إنجلترا فيها فائدة للفريقين.. فيكون
لهم ما يريدونه في القناة ويكون لنا حُكم البلاد.. فتأتي أنت لتقول
دماؤنا مستحق الحرية!!

- أنا لا أنوي إشعال الشوارع أو إراقة الدماء.

- وماذا ستفعل إذن؟ الثورات لا يُراق فيها ماء الورد.

- سأدخل الانتخابات البرلمانية.

ضحك فزاد: لقد عرفت جميع أنواع الناس، أمراء، عمّالًا، سائقي
المركبات، فلاحي الحقول، جنودًا وقوّادًا، عرفت الفقر، وأعرف أن
ما تنوي فعله لا يُمَت بصِلة للمصلحة العامة، بدلًا من أن ننهض ونبني
تريد أنت أن تُشعل ثورتك الجديدة في البرلمان.

- فلندع الشعب يقول كلمته.

قام فزاد منهياً المُقابلة: لن تصل للبرلمان طالما كنت أنا فوق
ذلك الكرسي.

- فليمدد الله في عُمر جلالتك.. أستاذن مولاي في الرحيل..
جسدي في حاجة إلى راحة من عناء السفر.

لم يُعَقَّب فؤاد، أشاح بوجهه واتجه إلى الشُّرفة، فتح بابها وخرج إلى الهواء، خرج سَعْد من الغرفة فاستقبله التشریفاتي ليُوصله إلى سيارته، مَشَى طَرِقة طَوِيلَة حتَّى التَّقَطَّت أذْناه وَقَعَ أَقْدَامُ أنْثَى تَقْتَرِبُ، وصيفة من وصيفات القصر همست في أذن سَعْد:

- جَلَالَة الْمَلَكَة باعته رِسَالَة.. وَتَعْتَذِرُ لِمَعَالِيكَ إِنَّهَا مَا قَدَرْتُش تيجي لظُرُوف خَارِجَة عَنْ إِرَادَتِهَا.

دَسَّ سَعْد الرِسَالَة فِي جَيْبِهِ وَخَرَجَ إِلَى مَعْشَى رَكِبَ فِي نَهَائِته سَيَّارَة فِيمَا كَانَتْ نَازِلِي تَتَابِعُهُ مِنْ وَرَاءِ سَتَائِرِ شُرْفَةٍ بَعِيدَةٍ عَالِيَةٍ، تَحْرَكَتِ السَّيَّارَة فَفَتَحَ الرِسَالَة، لَمْ يَكُنْ مَكْتُوبٌ فِيهَا غَيْرَ كَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ بَدُونِ إِمْضَاءٍ:

«بابا.. خمد الله على السَّلامَة.. ادعي لي.. وسامحني».



جَرَتْ الْإِنْتِخَابَاتُ الْبِرْلَمَانِيَّةُ وَدَخَلَ سَعْدُ الْمُتَافِسَة فَاكْتَسَحَ بِأَنْصَارِهِ مَقَاعِدَ مَجْلِسِ النُّوَابِ، ١٩٥ مَقْعَدًا مِنْ ٢١٤ وَفَازَ أَحَدُهُمْ فِي دَائِرَةِ كَانَ الْخِصْمُ فِيهَا رَئِيسَ الْوُزَرَاءِ نَفْسَهُ! تَوَلَّى سَعْدُ رِئَاسَةَ الْوِزَارَةِ فِي ٢٨ يَنَآيِرِ صَاحِ ١٩٢٤ رَغْمَ أَنْفِ الْمَلِكِ، وَكَانَ أَوَّلَ الْقَرَارَاتِ الَّتِي اتَّخَذَهَا الْإِفْرَاجُ عَنِ الْمَسَاجِينِ وَالْمُعْتَقَلِينَ السِّيَاسِيِّينَ بِإِصْدَارِ قَانُونٍ خَاصٍّ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ.



سِجَن قُرَّة مِيدَان .. القلعة

- يَاسِين .. يَاسِين ...

انتبه في مُنتصف النَّداء الثالث فقام من فوق البلاط البارد واقترب من الباب المَفْتُوح.

- أنتِ انتطَرشتِ؟! -

... -

- إفراج.

- هه!!

- إفراج .. عفو .. هاتخرج .. هاتروِّح على بلدك ...

هزَّ رأسه ولم يُعقِّب، سَحَبه الحَارِس خَارِج الزَّنَانة فَرَفَعَ أَمَام الشَّمْس يَدًا يَحْجِيهَا، أَنهَوَا إِجْرَاءَات خُرُوجِهِ مَعَ عَدَدٍ مِنَ الْمُعْتَقَلِينَ قَبْلَ أَنْ يَلْفِظُوهُمْ فِي سَارِع، لَمْ تَكُن مَعَهُ نَقُودٌ حِينَ اعْتَقَلُوهُ فَوَقَفَ سَاعَتَيْنِ يُحْمَلَقُ فِي الْفَرَاغِ قَبْلَ أَنْ يَمْشِي، لِيُومِنَ مُتَوَاصِلِينَ! نَامَ لَيْلَةً فِي مَسْجِدٍ وَأُخْرَى عَلَى رَصِيفٍ وَفِي الثَّالِثَةِ اسْتَلْقَى فَوْقَ ظَهْرِ قِطَارٍ «قَشَّاشٍ» يَتَرَجَّرُ بِهِ فِي رَتَابَةٍ، يَتَابِعُ سَمَاءَ تَمَرٍ فَوْقَهُ وَسَحَابًا مُخْتَلِطًا بِدُخَانِ الْقَحْمِ، وَيَجْتَزُّ شُهُورًا مَضَتْ، شُهُورًا لَمْ يُغْمِضْ فِيهَا عَيْنِيهِ لِحِظَةٍ، أَرْدَادَ نَحَافَةٍ وَهَزَآلًا، وَجَمَعَ فِي ظَهْرِهِ تَوْقِيعَاتَ سَيَاطِ مِصْرِيَّةٍ

بجانب السياط الإنجليزية، بحثوا تحت جلده عن معلومة لا يملكها ووراء عيسيه عن آخر يدعيه حتى ينسوا منه فالقوه في زنزانه ضيقه خالية ما لبثت أن ازدحمت برفاقه الذين قتلهم يدها في الأيام الأولى اكتفوا بالنظر إليه صامتين، قبل أن يبدأ الهمس بينهم، وسوسة رقيقة تخرج من بين شفاههم وتعالى، وسوسة لم يفلح معها سد أذن ولا صراخ، قام يدفعهم ويخبط الباب بقوة حتى أتى الحراس فكبلوه وكثموه ثم ألقوه ثانية في الزنزانه، مع رفاقه، ظل صامتا يتأملهم برعب وهم يقتربون حتى باتوا على بُعد ستيمترات من أذنيه قبل أن يصرخوا كلهم في وقت واحد، صرخة رقيقة حادة شقت عقله وقلبه وحررت مئانة البول بين قدميه، من يومها لم يعد يتكلم أو يصرخ، فقط يُحملق في الجدران من حوله كالأصم الأبكم.

حين وصل الفطار المنيا ترك السماء ونزل، هام حتى وصل قريته أبشاق الغزال، استقبلته أمه وإخوته بكاء وتساؤلات لم يجب عنها، قبل أن يُسأل عن دولت التي لم تُسمع أخبارها منذ رحلت، ربت أمه على كتفه وهمست: دولت يا ياسين.. اخذك.. وين راحت يا ولدي؟ بجالها نلات منين لاجس ولا خبر ابكت بكاء مريرا تحول لعويل قبل أن تصرخ وتضرب صدره بكل قوتها تريد أن تُحيي قلبا كف عن الخفقان، لم يقاوم، تركها تضربه حتى خارت قواها فنظر إليها بصمت ثم دخل غرفته، نام يوما كاملا حتى حسبته أمه قد مات قبل أن يقوم بلا كلمة، تمثال من تماثيل المساخيط يسير بلا أقدام، اتجه إلى أرضه فحرت وبذر وروى ثم اختار مجلسا جلس فيه وسط حقله، خيال مائة يُفزع الطيور، قبل الغروب قام فجأة حين كَمَح في الشمس وجهها، وجه دولت، لم ينفذ يده أو يسوي جليابه، فقط اتجه إلى محطة القطار.



مَكْتَب مُصْطَفَى بَاشَا النُّحَاس بِمَقَر رِئَاسَةِ الوُزَرَاءِ

انْقَضَتْ نِصْفُ سَاعَةٍ مِنَ الْإِنْتِظَارِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ السَّكْرَتِيرُ مِنَ الْغُرْفَةِ
وَيَقْتَرِبَ مِنْ عَبْدِ الْقَادِرِ وَنَجِيبِ الْأَهْوَانِيِّ اللَّذَيْنِ قَامَا مِنْ كُرْسِيهِمَا.
- آسَفُ يَا أَفَنْدِيه أَنْتُمْ أَكِيدَ مُقَدِّرِينَ الْمَشْغُولِيَّاتِ.. مُصْطَفَى بَاشَا فِي
الْإِنْتِظَارِ كُمْ.

زَرَّرَ الْأَهْوَانِيُّ سُرْتَرَتَهُ وَعَدَلَ طَرَبُوشَهُ ثُمَّ نَظَرَ لِعَبْدِ الْقَادِرِ الَّذِي
فَقَدَ عِدَّةَ كِيلُوجَرَامَاتٍ، ابْتَسَمَ فغَمَزَهُ الْآخِرَ بِعَيْنَيْهِ ثُمَّ دَلَّفَا إِلَى الْغُرْفَةِ
الْوَاسِعَةِ الْمَكْسُوءَةِ بِالسَّجَادِ، مُصْطَفَى بَاشَا النُّحَاسُ كَانَ عَلَى كُرْسِيهِ
خَلْفَ مَكْتَبٍ عَرِيضٍ يُنْهِي مُكَالَمَتَهُ، قَامَ مِنْ مَقْعَدِهِ فَهَرُولَ الْأَهْوَانِيِّ إِلَيْهِ
مَاذَا يَدَا وَمَنْ وَرَائِهِ عَبْدُ الْقَادِرِ، سَلَّمَ عَلَيْهِمَا بَرْدًا ثُمَّ أَشَارَ إِلَيْهِمَا لِيَجْلِسَا
قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ مُكَالَمَتَهُ بِعُجَالَةٍ وَيَلْتَفِتَ إِلَيْهِمَا مُبْتَسِمًا:
- آسَفُ عَلَى إِنَّكُمْ أَنْتَظَرْتُمْ بَرَّةً كَثِيرًا.

ابْتَسَمَ الْأَهْوَانِيُّ: يَا بَاشَا إِحْنَا أَنْتَظَرْنَا اللَّحْفَةَ دِي سَنِينَ فِي اللُّومَانِ..
مَعْقُولُ مَا نَنْتَظَرُشْ سَعَادَتُكَ.. دَائِمًا كُنْتَ أَقُولُ لَزِمِيلِي إِنْ فَرَجَ رَبَّنَا
هَآيِيْجِي عَلَى إِيْدِ سَعْدِ بَاشَا.. وَاللَّهِ...

- اللَّهُ يَخْلُقُكَ يَا نَجِيبَ أَفَنْدِي دِهْ بَرَضِهِ الْعِشْمِ.. أَهْلًا يَا عَبْدَ الْقَادِرِ..
حَمْدُ اللَّهِ عَلَى سَلَامَتِكَ يَا ابْنِي.



أردف عيد القادر: الله يسلمك يا سعادة الباشا.

صَفَطَ النحاس جَرَسًا تحت مكتبه ثم استطرد بإبشامة:

- أنا عاوز أقول لكم إن تقديم المساعدة المُمكنة من أهم أولويات
سعد باشا من ساعة ما تولى الوزارة.

أردف الأهواني: الله يكون في العون ويخلي لنا الباشوات كلهم.

دَخَلَ سَاع فأمره النحاس أن يتولى طَلَبَات ضيفيه فطلبها على
استحياء شايًا.. استغل النحاس الدقيقة المُهدرة وأخرج من درج مكتبه
طرفين وضعهما أمامه ثم أردف حين أغلق الباب:

- للأسف وقتي محدود أنتو عارفين مشغوليات الوزارة، وطبعًا أنا
برضه مقدر إنكم لسة خارجين ومحتاجين تقضوا وقت مع العائلة
الكريمة والأقارب، فأنا هاكون مُختصر في كلامي لغاية ما يكون
لينا لقاءات ثانية بإذن الله، طبعًا عايزكم تعرفوا إن سعد باشا مُهتم
جدًا بكل الناس اللي حطُّوا كفنههم على أكتافهم وقت الثورة وما
بَعدها... و...

قاطعهُ الأهواني: يا باشا إحنا رقيينا فدا مصر وسعد باشا.

ابتسم النحاس بود: أنت قضيت كام سنة في السجن
يا نجيب أفندي؟

- ٩ سنين وبيت شهور.. أنا بلا فخر صَاحِب أخطر مُحاولة اغتيال
بعد اغتيال بطرس غالي رئيس الوزارة سنة عشرة.. الوحيد اللي
واجه حَرَس السُلطان والوحيد اللي...

قاطعه النحاس بعدما لمع ساعة الحائط: مفهوم مفهوم طبعاً..
وأنت يا عبد القادر أفندي؟

- أربع سنين يا باشا.

دفع النحاس الطرفين بلطف ناحية ضيفيه: إحنا محضرين ظرف
لكل منكم فيه إعانة بسيطة، طبعاً مش قد المقام ومش أجر التضحيات
لكن أهه حاجة تساعد في المصاريف لغاية ما تستلموا عمل في
أقرب وقت.

رَمَقه الأهواني في صمت قبل أن يتسم:

وهي إيه طبيعة المنصب اللي هاستلمه يا باشا؟

- بالنسبة لك يا نجيب أفندي إحنا محضرين لك وظيفة كاتب في
بنك مصر.

أظلم وجه الأهواني: كاتب!

- في بنك مصر... بمأهية ثمانية جنيه في الشهر.. طبعاً ده عشان
بداية التعيين لكن في أقرب وقت...

- ثمانية جنيه!! أنا...!! أنا ضحيت بروحي سنة خمستاشر يا سعادة
الباشا!! ضحيت وما ذكرتش اسم حد من زملائي.

- للأسف يا نجيب أفندي أنت معاك شهادة الكفاءة^(١).. يا ريت كان
فيه حتى شهادة توجيهية كنا عرفنا...

(١) شهادة تؤهل حاملها لشغل الوظائف الدنيا في الحكومة أو لمواصلة الدراسة حتى
إتمام الشهادة التوجيهية التي تعادل الثانوية العامة.

قاطعہ الأھواني : یا سعادة الباشا... هو واحد زئي المفروض يتعین
بشهادته؟ أنا لیا تاریخ... بقول لسعادتك ضحيت بنفسی...

- ما حدش أنکر تضحيتك یا نجيب أفندي.. إنما... كفاءتك في
العمل مربوطة بخبرتك وشهادتك اللي حصلت عليها وطبعاً أنت
بقى لك فترة في السجن.. وتدرجك الوظيفي لازم يكون...

- يعني ما عنتش أنفعش؟! يعني اللي ركبوا الكراسي أنصف مني!
- العمل الفدائي شيء والكفاءة شيء ثاني یا نجيب أفندي.. سياسة
العمل العام ليها مطالبها وأنت راجل وفاهم إن...

قاطعہ الأھواني كان لم يسمعه: يعني محمد توفيق نسيم اللي
كان بيلم أعضاء الوفد في اللومان يمسك المالية! ومحمد سعيد اللي
كان ماسك الوزارة ساعة الثورة يمسك المعارف! وأنا أخرج اشتغل
كاتب! ليه؟ عشان ضباعي مقطوع؟

- یا نجيب أفندي أنت كنت مُنتظر تخرج من السجن يمسك وزارة؟
قام الأھواني من مكانه فتوتر عبد القادر وقام هو الآخر محاولاً
تهدئة الموقف.

- ما سعد باشا اتسجن واتنفى وخرج ع الوزارة.. وسعادتك اتنفيت
ورجعت وزير مواصلات!

اقترب عبد القادر من زميله وهَمَس: اهدى یا نجيب أُمّال.

نظر إليه النحاس بهدوء ولم يُعقّب.. أردف الأھواني: يعني إيه يضيع
من عمري تسع سنين ويعددين اللي خانونا يركبوا الكراسي.. طلب ودم

الشَّهَداءُ؟ النَّاسُ الَّلِّي راحوا في ١٩٩٠؟ وُصِّباعي الَّلِّي طارده.. بح؟
أنا عاوز أقابل سعد باشا.

- صَلِّي ع النَّبِي يا نجيب... مش كده يا جدع...

- سيبني يا عبد القادر.. سيبني أتكلّم.. أنا مش غلطان.. لو ما قابلتش
سعد باشا هاعمل نصيبة هنا...

قام النحاس: من فضلك يا حضرة.. أنا مقدّر محنتك لكن حافظ
على كلامك إحنا في وزارة مش في اللومان.

- بتعايرني سعادتك باللرمان؟ اللومان الَّلِّي ضاع فيه
عُمري عشاتكم.

- عُمرك راح عشان الاستقلال.. عشان مصر.. مش المفروض
يا أفندي تكون مُنتظر أجر عن الوطنية.

- ده كلام إنشا ينفع في المَدارس.. كُل الَّلِّي عَمَلوا ثورات ركبوها..
كانوا دايماً أولى من الَّلِّي اتخاذل ورفض يشارك.

أمسك النحاس بالظرف وأشار به إلى الأهواني: يا نجيب أفندي
الَّلِّي اختار العُنف مش أحسن من الَّلِّي اختار الحوار.. كلنا بنحاول
والكل على طريقته.. استلم وظيفتك دلوقت وأوعدك أوصل صُوتك
لسعد باشا...

- سعد باشا خلاص.. لبس ثوب الأفوكاتو من ثاني.

قالها وزَحَل تاركًا يد النحاس ممدودة.. فتح الباب بعُنف فتأسف
عبد القادر للوزير بكلمات مُرطبة ووجه مُستعطف قبل أن يلحق بِزَميله

الناثر على السَّلم.. أمسك مرفقه ليوقفه: أنت اتجنَّيت في عقلك يا جَدَع
أنت؟ إيه اللي أنت عملته مع النحاس باشا ده؟!

- حاطين لنا حسنة في ظرف ووظيفة كُحيتي؟ دي دَقَّة النقص مع
الأبطال الحقيقيين.. أنت أكملتُ قضيت أربع سنين مش حابِس
باللي شفته.. مراتك ما سابتكش.. حياتك ما انتهتتش.. هو ده اللي
قلت لك عليه.. المحتل مش بيغلبننا بسلاح.. بيغلبننا بالرجالة اللي
استعمر روحهم.

- أنا حاسس بيك يا نجيب بس مش كده.. الكلام أخذ وعطا
والراجل ما اتأخرش.

- أنت هاتعوم على عومه! البلد دي مديونة لي بعمر راح.. عمر راح
يا عبد القادر.

قالها وابتعد.. رَمَقه عبد القادر حتى اختفى قبل أن يصعد السَّلم
مُجدِّداً في محاولة لرأب الصدع مع الوزير حين وجد رجلاً يقف
في انتظاره.

- عبد القادر سُحَّاة.

رَمَقه عبد القادر بجهل: مين سعادتك؟

- أنا صديق عزيز.. لأحمد كبيرة.. محتاجين نتكلم.



استوريا على كُرسيهما في محل جروي بميدان سليمان باشا.. طلبا
القهوة وأشعلا السجائر.

- عدم اللامؤاخذه سعادتك تبقى...؟

- عبد الرحمن فهمي.. رئيس الاتحاد العام لنقابات عمّال وادي
النيل حاليا.

قاطعه عبد القادر: سعادتك تعرف مكان أحمد؟

- مش بالطبط.

... طب هو سعادتك... الرجل الكبير؟

- رجل كبير إيه يا ابني هو إحنا عصاة! ما تسألش كثير واسمعي
كويس.. أحمد هرب لإسطنبول من أربع سنين تقريبا.. من بعد
عملية الغطاء آرثر.

رَمَقَه عبد القادر يذهول.. أردف الرجل: كَانَ حَصَلَ بَيْنَنَا اتصَال
مُختصر وأنا في السَّجْن واضطرينا نتوقَّف عشان المُرَاقَبَة.. من سَاعَتِهَا
ما أعرفش أي خبر عَنْهُ.. كل اللي أعرِفُه إنه في إسطنبول.

- وليه يا باشا ما يرجعش بعد ما سعد باشا...؟

قاطعه الرجل: الموضوع مُعَقَّد.. مِش مَعْنَى إِنْ سَعَدَ بَاشَا تَوَلَّى
الوزارة إِنْ كُلِّ الْأَطْرَافِ مُوَافَقَة.. الإنجليز مِش متقبلين وجوده..
ساكتين على مَضَضٍ بِسَبَبِ حُبِّ النَّاسِ.. وطبعًا الملك حَاسِسٌ بِتَهْدِيدِ
وِإِهَانَةِ إِنْ غَرِمَهُ يَتَوَلَّى كَرَمِي الوزارَة بِأَغْلِيَةِ الْبَرْلَمَانِ.. ده غير طبقة
الْأَثْرِيَاءِ اللَّي مِش عَاجِبُهُمْ سَعَدَ بَاشَا اللَّي قَوْمِ ثَوْرَة وَهَدَدِ مَصَالِحَهُمْ..

وطبعًا مش محتاج تفهم إن كل الوزراء وأولهم سعد باشا محطوطين تحت مُراقبة صارمة.

- طب وأحمد...؟

- طبعا لو الظروف عادية كنا بعتنا جيناه رسميًا وتحت حراسة.. لكن ده دلوقت مُستحيل.. الإنجليز حاطينه على قوايم التصفية مش الاعتقال لأن التار شخصي بعد قتل وكيل الداخلية آرثر.. عيونهم في كل حقة مُنتظرة ظهوره.. لولا أحمد بارع في التخفي وما بيامنش لحد كان زمانهم قتلوه.

- وسعد باشا ما يكلمش حد من حبايه في إسطنبول؟

- لو اتعرف إن فيه صلة بين الوفد وأحمد كيرة هاتبقى فضيحة تروح فيها الوزارة كلها.. ده غير إن الاتجاه دلوقت جوة الوزارة هو التخلي عن العنف والسير في المفاوضات.

- عشان كده معاليك رئيس اتحاد نقابات النيل مش وزير؟

زَمَقه عبد الرحمن فهمي في صمت ثم أردف: مُمكن نخلينا في مَوضوعنا؟ الوفد مش هايقدر يتورط في رجوعه.. وأحمد بالشكل ده مش هايعرف يرجع ثاني أبدًا.. إلا إذا.. وفُرت له هويّة جديدة تساعدّه يرجع.. وطبعًا يوصلها له حد بيتق فيه ومن خارج الوفد.

زَمَقه عبد القادر للحظات ثم أردف: أنا؟

- أعتقد إن أحمد يستحق محاولة إننا نرجّعه بلده...

- طبعا.. بس إزاي هلاقيه هناك؟

- إزاي دي ما لكش دعوة بيه دلوقت.. حَضَر نفسك وفي خلال
يُومين هاتوصلك وثيقة سَفَر لاسطنبول وتذكرة مركب.. توصل
لأحمد وترجعوا مع بعض.

هز عبد القادر رأسه مُوافقة: رقبتي....

قام الرجل مُنهياً المقابلة حين استدركه عبد القادر: لامواخذة..
كنت عاوز أسأل سيادتك على.. دولت... أصلها كانت بتزورني في
طُرة وفجأة انقطعت زيارتها.. سألت عليها أول ما خرجت في المدرسة
وعرفت إنها...

أكمل الرجل جملته: سابت المدرسة مِن بعد شهادتها معاك.. مُديرة
المدرسة طردتها بسبب سوء السلوك.

طاطاً عبد القادر رأسه قبل أن يختنق صوته: عارف يا بيه... أنا لما
دَخَلت الفدا كُنت فاكِر نفسي ذَكَر.. ابن الفتوة العِترَة.. وبعدين اكتشفت
إن فيه خَواليا ناس أجَدع وأشجع مِني ميت مرَّة.. أحمد اتشرد عشاني..
ودولت فَصَحَتْ بِسُمعَتهَا وشغلها.. ما كنتش عارف إن البلد دي غالية
أوي كِده.. دلوقت وبعد أربع سِنين في اللومان فهمت.

ابتسم عبد الرحمن وربت على كتفه ثم أخرج ورقة وقلماً.

- دُولت بتشتغل في فابريكة ملابس في وسط البلد.. شارع إبراهيم
باشا.. ده تليفون المكان.

التقط عبد القادر الورقة فتهلل وجهه قبل أن يقوم لِيَحْتَضِن الرجل
بعفوية: ربنا يجبر بخاطرلك يا بيه.



مدرسة الهلال

قضى دقائق الانتظار مُتَيْسِّسًا أمام الباب الذي اعتُقِلَ عنده منذ أربع سنوات حتى أُنْتَه نَاطُورَةُ المَدْرَسَةِ، سَيِّدَةُ بَدِينَةٍ فِي العَقْدِ الخَامِسِ نَامَلَتْ جَلْبَابًا يَأْوِي الهِزَالَ وَعَيْنَيْنِ ذَاهِلَتَيْنِ: أَهْلًا وَسَهْلًا.. خَيْر؟

سَأَلَ بَعْدَ لِحَفَظَاتٍ: دَوْلَتُ عَبْدِ الحَفِيظِ.. وَبَيْنَهَا؟

تَبَدَّلَ الفُضُولُ حَيِّقًا: حَضَرْتُكَ مِين؟

- أَنَا أَخُوهَا.

- مَم.. دَوْلَتُ مَا عَادَتْش بِتَشْتَغِلْ هِنَا يَا حَضِرَةَ مِنْ يِيجِي ثَلَاثَ سِنِينَ.. هِيَ مَا رَجَعَتْش الْبِلَد؟

عَبَسَ وَجْهَهُ قَلَقًا: لَا.. مَا رَجَعَتْش.

- مَشْ هَاقْدِرْ أَفِيدُكَ.. أَنَا آسَفَةٌ.

هَمَّتِ السَّيِّدَةُ أَنْ تَرْحَلَ فَأَمْسَكَ رِسْفُهَا وَسَطَ ذَهْوِلِ الطَّالِبَاتِ، التَفَتَتْ إِلَيْهِ بِاسْتِنكَارٍ وَهَمَّتْ أَنْ تَصِيحَ فَرَأَتْ فِي عَيْنَيْهِ مَا أَسْكَنَتْهَا قَبْلَ أَنْ يُعِيدَ سَوَالَهُ:

- وَبَيْنَهَا رَاحَت؟

- إِدَارَةُ المَدْرَسَةِ اسْتَغْنَتْ عَنْهَا.. مِنْ سَاعَةِ فَضِيحَةِ الشَّابِ بَتَاعِ القَنْبِلَةِ.

111...

- الشاب اللي كانت... على علاقة بيه.

لمست ناظرة المدرسة ذهوله فابتعدت بحذر وأشارت لبواب المدرسة أن يُخرجه من حيث أتى، رَمَقَ باب المدرسة حيث قابل دولت آخر مرة فتذكَّر الشاب المُصاب الذي استقبلته وأسندت مرفقه قبل أن تُغلق الباب في وجهه...

تحركت ساقاه خروجا قبل أن تناديه طالبة التقط فضولها المُحادثة منذ تجذب ياسين ذراع الناظرة:

- يافندي.. يافندي.

لم يُعرها اهتماما فاقتربت منه وهَمَسَتْ: أنا أعرف مكان أبله دولت...



قضى الأهواني ما يقرب من ثلاث ساعات في القهوة، شرب خمسة أكواب قهوة وأحرق عشرين سيجارة وهو يتابع المارة في شروود مُحاولا إطفاء بُركان بداخله، لم يُوقظه سوى بائع جرائد يصيح، التقط جريدة «السياسة»، تصفحها فتوقف عند مقال بعنوان «الألعبان» فوقه صورة لسعد باشا.. قرأ:

«سعد الذي يريد اليوم أن يمنع جريدتنا من حضور جلسة البرلمان، هو سعد الذي بطش بالصحف حين كان وزيرا للحقانية في عهد الخديوي، أما سعد الذي ظهر بين هذا وذاك.. سعد الذي كان يمجّد الحرية ويدعو إلى حمايتها، فقد كان رجلا آخر أنشأته المعارضة حين كان مُعارضاً.. وقد ترك المعارضة فترك معها خصال المعارضين وعاد إلى طبيعته الأولى.. الألعبان».

بسر القراءة ونزلت عيناه على مقال كتبه حليفة سابقة .. هدى هانم
شعراوي ! قالت فيه :

« لا يوجد خطر على القضية المصرية أكبر من أن يتولى المفاوضات مع
إنجلترا رجل يعترف علانية بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل
وعند توليته الحكم ».

لم يقرأ بقية المقالات، قرأ ما وراءها، قرأ أن جريدة السياسة - وهي
صوت القصر الملكي - حين تيشن حملة على سعد زغلول فالكفة
سنميل حتماً ميلاً عظيماً، إنجليز، ملك، أصدقاء سابقون وصُحف
موجّهة، كل هؤلاء في كفة، وفي الكفة الأخرى، ناثر سابق، ناثر ظن
يوماً أن إدارة البلاد تشبه مائدة المفاوضات، ساحة قتال وسجّالاً
نظرياً، غالباً ومتغلوباً، لم يعرف أن السياسة هي فن .. فن المصلحة ..
فن الانحياز للأقوى.

نادى لملمع الأحذية ورفع قدمه على صندوقه الخشبي، اطمأن
على كرافته وشعره في مرآة تكسو عاموداً من أعمدة القهوة قبل أن
يدفع حسابه ويرحل، ركب سوارس أوصلته بيته الخالي من الرفاق
والأحبة وفي رأسه فكرة واجدة تتضخم:

- سأرحل عنك يا مَنْ خذلتني .. يا مَنْ واجهت الموت من
أجل أرضك .. أرضك ناكرة الجميل .. لن أعود لك ما دام
يحكمك الأشقياء.



شارع المناخ.. وسط البلد

الهدير كَانَ طَاغِيًا فِي الفَابْرِيقَةِ، عشرون مَآكِينَةً سِينَجَر تُخْزِ الأَقْمَشَةَ، سَيَقَان نَاعِمَةٌ تَتَحَرَّكُ بِانْتِظَامٍ فَوْقَ بَدَالَاتٍ حَدِيدِيَّةٍ، وَعَشْرُونَ رَأْسًا مُطَاطُونٍ عَلَى النُحُورِ وَعَيُونَ تَضِيْقُ لِمُتَابَعَةِ الإِبْرَاتِ السَّرِيعَةِ.. مُلَاحِظُ الْفَتَيَاتِ كَانَ يَدُورُ فِي رَتَابَةٍ بَيْنَهُنَّ، يُشْرِفُ عَلَى إِخْرَاجِ الْفَسَاتِينِ بِالمَوَاصِفَاتِ اللَّائِقَةِ، يَزْجُرُ مِنْ تُخْطَى وَيَخْصِمُ مِنَ المَاهِيَةِ، وَيَكْتَفِي بِالصَّمْتِ إِذَا أَحْسَنَ فَهُوَ وَاجِبُهُنَّ.

دَوْلَتُ كَانَتْ فِي المَصْفِ الأَخِيرِ، فَقَدَتْ كِيلُوجَرَامَاتٍ قَلِيلَةً أَهْرَزَتْ عِظَامَ وَجْنَتَيْهَا وَكَتَفَيْهَا، شَعْرَهَا لَمْ يَبْدُ لَطُولُهُ الَّذِي كَانَ قَبْلَ شَهَادَتِهَا مَعَ عَبْدِ القَادِرِ، وَعَيْنَاهَا فَقَدَتَا بَرِيقًا كَانَ يُغْرِقُهُ، أَمِيرَةٌ فِرْعَوْنِيَّةٌ تَتَحَنَّنُ ببطءٍ. اقْتَرَبَ المَلَا حِظُّ مِنَ أذُنِهَا لِيَسْمِعَهَا مِنْ بَيْنِ ضَجِيجِ المَآكِينَاتِ: فِيهِ وَاحِدٌ مِسْتَنِيكِي بَرٍّ يَا دَوْلَتِ.

هَزَّتْ رَأْسَهَا وَأَطْفَأَتْ مَآكِينَتَهَا وَخَرَجَتْ، حِينَ لَمْ يَحْتِمْهُ وَاقْفًا لَمْ تُصَدِّقْ عَيْنُهَا، فَتَحَتْ شَفَتَيْهَا وَلَمْ تَنْبَسْ بِكَلِمَةٍ فَابْتَسَمَ وَاقْتَرَبَ، بَاتَ عَلَى مَسَافَةٍ تَسْمَحُ بِتَأَمُّلِ عَيْنَيْهَا.. خَصْلَةٌ فَاحِمَةٌ تَتَسَلَّلُ مِنْ تَحْتِ وَشَاحِهَا الأَزْرَقِ وَيَدِينُ لَيْسَ فِيهِمَا دَبْلَةٌ ذَهَبِيَّةٌ، رَمَقَهَا فِي صَمْتٍ ثُمَّ قَمَسَ:

- ده نفس الإيشارب اللي كنت بتيجي تزوريني بيه؟
- هزّت رأسها إيجاباً.. أردف: أنت ما عندكيش غيره ولا إيه؟
- ابتسمت: باحب اللون الأزرق.
- ابتسم: اتأخرت عليك؟
- خرجت إمتى؟
- من يومين.. دوّرت عليك زي المَجنون.. ليه اختفيت عني؟
- ظروف.
- عاوزين نتكلم.
- استأذنت رَبّ العمل في سَاعَة غِيَاب فقبل على مَضْمَض.. تراس فندق شبرد كان الأقرب إلى الفابريقة.. جلسا وسط الأثرياء وكان مظهرهما مُلفتاً.. طلب شايًا وطلبت عَصِيرًا.. لم ينزل عينيه عن عينيها يتأمل ضوء الشمس وهو ينحني فوق وجنتيها حتى ابتسمت:
- حمد الله على سلامتك.. كان لازمته إيه المكان الغالي ده؟
- هو أنا بشوفك كل يوم؟ أنا قلت أنتجوزتِ عشان كده بطلّمتِ تزوريني.
- أنا ما اتجوزتش.. الدنيا بقت صعبة.
- أنا عارف إنك سبتي المدرسة بسبب شهادتك ليا.
- بلاش نتحدث بكلام يعكس علينا فرحة خروجك.
- أنا عاوز أسمعك.

اتخذ الأمر منها دقيقة لتحدث:

- الدنيا لما يتقفل بتقفل مرة واحدة.. ما كنتش برضى أحكي لك
في السجن عشان ما أزودش هَمَّك.. أحمد أفندي سافر من ساعة
عملية آرثر وانقطعت أخباره يبجي من مستين.. عم إسحاق كتر
خبره هو الوحيد اللي ببسأل عني بس كبير يا عيني والشكر أكله..
ومن ساعة أحمد ما سافر عطل وبطل يشتغل.
- وأنت؟

- أنا.. شهادتي في المحكمة خلّت المدرسة تستصدر قرار برفتي..
لغيت بورقي مديريات التعليم كُلّها وتفتش حدّ قِل يشغلني لغاية
ما لغيت الفابريكة.. بيطلع منها ستة جنيه ونص يدوبك يكفوا
الأكل وشقة إيجار مع ثلاث زميلات معايا.. وطبعاً المنيا ما
أقدرش أهوّبها.. ياسين أخويا اختفى من يوم التنفيذ ومش قادرة
أروح البلد.

- كل ده بسببي.

- إوعى تقول كده.. أنا بطّلت أزورك لَمّا حسّيت إن زيارتي ليك
مش هاتبقى زيارة... مع الوقت هاتفرّج عليك بتكبر قدام عيني..
تدبل وتنحني.. وأنا كمان هأكبر.. هانموت بالبطيء زي الزرع
اللي ما بينسفش.. فكّرت إن اختفائي من قدامك ممكن يكون
أرحم.. ليك ولبا.. يمكن نكرهني.. ويمكن تنساني.

- وأنت كمان كنت هاتكرهيني؟

- أنا أكرهك.. أنت ما تعرفش معرّتك عندي.

أمسك يدها واقترب: أقسم بالله يا دولت لأعوّضك عن كل اللي اتسببت فيه.. هانسيكي كل لحظة أَلَم في السنين اللي فاتت.. هاتعيشي معايا سُلطانة.. مش هاتشوفي وجع ثاني ولا مخلوق هاييمس طرفك.

فلنت منها ابتسامة ودموع.. أردف: على فكرة وحشتني عينيكي..

- لازم أرجع الفابريكة.. هاشوفك ثاني؟

- عندي دين لازم أسدده الأول.

- لمين؟

- لأحمد.

- هو رجع؟

- رايح أجيبه.. لازم يكون شاهد على فرحنا.. هو وعم إسحاق..

هو ينفع نصراني يشهد على عقد جواز؟

ضحكت حتى بانت نواجذها.. أردف:

- أنا بحبك.. ومش قادر أنسى... البوسة اللي أخذتها وأنا في التحقيق لغاية دلوقت.

وضعت أصابعها أمام فمها ونظرت في عينيه:

- ولا أنا... هاتغيب؟

- أسبوع بالكثير.



في مقابلة مُقتضبة استلم عبد القادر من عبد الرحمن فهمي وثيقة سفر مُزورة، صعد على المركب وجلس في قمرة يُراجع التعليمات التي تلقاها منه.. أحمد يزور مقهى «كبادوكيا» الذي يطل على جسر «جلاطة» ليلة واحدة في كل أسبوع، يوم الأربعاء من الساعة التاسعة إلى العاشرة مساءً، تلك هي وسيلة الاتصال الوحيدة الباقية بينه وبين المنظمة، يجب أن يصل عبد القادر في الميعاد وإلا سيضطر أن ينتظر أسبوعًا.

- طيب وأنا هاعرفه إزاي؟ مش يمكن ما المحوش؟

- ما ترهقش روحك.. أحمد هو اللي هيلاقك.

انتهى عبد القادر من المراجعة فاطمأن على المُسدس تحت سترته والنقود في جيبه، نَرحَج بعدها إلى سطح المركب وأشعل سيجارة وهو يتأمل الركاب، قضى دقائق قبل أن يلمح وجهًا يعرفه يجلس فوق مقعد، منزويًا شاردًا يتابع المياه الجارية في حُزن، اقترب عبد القادر ووضع يده على كتفه فالتفت مفزوعًا.

- إيه اللي جابك هنا يا أهواني؟

- إيه اللي جابك أنت هنا يا عبد القادر؟

جلس عبد القادر بجانبه على المقعد قبل أن يستطرد:

- أنا رايح إسطنبول شغل.. وأنت؟

- شغل برضه بس في فابريكة سجاد.

- بقية هانت عليك عشرة اللومان؟ من يوم مُصطفى النحاس ولا جيس ولا خُبر كده؟

- ما غيَّيش عنك غير الغُلب.. وما تفكر نيش باليوم ده الله يخليك
أدبتي فايته ورايح آخر بلاد الله.

- أنت ما استلمتش الوظيفة؟

- وظيفة!!! وظيفة إيه يا عبد القادر؟ أنت عارف كيلو اللحمه بقى
بكمام؟ عاوزني أشمخت الحياة الكريمة بعد ما عشت تسع سنين في
نربة؟ عاوزني ينتهي بيا الحال كاتب ولأ باشكاتب في بنك بعد
ما تُسفت الموت عشان ناس ما تستحقش تعيش؟ أقبض تمانية
جنيه شهري وعيِّل مواليد ألف وتُسعومية يقبض له بتاع أربعين
جنيه!! لا يا صاحبي.. الأهواني ما يتهانش الإهانة دي.

- أنا مقدر كلامك.. بس يعني مش مقابلة مع مسئول واجد تخليك...

قاطعاه الأهواني بعصبيّة: دي مش مُقابلة.. دي السياسة الجديدة اللي
هاتمشي.. الوفد بيقفل ملفاته القديمة وعاوز يبدأ صَفحة جديدة مع
بتوع المفاوضات اللي ما بيقلموش البذل الأفرنجي.. قلّة قيمة وعدم
تقدير وتجاهل لكل اللي صوابهم اتعاصت دم.. ولأ اتقطعت!
يا عبد القادر أنا لو كنت قعدت يوم كَمَان كنت هاعيا.. هاموت..
أنا من بعد السجن مَالِيش حَد.. لا مرة ولا عيِّل أبكي عليهم.. ودلوقتي
ولا حتى وظيفة عدلة.. آل إيه ما تنتظرش أجر لوطينك.. ماشي.. أكُل
أنا بقّة وطنية بالدمّة.. وطنية بالملوخية...!

- لو صوتك وصل لسعد باشا...

قاطعاه: وسعد باشا نفسه هايقع.. أنت ما بتقراش جرايد أصلك..
الهجوم عليه سُخن.. القصر شغال له من تحت لتحت.. والإنجليز..

دي حَتَّى هُدَى شعراوي صديقة مراته قلبوها عليه!! فوق يا صاحبي
دي مسألة وقت.

شرد عبد القادر في كلماته قبل أن يسأله الأهواني: ألا بالحق أنت
كانوا عاوزين يوظّفوك إيه؟

- مُحصّل في المَالِيّة.. تمانية جنيه برضه.. عشان كده قلت
أجرب حظي.

- وجودك ع المركب دا أحسن قرار أخدته.. وعموما أنا فيه
واحد معرفة مستيني في إسطنبول.. ورزقي ورزقك على الله
يا صاحبي.

- ربنا يكرم.

قضى عبد القادر ثلاث ليالٍ إضافية مع رفيق الزنانة قبل أن يتوه عنه
«عنوة» في زحام النازلين إلى الميناء.. «سامحني يا أهواني».. استأجر
غُرّة في نُزل صُغيرة تطل على الجسر العتيق قبل أن يذهب في اليوم
التالي في تمام التاسعة مساءً إلى المقهى.

«كبادوكيا» كان مقهى واسعًا يطل على مضيق البوسفور الذي يعبر
فوقه جسر «جلاطة» الرابط بين الجانبين الأوروبي والآسيوي لتركيا،
ترسو بالقرب منه العبّارات التجارية ويقع أمامه مسجد «يني كامي»
العظيم ومن بعيد تظهر المآذن البديعة لمسجد «آيا صوفيا».. استقر
عبد القادر على كرسي في ركن يكشف المكان من حوله ثم رفع يده
لنادل لا يتكلم إلا التركية، بالكاد أفهمه أنه يريد شايًا ثم أخذ يفرز
الحاضرين بحثًا عن أحمد.. قَضَى السّاعة في قرض أظافره ومسح



القادمين ومراقبة عقرب ساعة معلقة على الحائط، يكاد يجزم أن الوقت في تركيا يمر ببطء عن مصر، حين دنت العقارب من العاشرة تأكد من خطأ الحسابات، أحمد لن يأتي، أو أنه لم يعد يأتي، كان ذلك قبل أن يميل عليه عجوز جالس بجانبه منذ ساعة ويهيس:

- إزيك يا عبد القادر؟

انتفض حين سمع الصوت.. رمق العجوز ذا الشعر الأبيض والذقن الكثيف والجسد النحيل المحني.

- أحمد!!!

همس: ششش.. وطّي صوتك.. حاسب ع المشاريب وقوم بعدي بدقيقتين.. امشي يمين على الكورنيش لغاية ما تلاقي سفينة اسمها «أرجو».. استناني عندها.

قالها العجوز وقام يرتعش، ترك نقوده على المائدة وخرج.. تابعه عبد القادر حتى اختفى مقاوماً ضحكة تكاد تفر من بين شفثيه.. «يا ابن القردة».. مشى بعدها على رصيف الميناء حتى قرأ كلمة «أرجو» على جسم سفينة شحن كبيرة، وقف أمامها دقائق إضافية قبل أن يقترب منه أحمد، وقف بجانبه فهجم عليه عبد القادر احتضاناً، لم يملك أحمد سوى الابتسام، يادله الحفص ثم أردف:

- خلاص لا يفتكرونا لوطين.

ابتعد عبد القادر فأشعل أحمد سيجارة وناوله واحدة:

- آخر واحد كنت أتوقع أشوفه في إسطنبول!

- يا ابن اللذينا! امش مصدق إني قعدت جنبك ساعة وما عرفتكش!!

- كان لازم أناكّد إنك مش مقطور.

- مين بيدور عليك هنا؟

- المُخابرات الإنجليزي مسيئة عليك كلابها.. كل واحد ماشي

وصورتي في جيبه.. بنغير سكني كل يومين ثلاثة بالكثير

- عاوزين منك إيه ولاد الرّفضي؟

- التار مش بس في الصّعيد يا عبد القادر.. أنا قاتل منهم عدد.

- بس حكاية آرثر هي اللي مخلياهم سخنين عليك.

- أنا مش ندمان على أي طلفة طلعت من مسدّسي.

- أنا جاي عشان أرجّعك.. معايا ورق جديد باسم جديد.

- أنا مش راجع.

- يعني إيه مش راجع؟

- أرجع أعمل إيه؟

- ترجع عشان البلد.. عشان أمك.. عشان ورد.

- ورد... ورد بقت راهبة يا عبد القادر.. وأمي ماتت من ستين.

- لا إله إلا الله... البقية في حياتك... أنا...

قاطعه أحمد: أنا ما عنديش حاجة نخليني أروح

للإنجليز برجلي.

- البلد لسة محتاجة وقفنك.

- اللي زيي يا عبد القادر بيبقى عامل زي طلقة الرصاص .. ما ينفعش
بعد المعركة تستخدمها في حاجة .. لازم تبات في الدولاب لغاية
معركة جديدة.

- المعركة ما خلصتش.

- المعركة دلوقتي على الورق .. غلطة إن سعد باشا قيل الوزارة ..
هايحطوه في قالب ويحاصروه بمشاكل البلد لغاية ما تنزه القضية
ويفقد شعبيته .. هايدمروه .. رئيس وزارة في الآخر يعني مُستخدم
من مُستخدمين الملك.

- خلاص .. غربة بغربة ترجع بذلك باسم جديد وحياة جديدة.

- أنا هنا عايش ملك نفسي.

- ولو عتروا عليك؟

- هاسافر .. ألمانيا .. إيطاليا .. فرنسا .. أرض الله واسعة.

- المُخابرات البريطانية موجودة في كُل حنة .. مستهيا لي هاتكون
موجودة في الجنة كمان!

- إزاي عبد الرحمن بيه؟ وعم إسحاق .. ودولت؟

- كلهم بخير .. مستيينك .. ودولت .. أول ما أرجع هاكتب
كتابي عليها.

- ربنا يوفقك يا عبد القادر .. خد بالك منها .. البت دي ببيت راجل.

- ما تاخذنيش في دوكة يا أحمد .. أنت لازم ترجع معايا.

ساد الصمت قبل أن يردف أحمد: بسيني أفكر.. وبكرة نتقابل في نفس الوقت في نفس المكان.

- وبعدين زهينة إيه اللي رايحة تشتغلها البيت دي! ده كلام ما يخشش عقل.. اسألني أنا نجار حريم.. البيت اللي ما تلاقيش راجل بشاغلها تفرك زي المعزة الحرنانة.. وبعدين تعمل مشغولة.. يا نرمس بقعة على مظاهرات وإشي استقلال وماستقلالش.. يا تحب نفسها في دير ولأ في قلاية وتعمل فيها سانت كاترين.. عارف الت دي بمجرد ما تشوفك ه...

قطع عبد القادر كلامه حين نظر بجانبه فوجد الرصيف خاليًا.. رحل أحمد ولم يشعر به فوضع يديه في جيبه وقفل عائداً للنزل.



نزل قريب

دلف من الباب الكبير فالتقط المفتاح من صاحبة الفندق قبل أن يصعد السلالم، في الدور الثالث فتح باب غرفته ففوجئ بالإنجليزي يصب الشاي الساخن من الإبريق إلى كوبين فارغين، تبس للحظات قبل أن يغلِق الباب وراءه:

- كم ملعقة سكر؟

أجابه بالإنجليزية: ثلاث ملاعق.

نظر إليه الإنجليزي ثم ابتسم: ما لك تنظر لي كأنك نرى شبحاً؟

- ... أنا فقط... تفاجأت.

- هل رأيته؟

- نعم.

لجمعت عينا الإنجليزي فاقترب.. ناوله كوب الشاي، ثم سال:
هل أنت متأكد؟

- نعم.. رغم تنكره لكنني لا أخطئ صديق عمر.

- أين رأيته؟

- في مقهى «كبادوكيا» القريب من الجسر.

- التقى بعبد القادر؟

- نعم.

- هل تتبعته لتعرف أين يسكن؟

- لم أستطع مجاراته.. أحمد سريع الاختفاء ومُدْرَب على
كشف المراقبة.

رقمه الإنجليزي بغضب: لا بد أنك تمزح.. ذهبت إلى المكتب رقم
خمس^(١) وطلبت مكافأة عشرة آلاف جنيه وحيث بنا من القاهرة مُدْعِيًا
أنك تملك معلومة عن أحمد كبيرة ثم تفقد أثره بتلك البساطة!!

- عبد القادر دفع أجر ثلاث ليالٍ مقدَّمًا في النُّزُل المجاور.. لقد
سألت.. هم يحضّران لعملية كبيرة.. أحمد سيعود غدًا.. وعياني
لن تُفارقا عبد القادر حتى يلقاه.

(١) مبنى المحاكمات البريطانية، وكان يقع في منطقة حاردين سين بالقاهرة.

- وإذا لم يلقاه؟

- لن آخذ الأموال التي طلبتها.

- هذا أمر مفروغ منه.. وتذكر.. لن تكون مشكلتك الوحيدة عدم
تحصيل أموالك.

ارتشف الإنجليزي آخر كُوبه وتركه على المنضدة بوقع عالٍ ثم
اتجه إلى الباب وفتحته قبل أن يتوقف وملتفت:

- قل لي يا أهواني.. لماذا كبيرة؟ لقد ذكرت أنه كان صديق عُمر!

رفع الأهواني كفاً فيها أربع أصابع وإبهام مقطوعة: لأنه مثلهم..
نسبني في الظلام ونعيم بالحياة وحده.



ايمن ميزاج

في السابعة مساءً انفتح باب الفابريكة فخرَّجت الفتيات من الأُسُر،
مُتدثرات بجرائد وأوشحة نقي رءوسهن مطراً لم يتوقف منذ نصف
ساعة، بينهن خرَّجت دولت تلتجف وشاحها الأزرق، نظرت إلى
يسارها تبغي عربة سوارس أو حنطوراً يُوصلها شقَّتْها قبل أن تلمح
على الرصيف المُقابل شبحاً، شبحاً وقف في مكانه منذ بدأ المطر،
التصق جلبابه بهزاله فبرزت عظامه وغارت عيناه فلم يعد فيهما بياض،
تيسست حين رآته، كما تيسس الفراشات أمام النار تظنها ضوءاً، لم
يُمهلها وقتاً، مرَّت بينهما عربة حنطور فوجدته أمامها...

- ياسين!

لم يجبها.. مدَّ كفّاً معروقة إلى عضدها فقبض عليه.. تألمت..
نظرت في عَينيه:

- ياسين...!!

أجابها بسكين حاد أخرج نصفه من جيب سيَّالته ثم أشار إلى
حنطور قادم.. توقف فدفعها برفق.. جَلَسَتْ على الكنبه الخلفية في
ذهول وجلس بجانبها.. قال للسانس:

- محطة الجطر.

ترجرج القطار بهما حتى المنيا.. نزلا فأركبها جمارًا استأجره
ومشى بجانبها يسحب مقوده ويتكى على عصا جافة.. أرض وعرة
سلكها ياسين ابتعادًا عن الأعين.. رحلة قاسية وقف فيها مرّة واحدة
تحت ظل شجرة جميز ليُريح الجمار.. هناك بدأت تتحدّث.. أقسمت
إنها عذراء.. طاهرة نقية بلا دنس.. وإن ما قالته في التحقيق كان من
أجل إنقاذ رجل من الموت.. اتهمها بالعشق فأقسمت بالنفي.. ثم
حكّت ثانية فلم تحترق كلماتها العطين المالى أذنيه.. أصم لم يلتفت..
لم ينفعل.. ولمّا أراد أن يسكنها أوقف جماره وجذبها من ذراعها
لتركب.. جرب منه محاولة الفرار فركض وراءها.. أسقطها أرضًا وكتم
فمها قبل أن يضربها في معدتها ضربة ثنت جذعها الما وأخرست
صرختها.. أوثق يديها بحبل الجمار ثم حملها ووضعها فوقه دامية
الشفتين وجذب وشاحها الأزرق ليغطي وجهها.. دخلا أبشاق الغزال
مع نسّات الفجر فرفع الفلاحون أيديهم من العطين ليشهدوا المشهد
الغريب.. الميّت الحيّ عائد ومعه سيّدة فوق جمار اقترّب من أرضه
فأنزلها.. جرّها جرًّا إلى الزريبة وأوثقها إلى مزود أغنام قبل أن يُغلق
الباب.. في راحة المنزل كانت أمه جالسة على الأرض.. جلس بجانبها
في صمت قل أن يهمس: قولت في الزريبة.

بدهشة سألت: دولت عادت!! في الزريبة!!! ليش!!! عملت إيه
يا ياسين؟؟؟ إنطج!!

- فحرت.. عشيحت.. فضيحتها في مصر على كل لسان.

بهت المرأة.. انتسجت الألوان من وجهها.. ارتعشت شفثاها ثم
خبطت رأسها يديها قبل أن تقف.. نظرت لشعاع الشمس المتسلل من

بين سَعَف النخيل المتراص في السقف.. دقائق.. قبل أن تدخل غرفتها
ثم تعود بسكين مشحوذ.. التقطت يد ياسين ووضعت فيه بحزم مقاومة
أمومة تتحجّر وأسى يتوغّل في شغاف القلب.

خرج ياسين من الزريبة يجرّ دولت ومن ورائهما أمّه.. تسير خافية
على بُعد أمتار من ابني رَحْمها.. ابتعدا حتى الجهة الغربية حيث
المقابر المهجورة التي لعبا فيها صغارا.. حيث تماثيل المساحيط التي
تخافها دولت.. ألقاها ياسين على الأرض مكومة الغم مكتوفة اليدين
والرجلين.. ترمق أمّها الواقعة على بُعد في فرع وتضرّع.. تصرخ بلا
صوت يُسمع.. ثم تنظر إلى ياسين الذي يضرب بفأسه الأرض مبعثرا
التراب.. يصنع حُفرة كبيرة.. حُفرة تكفيها.. دقائق وتوقّف.. تحجّر..
اقتربت أمّه فنظرت إليها دولت في استغاثة.. لم تلتفت.. نظرت إلى
ياسين قبل أن تصفعه صفعة مدوية:

- خليك راجل.. اغسل عارك.

تلقّى ياسين الأمر فجمّدت عيناه.. جمّدت كما جمّدت من قبل
أمام رؤوس أقرانه.. نظر لأمّه ثواني قبل أن يُزيحها جانبا.. انحنى على
دولت فمزّق وشاحها الأزرق.. جذبها من شعرها وقربها من حافة
الحُفرة.. طرحها على وجهها وغرّز قدمه في منتصف ظهرها ليمنعها
من الحركة.. ذارت برأسها فرأته يستل سكيناً فنظرت لأمّها التي ركعت
على الأرض في ترقب.. بحثت عن النظرة التي كانت تقابلها بها حين
كانت تجري إلى حضنها خوفاً من تماثيل المساحيط فلم تجدها..
أغمضت عينيها وكفّت عن المقاومة في اللحظة التي قبض فيها ياسين
على مُقدّمة شعر رأسها.. جذبه فأوجعها.. قبل أن يمرر السكين على

رقتها ليشقها.. تحرّها.. اختلطت الدماء بالتراب قبل أن تخبو عينا
 دولت وتطفئ حركتها.. ارتخت بين يديه كدّمية قطنية فحرر شعرها
 الفاحم من بين أصابعه ووقع النصل منه.. تابع أصابع أخته التي تبث
 ارتجافات خافتة ثم التفت لأُمّه فوجدها جاثية كما هي لا تتحرك وفي
 عينيها خواء وعدم.. نظر في الفراغ حتى سالت ريالته قبل أن تنزّل قدماه
 في الحفرة التي حفرها.. غاص في الوحل الممزوج بالدم.. ركّع.. ثم
 تكوّم كالجنين.



في اليوم التالي جلس عبد القادر في مقهى «كابادوكيا» كما أتفق،
 طلب سائياً وأشعل سيجارة حين مرّ به بائع جائل.. أشار إليه أن
 يقترب.. غابن ما معه من بضاعة حتى التقط وشاحاً أزرق وخاتماً فضياً
 يُحيط حجراً فيروزياً.. تذكّر حُب دولت للأزرق فاشتراهما واشترى
 من أجلهما علبة خشبية منقوشة.

نصف ساعة حتّى أشار له بحار أن يتبعه، مشى وراءه إلى جسر
 جلاطة قبل أن يتخلل صفوف الحناطير المتراسة ليهبطاً بقرب ضفاف
 البوسفور حيث أكشاك بيع الأسماك المغلقة ومراكب النقل الصغيرة
 التي تتمايل فوق المياه الهادئة.

- فكّرت يا أحمد؟

أخرج أحمد من جيبه ظرفاً أبيض مغلقاً يحوي ورقة وشيئاً صلباً لم
 يميزه عبد القادر حين وُضع في كفه.

- إيه ده؟ سأل عبد القادر .
- دي رسالة عاوزك توصلها لورد.
- ورد!!
- عنوانها مكتوب في ظهر الظرف.
- دي... رسالة وداع؟
- سَكَتَ أحمد للحظات قبل أن يُردف: وُصول الجواب ده هايفرق
معايا كتير يا عبد القادر.
- ارجع معايا واذهب الجواب بنفسك يا أحمد.
- لو رجعت مش هايكون معاك.. وُجودنا مع بعض هايعرضنا إحنا
الاتنين للخطر.. عُيون الإنجليز في كُل المَخارج.
- خلاص.. نسا فر كل واحد لوحده.
- سيب لي أوراق الهوية الجديدة وأنا لما أنوي هاتصرف.
- ده آخر كلام؟
- وَصَل الرِّسالة لورد ما تنساش.
- سَاد الصَّمْتُ للحَظَات.. دَسَّ عبد القادر الرِّسالة في جَيْبِه لما لم
يجد ما يُقال وأشعل سيجارة.. كان يعرف عناد أحمد.. لن يستجيب
لإلحاح إذا ما قرَّرت نفسه أمرًا.. تَمَنَّى لو يَسْتَطِيع حَظْفُه وإِلْقَاءُه في
مَرَكَب يُجَدِّف به من البوسفور حتى شواطئ مِصر.. مصر التي لم يُعَد
لصديقه فيها أحد!

- وَحَشْتِي يَا صَاحِبِي.

لم يكن ذلك عبد القادر .. أو أحمد .. الصَّوت كان آتياً من خلفهما ..
بَحْرَكة لا إرادية حَرَّرا مُسدَّسيهما والتفتا خلفهما .. رَفَعَ نجيب الأهواني
ذراعيه في توتر:

- صَلُّوا عَ اللِّي هَاشِفَع فيكم.

صَاح عبد القادر: نَجِيب!!! إيه اللِّي جَابِك هِنَا؟؟

احتاج أحمد لحفلات ليستوعِب الشَّيخ المائل أمامه .. شَبَّحَ لم يَره
منذ تِسَع سِنين.

- أهواني!

- بَقِيَ بعد تِسَع سِنين تَبَقَى دي المُقابِلة؟ مَا تَقول حَاجة
يا عبد القادر...

ارْتَحَى عبد القادر مُسدَّسه ثم نَظَرَ إلى أحمد: مَا لِحَقَّتْش أَحْكِي لَك
إِمبارِح إِنَّا تَقَابَلْنَا فِي السَّجَن .. حَكَّى لِي عن صِدَاقَتِكُمَا القَدِيمَة ..

لم يُنْزِل أحمد مُسدَّسه: بِتَعْمَل إيه هِنَا يا نَجِيب؟

- هَانتَكَلَم وَأَنت مَرْفُوعِي كِدَه؟ مَش كَفَايَة قَطَعْتَ زِيَارَة .. الدُّنْيَا
تَلاهِ فَعَلًا.

كَاد أحمد أن يَنْزِل مُسدَّسه حين شَمَر بِحَرَكَة بَعِيدَة .. التَفَت حَوْلَه
فَلَمَّحَ عَن يَمِينِه رَجُلَيْن وَعَن شِمَالِه ثَلَاثَة يَسْدُون مِن بَعِيد طَرِيق
الهُرُوب .. بَغْضَب رَمَقَ الأَهْوَاني الَّذِي أَرْدَف بِهَدوء: أَنَا جَاي عِشَان
أَسَاعِدُكَ يَا صَاحِبِي.

- تساعدني؟ ولأ تسلمني؟

رفع عبد القادر مسدّسه ثانية: يا ابن الوسخة...!

حدجه الأهواني بعُصْب: حافظ على أَلِفاطك يا عبد القادر.

ثم التفت إلى أحمد: نزل سلاحك واعقل.. خيلنا نفكرُ بهدوء.

نظر أحمد للمُحاصرين قبل أن يُرخي سلاحه بجانبه..
اقترب الأهواني.

- في سورة الكهف.. ليه العبد الصّالح خرق السفينة قدام موسى؟
عشان المَلِك ما يصادرهاش.. وليه قتل الواد الصّغير؟ عشان كان
هايكبر.. ويطلع دين أم أبوه وأمه.. القدر يا صاحبي صعب يشرح
أفعاله.. والناس متعوّدة لو ما قهمتش في سَاعَتِها.. تزرجن.. أنا
طول عمري براهن على ذكائك.

- وأنت بقه العبد الصّالح؟ ولأ القدر؟

- أنا جيت عشان أنقذ صاحب من مصير اسود مستنيه.. زي ما
أنقذتك من تسع سنين وما جبش سيرتك في تحقيقات القضية..
ولأ نسيت؟

- قبضت كام يا أهواني؟ سأل أحمد.

طأطأ الأهواني رأسه إلى الأرض في صمت.. ابتسم قبل أن
يضحك.. ثم هدا: عَشْر تلاف جنيه.. تعويض عن سنين طُرة يا صاحبي.

زفر عبد القادر بعصية مكتومة: يا ابن الوسخة...!!

اقترب منه الأهواني حتى بات على مسافة ستيمترات من وجهه:

- عبد القادر... مش عارف أحمد اختارك إزاي عشان تكون واحد من اليد السودا!! اسمع واتعلّم.. صاحبنا العزيز مطلوب حي أو ميت.. ومع مخابرات بريطانية مسألة وقت لغاية ما يعرفوا مكانه.. أنا أقتعتهم نمشيها حي.. يقضي له كام سنة في السجن ويخرج صاغ سليم.. قرصة ودن.. ومش عيب الهف من الكفار فلوس طالما باحافظ على صاحبي.. أما بالنسبة لك أنت فأنا متأكد إنك مش مطلوب.. لكن طلقة بنلاته صاغ مش هاتفرق مع اللي هناك دول.. ماشي يا عبد القادر؟

لم يجب عبد القادر سؤاله.. فقط رجع خطوة ثم صكّ فكّيه بلكمة صاعدة أسقطته أرضاً.

وانهمر الرصاص ناحيتهما من كل صوب.

جَري كُلّ منهما عكس اتجاه الآخر لتشتت المهاجمين قبل أن يُصاب عبد القادر بطلقة في كتفه.. تحامل حتى استتر وراء مركب راسي وجذب زناد مسدّسه في اللحظة التي تزحلق فيها أحمد خلف كشك أسماك مُغلّق.. أفاق الأهواني من لكمة عبد القادر فزحف على بطنه مُتقيًا الرصاص قبل أن يستتر وراء مركب غريض مربوط بحبل إلى عامود.. اقترب المهاجمون ببطء يضيّقون الدائرة.. اثنان من ناحية عبد القادر وثلاثة يطوقون موقع أحمد الذي خرج بفتة وأطلق على أقربهم رصاصة أصابت معدته فسقط.. استغل أحمد المفاجأة وضرب المصاييح الغازية القريبة وكذلك فعل عبد القادر حتى أعمت الدائرة

الشي تحتويهم.. سادت الظلمة فتحرك عبد القادر زحفاً مُغيّراً مكانه إلى ما وراء مركب آخر.. بعينين جاحظتين عبّر الإنجليزي الأول بقربه فصَرَعه عبد القادر بطلقة استقرّت في رأسه قبل أن يُباغت الثاني بواجدة أخطائه ولضيّق المسافة انقضّ عليه فأوقعه أرضاً.. غرّز الإنجليزي أصابعه في جرح عبد القادر فصَرَخ بألم قبل أن يلتفّ ويجثم فوقه.. قبض على عنقه ودفعه حتّى انغرز رأسه في الوحل.. أذنيه.. وجنتيه.. عيّنيه.. يقاوم الاختناق بذراع واحدة.. ثم استخرج الإنجليزي سكيناً مربوطاً في حزامه.. رفعه ليهوي به على عنق عبد القادر الذي تلقى الضربة بين أصابعه قبل أن يضرب ظهر الإنجليزي بركبته.. ثلاث ضربات حرّرت الأخيرة عنقه قبل أن يلتقط حجراً ويضرب به وجهه.. تلقى الإنجليزي الخبطة فوق جانباً.. اعتدل عبد القادر وثبت اليد المُمسكة بالسكين ثم تحامل على الذراع المصابة وهوى بالحجر على رأس الإنجليزي.. ضربتين أصدر من بعدهما خوّاً خفت مع الضربة الثالثة قبل أن يسقط عبد القادر بجانبه في إعياء.

قبلها بدقيقة اقترب الإنجليزيان المتبقيان من الكشك الذي يستتر خلفه أحمد.. طوقاه يميناً ويساراً في كُمّاشة مُحكمة قبل أن يتلقى الأول رصاصة من أعلى الكشك حيث صعد أحمد.. انفجر رأسه فسقط قبل أن يضغط أحمد زناده تجاه الآخر.. أصدر المُسدس نكّة فراغ الخزنة قبل أن يتلقى رصاصة في ساقه من الإنجليزي المتبقي.. وقع على سطح الكشك فضرب الإنجليزي باب الكشك بقدمه.. دخل ورفع مُسدسه إلى السقف الخشبي وأطلق عدّة أعيرة في أماكن مُتفرقة حتى تلقى صمّاً.. لحظات وانغرزت حربة صيد في رقبة الإنجليزي..

جمحت عَيْنَاهُ اللتان رأَتْهُ وَجْهَ أَحْمَدَ لِلْحَفْظَةِ قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ بِجَانِبِ قَدَمَيْهِ
جُثَّةً هَامِدَةً.. تَحَامِلُ أَحْمَدُ وَخَرَجَ مِنَ الْكَشْكِ الْخَشْبِيِّ.. بَحْثٌ عَنْ
عَبْدِ الْقَادِرِ حَتَّى رَأَاهُ يَقُومُ مِنْ فَوْقِ جُثَّةٍ مَهْشَّمَةٍ الْجَمْعِمَةِ وَيُلْقِي بِحَجَرٍ
مُضْرَجٍ بِالذَّمَاءِ بِجَانِبِهِ.. بَحَثَ بَعَيْنَيْهِ عَنِ الْأَهْوَانِيِّ حَتَّى لَمَحَ آثَارَ زَحْفِهِ
عَلَى الطِّينِ.. نَاحِيَةِ الْمَرْكَبِ الْمَرْبُوطِ.. أَلْقَى الْحَرْبَةَ وَالتَّقَطَ مُسَدِّسٌ
الْإِنْجَلِيزِي الَّذِي انْفَجَرَ رَأْسُهُ وَاقْتَرَبَ بِحَذَرٍ يَتَحَامِلُ عَلَى جِرَاحِهِ حَتَّى
بَاتَ قَرَبَ الْمَرْكَبِ.

- نَجِيبٌ...

نَادَى أَحْمَدُ وَلَمْ يَتَلَقَ إِجَابَةً فَنَادَى ثَانِيَةً حِينَ صَاحَ عَبْدُ الْقَادِرِ مِنْ
بَعِيدٍ: أَحْمَدُ!!!!!!

كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَلَقَّى أَحْمَدُ طَعْنَةً نَافِذَةً.. يَسْكِينُ اخْتَرَقَ أَسْفَلَ
الضُّلُوعِ الْيَسْرَى وَنَفَذَتْ إِلَى الطَّحَالِ.. لَمْ يَصْرُخْ.. فَقَطْ أَنَّ فِي خَفَوَاتِ
وَاسْتِدَارَ.. ذَارَ السَّكِينُ نِصْفَ دَوْرَةٍ ثُمَّ خَرَجَ لِيَسْمَحَ لِلْهَوَاءِ بِالْدُخُولِ..
قَبْضَ عَلَى عَضُدِ الْأَهْوَانِيِّ الَّذِي اسْتَمْسَكَ بِفَوْهَةِ مُسَدِّسِ أَحْمَدَ ثُمَّ
جَذَبَهُ بِمَقَاوِمَةٍ تَهْنُ حَتَّى انْتَزَعَهُ.. شَشْشَشْ.. هَمَسَ فِي أُذُنِ أَحْمَدَ
الَّذِي سَقَطَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ.. نَظَرَ لِلْأَهْوَانِيِّ فِي عَيْنَيْهِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ ثُمَّ هَوَى
عَلَى الْأَرْضِ.. انْفَرَزَ خَدُّهُ فِي الطِّينِ حِينَ صَرَخَ عَبْدُ الْقَادِرِ مِنْ بَعِيدٍ:
لَا!!!!!! أَحْمَدُ... جَرَى نَاحِيَةِ الْأَهْوَانِيِّ شَاهِرًا سَكِينِ الْإِنْجَلِيزِي فِي يَدِهِ
فَرَفَعَ الْأَهْوَانِيُّ مُسَدِّسَهُ بِالْكَفِّ نَاقِصَةً الْإِبْهَامِ وَأَسْنَدَهَا بِالْيَدِ الْأُخْرَى
ثُمَّ صَوَّبَ.. حِينَ اقْتَرَبَ عَبْدُ الْقَادِرِ لِمَسَافَةٍ لَا تَسْمَحُ بِالْخَطَا، أَطْلَقَ
رَصَاصَةً.. أَصَابَتْ أَعْلَى صَدْرِ عَبْدِ الْقَادِرِ تَحْتَ التَّرْقُوعَةِ.. ارْتَدَّ إِلَى
الْوَرَاءِ بِالْمِ قَبْلَ أَنْ يَتَمَالَكَ نَفْسُهُ وَيَتَقَدَّمَ ثَانِيَةً.. تَلَقَّى وَاحِدَةً أُخْرَى فِي

كشفه الأخرى فارتد ووقع على ركبته... ثم قام.. صَغَطَ الأهواني الزناد
ثانية فسمع نَكَّة فراغ.. ثم نَكَّة.. قبل أن يتلقى في رقبته نَصْلاً مَرُوقاً ويريد
الرقبة السُّبَّاتي وانغرز في عظام الرُّقبة.. نظر عبد القادر في عينيه حتى
توقفت الرُّعشة.. ثم هَوَى الأهواني بجانبه كالْحَجَرِ.. فانكفاً عبد القادر
على صَدِيقه:

- أحمد.. أحمد!

نظر إليه أحمد ثم أردف: أنا مش عاوز أموت.

- ساعدني.. قوم معايا.

التقط عبد القادر جلبية قادمة فقام بضُعوبة وانحنى على أحمد..
التقط ذراعه ثم شهق وحَمَلَه.. أصدر الاثنان صَرَخَةً هائلة قبل أن
يَسْتَوِي أحمد على كتفه.. مشى به أمتاراً ينظر ناحية الساحل المقابل
بحسًا عن مخرج قبل أن يَضَعَ أحمد في قارب دفعه إلى المياه وقفز..
قطع جُزءاً من قميصه كَبَسَه على جرح أحمد وأمره أن يضغط عليه ثم
التقط مجدداً صَرَبَ به المياه حتى ابتعدا عن الشاطئ ببطء..

- اثبت يا أحمد.

نظر له أحمد بَوَهَنٍ ولم يُعَقِّب.

- الشط قَرَب.. اثبت.

بذراع واحدة جَدَّف.. بصدر مثقوب تَنَفَّس.. في رُبع مضيق
البوسفور الواسع شَعَرَ عبد القادر بالإجهاد ومبادئ هُبوط في الدورة
الدُّمُوية.. توقف للمحطات ليلتقط أنفاسه.. تأمل نزيقه الذي اختلط بدماء

أحمد التي زحفت حتى قدميه.. نظر إلى صديقه ثم ناداه.. مرّة ثم مرّة..
لم يستجب فترك المجذاف وقام.. هزّ جسده.. ضرب وجنتيه بهلع..
برودة.. ارتخاء.. زرقة تعلو البشرة.. بلل يده في المياه ومسح شعر
أحمد ووجهه: أحمد! أحمد!!! بكى.. اختلطت المياه المالحة على
وجه أحمد بدموعه.. أحمد!!! وَضَعَ أذنه على القلب فسَمِعَ خواء..
نظر في العينين المُتَبَيِّسَتَيْنِ ينتظرهما أن يَرُمِشا.. أن يلمعا مثلما كانتا
تلمعان.... تسلل اليقين إليه بالوفاة فأجهش.. نَحَب.. تَشَنُّج.. احتضن
أحمد قبل أن يصرخ في عويل طويل مزّق حنجرتَه وسكون الليل.

أسبل عيني صديقه ثم استلقى بجانبه واحتضنه.

في مركب لن تأخذهما من البوسفور حتى شواطئ مصر.



بعد يومين

٨:٢٤ صباحًا.. قصر غابدين

تخللت الشمس أفرع الأشجار حتى سقطت على كُشك الموسيقى
المواجه لحمام السباحة الكبير، نصف دائرة من الأعمدة الرُخامية في
طَرَفِها بُرجان يظللان نافورتين، في المنتصف حوض زهور يحوي
نباتات نادرة تقف وراءه «فينوس» إلهة الجمال عند الإغريق، تمثال
بالحجم الطبيعي يظنه خَدم القصر لعشيقة من عشيقات الملك فؤاد،
قطع ذراعها من العُضد حين اكتشف خيانتها، ثم خلَّدها لحُزنه عليها!

لحن «Poco Allegretto» لبرامز كان ينساب من فونوغراف
نحاسي وُضع في الجانب الأيسر من الكُشك، أسطوانة تسمعها يوميًا
نازلي الجالسة بجانب الملك خلف منضدة تحمل شاي الصُّباح في
فنجانين منقوش فوقهما حرف «F» ذهبي، يُدخِّن غليونَه وهو يُطالع
جرائد اليوم، وتضرب الهواء بمروحة ريشية وهي تتصفَّح مجلة موضة
فرنسية وترفع عينيها كل بضعة ثواني لتراقب المُرِّيَّات اللاتي يُلاطفن
الأمير الصَّغير فاروق وأخته الوسطى فوزية قرب حمام السباحة
والمُصوِّر الذي ينحني ليلتقط لهما صورة تذكارية، أمَّا آخر العنقود
فايزة فتنام بجانبها على كُرسي هزاز منقوش بالملائكة والطيور ومُغطى
بناמושية حريرية.

من بعيد اقترب رجل من أفراد السكرتارية، يحمل في يده ملفاً أصفر مغلفاً، اقترب من الكشك ثم توقف قبل أن يُشير إليه فؤاد بعد دقائق أن يقترب، صعد الرجل السلالم في خشوع قبل أن ينحني ويضع الملف بجانب الملك:

- جلالته.. نشرة الداخلية.

قالها الرجل ثم رجع خطوتين إلى الوراء فأشار إليه فؤاد أن ينصرف، فتح ختم التقرير وأخرج الأوراق المكتوبة بخط كبير ليستطيع قراءتها، دارت عيناه في الورقة الأولى قبل أن يضحك ثم قال بالفرنسية:

- أعتقد أن صديقنا سعد يحتاج أن يقرأ ذلك الخبر القادم من الهند. دون أن ترفع عينها عن المجلة سألت: أي خبر؟

قرأ فؤاد: «غاندي يدخل في صيام عن الطعام لمدة واحد وعشرين يوماً تطهيراً لنفسه واستعادة لقوته في التعامل مع الشعب».

- الهندي بدأ يصوم من أجل استعادة قوته.. بداية الإفلاس السياسي.. لا أعرف أيهما يقلد الآخر سعد أم غاندي.. لكنهما حتماً سيفشلان في النهاية.

لم تُعقب نازلي، فقط ازدادت سرعة اهتزاز ساقها فوضع فؤاد الورقة على المنضدة بينهما وأكمل قراءة تقريره، أنهى الورقة الثانية فوضعها فوق الأولى، نظرت إليها نازلي فلم تح عوانها، ملخص مقال يُهاجم الوزارة بقلم طه حسين، عبث الهواء بالورقة فكادت أن تطير قبل أن يضع فؤاد فوقها ورقة ثالثة تحمل عبارة مُقتضبة:

«تم تأكيد مقتل الشقي «أحمد عبد الحي كيرة» في إسطنبول.. عُثر على جُثته في قارب على ضفاف البوسفور وتم دفنه في مقابر القديس «هاكوب» للأرمن لعدم تعرّف السلطات على هويته».

توقفت المروحة ووقع فنجان الشّاي.. انكسر بصوت لم تسمعه..
فقط موسيقى برامز التي تذكّرها بليلة قصر البارون ظنّت نعلو
وتعلو حتى باتت كالرعد.. نظر إليها فؤاد فلمح ذقنا يرتعش وعينين
مُحتقتين.. هز رأسه في استخفاف وأكمل القراءة قبل أن تقوم لتنزل
السّلام بخطوات سريعة وتسير بين الأشجار مبتعدة.. تضم بين
أصابعها سلسلة تحمل حرف «N».



بعد شهر.. وسط البلد

تحت قُبعتي احتمي من الشمس، ومن الناس، يسير ببطء متوكئاً على
عصا تخفّف من العرج الواضح في خطواته، عصا كانت يوماً نبوتاً قبل
أن يشذب أطرافها، يمسك في يده علبة خشبية ملفوفة بشريط أزرق،
اقتراب من الفابريكة وقرع الجرس ففتحت له سيّدة.

- آنسة دُولت موجودة؟

- دُولت بقي لها أزيد من شهر ما بتجيش.

بقلق سألها: عَيّانة؟

- لأ.. سابت شفتها كمان.

- سافرت البلد؟

- صاحب الفابريقة سافر وسأل عنها.. أهلها يقولوا إنها ما جاتش
من أربع سنين.

- يعني إيه؟ بلّغتموا البوليس؟

- عملنا بلاغ ومفیش رد.

...!!! طيب.. مُشكّر.

همّ بالرحيل قبل أن يستدرك الفتاة: «من فضلك».. أخرج من جيبه
قلماً وورقة أسندها على راحته وكتب رقماً:

- ده رقم تليفون القهوة اللي باقعد فيها.. اسمها متاتيا.. لو ظهرت
بلّغها تكلمني.. ضروري لو سمحت.

أغلقت الباب فتيسّس للحظات محاولاً استيعاب اختفاء دولت
ثم أوقف عربة سوارس، جلس على المقعد الخشبي شاردًا يسترجع
صحوته في عرض البوسفور، على المركب، تجديفه الياس، بكاءه
حين اضطر إلى ترك جُثّة أحمد في القارب، الرجل الطبيب الذي
التقطه من الشط وأوصله إلى طبيب داوى جراحه ولم يُبلغ السلطات
عنه تعاطفًا حين عرف أنه مصري، قضى في عيادته خمسة أيام حتى
ذهبت الحمى عنه ثم أخبره الطبيب بسر تعاطفه، فهو أرمني مُتخفّ هو
الآخر من الأتراك من بعد المذابح.. ما إن هدأت حركة البوليس وعيون
الإنجليز حتى أقرضه الطبيب مبلّغًا ركب به مركبًا حتى قبرص، ثم مر
بميناء صيدا بسوريا قبل أن يصل إلى ميناء دمياط بمصر.

أفاق عبد القادر من غفلته حين صاح سائق العربة: «عماد الدين
يا أفندي» تمشّى حتى العنوان المكتوب خلف الظرف الأبيض،

«الجمعية الخيرية الأرمنية»، دُكِّف إلى الساحة يتأمل جُمُوع الجائعين وطالبي الإعانة الواقفين في طوابير لا تنتهي، كانت تقف مع زميلتها خلف المائدة، اقترب حتى رآته، رَمَقَتْه بقلق قبل أن تخلع المَريلة التي ترتديها وتقترب إلى أن صارت أمامه، تأملته للحظات ثم تكلمت:

- أحمد.. وبنه؟

فتح عبد القادر شفقيه ولم يتكلم، ثم أخرج الظرف الأبيض المغلق، مُسِّحًا من ماء المضيق وطين شاطئه كما هو لم يحاول أن يفتحه، وَضَعَه في راحة يدها ثم استدار راجلاً، رَمَقَتْه بتوتر حتى اختفى لم فتحت الظرف المُهترئ، في رَاحَة يدها أفرغته، قلادة تحمل أيقونة مستديرة عليها نقش لصورة «كاترينا فون بورا» زوجة «مارتن لوثر»، الرّاهب الألماني الذي طالب بإصلاح الكنيسة واعترض على فكرة صكوك الغفران، كانت كاترينا راهبة آمنت بفكرته فهربت من الدير ثائرة، قبل أن تتزوجه.

رمقت القلادة باستغراب ثم فتحت الورقة.. كان مكتوباً فيها كلمتان فقط:

«الحياة قصيرة»

- استمرت وزارة سعد زغلول لسنة واحدة فقط، استقال في ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ بعد حادثة اغتيال يسير «لي ستاك» سردار الجيش المصري وحاكم السودان على يد أفراد مُشَقَّين من جماعة «اليد السوداء» اعتراضاً على العقوبات المُجحفَة التي وقَّعها الاحتلال على مصر.. قال سعد وقتها:

«إن هذه الجريمة قد أصابت مصر، وأصابتي شخصياً».

- قضت تلك الحادثة على آمال الأمة في الاستقلال الحقيقي وساهمت في إعادة إحكام قبضة الإنجليز على البلاد.

- مات سعد زغلول في ٢٣ أغسطس من عام ١٩٢٧

- أسس عبد الرحمن فهمي أول اتحاد للنقابات في مصر قبل أن يُسجن ثانية في قضية مقتل السردار.. خرج من السجن مريضاً فاعتزل الحياة السياسية والنقابية، فانهار اتحاد العمال ليرثه الانتهازيون، ثم اهتزت مكانته كثيراً بعدما حدثت وقعة بينه وبين سعد زغلول أسفرت عن انشقاقه عن الوفد.

- مات عبد الرحمن فهمي عام ١٩٤٦ بعد أن عاش سنيناً في طلي النسيان.

- عاشت الملكة نازلي حبيسة جدران الحرَمِليك حتى تُوفي المَلِك فؤاد في عام ١٩٣٦

- تولى الأمير فاروق الحُكم من بعد أبيه فانطلقت نازلي إلى الحياة بتبغّي حَصَاد ما حُرمت منه خلال زواجها الذي استمر سبعة عشر عاماً مما وسَّع الهوة بينها وبين ابنها فاروق بسبب تصرفاتها الطائشة الغربية.

حاول الملك فاروق كبح جماح نزوات أمه قبل أن يكتشف زواجها السري بريس ديوانه أحمد حسين باشا.

توفي أحمد حسين باشا في حادث سيارة سنة ١٩٤٦ فلم تطق نازلي البقاء في مصر، سافرت مع ابنتها فايقة وفتحية إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث ازدادت جنونا وعنادا، طلب فاروق منها الرجوع أكثر من مرة فرفضت، قبل أن يحجر على أموالها ثم يصدر قرارا ملكيا بتجريدتها من لقب الملكة الأم.

اعتنقت نازلي المسيحية ثم توفيت في مايو من عام ١٩٧٨ في لوس أنجلوس بأمريكا عن عمر يناهز ٨٤ عاما.

عاش عبد القادر شحانة حتى عاصر جلاء الإنجليز عن مصر سنة ١٩٥٤ ولم ينس يوما دولته.. أو يعرف مصيرها.

لسنين طويلة انتظرت ورد ظهور أحمد.. تركت الرهينة في منتصف الثلاثينيات قبل أن تغادر مصر إلى مكان غير معلوم.

مقبرة «القديس يعقوب» التي دُفن فيها جسد أحمد عبد الحي كبيرة تم هدمها عام ١٩٢٨ وأقيم على أنقاضها ميدان «تقسيم» الشهير بإسطنبول.

النهاية

